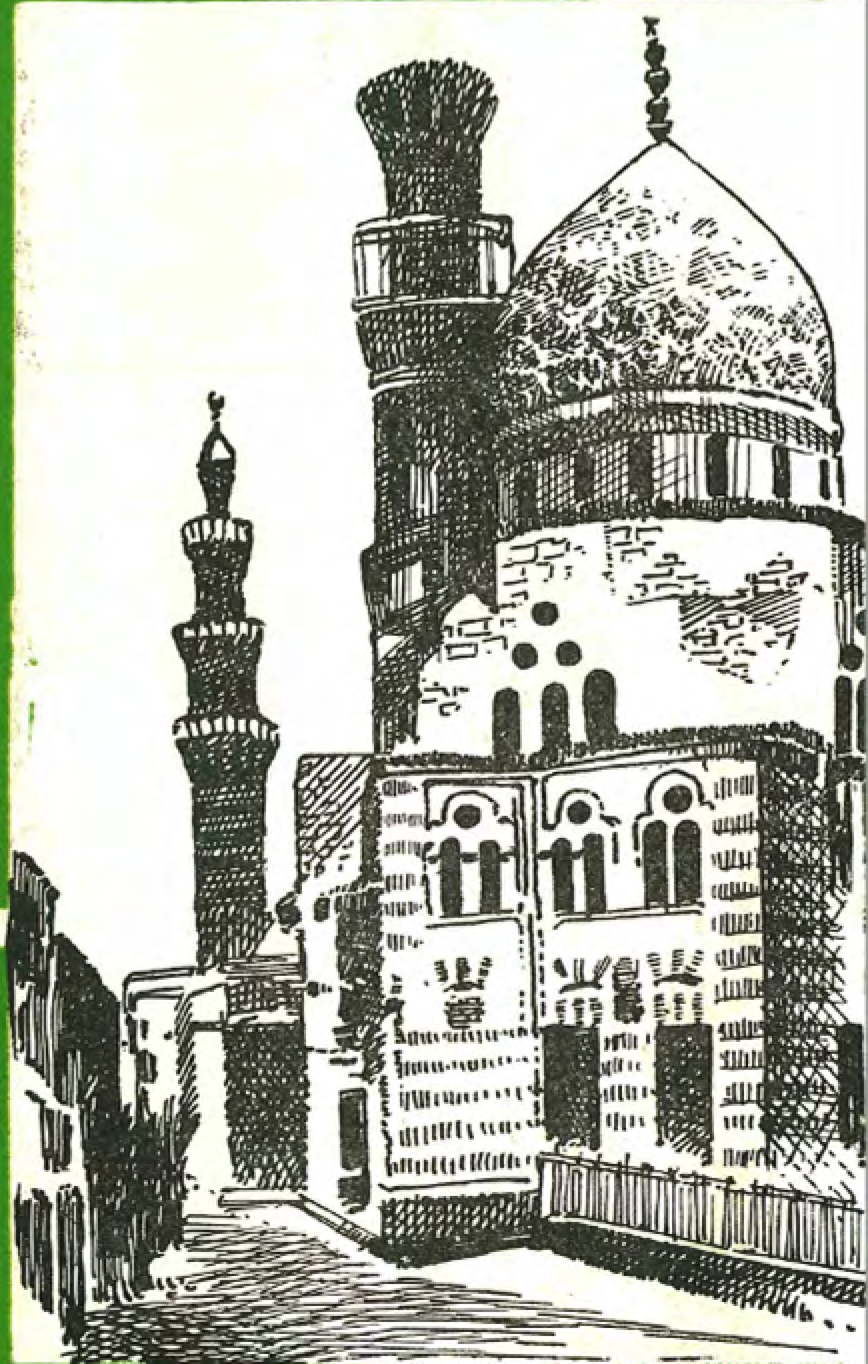
التاريخ السياسي

لدولة سلاطين المماليك في مصر
دراسة تحليلية للازدهار والانهيار



دكتور عبد المنعم ماجد

التاريخ السياسي
لدولة سلاطين المماليك في مصر
دراسة تحليلية للازدهار والانهيار

تأليف
الدكتور عبد المنعم ماجد

أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب
والخبير الوطنى لمركز الدراسات البردية
بجامعة عين شمس
وعضو المجالس القومية المتخصصة

١٩٨٨

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الكتاب

استبداد المماليك ، ورد الفعل المصرى - موقف العربان فى مصر من حكم المماليك

الفصل الرابع : السياسه الحربيه لدولة سلاطين المماليك : أهدافها ـ ظهور المغول وانتصاراتهم فى آسيا وأوروبا ـ هولاجو يهاجم فى بلاد المسلمين ـ قضاؤه على الخلافه العباسية فى العراق ـ انتصار المماليك على المغول فى موقعه عين جالوت ـ استعمال سلاح البارود لأول مرة فى الحرب مع المغول ـ هجوم الإيلخانات : أباقا ، وبيــدو ، وغازان ـ حروب تيمور لنك وغزو الشام .. علاقة المماليك الودية بخانه ـ ظهور الممالك التركمانية فى إيران، وعلاقتهم بمماليك مصر ـ مرحلة حاسمة فى قتال الصليبين ، وإقتلاعهم من الشام ـ موقف أوروبا السلبى ـ غزو المماليك لمملكة أرمينية وإخضاعها لهم ـ الغارة القبرسية على الإسكندرية العظمى ـ رد الفعل المملوكى وغزو قبرس وإخضاعها ـ تنازل المماليك عن قبرس للبندقية، على أن تدفع لهم الجزية ـ غزو المماليك رودس أكثر من مرة ـ علاقة المماليك بجنوب الوادى ـ علاقتهم بالحبشة ـ علاقتهم بالسودان الغربى .

الفصل الخامس : الاحوال الداخلية : طبقة الحكام المماليك ـ الإدارة المصرية ـ نظر المظالم ـ الإقطاع والموارد المالية ـ الاهتمام بتجارة التوابل ـ الصلات التجارية مع دول البحر الأبيض ـ الصلات التجارية مع ممالك أفريقيا ـ انتعاش القاهرة والفسطاط ومدن مصر الأخرى ـ رخاء الدولة والناس ـ إزدهار الثقافة العربية .

الفصل السادس : نهاية حكم دولة سلاطين المماليك فى مصر : منافسة دولة البرتغال للمماليك فى تجارة التوابل فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ـ مقاومة المماليك للهيمنة البرتغالية .. ظهور الدوله العثمانية وهيمنتها ـ

الرجال أربعة

رجل يدري ، ويدري أنه يدري ؛ فذاك عالم فاتبعوه .

ورجل يدري ، ولايدري أنه يدري ؛ فذلك نائم فأيقظوه .

ورجل لايدري ، ويدري أنه لايدري ؛ فذلك مسترشد فعلموه .

ورجل لايدري ، ولايدري أنه لايدري ؛ فذلك جاهل فارفضوه .

الخليل ابن أحمد

إفتتاح

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

هذا الكتاب يتناول التاريخ السياسي ؛ لعصر دولة سلاطين المماليك في مصر ، استمد مادته الأساسية من مصادر معاصرة موثوق بها ؛ تتناسب مع التطور المنهجي لعلم التاريخ ، تأتي في مقدمتها الوثيقة ، التي تعتبر من أبرز المصادر التاريخية في وقتنا ، وهي التي لم يستفد منها في البحث التاريخي المملوكي الاستفادة الكاملة ؛ حيث مضى وقت طويل ؛ قبل أن يتنبه الباحثون في الشرق إلى أهمية الوثيقة المملوكية العربية ، أو غير العربية ، وما تحتويه من معلومات ثمينة ؛ وهي كثيرة توجد في أرشيفات مصر ، وأرشيفات الدول الأوروبية الواقعة على البحر الأبيض ؛ إذ هذه الأخيرة ، كانت على علاقات اقتصادية وسياسية بدولة سلاطين المماليك في مصر ؛ بحيث نجد في أرشيفاتها وثائق أصلية مملوكية كثيرة ، منها ماهو مكتوب بالعربية ، كما توجد بكثرة في مضامين وثائق مملوكية منسوخة عن الأصل ، وفي كتب التاريخ السردية من عصر المماليك .

يضاف إلى ذلك ، أن معظم الأبحاث الحديثة عن دولة سلاطين المماليك في مصر ، وهي كثيرة أيضاً ، تتناول تاريخهم بحذر شديد ؛ بسبب حكمهم العسكري المستبد ، دون تلمس حقيقي للعوامل الأساسية ، التي كانت تحرك سياستهم داخلياً وخارجياً ؛ بحيث أتت معظم الأبحاث عنهم ، بمنظور غير واقعي للحكام والمحكومين ؛ مما شوه بالتالي الصورة الحقيقية للحكم المملوكي ، وطمس الصورة المشرقة فيه ، وما تم على

أيديهم من إنجازات عظيمة؛لم تتكرر فى تاريخ مصر ؛ تتمثل على الأخص فى تجاهل المعنى الحقيقى للمواطنة فى العصور الإسلامية ، وعامل آخر هام هو الصلات الإقتصادية التى أصبحت تحرك السياسة الدولية؛ إذ ظهرت فى وقتهم لأول مرة الرأسمالية الأوربية، التى تعاملت دولة سلاطين المماليك فى مصر معها ؛ طوال مدة حكمهم .

حقاً ؛ إن عصر دولة سلاطين المماليك فى مصر ، الذى امتد إلى أكثر من ثلاثة قرون،من الأيوبيين إلى العثمانيين، أى من ٦٤٨ إلى ٩٢٣/١٢٥٠ — ١٥١٧ ، هو تدوين لخواص عصر عجيب جداً ؛ بسبب أن حكام هذه الدولة كانوا من الرقيق ، ومن أصل يختلف عن أصل المصريين ، وأنهم أنفسهم اتخذوا الرقيق ، وجعلوا منهم جنوداً ورجال سياسة ؛ إلا أن دولتهم كانت قد ارتبطت منذ ظهورها بالشرعية ؛ بسبب أن الخلافة الإسلامية قد ظللتها طوال مدة حكمها فى مصر ،واعتبر سلاطينها من أنفسهم حماتها ؛ فضلا عن أن حكم دولة سلاطين المماليك ، يتوافق مع قواعد قيام الدولة الإسلامية وقتذاك ؛ لوجود العصبية فى دولتهم ؛ وإن لم تكن عصبية أسرة أو قبيلة ، وإنما عصبية طبقة من الرقيق الحاكمة ، فالإسلام أساساً لايفرق بين الناس إلا بالتقوى .

ولابد لنا من أن نعترف بأن دولة سلاطين المماليك فى مصر ؛ أول نشأتها قامت على أسس من قيم عظيمة جداً ، ومن إيمان عميق بالدين ؛فهى قامت أساساً لتكون دولة فرسان المسلمين وحماتهم ؛ وهذا ثابت بما يتناقله واقع التاريخ من انتصاراتهم ضد الطامعين والغزاة فى بلاد الإسلام ، ومن القصص الشعبى ، الذى لايزال باقياً حتى الآن فى ضمير شعب مصر ؛ يتغنى بمآثر السلطان الظاهر بيبرس — أحد سلاطينهم — وبطولاته وفروسيته ، ونبله ودهائه ؛ فى سبيل نصرة المسلمين . ومن الحق أن نقول أيضاً إنه من وقت لآخر ، كانت الدولة المملوكية تحاول الرجوع إلى قيمها العظيمة

الأولى ؛ وليس أدل على ذلك من سيرة طومان باى ، آخر سلاطين المماليك فى مصر ، الذى كان صاحب فروسية وأخلاق ، وبخاصة أنه كان صاحب مبدأ ؛ إلا أن الزمن كان قد أخذ من قيم الدولة المملوكية ؛ نتيجة للاهتمام بالمصلحة الضيقة للطبقة ؛ ممـــا ترتب عليه البعد عن مبادىء الدولة الأساسية ؛ ومهـــد لسقوطها فى النهاية .

ثم لا يجب أن نعتبر المماليك ، الذين جاءوا إلى مصر كرقيق ، من بلاد متعددة ؛ أجانب عن مصر وأهل المنطقة المحيطة بها . حقاً إن دولة سلاطين المماليك ؛ كانت دولة تركية فى قمتها وطبقتها ؛ إلا أنهم اكتسبوا الصفة العربية ، التى هى صفة المنطقة التى تقع فيها مصر ، واعتبر السلطان المملوكى نفسه مصرياً ، زعيماً للعرب ، وليس للترك من جنسه . وفى واقع الأمر ، كانت دولة سلاطين المماليك فى مصر ، دولة عربية قولاً وفعلاً ؛ فى لسان أهلها وثقافتهم وعلومهم ودواوينهم ، التى على رأسها ديوان الإنشاء ، الذى كان يقوم مقام الوزارات المختلفة فى وقتنا ؛ فكان يكتب وثائقه ومراسلاته بالعربية . بل إن كثيراً من سلاطين المماليك أنفسهم ؛ كان يعرف دقائق اللغة العربية ، وحتى يقرض الشعر بالعربية ، مثل طومان باى ، آخر سلاطينهم ؛ وجميع التآليف من عصرهم ، بما فيها التآليف العسكرية المملوكية المتخصصة ، من قبل المؤلفين العسكريين المماليك أنفسهم ، كانت كلها بالعربية . فالعربية صفـــة دولة سلاطين المماليك فى مصر ، على أساس الحديث النبوى الشريف ؛ ليست العربية بأحدكم من أب أو أم ، وإنما هى باللسان ؛ فمن تكلم بالعربية فهو عربى .

ولاشك أن تاريخ مصر فى هذه الحقبة المملوكية بالذات ؛ يبرز دور مصر الريادى دائمـاً ؛ فالمماليك أوجدوا فى مصر حكماً يعتبر أقوى حكم فى العالم كله فى وقتهم ؛ إذا قورن بحكم أى دولة إسلامية أخرى فى أفريقيا أو آسيا أو أوربا ؛ فقد أصبحت مصر فى عهدهم دولة عظمى ، احتلت الصدارة فى حكم العالم الإسلامى أجمع ؛ وجعلوا القاهرة قاعدة لإمبراطوريتهم الواسعة ، كما أن مصر فى عهدهم أصبح لهـا أيضاً

الريادة الحضارية العظمى فى الإسلام ، التى هى إمتداد لريادة مصر الحضارية عبر العصور ، الممتدة إلى آلاف السنين قبلهم ؛ وإن اتخذت فى عهدهم الطابعين العربى والإسلامى ؛ مما يجعلنا نقرر أن الحضارة الإسلامية منذ ظهورها ، لم تبلغ أوج ازدهارها إلا فى مصر ، فى عهد دولة سلاطين المماليك بالذات ؛ فيقول المؤرخ الكبير ابن خلدون فى مقدمته المشهورة ؛ عن عصر دولتهم فى مصر : وليس أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ؛ فهى أم العالم ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع .

ومع ذلك ؛ فإنه من الملاحظ ، أن المصريين وحدهم ، من دون شعوب الأرض ، يكون لهم دائماً دور فى حكم بلادهم ؛ فكانت بيدهم ، فى ظل حكم دولة سلاطين المماليك فى مصر ، مثلما كان الحال دائماً طوال تاريخهم الطويل ؛ تقلد السلطتين الإدارية والقضائية ، كما ظهر لهم فى عهدهم طبقة متمثلة فى الصفوة من أبناء مصر ، من علماء الأزهر الشريف ؛ تعتبر لسان حالهم أمام السلاطين المماليك ، وقد ساعد على إبراز دورهم ، أنه فى عهد دولة سلاطين المماليك ؛ أعيد فتح الأزهر الشريف ، الذى كان قد أغلق من أيام الأيوبيين ؛ بحيث أصبح فى عهد دولة سلاطين المماليك المركز الأول للاشعاع الدينى والفكرى الإسلامى ، يمد بنوره إلى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، ويشد طلاب المعرفة من كل البلاد الرحال إليه ؛ وقد اعتبر رجال الدين فى مصر بحكم الشرع أهل الحل والعقد ؛ لهم حق التدخل فى الحكم ، والكلمة الأخيرة فى مهام الأمور السياسية ؛ وفى اختيار السلطان نفسه أو عزله ، وحتى فى فرض الضرائب .

والقصد من هذا البحث ؛ ليس القيام بدراسة سريعة لتاريخ دولة سلاطين المماليك فى مصر ، على أساس التتبع الزمنى ؛ وإنما دراسته على أساس منهجية متعمقة ومتبلورة بإبراز سمات عصرهم ؛ بتأكيد الخطوط العريضة له ، والاتجاهات المهمة فيه ؛ فى شكل موضوعات محددة ؛ يرتبط كل موضوع منها بالآخر ؛ فى إطار

عرض متكامل ؛ تأكيداً لإستمرارية التاريخ المصرى عبر العصور ؛ولو تغير طابع الحياة فى مصر؛ من حقبة إلى أخرى ؛ من فرعونى إلى قبطى إلى إسلامى ؛ فهى راسة بالأولى لبيان التاريخ القومى لمصر ؛ إبان حكم دولة سلاطين المماليك ؛ إذ التاريخ القومى للأمم ، هو كيانها ، ودليل وجودها ؛ والله ولى التوفيق .

* المؤلف

(*) كل نسخة مبيعة تكون ممضاة من المؤلف .

المصادر التاريخية

الوثائق ـ الآثار ـ النقوش ـ السكة ـ المؤلفات التاريخية المملوكية ـ المؤلفات التاريخية المغولية والعثمانية والصينية والروسية ـ المؤلفات التاريخية الصليبية والبيزنطية ـ كتابات الرحالين الأوربيين ـ المؤرخون الحديثون الأوربيون والمصريون .



ولدينا مصادر متنوعة متعددة عن تاريخ دولة سلاطين المماليك فى مصر ، تهيء لنا دراسة دقيقـــة عنها من الناحية السياسية ؛ بعضها لم يكن يستخدمه المؤرخون الإسلاميون القدامى فى كتاباتهم التاريخية إلا قليلا ؛ بحيث مكنتنا من توضيح أمور كثيرة فى تاريخهم ؛ فضلا عن إضافات جديدة لم يوردها المؤرخون الإسلاميون عنهم ، نرتبها على حسب أهميتها .



فتأتى فى مقدمتها الوثائق ؛ و نقصد بها شيئاً مكتوباً بطريقة ما ، صادرة فى عهد دولة سلاطين المماليك فى مصر ، من جهة موثوق بها ؛ وإن كانت أساساً لم تكتب للتاريخ ؛ ولكن عادة لغاية محددة ؛ إلا أنها غنية بالمعلومات النادرة ، أهمها ما أطلق عليه المؤرخ ابن خلدون زمن المماليك : أوراق الدواوين[1] ؛ ونقصد بها الأوراق الرسمية ، التى تصدر عن المصالح الحكومية فى الدولة ، وهى بالنسبة لتاريخ دولة سلاطين المماليك فى مصر ؛ تشمل كل مايتعلق بالهيـكل التنظيمى لدولتهم ؛ من : أوامر ، وسجلات تولية ، وحجج شرعية ، ووقفيات ، وفتاوى ، وحتى خطابات السلاطـــين إلى أمرائهم وأولادهم ، ولاسيما المراسلات السياسية والإقتصادية والمعاهدات بين دولتهم ، ودول إسلامية ؛ وغير إسلامية .

ومع أن معظم أصول وثائق عصر دولة سلاطين المماليك فى مصر قد ضاع ، ولم

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ط . القاهرة ١٣٢٢ / ١٩٠٤ ، ص ١٦ س ١٠ .

يتبق منها إلا القليل ؛ إلا أنه لحسن الحظ لاتزال توجد مضامين لها كثيرة ؛ بعضها منسوخ فى كتب معاصرة لهم ، أو مترجمة باللاتينية ، أو باللغات الدارجة الأوروبية ، أو باللغة التركية ، فى أرشيفات الدول التى تعاملت معها دولة سلاطين المماليك فى مصر ؛ فهذه الوثائق جميعها مع أهميتها القصوى للبحث التاريخى لم يستفد منها للآن الاستفادة الكاملة ؛ مع أنها لاتقتصر على تاريخهم فى مصر وحدها ؛ وإنما هى لأكثر من مملكة من ممالكهم [١] ، أو حق للدول المعاصرة لهم فى القارات المختلفة .

ولقد أطلقت على الوثائق المملوكية أسماء متعددة [٢] ، بعضها لم يظهر إلا فى دولة سلاطين المماليك أنفسهم ؛ حيث كان معظمها يصدر عن الدواوين المختلفة لدولتهم ، ولاسيما عن ديوان الإنشاء [٣] ؛ المتخصص فى الكتابة الوثائقية ، وبه أرشيف خاص بجمعها ، على رأسه كاتب أو كاتم السر [٤] ، أو مايسمى أيضاً ناظر دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية ؛ بسبب إشرافه على دواوين الإنشاء فى الممالك الإسلامية ، التى تخضع للمماليك .

---

(١) مثلا ، انظر . Sauvaget : Décrets mamelouks de Syrie dans le Bull. Or de Damas t. 2, 1932, pp. 1-25; t. 3, 1933, pp. 1-29; t. 12; 1947, pp. 5-60.

؛ وأيضاً Wiet : Répertoire des décrets mamelouks he Syrie, dans, Mél. Syrie; t. 11. Paris, 1939, pp. 521-537.

(٢) صبح الأعشى للقلقشندى ، والمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى ، وانظر Ency. of Isl. (art Diplomatic) 2ed., t. 2, p. 303.

(٣) الخطط ، ٣ ص ٢٦٦ ومابعدها ؛ صبح ، ١ص ٩٧ ومابعدها ؛ زبدة ، ص ٩٨ ومابعدها ؛ القصد ، ورقة او مابعدها ؛ انظر . Björkmann : Beiträge zur Geschichte des Staatskanzlei im Islamischen Aegypten, Hambourg, 1928, pp. 36 sqq.

(٤) مثلا ؛ أنظر . Wiet : Kuttab el-Sirr . Les Secrétaires de la Chancelerie en Egypte, sous les Mamelouks Circassiens, Paris, 1923.

؛ أنظر ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، ط ٢ ، ١ ص ٥٤ ومابعدها .

فنذكر من هذه الاسماء [١]: مرسوم وجمعها مراسيم ، وهى الأوامر التى تتعلق بكبار رجال السيف ، وترادفها مكابرة وتسكون لقواد القلاع ورجال السيف من طبقة متوسطة ، والمنشور وجمعها مناشير وتتعلق بالإقطاع خاصة ، والتقليد وجمعها تقاليد وتتعلق بتولية كبار الموظفين، والمثال وجمعها مثالات وتتعلق بأمور تجارية، وهدنة وجمعها هدن ، ومهادنة وجمعها مهادنات ، وتسكون بين قوى متحاربة ، وغير ذلك .

ويلاحظ أن الوثائق المملوكية الأصلية المتبقية من عهد دولة سلاطين المماليك فى مصر قليلة ؛ أغلبها، يتمثل فى حجج الأوقاف الشرعية [٢] ، التى كثرت فى عهدهم، بلغ طول إحداها خمسة وأربعين متراً [٣] ؛ ويوجد معظمها حالياً فى دار المحفوظات العمومية بالقلعة ، أو ما يعرف بدار الوثائق القومية ، وفى خزائن وزارة الأوقاف بالقاهرة [٤] . وتتمثل أيضاً فى أمانات الأديرة المسيحية ، ولاسيما تلك التى توجد منها فى دير سانت كاترين بسيناء [٥] ،وفى بطريركية الأرثوذكس فى القاهرة ، وفى

---

(١) يخصص القلقشندى فصلا بعنوان : مصطلح كتاب الديار المصرية ، فيما قبل الخلفاء الفاطميين وفيما بعدهم إلى زماننا . صبح ، ١١ ص ٢٨ وما بعدها . ومثل : تواقيع أيضا .

(٢) أنظر . محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الإجتماعية فى مصر ، ٦٤٨ — ٩٢٣ / ١٢٥٠ — ١٥١٧ ، دراسه تاريخية وثائقية ، القاهرة . ١٩٨ ، ومن نفس المؤلف : فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك، ٢٣٩ — ٩٢٢ / ٨٥٣ — ١٥١٦ ، القاهرة ١٩٨١ .

(٣) مثل حجة قايتباى . وأنظر . أحمد دراج ، حجة وقف الأشرف برسباى ، القاهرة ١٩٦٣ ؛ انظر . Hujjat Waqf al-Ashrafi Barbay, Cairo 1963.

(٤) أنظر . عبد اللطيف إبراهيم ؛ سلسلة الدراسات وثائقية . الوثائق فى خدمة الآثار فى العصر المملوكى ؛ بغداد . فيه عدد كبير من صور حجج الأوقاف المملوكية .

(٥) دونت من عهد قطز إلى عهد طومان باى ، انظر .

H. Ernst : Die Mamlukischen Sultan Zurkunden des Sinai — Klosters Wiesbaden, 1960.

وهذه مدونة فى الفترة من ٦٥٧ / ١٢٥٩ إلى ٩٢٢ / ١٥١٦ .

؛ وانظر . أحمد عيسى ، مخطوطات وثائق دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، المجلد الخامس ، ص ١٠٥ — ١٢٤

دير صهيون بالقدس[١]؛ فيما يعرف بأوراق جنيزة، أو جنيزة القاهرة[٢]؛ لتفنى حجرة فى معبد يهودى، مخصصة لكتابات عليها اسم الله، مكتوبة بالعبرى والعربى، وكانت توجد فى أنحاء مصر، وكثرت فى عهد المماليك بالذات، تتناول أحوال اليهود خاصة؛ ليس فقط فى مصر، وإنما فى فلسطين وسورية واليمن والعراق والهند، وشمال أفريقيا وصقلية وأسبانيا وبيزنطية؛ وإن كان معظمها قد تسرب من مصر؛ إلا أنه يوجد منها فى مكتبات العالم كميات كبيرة، ولاسيما فى مكتبات إنجلترا وأمريكا. وهذه الوثائق الأصلية جميعها تعتبر وثائق صحيحة، وأهميتها من الناحية الدينية، لاتقل من أهميتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية؛ واحتوائها على مصطلحات متعددة؛ وقد نشر بعضها عن طريق المحققين العرب والمستشرقين.

أما مضامين الوثائق المملوكية المنسوخة عن الأصل؛ فقد جمع أغلبها فى كتب المعاصرين لدولة سلاطين المماليك؛ بقصد المقارنة بين أسلوب الكتابة فى عصرهم؛ لإصلاح صنعة الكتابة الإنشائية؛ وليس بقصد استخدامها كمصادر تاريخية، أهمها ماورد فى كتاب؛ صبـــح الأعشى للقلقشندى[٣] (ت ٨٢١ / ١٤١٨)،

---

(١) أنظر. أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف. القاهرة ١٩٦١ بعضها مكتوب بالعربية. وإن كان منها، ما هو مكتوب بالتركية.

(٢) فى كمبردج Cambridge، بانجلترا، وحدها يوجد مائة ألف جنيزة، كما يوجد فى لننجراد Liningrad بروسيا، ٣٢ آلاف قطعة، أنظر.

Goitein : The Cairo Geniza as a source for the history of Muslim Civilization. Stvdia Isl. Vol. III, 1955, pp. 75-91.

(٣) نشر فى ١٤ جزءاً، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩، وله طبعة ثانية، وله مختصر باسم: ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، القاهرة ١٣١٤ / ١٨٩٦؛ بعضه ترجمه، Wustenfeld، بعنوان: Calcaschandi's Geographie und, Verwaltung von Aegypten AGG, XXV, 1879

؛ وأيضاً Björkmann، بعنوان: Beiträge zur Geschichte, des Staatskanzlie im Islamischen Aegypten, Hambourg 1928.

؛ أنظر عبد اللطيف حمزه، القلقشندى فى كتاب صبح الأعشى، عرض وتحليل، =

الذى جمع فيه القلقشندى أكثر مما جمع فى أى كتاب آخر ؛ ولأن القلقشندى كان قد توصل بنفسه إلى الوثائق المملوكية الأصلية وغيرها ؛ بحكم عمله فى ديوان الإنشاء المملوكى فى مصر ؛ بالإضافة إلى أن كتابه يعتبر أساساً لدراسة الوثيقة المملوكية ؛ بما جمعه فيه من التعابير التى سادت فى وقته قواعد كتابة الوثيقة المملوكية ؛ بحيث أن الملاحظات التى تخرج منه بالنسبة للوثيقة العربية ؛ تجعله أشبه بموسوعة معلومات عنها[1] ؛ لا نظير لها فى أى كتاب آخر .

ولعل أهم مجموعة من مضامين الوثائق المملوكية المنسوخة ، فى غير الكتب ، وتوجد تحت اليد ؛ هى تلك التى لا تزال مخطوطة فى المكتبة الأهلية بباريس[2] ؛ وهى ليس لها عنوان أو تاريخ يدل على وقت نسخها ، تحتوى على ما يزيد على المائة من الرسائل السياسية من القرن التاسع الهجرى ١٥/٦م ، المتبادلة بين سلاطين المماليك فى مصر وسلاطين وأمراء العالم الإسلامى فى المشرق والمغرب والأندلس واليمن والعثمانيين والتيموريين والمغول وأشراف مكة ، كما تشتمل على المكاتبات المحلية والتهانى ؛ فهى تتناول السياسة الخارجية والداخلية لمصر المماليك فى مصر ؛ حيث تظهر فيها مكانة مصر فى وقتهم ، وهذه المجموعة لم ينشر منها إلا رسائل تعد على الأصابع[3] .

== القاهرة ١٩٦٣ .

تذكر أيضا شهاب الدين الحلبى (ت ٧٢٥ / ١٣٢٥) ، فى كتابه : حسن التوصل إلى صناعة الترسل ، ط مصر ١٣١٥ / ١٨٩٧ ، والخالدى ٩٣٧ | ١٠٣١ ، فى كتابه : المقصد الرفيع المنشا الهادى لصناعة الإنشاء ، قسمه إلى أجزاء تتناول ما يحتاج الكتابه إلى معرفته ، ويضرب أمثلة على ذلك بوثائق ؛ فضلا عن احتوائه على أسماء المشهورين من الكتاب . مخطوطه بالمكتبة الأهليه .B.N ، فى باريس برقم ٤٤٣٩ ، ونسخة مصورة فى دار الكتب ، برقمى ٢٤٠٤٥ و ٢١٠٣١ .

(١) أنظر . Ency. of Isl. (art. Diplomatic) 2ed., t. 2, p. 301.

(٢) [فى .B.N] ، برقم : 4440

(٣) أنظر . دراج ، رسالتان متبادلتان بين سلطان مالوه والأشرف قايتباى ، فصلة من مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، شوال ١٣٧٥ / مايو ١٩٥٥ .

أما الوثائق المملوكية المعاصرة المترجمة ؛ فتوجد بطبيعة الحال فى أرشيفات دول البحر الأبيض الأوربية ، التى كانت تتعامل سياسياً[١] ، واقتصادياً[٢]، مع المماليك — بما فيهم ملوك الطوائف المسلمين فى أسبانيا[٣] — مثل ؛ أرغون Aragon[٤]، وقطالية (قطالونية) Catalogne ، وفرنسا ، وصقلية ، ولاسيما فى أرشيفات مدن إيطاليا المشهورة[٥] ، التى تكونت فيها دول مزدهرة ، مثل : الفاتيكان[٦]، الذى كان البابا فيها يعتبر من أهم دعاة الحروب الصليبية ، وحتى بعد إنتهاء هذه الحروب أصبح همه إصدار التحريمات البابوية التجارية مع المماليك، وجنوى Genova[٧]، وفلورنسا Firenze ،التى كان المماليك يطلقون عليها إفرنتية[٨]، وبيزة Pisa ،

---

(١) انظر . Lammens : Correspondences diplomatiques entre les sultans, mamelouks d'Egypte et les puissances chrétiennes. R.O.R. Chrét., 1904.

(٢) أنظر . نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣ .

(٣) انظر : Colin : Contribution à l'étude des relations diplomatique, entre les Musulmans d'Occident et l'Egypte au XVème siècle. Le Caire. 1935.

(٤) أنظر Atiya : Egypt and Aragon. AKM; XXIII, 1938.

(٥) أنظر جوزيف نسيم ، علاقات مصر بالممالك الايطالية فى ضوء وثائق صبح الأعشى ، مستخرج من مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية ١٩٧١ ، ص ٥١ ومابعدها ؛

و Cohen و Chiaudano فى : Documenti e studi per la storia del commercio italiano I. Turin, 1935. 1896 - 1916. 3 vols.

(٦) أنظر . Auvray : Les Registres de Grégoire : XX, 1896, 3 vols

(٧) أنظر . Nuova Ricordi Arabici su la Storia, di Genova, Genova, 1873.

(٨) مثلا ، انظر . Muller : Documenti sulle relazioni della Citta toscane colli oriente. Firenze, 1879. Urkunden zur altern,

ونابل Napoli ، ولاسيما البندقية(١) Venezia ، أو ما كانت تسمى أيضاً : بجمهورية القديس مرقص Respublica Sancti Marci ؛ حيث توجد في هذه الأخيرة وثائق كثيرة متبادلة مع سلاطين المماليك ، صادرة عن ديوان إنشائها ، المسمى : ديوان الإنشاء البندقاني Chancelleria Ducati — نسبة إلى الدوق حاكمها — مما ليس له نظير في أى أرشيف أوربى آخر ، وهو من أكثر الأرشيفات الأوربية تنظيماً ؛ لفهرسته فهرسة جيدة ، واشتهر باسم : Archivio di Frari ؛ على اسم الإخوان الفرنشسكان ، الذين كانوا أول من جمعوا وثائقه ؛ وإن عرف حالياً باسم : أرشيف دولة البندقية Archivio di Stato di Venezia ؛ حيث أن أغلب مضامين وثائقه قد ترجمت عن الأصل باللاتينية ، أو باللغة الإيطالية على لهجة البنادقة المسماة Volgare (٢) وهى بأسماء متعددة ، مثل : وثائق الأحداث العامـــة Patti ، وهي مفهرسة فى تسعة أجزاء ، ووثائق الأحداث الهامة Commemoriali ، وهى مفهرسة فى أجزاء عديدة ؛ ويهمنا منها العشرون جزءاً الأولى ، والوثائق السرية Misti أو Secreta ، وهى كثيرة جـداً ، وتتعلق بمـداولات مجلس الشيوخ البندقى ، المعروف باسم Maggior Consiglio أو Veneta Signoria — Senatus — وهى غير مفهرسة ، وتوجد فى مجلدات ضخمة تحتوى على آلاف الصفحات ، بعضها مكتوب على الوجهين ، تتناول فترة عريضة فى تاريخ البندقية ؛ وإن كان يهمنا منها ما يتصل بعصر المملوكية ، ووثائق المعاهدات ،

---

(١) أنظر . Tafel, Thomas : Urkunden zur Alten, Handels — und Staatsgeschichte der Republik Venedig Vol. XII-XIV. Vienna, 1856 - 1867. Diplomatarium Veneto Levantinum, Venise, 1880-1892 · Thomas, Predelli.

(٢) أنظر . Diarri, journaux des, : Marino Senuto consulats à l'époque des Memlouks. Venise. 1897-1903.

وتوجد فى ثلاثة أجزاء، الأول بعنوان: Albus ، والثانى بعنوان : Blancus، والثالث بعنوان : Libri Pactorum، تتضمن إتفاقيات بين البندقية وغيرها ،منها ماهو خاص بمصر فى عصر المماليك، وهى مفهرسة فهرسة جيدة؛ ووثائق غير مسجلة فى قوائم أرشيف البندقية،وإنما توجد فى إضبار مفرد،تعرف باسم: Regesti Turchi ، وأيضا باسم من كتب نبذاً عنها ، ورتبها ترتيباً زمنيا : Regesti Bombaci ؛ وتتعلق بالفترة الأخيرة من حكم دولة سلاطين المماليك ، والحكم العثمانى الأول فى مصر؛ حيث أن أغلبها يتناول أوامر تجارية متبادلة .

حقا ؛وإن كان القليل من هذه الوثائق قد درس أونشر [١] ؛إلا أن غالبيتها لم تر النور بعد ؛ بحيث أن استخدامها ــ وهى كثيرة ــ أصبح مفيداً فى الاستزادة من المعلومات عن دولة سلاطين المماليك وعلاقتهم مع دول أوربا ؛ فضلا عن إمكان المقارنة مع ماهو معروف فى كتب المسلمين. ومع ذلك ؛ فإن معظم الأرشيفات الأوربية توجد فيها وثائق مملوكية أصلية بالعربية [٢] ، ولاسيما فى أرشيفات برشلونة[٣] ، وفلورنسا [٤] ؛ وعلى العكس؛ فإن أرشيف البندقية الهام ؛لاتوجد فيه غير وثيقة عربية واحدة[٥] .

---

(١) لعل أشهر من اهتم بها من الأوربيين ، مثل : Heyd, De Mosta, Rocca, Tafel, Lombardi, Maslatrie,

وتوفيق اسكندر،وهو العربى الأول الذى نشر وثيقة من أرشيف البندقية ؛ وترجمها إلى العربية ؛ أنظر .

(٢) أنظر . دراج ، الوثائق العربية ، المحفوظة فى دور الأرشيف الأوربية ، الندوة ١٩٦٩، ١ ص ١١٥ ــ ١٤٤ .

(٣) توجد فى دار المخطوطات فى برشلونه .

Biblioteca Central de la diputacion de Barcelona,

(٤) جمع كثير منها Amari فى I Diplomi Arabi Del Archivio Fiorentino in Firenze, 1883.

(٥) توجد فى مجموعة بومباشى ، Regesti Bombaci ، برقم (X2) 2 وهى غير مفهرسة ، مرسلة من السلطان المملوكى الملك الأشرف قايت باى إلى دوق البندقية، بتاريخ ١٠ من شعبان سنة ٨٧٧/ ٨ يناير ١٤٧٣ ، وهى وثيقة لم ينشر نصها الكامل، وأقوم بنشرها حاليا .

ونوع آخر من الوثائق الهامة ، مكتوب أغلبه بالتركية ، عبارة عن فرمانات صادرة من السلاطين العثمانيين الذين قضوا على دولة سلاطين المماليك فى مصر ؛ وتوجد مفهرسة بدقة فى مكتبة طوب قبو سراى [١] Top-kapu-Sarayi ـ باسطنبول بتركيا ـــ ومعظمها تتميز بعلامة السلطان ، وتوقيعه بالخط المذهب عليها ، سمة التوقيعات العثمانية وقتذاك ، كما يوجد فى هذا الأرشيف وثائق مملوكية أصلية بالعربية ؛ لأن المكاتبات بين سلطان مصر والسلطان العثمانى ، فى أول أمرها ، كانت بالعربية فى أغلبها ؛ وقد نشر بعضها [٢] .

* *

ثم الآثار ، التى تعتبر أيضاً من أميز المصادر التاريخية فى عصرنا ؛ فسلاطين مصر من المماليك ، كانوا مثل ملوكها من الفراعنة بنائين ، وهذه الآثار المملوكية هى الماضى الصامت فى حاضرنا ، والتعبير الحضارى لتقدم دولتهم [٣] ، ولا توجد فى مصر فقط ، وإنما فى أنحاء ممالكهم الإسلامية فى دولتهم ، بحيث توحدت على أيديهم الفنون بين أقطارها ، تتمثل على الخصوص فى آثارهم المعمارية إذ اعتبر عصرهم العصر الذهبى للبناء فى مصر الإسلامية [٤] ، مثل :

---

(١) تحتوى هذه المكتبة على مائة ألف وثيقة مصنفة ، غير نحو عشر آلاف مخطوطة مفهرسة ، وعدداً كبيراً غير مفهرس . أنظر . أخبار التراث العربى ، نشرة يصدرها معهد المخطوطات العربية ، ٤ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٨٢ ، محرم صفر ١٤٠٣ هـ ، عدد خاص ، ص ١٥ .

(٢) أحمد فريدون (ت ٩٩١ / ١٩٨٣) ، جمع كثيراً من الفرمانات العثمانية المعاصرة لدولة سلاطين المماليك بالتركية أو بالعربية فى كتابه : منشآت الملوك والسلاطين ، مخطوطة بطوبقو سراى باستانبول برقم ١٩٦٠ ، نشر بعضها من هذا المخطوط فى ملاحق كتاب متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية والمعاصرة له ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، وفى كتابى : طومان باى ، آخر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٨ .

(٣) أنظر صلاح بحيرى ، نحو منهج تحليلى وانسانى فى دراسة الأركيولوجيا ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، عدد ٤ ، مجلد الاول ، ١٩٨١ ، ص ١٥

(٤) أنظر . أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ، ومدارسها ؛ سعاد ماهر ، مساجد القاهرة ؛

القلاع ، والأسوار ، والأبراج ، والحوائط ، والأبواب ، والجسور ، والقناطر ، والحمامات العامة ، والحمامات الخاصة ، والمارستانات ، والمدارس ، والكتاتيب ، والخانقوات ، والربط ، ودور الوكالة ، والفنادق ، والقياسر ، والرباع ، والأسواق ، والقصور ، والقاعات ، والأدر ، والبيوت ، والجواسك ، والفاقورات ، والأحواض ؛ والمدافن أو القرافة — وهي تقع في شرقي القاهرة ؛ ولا يوجد مثيل لها في أي بلد آخر ، من مدن الأموات — والأضرحة للرجال وللنساء ، والزوايا ، والمشاهد ، والأسبلة ، وبخاصة المساجد ، وهذه الأخيرة كثرت في عهدهم ، وتميزت بأروع القباب ، والمآذن المرتفعة [١] ، ذات المباخر ؛ لأنها في قمتها ما يشبه المبخرة مثبتة على عنق مثمن ، التي لم تظهر بشكلها المرتفع قبلهم ، كما أن المحاريب في المسجد من الرخام الملون ، والتطعيم بالسن الأبنوس في المنابر والأبواب والشبابيك ، فأصبحت هذه المميزات تدل على الطابع المملوكي المصري للمساجد في عهدهم .

أما آثارهم الأخرى [٢] : من غير المباني ، ولا سيما أسلحتهم ، وأدواتهم ، وأشغال النجارة ، والأوعية الدقيقة الصنع ، وأثاثهم ، وملابسهم ، وحتى الآثار النبوية ، بما فيها البردة النبوية والميزاب المذهب للكعبة ، وأبوابها ومفاتيحها وطبلها ، ؛ فإن أغلبها يوجد في المتاحف ، مثل المتحف الإسلامي ومتحف القلعة ، بالقاهرة ، ومتحف طوب قبو سراي Top-kapu-Sarayi ، والمتحف العسكري Musée Askri ؛ باسطنبول ، ومتحف فيكتوريا والبرت Victoria and Albert ، بلندن .

= حسن عبد الوهاب ، العمارة الإسلامية ، عصر المماليك البحرية ، مجلة العمارة ، العدد ٢٩ ، ١٠ ، ١٩٢٠ ، وانظر .

Manuel d'archéologie musulmane, 2 tomes, Paris, 1907, : Migne
Histoire et description de la citadelle du Caire. Mém. Miss: Casanova Arch. Fr. t. VI, Le Caire.
Les Mosquées du Caire, vols. Paris, 1932. : Hautecoeur et Wiet
The buildings of Qaytbay, London 1938 : Mayer

(١) عبد العزيز سالم ، المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي ، حتى الفتح العثماني ، القاهرة ١٩٥٩ ؛ وله طبعة جديدة ، ص ٢٥ وما بعدها ؛

(٢) أنظر . Objets en cuivre, Le Caire, 1932 : Wiet.

والحسن الحظ أن الآثار المملوكية من المباني[١] أو غيرها، أغلبها مدروس في كتب متخصصة من عمل الآثاريين المصريين والأوربيين على السواء، ليس فقط من الناحية الفنية ، وتعقيد أساليبها ، ولكن أيضاً من الناحية التاريخية ، بحيث أصبحت في خدمة الباحثين في التاريخ المملوكي في عصرنا .

* *

ثم النقوش ، وهي الكتابة على المباني والتحف الخشبية والزجاجية والفخارية والطراز ؛ حيث كانت بعض صيغها تكتب في ديوان الإنشاء المملوكي، وهي بخطوط متطورة في عصر المماليك ، منها اثنا عشر نوعاً من الخطوط [٢] ؛ فهي بما تحمله من أسماء وألقاب وتواريخ ورنوك ؛ تعتبر مصادر نادرة في مرتبة الوثائق الأرشيفية[٣] ؛ اعتنى المستشرقون بالذات بجمعها وفك رموزها . [٤]

* *

ثم السكة ، وتعتبر من المصادر الهامة من عهدهم، وهي كثيرة ؛ بسبب إنشائهم لدور سكة عديدة في أنحاء دولتهم ؛ في القاهرة والإسكندرية ، وطرابلس ، ودمشق، وحماة، وحلب ، وأماكن أخرى ؛ لسك عملتهم ، التي أهمها الدينار الجيشي، وهو الدينار الذهبي الذي كان موجوداً من أيام الأيوبيين [٥] ؛ على أساس أن الجيش كان

---

(١) يوجد حصر للعمائر المملوكية الباقية ، وهي حوالى ٢٣٤ أثراً . أنظر . شافعي، العمائر العربية في مصر الإسلامية.

(٢) صبح الأعشى أنظر، وكشف الظنون، ج٢، ص ٦٦ ؛ س ١٥ .

(٣) أنظر . حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ .

(٤) أنظر : Van Berchem : Matériaux pour un Corpus, Inscriptionum Arabicarum. Paris, 1903 suivi., Ière Egypte; II Syrie du Nord (de Sobernheim); III Syrie du Sud (éd. Wiet).
Sauvaget, Wiet, Combe: Répertoire d'Epigraphie arabe, 16 vols. Le Caire, 1931-1934.
وقد ظهر فهرست "Index" ، في ١٩٧٥ ، والجزء ١٧ ، في ١٩٨٢ ، بعناية Ludvik

(٥) ظهر هذا الدينار في عهد صلاح الدين في ٥٦٧ / ١٠٧١ . السلوك، ١ ص ٤٥ ؛ ابن مماتي ، قوانين ، ص ٣٦٩ .

عصب الدولتين ، اللتين كانتا فى حروب دائمة ، ولأن المماليك على الخصوص طبقة عسكرية منذ ظهورهم . ومع أن وحدة العملة السائدة فى التداول فى وقتهم ؛ كانت من الذهب والفضة ؛ فالدينار من الذهب ، والدرهم من الفضة ؛ إلا أن هذين المعدنين ؛ كانا قد قلا[١] ؛ منذ أواخر القرن الثامن الهجرى /١٥ م ؛ حيث كان يؤتى بالذهب من دول البحر الأبيض الأوربية التجارية ؛ ولاسيما من دولة البندقية ، التى كانت تتاجر مع دولة المماليك فى التوابل ، وتدفع الذهب فى مقابله ، أو حتى من دول المغرب أو من غانه أو من النوبة ؛ مما أدى إلى أن عملة المماليك غالباً ما دخلها الغش ، وتحول بعضها إلى عملة من الذهب المفحس .

ويضاف إلى عملاتهم أنه قد راجت فى عهدهم بكثرة ، وبشكل ملحوظ ، عملات أجنبية عرفت بالمشخصة[٢] ؛ لوجود صور القديسين عليها ؛ بسبب النشاط التجارى مع دول البحر الأبيض المسيحية ، ولم تظهر فى بلاد المسلمين بهذه الكثرة من قبل ، ولاسيما عملة المدن الإيطالية ، كعملة البندقية الذهبية[٣] « Ducato d'oro » ، نسبة إلى الدوق أو دوج البندقية ، وعملة فلورنسا الذهبية ، أو ما كانوا يسمونه الإفرنتية « Florino d'oro » ، وعملة إمارات الفرنجة فى الشام[٤] ، فى أول عهدهم .

---

(١) أنظر . Mayer: Some problems of Mamluk, Coinage, London, 1936, p. 439-440.
Bloch: Le problème de l'or au moyen âge, Ann. d'Hist. Econ. et Sociale: IV, 1933.

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٤١ — ٢ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٢٥ .

(٣) مثلا ، انظر . Raugé van Gennep: Le ducat, vénitien en, Egypte, R. Numis, 1897, p. 373-394
Bloch: Le problème de l'or au moyen-âge: Ann. d'Hist. Econ., et Social,: Rev. des deux mondes, juin, 1876.

(٤) مثلا ، انظر . Schelumberger: Les principautés, franques du Levant, d'après les plus récentes découvertes de la numismatiques. Rev. des deux mondes, juin, 1876.

ولكثرة العملات فى مصر الإسلامية ، مملوكية وأجنبية ؛ فإن مؤلفين مسلمين مشهورين ، مثل : ابن بعرة الذهبى [١] (حوالى ٧ /١٤م) ، وعلى بن يوسف [٢] (حوالى ٨/١٥) ، والمقريزى (٨/١٥) [٣] ؛ ألفوا كتباً قيمة عنها ، كانوجد العملة المملوكية فى شكل مجموعات متفرقة فى معظم مكتبات العالم الشهيرة ومتاحفها ، مثل : دار الكتب والمتحف الإسلامى بالقاهرة ، والمكتبة الأهلية Bibliothèque Nationale فى باريس ، والمتحف Museen فى برلين ، ولاسيما فى المتحف البريطانى British Museum – British Library – فى لندن ، الذى جمع منها أكثر من أربعمائة ألف قطعة[٤] ؛ حيث لدينا عنها مجلدات مدروسة[٥] ، تذكر تفاصيل أنواعها ، وما عليها من كتابات.

---

(١) ابن بعرة ، (منصور الذهبى) ، كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبد الرحمن فهمى ، القاهرة ١٣٨٥/١٩٦٦ ، نشر وترجمة أبعض نصوصه ، من : Ehrenkreutz و B.S.O.A.S. Vol. XV, Part 3, 442-477.

وربما كتبها فى أيام السلطان الكامل ، فى أيام الأيوبيين .

(٢) أبو الحسن على بن يوسف الحكم ، الدوحة المشبكة فى ضوابط دار السكة ، حققه وذيله بجامع المفردات ، حسين مؤنس ، ط. Madrid ١٣٧٩/١٩٦٠ .

(٣) المقريزى ، شذور العقود فى ذكر النقود ، نشر الكرملى فى النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ ، ونشر وترجمة . Mayer ، London ١٩٣٣ ،

(٤) أنظر Paul Balog : Aperçu sur la Technique du Monnayage, au Moyen Age. Bull de l'Inst. d'Eg. t. xxxl, session 1948-9, p. 96.

(٥) مثلاً ، انظر . Lane-Poole : Catalogue, of the Collection of arabic coins preserved in the Khedivial Library, London, 1897.

Lane-Poole : Catalogue of oriental coins in the British Museum, 10 vols. London, 1875-1890.

Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèques, Nationale, 3 vol. Paris, 1887-897.

Nützel : Königliche Museun zu Berlin Katalog der orientalischen Mûnzen. Berlin, 1898.

؛ عبد الرحمن فهمى ، موسوعة السكة الإسلامية ، مطبوعات المتحف الإسلامى .

من أسماء وألقاب وتواريخ وأماكن سكها ، وأماكن العثور عليها ؛ حيث أن العملة المملوكية وانتشارها تبين النفوذ السياسي والاقتصادي ؛ فقد وجدت عملة مملوكية مصرية في مدن إمبراطوريات السودان ... ى بأفريقيا(١) .

*

أما المؤلفات التاريخية المملوكية(٢) ؛ فإنها من تأليف مؤرخين أعلام ، مصريين وغير مصريين ؛ عاصروا دولة سلاطين المماليك ، ولايزال اسمهم يجرى على الألسنة ؛ تعتمد أساساً على رواية الشاهد العيان ؛ ولذلك فأهميتها تأتى من أنها لاتترك شاردة ولا واردة ؛ من التراث التاريخي المملوكي ؛ إلا ذكرته ؛ وهو ضخم جداً ، بعضه عبارة عن موسوعات كبيرة ، لم يعرف لها مثيل من قبل (٣) ، وقد تحتوى أيضا على مضامين وثائق مملوكية نادرة ؛ وقد نشر بعض هذه المصادر التاريخية ؛ إلا أن الكثرة منها لاتزال مخطوطة ، لم تر النور بعد ، توجد في عديد من دور المكتبات في القاهرة والإسكندرية وباريس ولندن وأكسفورد ؛ وإن كان بعضها تكراراً لبعض ، وقد وصلتنا من جميع مراحل دولتهم ؛ وترتبها هنا

---

(١) أنظر بعده .

(٢) بعامة ، انظر ، زيادة ، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى ، القاهرة ١٩٥٤ ؛ عنان ، مؤرخو مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٩ ؛ أحمد عبد الرازق ، دراسات في المصادر المملوكية المبكرة ، القاهرة ١٩٧٤ ؛

Some unpublished sources for the Bahri period. Jerusalem, 1961,: Ashtor

Introduction to the, : Sauvaget. وبعامة ، انظر .

History of the Muslim East, trad. Cahen, Los Angeles, 1965 ,

وهى معدلة في الترجمة الإنجليزية ، عن المقدمة الفرنسية لسوفاجيه .

Historians of the Middle East, London, 1962, : Lewis and Holt. ؛ وأيضا

An Introduction to Mamlouk Historiography. Wiesbaden, 1970: Little

(٣) عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمماليكي الأول ، ص ٣١٥ — ٣٣٢ .

زمنيا فى كل قرن من حكمهم ، و هو ثلاثة قرون ؛ لاسيما وأن ترتيب الخبر التاريخى على حسب القرون ؛ برز بشكل ملحوظ على يد المدرسة التاريخية المصرية فى عهد المماليك؛ باعتبار أن القرون تستوعب عدداً كبيراً من الاخبار ، وتتيح فرصة أكبر للاضافات؛ ليست فى حوزة الحوليات، التى كانت سمة الكتابة التاريخية الإسلامية الأولى ، فى مدرسة العراق التاريخية .

فمن مؤرخى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى .

نذكر سبط بن الجوزى (ت ٦٥٤ / ١٢٥٦) ، فى كتابه : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان[١] ، الذى يتناول الفترة الحرجة بين سقوط دولة ملوك الأيوبيين، وقيام دولة سلاطين المماليك .

ثم كمال الدين بن العديم (ت ٦٦٢/١٢٦٣) ، فى كتابه : زبدة الحلب من تاريخ حلب[٢] ، الذى ينتهى فيه عند منتصف القرن السابع الهجرى ، وخصصه للكلام عن حلب ، التى كانت من أهم مدن الشام التى غزاها المغول، وأغار عليها الأرمن والصليبيون ، منتهزين تواجد المغول فى الشرق .

ثم أبو شامة[٣] (ت ٦٦٥ / ١٢٦٧) ، فى كتابه : تراجم رجال القرنين السادس والسابع[٤] ، المعروف بالذيل على الروضتين ؛ وهذا الأخير [٥] ؛ كان ألفه عن

(١) هو شمس الدين ، وليس أبا الفرج ، الذى توفى ق ٥٩٧ / ١٢٠٠ . بعضه. نشره Jewett ، فى ١٩٠٧ ، و ط . حيدر آباد، فى جزئين : ١٩٥١ — ١٩٥٢ .

(٢) تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٩٥١

(٣) عنه ، انظر . Ency. of Isl. (art. Abru Shama) 2nd, t, I, p. 154.

(٤) نشر عزت العطار ، القاهرة ١٣٦٦/١٩٤٧ .

(٥) نشره حلمى ، القاهرة ١٩٥٧ ، وترجمه Barbier de Meynard فى R.H.C.H. or IV 1898, V, 1906

الدولتين الفاطمية والأيوبية ؛ مما يبين سعيه إلى الربط بين مراحل التاريخ المختلفة؛ فأبو شامة وإن ولد فى دمشق ؛ إلا أنه قضى بقية حياته فى القاهرة ، وأهمية كتابه أنه روى عن مؤرخين سابقين ، شاهدوا شهود العيان موقعة عين جالوت ،التى انتصر فيها المماليك على المغول .

ثم ابن شداد، عزالدين [1] (ت ٦٨٤ / ١٢٨٥). فى كتابه : الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة [2] ، الذى يهتم بمدينتى حلب و دمشق ، وبفلسطين وبلاد الجزيرة، وهى المراكز المتقدمة أمام هجمات المغول ، وهو نفسه هرب من حلب . وتكلم عن ملوك الأيوبيين المتأخرين ، وإن اتصل ببيبرس سلطان المماليك ،وذكر بتفصيل سيرته ؛ بحيث أهدى كتابه إليه ؛ وإن كان لابن شداد كتاب آخر عن بيبرس [3] ، غير كامل ، يغطى الفترة بين ٦٧٠ — ٦٧٦ / ١٢٧٢ — ١٢٧٨ ، وهو غير ابن شداد يوسف ، الذى كتب عن : سيرة صلاح الدين [4] .

ثم محى الدين ، المعروف بابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢ / ١٢٩٣) ، الذى له كتب متعددة ، منها : كتاب الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر [5] ، أو سيرة الظاهر

---

(١) عنه: وفيات ، ٢ ص ٥٢٦ ـ ٥٣٦ .

(٢) الجزء الأول، تحقيق Dominique Sourdel ، دمشق ١٩٥٣ ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٧ ، والثانى تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٣٧٥ / ١٩٥٦ : وطبعة أخرى فى ١٩٦٢ ، والثالث تحقيق يحى عمارة دمشق ١٩٧٨ .

(٣) المخطوط فى تركيا ــ أدرنة ، نشر ملخصاً له بالتركية ، وليس بالعربية Yaltkaya بعنوان : Baypars Tarihi . Istanbul, 1941.

(٤) باسم : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية فى . R.H.C.H. Or, III, 1884. وله ترجمة لاتينيه ١٧٥٥ ، ثم انجليزية ١٨٩٧ ، وتحقيق الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ .

(٥) رسالة دكتوراه ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٩٦٠ ، ترجمها سيدة فاطمة صادق ، بعنوان . Babyars I, of Egypt, Dacca, 1956: ، وإن وجدت المخطوطة الأصلية فى المتحف البريطانى ، برقم Add. 23325 .

بيبرس البندقداري ، بطل موقعة عين جالوت ، التي انتصر فيها المصريون على المغول ، حيث كان محيي الدين كاتب سر السلطان الظاهر بيبرس ، واطلع على وثائق الدولة ، واقتبس بعضها بكاملها ، ويغطي سيرته حتى عام ٦٦٣/١٢٦٥ ، وكتابه : تشريف الأيام والعصور لسيرة الملك المنصور [1] (قلاوون) ، وكتابه : الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية ، يتناول فيه سيرة بيبرس وقلاوون وخليل [3] .

ثم نجم الدين حسن الرماح ، المعروف بالأحدب (ت ٦٩٥/١٢٠٥) ، وهو من المؤلفين المماليك ، الذين تخصصوا في التأليف في الفن الحربي ، في كتابه : الفروسية والمناصب الحربية [2] ؛ حيث تبدو أهمية كتابه في أنه يبين استخدام المماليك في قتال عدوهم أسلحة متفوقة ، منها البارود والمدفع والبندقية ، كما ألحق بكتابه وسائل كيفية صناعتها ، موضحاً ذلك بالرسومات ؛ فلدينا كثير من الكتب المملوكية في الفن الحربي [4] ؛ مما يدل على علو كعب المماليك في هذا المضمار .

ثم ابن واصل (ت ٦٩٧/١٢٩٨) ، محمد بن سالم ، في كتابه : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب [5] ، وصل فيه إلى عهد السلطان بيبرس المملوكي في عام ٦٥٩/١٢٦١ ؛ فأهمية كتابه أنه عاصر نجم الدين أيوب ؛ فشاهد الحملة الصليبية بقيادة ملك فرنسا ،

---

(١) تحقيق مراد كامل ، القاهرة ١٩٦٠ (في سلسلة تراثنا) : يقول صلاح المنجد ، إنه ليس لابن عبد الظاهر . أنظر ، معجم المخطوطات المطبوعة ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٢٨ .

(٢) نشر القاهرة ١٩٠٢ ، وتحقيق وترجمة سويدية ، من Moberg ، ط Leipzig ، ١٩٠٢ .

(٣) مخطوط بالمكتبة الأهلية (B.N.) ، برقم 2825 ، وميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، برقم ٣٨ فروسية .

(٤) مثل بكتوت الرماح (ت ٧١١ / ١٣١١) : نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية ، وابن منكلي (ت ٧٧٨ / ١٣٧٦) ، وله كتب متعددة .

(٥) نشر بعض أجزائه ١ – ٣ ، تحقيق الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ ، ٤ – ٥ ، وتحقيق ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ ؛ وهو لا يزال يوجد مخطوطاً بدار الكتب ، برقم ٥٣١٩ .

لويس التاسع Louis IX، وسقوط الخلافة العباسية على يد المغول، وبداية عصر المماليك .

ومن مؤرخى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

نذكر بيبرس المنصورى الدوادارى[1] (ت ٧٢٥/١٣٢٥) ، فى كتابيه : التحفة المملوكية فى الدولة التركية[2] ، الذى ينتهى إلى عام ٧١١/١٣١١ – ١٢، وزبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة[3] ، الذى ينتهى إلى عام ٧٢٤/١٣٢٤ ؛ ويورد فيه معلومات كثيرة ، وهى نفس المعلومات فى الكتاب السابق ، وعلى نسق كتاب الكامل لابن الأثير ؛ يعتنى فيه على الخصوص بالجيش المملوكى ونشاطه ؛ وخصوصاً أن بيبرس المنصورى نفسه ، كان مملوكاً فى عهد السلطان قلاوون ، وابنه الناصر ؛ حتى وصل إلى رتبه نائب السلطنة ؛ بحيث اعتبرت كتبه المصدر الهام لتاريخ دولة سلاطين المماليك البحرية ؛ لأنه شارك فيها .

ثم اليونينى ، قطب الدين (ت ٧٢٦/١٣٢٦) ، فى كتابه : ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان[4] ؛ يتناول حياة السلطان بيبرس ؛ وإن اقتفى فيه سبط بن الجوزى ، واختصر كتابه ، واعتمد على كتب أخرى أيضاً .

---

(١) أنظر Ency. of Isl. (Babyars al-Mansûrî) 2cd., t. I, pp. 1127-1128.

(٢) مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة ، برقم ٢٩٠٤٠ ؛ انظر ، روزنتال ، علم التاريخ ، ترجمة صالح العلى ، بغداد ١٩٦٣ ، ص ٦٧٩ – ٦٨٠ ؛ Brock II, 440; S. II, 43

(٣) نشر Pomer ، ١٩٦٠ وتوجد نسخة خطية ، هى الجزء التاسع ، بمكتبة جامعة القاهرة ، برقم ٢٨ ٠ ٢٤ . أنظر ، روزنتال ، علم التاريخ ، ص ٦٧٩ ؛ Brock II, p. 44 يقل إنه كان فى خمس وعشرين مجلداً .

(٤) عنه ، أيضا : الدرر الكامنة ، ٤ ص ٣٨ . نشر فى أربعة أجزاء ، فى حيدر آباد ، ١٩٥٤ – ١٩٦٦ ، أما الجزء المتبقى منه فيوجد بمكتبة معهد المخطوطات العربية ، برقم ٢٥٧ ، وبمكتبة جامعة القاهرة ، برقم ٢٨ ٠ ٢٤ ، وبدار الكتب ، برقم ١٥١٦ تاريخ .

ثم النويرى ، شهاب الدين (ت ٧٣٣/١٣٣٢)، فى كتابه: نهاية الأرب فى فنون الأدب(١) ؛ عبارة عن دائرة معارف فى تاريخ مصر إلى عهد الناصر بن قلاوون، فى اثنين وثلاثين جزءاً ؛ وقيل إنه باع نسخة منه كتبها بخطه بألفى درهم ، وقد اختصره هو وغيره(٢).

ثم ابن أيبك الدواداري ، أبوبكر ، (ت ٧٣٤ / ١٣٣٤) ، فى كتابه : كنز الدرر وجامع الغرر(٣) ، منها الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية (٤)، وكتاب الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر(٥) ، الذى بدأ فى ٧٠٩/١٣٠٩ ، وانتهى إلى ٧٣٦ / ١٣٣٦ ؛ ولعله اعتمد على كتب بيبرس المنصورى (٦) .

ثم الجزرى ، شمس الدين أبو عبد الله (ت ٧٣٩/١٣٣٩) ، فى كتابه: جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك (٧)، تكملة لمرآة الزمان لسبط بن الجوزى، وهو تاريخ مفصل

---

(١) تحقيق ثان بدار الكتب المصرية ١٩٢٨ — ١٩٣٨ ، فى ١٨ جزءاً ، وبقية الكتاب لاتزال مخطوطة ، برقم ٥٤٩ معارف عامة ، تشمل المجلدات ١٩ إلى ٢٦ ، ويوجد فى اثنين وثلاثين جزءاً فى المكتبة الأهلية (B.N.) ؛ بأرقام : ١٥٧٣ ، ١٥٧٧ ، ١٥٧٩ — ١٥٧٩ ، ١٥٨٧ ، ١٥٨٨ .

(٢) يوجد مختصره مخطوطا بمكتبة القاهرة، برقم ٢٤٠٢٩ . أنظر . روزنتال، التاريخ ، ترجمة عربية ، صفحات ٦٧٩ — ٦٨٠ . أنظر . Brock, II, 44; S. II, 43

(٣) مخطوط بدار الكتب، برقم ٢٥٨٧ تاريخ ، فى ٩ أجزاء.

(٤) وهو الجزء الثامن ، تحقيق Hermann ، القاهرة ١٩٧١ .

(٥) وهو الجزء التاسع ، تحقيق Hanz Roemer ، القاهرة ١٩٦٠ ، بعنوان : Die Chronik des Ibn ad-Dawàdàri

ويسمى الكتاب أيضا : سيرة الملك الناصر.

(٦) أنظر . أحمد عبد الرازق ، المصادر المملوكية المبكرة ، ١٩٧٤ ، ص ٢٦—٢٧ .

(٧) مخطوط بالمكتبة الأهلية (B.N.) (هى التى استعملت) برقم ٦٧٣٩ ، وبدار الكتب ، برقم ٩٩٥ تاريخ ، وقد أقام Sauvaget دراسة عنه، بعنوان :

La Chronique de Damas de al-Jazari, 1949

وعنه : Ency. of Isl. (art al-Djazzari) 2ed. I, p. 322-3.

لأحوال الشام ومصر فى أول عهد المماليك، يتكلم فيه عن حصار عكا، التى كان احتلها الصليبيون ؛ وأهمية كتابه أنه يحتوى على نسخ من بعض الوثائق المملوكية الأولى.

ثم البرزالى (أو ابن البرزالى) ، علم الدين (ت ٧٣٩ /١٣٣٩) فى كتابه : المقتفى لتاريخ الشيخ شهاب الدين أبى شامة[1] ، يشتمل على الفترة الممتدة إلى عام ١٣٣١/٧٢٠ ؛ يتناول فيه تاريخ دولة الإيلخانات فى إيران ؛ الذين كانوا تحولوا إلى الإسلام ، وهو معاصر للجزرى .

ثم الذهبى ، شمس الدين (ت٧٤٨/١٣٤٧) ، وله كتب متعددة ، منها: العبر فى أخبار من غبر[2] ، وتاريخ الإسلام وطبقات المشاهير و الأعلام[3] ، ودول الإسلام[4] ؛ وهذا الأخير يمتد إلى عام ١٣٤٤/٧٤٤ ، يعتمد فيما ذكره عن المغول ، على الرحالة عبد اللطيف البغدادى (ت ١٢٣١/٦٢٩ – ٢)[5] .

---

(١) فى جزءين ، مخطوط بطوب قبوسراى ، برقم ١٩٥١ . أنظر . أحمد عبدالرازق ، المصادر ، ص ٥٩ ومابعدها ؛

Ency. of Isl. (art al-Birzàli) 2nd, t. I, p. 1238.

(٢) نشر صلاح الدين المنجد ، وفؤاد السيد ، فى ٥ أجزاء ، الكويت ١٩٦٠ — ١٩٦٦ .

(٣) فى ٣٤ جزءاً ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٤٢ تاريخ ، فى خمس مجلدات ، برقم ٤٤٩٦٧ و٤٤٩٦٨ .

(٤) فى جزءين ، حيدر آباد ١٩٤٥ — ١٩٤٦ .

(٥) عاصر عبد اللطيف البغدادى المغول ، وذكر ذلك فى كتابه : الإفادة والاعتبار ، ترجم إلى اللاتينية والألمانية ، أما الفرنسية من

De Sacy : Relation de l'Egypte. Paris, 1810.

وله كتاب آخر باسم : التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية ، تحقيق Moritz ، القاهرة . عن عبد اللطيف ، انظر .

Ency. of Isl. (art. Abd-al Latif al-Baghdadi) 2ed., t. I, p. 74.

ثم العمري، أحمد بن فضل الله (ت ٧٤٩/ ١٣٤٩) ، فى كتابه : التعريف بالمصطلح الشريف(١) ، وصف لدولة المماليك وعلاقتها السياسية بدول شمال أفريقيا مثل الحفصيين وبنى مرين والموحدين ، وكتابه : مسالك الأبصار فى أخبار ملوك الأمصار(٢)، وهو من الكتب الموسوعية الكبيرة ، والعمري هو من نسل عمر ابن الخطاب ، خدم فى ديوان الإنشاء ، يورد فى كتبه وثائق كبيرة .

ثم مفضل بن أبى الفضائل (ت ٧٦٠/ ١٣٥٨) ، فى كتابه : النهج السديد والدر الفريد(٣) ، فيما بعد تاريخ ابن العميد(٤) ، وهو مسيحى عاش فى عصر قلاوون.

ثم الصفدى خليل بن أيبك (ت ٧٦٤/ ١٣٦٣)، فى كتابه : الوافى بالوفيات(٥) ؛

---

(١) ط . مصر ١٣١٢ هـ

(٢) حقق الجزء الأول ، أحمد زكى باشا ، ١٩٢٤ ، أما الباقى ؛ فلايزال فى معظمه مخطوطا بدار الكتب ، وهو فى ٢٠ جزءاً ، برقم ٥٥٩ معارف عامة ، وبالمكتبة الأهلية (B.N.) بأرقام: ٢٣٢٥ و٥٨٦٧ و٥٨٦٨ ؛ انظر . Brock GAL II, 141
نشر جزء منه أيضاً ، على يد Taeschner ، بعنوان:
al-'Umaris Bericht über Anatolien, Leipzig, 1929.
وقد ترجمت أجزاء منها ، من Harthmann ، بعنوان :
Politische Geographie des Mamelukenreiches Z.D.M.G., LXX, 1916.
ومن Gaud-Dem ، بعنوان : L'Afrique moins l'Egypte, Paris, 1927
ووجدت له دراسة من Quatremère فى :
Notices et extraits de manuscrits de la Bibliothèque du Roi, XII, 1838.

(٣) حققه Blochet فى P.O. ، أجزاء ١٢ : و ١٤ و ٢٠ ، ط Paris ،
بعنوان : Histoire des Sultans mamlouks
وإن بقيت أجزاء منه مخطوطة فى B.N. ، برقم ٤٥٢٥ .

(٤) هو تاريخ العرب ، نشره Cahen ، فى :
Bull. d'Etudes Or. Tome XV, Ann, 1955-57, Damas, 1955.

(٥) حقق منه أربعة أجزاء Dedering و Ritter ؛ ١٩٣١ ــ ١٩٥٩ ،
والبقية منه مخطوط فى معهد المخطوطات العربية ، برقم ٥٦٥ ، تشتمل على الأجزاء ١ ــ ٩ و ١٥ . وقد ظهرت له طبعة فى Wiesbaden و ١٩٦٢ ــ ١٩٠٧ ــ ١٩٧٩ ؛ أنظر .
Brock : GAL II, 39-41; SI, 561; GI, II, 28.

ومصدره الأساسى العمرى، يستدرك فيه الوفيات إلى زمنه، التى لم يذكرها ابن خلكان، وله كتاب آخر بعنوان : أعيان العصر وأعوان النصر ، وهو ترجمة لرجال القرن الثامن [1] .

ثم الكتبى ، ابن شاكر (ت ٧٦٤ / ١٣٦٣)، فى كتابه : فوات الوفيات، [2]، الذى اهتم بتراجم أهل عصره ، ولعله تكملة لكتب فى هذه الموضوع ؛ ويحتوى على أخبار سياسية متعددة .

ثم ابن كثير ، عماد الدين (ت ١٣٧٣/٧٧٤) ، فى كتابه : البداية والنهاية فى التاريخ [3] ، يعتمد فيه على كتب علماء الشام ؛ يعتبر من الكتب الأساسية فى تاريخ المماليك .

ثم النويرى ، محمد بن قاسم (ت ١٣٧٣/٧٧٥) ، فى كتابه : الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الإسكندرية [4] ؛ يتناول فيه غارة صليبية غدرة المدينة التجارية الكبيرة .

= ؛ الزركلى ، قاموس الأعلام، ٢ س ٣٦٤ — ١٣٦٥ . وهو غير محمد بن عبد الله الصفدى، الذى عاش قبله، وله كتاب باسم : المالك والملوك فى مختصر سيرة من ولى مصر من الملوك : مخطوط بالمتحف البريطانى .B.M . برقم ٢٣٣٣٦ أنظر. أحمد عبد الرازق، المصادر، س ٤٣ .

(١) توجد مخطوطة فى مكتبة طوب قبو سراى ، Topkapi برقم EII : 1214; 1216 ، ومعهد المخطوطات العربية ، برقم ٥٣ تاريخ .

(٢) فى جزءين، تحقيق عبد الحميد، القاهرة ١٩٥١

(٣) طبع القاهرة ١٩٣٣ — ١٩٤٩ ، فى ١٤ جزءاً.

أنظر. Ibn Katir : Historica. Arabica, II, 1955, p. 42-88.
Ency of I$_s$ d. (art Ibn Kathîr) 2ed., t. II, p. 817-18.

(٤) مخطوط فى جزءين ، بدار الكتب ، برقم ٢ ٩٤٢ و ٤١٩٣ تاريخ.

ثم ابن بطوطة محمد (أوحق بطوطة) (ت ٧٧٩/١٣٧٧) ، فى كتابه المشهور : الرحلة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار [١] ؛ حيث اعتبر أشهر جوال عربى ؛ زار بلاداً كثيرة ، منها مصر وصعيدها ، وبجاهل أفريقيا ، وبلاد القبيلة الذهبية المغولية ، وآسيا الصغرى والقسطنطينية ، والصين والهند وغيرها ؛ فهو شاهد عيان لعالم كبير ، عاصر دولة سلاطين المماليك .

ثم ابن حبيب ، الحسن بن عمر (ت ٧٧٩/١٣٧٨) ، فى كتابه : درة الأسلاك فى دولة (ملك) الأتراك [٢] ، يبدأ بتاريخ المعز بن أيبك الصالحى ، أول من ملكها من سلاطين المماليك ، كتبه بأسلوب أدبى ؛ إذ كان من كتاب ديوان الانشاء ؛ وقد استكمله ابنه من ٧٧٨ إلى ٨٠١/١٣٧٦ / ١٣٩٩ ، وله كتاب آخر ، بعنوان : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه [٣] .

ومن مؤرخى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى

نذكر ابن الفرات ، ناصر الدين (ت ٨٠٧/١٤٠٥) ، فى كتابه : تاريخ

---

(١) نشر القاهرة ١٩٦٦ ، ونشر وترجمة إلى الفرنسية من Defremery و Sanguinetti فى أربعة أجزاء ، Paris ١٨٥٤ ؛ وطبعة أخرى فى ١٩٦٩ ، وترجم إلى التركيه ، فى ٣ أجزاء ، استانبول ١٣٣٣ / ١٩١٥ ، والفارسية فى ٣ أجزاء ، طهران ١٩٠٨ ، وأيضاً ترجم إلى الألمانية والطليانية : عنه ، الدرر الكامنة ، حيدر آباد ، ١٩٢٩ — ٣١ ، ٣ ، ص ٤٨٠ — ٣٨١ ؛ انظر .
Ency. of Isl. (art Ibn Battuta) 2ed., t. 3, p. 735-736.

(٢) مخطوط بجامعة القاهرة ، برقم ٢٢٩٦١ .
؛ وبالمكتبة الأهلية .B.N ، برقم ١٦٨١٤ أو ١١٧١٩ ، وله مختصر من Weijers ، وميكروفلم بمعهد المخطوطات العربية ، برقم ٢٣٦ تاريخ . عنه : ابن حجر ، الدرر ، ٢ ص ٢٩ ؛
Ency. of Isl. (art. Ibn Habîb) 2ed., t. 3, p. 775.

(٣) مخطوط بالمتحف البريطانى ، برقم ٧٣٣٥ .

الدول والملوك[١] ، المعروف بتاريخ ابن الفرات ، وهو عبارة عن حوليات عن عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ، يشتمل على أخبار معاصريهم فى تاريخ المغول ، وهو من الكتب الموسوعية ، مثل نهاية الأرب للنويرى .

ثم ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت ٨٠٨/ ١٤٠٦) ، وهو من كبار مؤرخى المسلمين ومفكريهم ، فى كتابه : العبر وديوان المبتدأ والخبر[٢] ، ويهمنا من هذا الكتاب الجزء الخامس ، ولاسيما مقدمته ، التى استكملها فى مصر ، وتحتوى على كثير من أخبار المماليك ؛ حيث شارك ابن خلدون بنفسه فى المفاوضات التى تمت بين السلطان المملوكى فرج ، وتيمورلنك سلطان المغول ؛ بقصد رفع الحصار عن دمشق ، واتصل بتيمورلنك ، وكتب له تاريخ المغرب .

ثم ابن دقماق المصرى ، إبراهيم (ت ٨٠٩/ ١٤٠٦) ، فى كتابه : الانتصار لواسطة عقد الأمصار[٣] ، وهو كتاب جغرافى وتاريخى ، وكتابه : الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين[٤] ، يتناول فيه حوادث مصر فى أيام المماليك .

---

(١) مخطوط فى ١٨ مجلداً ، بدار الكتب المصرية ، برقم ٣١٩٧ تاريخ ، وقد حققت منه أجزاء متعددة ؛ فحقق المجلد التاسع ، القسم الأول ، قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٣٦ ، والقسم الثانى من نفس الجزء ، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٣٨ ، والمجلد الثامن ، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٣٩ ، والمجلد السابع ، تحقيق قسطنطين زريق ، ١٩٤٢ ، والمجلد الرابع ، تحقيق محمد الشماع ، البصرة ١٩٦٧ . عن ابن الفرات ، انظر .

Ency. of Isl. (art Ibn al-Furât) 2ed., t. 3, p. 768-9.

(٢) نشر بولاق ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٧ ؛ والمقدمة ، طبع القاهرة ١٣٢٢ / ١٩٠٤ .

(٣) يوجد منه الجزءان ٤ و ٥ ، القسم الأول والثانى ، طبع بولاق ١٣٠٩/ ١٨٩١ ، وتحقيق Vollers ، وطبعة القاهرة ١٨٩٣ . عنه ، انظر . فهرسة الأعلام والأماكن ، كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، القاهرة .

(٤) مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٥٢٢ تاريخ ، ومخطوط فى B.N. ، برقم 2 576 وقد نشر حديثاً بتحقيق وتعليق حسن حبشى ، فى ثلاثة أجزاء ، ١٩٧١ — ١٩٧٣ .

ثم المقريزي[1] ، تقي الدين (ت ١٤٤٢/٨٤٥) ، وهو من أكبر مؤرخي مصر الإسلامية ، ولي عدة وظائف دينية ، وكان محاضراً جيداً ، وتتلمذ على يديه كثيرون من مشاهير مؤرخي مصر ؛ فألف كتباً عديدة ، عن جميع مراحل تاريخ مصر ، قد ضاع بعضها[2] ، أما ما بقي من كتبه ، مثل : إغاثة الأمة بكشف الغمة[3] ؛ يتناول فيـــه تاريخ مصر الإجتماعي في العصور الوسطى ، وبخاصة المجاعات التي انتشرت انتشاراً كبيراً في الشرق زمن المماليك ، وكتاب : السلوك لمعرفة دول الملوك [4] ، وقد ألفه على نظام الحوليات ، في تاريخ ملوك مصر وسلاطينها من المماليك وغيرهم ؛ حيث كان تأليف الحوليات شائعاً في مؤلفات المؤرخين الشرقيين ؛ وكتاب: الخطط المقريزية [5] ، يتناول تاريخ مصر الإسلامية بما فيها المماليك ؛

---

(٢) عنه : الضوء اللامع ، ٢ ص ٢٢ ؛ وانظر . Brock, 11, 70 ؛ مصطفى زيادة ، دراسات عن المقريزي ، القاهرة ١٩٧١ .

(٢) مثل : مجمع الفرائد ومنبع الفوائد ، في ثمانين مجلداً . عن ذلك ، انظر . السخاوي ، المنهل الصافي ، ص ٣٩٤ وما بعدها .

(٣) نشر زيادة والشيال ، القاهرة ١٩٥٧ .

(٤) الجزء الأول والثاني (٦ أقسام) حتى سنة ٧٥٦/ ١٣٥٥ ، تحقيق زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٥٨ ، والجزء الثالث والرابع (٦ أقسام) تحقيق عاشور ١٩٧٠ — ١٩٧٣ ، وترجمة Quatremère ، إلى عام ٧٠٨|١٣٠٨ هـ ، بعنوان . Hist. des Sultans Mamlouks, 2 vols., Paris, 1837-45.

؛ كما ترجم Blochet ، بعض أجزائه ، في :
Revue de l'Orient Latin, vol. VI, VIII, IX, Paris, 1908

(٥) ط بولاق ، في جزءين ، ١٢٧٠/١٨٥٣ ، وط مصر ، في أربعة أجزاء ، ١٣٢٤ هـ ، وقد ترجم "Wiet" مضمون : (M. IFAO, 1911-1925
30 (1911); 33 (1913); 46 (1922); 49 (1924); 53 (1925)

ومن الجدير بالذكر ، أن أحد تلامذة المقريزي ، واسمه آق بغا الخاسكي ؛ كان كاتب قانصوه الغوري ، الذي تولى السلطنة في ٩٠٦|١٥٠٠ ، ألف خمسين سنة بعد المقريزي ، على نمطه في كتابه : ذكر رسوم خطط القاهرة ، مخطوط في B.N. ، برقم 2265 ، مما يدل على ازدهار القاهرة من حارات ودروب وأسواق ؛ وإن كان كتابه لا يبلغ قيمة كتاب المقريزي . أنظر . هريدي ، فهرست خطط مصر ، في جزءين ، ط . المعهد الفرنسي ١٩٨٣ .

حيث يتعرض فيها لنظمهم، وكتاب: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب[١]، وكتاب: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام[٢]؛ حيث تعتبر كتبه من أهم مصادر التاريخ المملوكي.

ثم ابن قاضي شهبة، عبد الوهاب (ت ٨٥١/١٤٤٧—١٤٤٨)، في كتابه: الذيل على تاريخ الإسلام[٣]، وهو أشبه بالحوليات، وإن اهتم بالوفيات؛ ويمتد من ٧٤١ إلى ٨٠٦/ ١٣٤ — ١٤٠٣؛ فهو يستكمل تاريخ الذهبي.

ثم ابن حجر العسقلاني[٤]، شهاب الدين (ت ٨٥٢/١٤٤٩)، وله تآليف عديدة منها: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة[٥]، ويقصد بهم المائة الثامنة من الهجرة من أبناء سنة إحدى وسبعمائة إلى آخر ثماني مائة؛ للأعيان والعلماء والملوك والأمراء والكتاب والوزراء والأدباء والقواد، وقد استعان فيه بكتب سابقة، وله ذيل باسم: ذيل الدرر الكامنة[٦]؛ وكتاب بعنوان: رفع الإصر عن قضاة مصر[٧]، وكتاب بعنوان: إنباء الغمر بأنباء العمر[٨]، يتناول فيه سنة بسنة حوادث مصر في

---

(١) أنظر. تحقيق Wust، ط. Gottingen، ١٨٤٢.

(٢) طبع القاهرة ١٨٩٥ م.

(٣) في جزءين، مخطوط بالمكتبة الأهلية B.N.، بأرقام: 1598-9

(٤) عنه: الضوء ٢ ص ٣٩؛ وانظر Habashi : Historical Studies on the manuscript of Ibn Hadjar (Inbâ' al-Gumer fi anbâ' al-Umr.), Theisis, presented to the S.O.A.S. London, 1954-1955.

(٥) في خمسة أجزاء، الطبعة الثانية، تحقيق جاد الحق، القاهرة ١٩٦٥، وله طبعة في أربعة أجزاء، حيدر آباد ١٣٤٨ — ١٣٥٠ هـ (استخدمت).

(٦) مخطوط بدار الكتب، برقم ٦٤٩ تاريخ.

(٧) تحقيق حامد عبد المجيد، ومحمد أبو سنة، وإسماعيل الصاوي، في جزءين، القاهرة ١٩٥٧ — ١٩٦١.

(٨) تحقيق حسن حبشي، في ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٦٩ — ١٩٧٣؛ والجزء الأول فقط، تحقيق حديث من دهمان، دمشق ١٩٧٩.

أيام المماليك ، وكتاب بعنوان : إتحاف إخوان الصفاء بنبذ من الأخبار الخلفا (١)؛

ثم العينى(٢) ، بدر الدين (ت٨٥٥/١٤٥١) ، الذى عمل مع عدة سلاطين فى أيام البحرية والجراكسة،وعاصر كبار المؤرخين المصريين،مثل المقريزى وابن حجر، وكان على علم باللغة التركية ،وألم بها ؛ وإن كانت أغلب تآليفه بالعربية ، منها : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان(٣) ، وتآليف عديدة فى السير ؛ مثل كتاب : ذكر سلطنة الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى (٣) ، وكتاب : سيف المهند فى سيرة الملك المؤيد(٤) ؛ فيه وصف للقبائل التركية والجراكسة، مكتوب بالنثر والشعر ، وكتاب : الروض الظاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر(٥) ، وكتب أخرى عن سيرة الأشرف برسباى ، والظاهر جقمق، وأخبار الطاغية تيمور .

ثم ابن شاهين الظاهرى (ت ٨٧٢/١٤٦٨) ، فى كتابه :زبدة كشف الممالك، وبيان الطرق والمسالك(٧) ، وهو يصف الممالك الإسلامية التابعة لدولة سلاطين المماليك ، ويعتبر اختصاراً لكتاب سابق .

---

(١) مخطوط بدار الكتب ،برقم ٢٧٦ تاريخ .

(٢) عنه ، الضوء،١٠، ص ١٣٤ ؛ انظر، Ency. of Isl. (art. al-'Aynî) 2ed., t. I, p. 790-791.

(٣) مخطوط مصور فى ٢٣ مجلداً، بدار الكتب المصرية ، برقم ١٥٨٤ تاريخ . اشر منه جزء فى . R.H.CH Or

(٤) مخطوط بطوب قبوسراى "Topkapi" برقم ٦١٤٨ (A.2971/2)

(٥) تحقيق فهيم شالتوت، القاهرة ١٩٦٧ . يوجد المخطوط فى . B.N. ، برقم ١٧٢٣ ؛ انظر، روزنتال،علم التاريخ،ص٧٣٧.

(٦) تحقيق Hans Ernst ، ط القاهرة ١٩٦٢.

(٧) تحقيق Ravaisse ، ط. Paris ١٨٩٤ .

ثم ابن تغرى بردى[١] ، أبو المحاسن (ت ٨٧٤/١٤٧٠) ، فى كتبه المتعددة، منها : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر القاهرة[٢] ، وكتاب : منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور[٣] ، ألف من ٨٤٥ه إلى ٨٧٤ / ١٤٤١ — ١٤٧٠ ، وكتاب : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى[٤] ؛ فيه تراجم من ٦٥٠ إلى ٨٥٧/١٢٥٢ — ١٤٥٣ ، وكتاب : مورد اللطافة[٥] ، الجزء الأكبر منه ، يتناول تاريخ المماليك .

ثم ابن الجيعان ، شرف الدين (ت ٨٨٥/١٤٨٠) ، فى كتابه : التحفة السنية

---

(١) عنه : الضوء ، ١٠ ص ٣٠٦ ؛ انظر . محمود إسماعيل ، منهج ابن تغرى بردى ، ١٩٧٣ ؛ و Wiet. :

L'Histoire Abu-l-Mahâsin, B.I.E., XII, 1929-1930, pp. 89-105.

La vie d'Abu-l-Mahâsin Ibn. Targi Birdi et son oeuvre. : Darrag. Annales, Isl., anc XI (1972), pp. 163-182.

(٢) تحقيق دار الكتب من ١ — ١٢ ، القاهرة ١٩٢٩ — ١٩٥٦ ، والأجزاء ١٣ — ١٦ (تراثنا) القاهرة ١٩٧٠ — ١٩٧٢ ؛ وتحقيق Popper ، الذى قام أيضا بترجمة القسم الخاص بالمماليك ، من ١٣٨٢ — ١٤٦٩ ، فى أجزاء ٥ — ٧ ، ط. Berkely ؛ ١٩٠٩ — ١٩١٦ ، بل ترجم جميع ملاحظاته الخاصة بالمماليك الشراكسة ، تشتمل على التنظيم الإدارى ، من ١٣٨٣ إلى ١٤٦٩ ه ، بعنوان :

Egypt and Syria under Sultans, 1382-1468, A.D. Systematic notes to Ibn Taghri Birdi's Chronicles of Egypt. Berkeley and Los Angelos, 1957.

(٣) تحقيق Popper ، ط . California ، ٢ فى ٤ أجزاء ، ١٩٣٠ — ١٩٤٢ .

(٤) ط . القاهرة ١٩٣٢ ، وطبعة دار الكتب ، الجزء الأول ، تحقيق أحمد يوسف نجاتى ١٣٧٥ / ١٩٥٦ ، أما الباقى فمخطوط بالمكتبة الأهلية B.N. ، برقم 2068-2072 ؛ وبدار الكتب برقم ١٤٧٥ ؛ ، وله ملخص فرنسى ، من Wiet ، بعنوان : Les biographies, du Manhal Safi. Le Caire, 1939.

؛ وبحث من Amar, (Emile) ، بعنوان : La valeur historique de, l'ouvrage biographique al-Manhal as-Safi. Mélange 1909, pp. 245-554.

بأسماء البلاد المصرية(١) ، تناول فيه التعداد ، الذى تم فى مصر فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى .

ثم ابن الصيرفى (٢) ، على بن داود (ت ٩٠٠/١٤٩٥) ، فى كتاب : إنباء الهصر فى أنباء العصر(٣) ، وكتاب : نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان(٤) ، تناول فيه تاريخ المماليك بتفصيل .

وأخيراً كتاب من مجهول ، بعنوان : تاريخ سلاطين المماليك(٥) ، الذى قد ينسب إلى إبراهيم مغلطاى ، لانعرف شيئاً عنه ؛ يحتوى على معلومات كثيرة ، تتوافق مع تاريخ القرن الخامس عشر الميلادى / التاسع الهجرى .

= جمع بين دفتيه قرابة ثلاثة آلاف ترجمة ؛ لمن عاشوا فى مصر والشام ، ومن عاصرهم من أهل العراق والحجاز واليمن والتتار وبلاد المغرب والأندلس ، من الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء والقواد والأعيان والعلماء والأدباء والكتاب والشعراء والمؤرخين والخطاطين والأطباء والمهندسين والتجار وأرباب المهن ، وحتى الملوك من أوربا مثل لويس التاسع ملك فرنسا ، وبعض شهيرات النساء مثل شجرة الدر ، وكله مرتب على حروف المعجم ، وله مختصر بعنوان : الدليل الشافى على المنهل الصافى ، وهو :
مخطوط B.N. ، برقم : II 889.

(٥) مع ترجمة لاتينية من Carlyle ، طبعة Cantabrigae ، ١٧٩٢ .

(١) نشر Mortiz ، وطبع Vienna بولاق ١٣٩٦ /١٨٩٨ .

(٢) الضوء ، ص ٢١٨ — ٢٩٩ ؛ انظر . زيادة ، المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر .

(٣) تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ .

(٤) تحقيق حسن حبشى ، فى ٣ أجزاء ، ص ١٩٧٠ — ١٩٧٣ .

(٥) نشر Zettersteen ، بعنوان :
Beitrage zur geschichte der Mamluken sultane, Leyden, 1919.

ومن مؤرخي القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

فنذكر السخاوي [1] ، محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ / ١٤٩٧) ، وهو مؤرخ مصري كبير ، نسبة إلى قرية سخا ، إحدى قرى مصر ، ذاع صيته في بلاد العروبة ؛ بسبب رحلاته إليها محاضراً ؛ وهذا يفسر انتشار كتبه في بلاد متعددة ؛ مما جعله يترك تراثاً كبيراً ، يزيد على مائتي كتاب ؛ بعضها في أجزاء متعددة ؛ ومنسوخ بخط يده ، فمن كتبه : الضوء اللامع ، في أعيان القرن التاسع [2] ، الذي يعتبر أوسع مصدر للتراجم ، عرفه الباحثون في تاريخ العصور الوسطى الإسلامية ، استدرك فيه المؤلف على ابن حجر مافاته من المائة الثامنة؛ فهو يذكر العلماء والقضاة والصلحاء والرواة والأدباء والخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والمباشرين والوزراء ، سواء أكانوا من الشام أو الحجاز أو اليمن أو مصر أو الهند ، بل يذكر بعض أهل الذمة ، ويبسط تاريخ الرجال والنساء على السواء ، وترجم لنفسه فيه ، وكتاب : التبر المسبوك في ذيل الملوك [3] ، وهو مرتب على حسب السنين ، ترجم فيه للأعيان إلى سنة ٨٥٧/١٤٥٣ ، وكتاب : التحفة اللطيفة ، في تاريخ المدينة الشريفة [4] ، وهو موسوعة كبيرة في تاريخ الحجاز أيام المماليك ، وكتاب : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ [5] ، أي من حط من قدر المشتغلين بعلم التاريخ ؛ فيه معلومات كثيرة هامة عن عصر المماليك؛ مما يدل على نهضة التاريخ في عصرهم ، وغير ذلك من الكتب .

---

(١) عن تآليفه الكثيرة : العيدروسي ، النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، تحقيق محمد رشيد الصفار ، بغداد ١٣٥٣ / ١٩٣٤ .

(٢) في ١٢ سفراً ، القاهرة ١٣٥٣ — ١٣٥٧ ق / ١٩٣٤ — ١٩٣٦ .

(٣) تحقيق زكي باشا ، بولاق ١٨٩٦ .

(٤) نشر في جزءين من قبل أسعد طرابزوني الحسيني ، والجزء الثالث في طريق النشر .

(٥) عني بنشره القدسي في دمشق ١٣٤٩ / ١٩٣٠ ، من نسخة محققة من أحمد باشا تيمور ، ونشره فرانز روزنثال ، في كتابه : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة صالح العلي ، بغداد ١٩٦٣ .

إقرأ مقالتنا في ندوة السخاوي ، إعداد المجلس الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع الجمعية التاريخية ، بعنوان : منهجية محمد بن عبد الرحمن السخاوي في كتابة التاريخ .

ثم السيوطى[١] ، جلال الدين (ت ٩١٦/١٥٠٥) ، الذى عاصر السخاوى ، وكان نداً له ، وكانت بينهما مساجلات نقدية[٢] ، وبلغت مؤلفاته أكثر من ٥٦١ مؤلفاً ؛ وإن كان هو نفسه لم يذكر غير ثلاثمائة ؛ فنذكر منها : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة [٣] ؛ وكتاب : نظم العقيان فى أعيان الأعيان [٤] ، وكتاب : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، القائمين بأمر الدين [٥] ، وكتاب : غزوات قبرس ورودس [٦] ، وغير ذلك .

ثم ابن أياس أو إياس[٧] ، أبو البركات (ت ٩٣٠/١٥٢٤) ، وهو ينحدر من أصل مملوكى ، ووالده من مشاهير قواد مصر ، وكان له إقطاع وافر ؛ جعله

---

(١) عن عصره وأخباره . انظر . ندوة السيوطى ، التى عملت بالإشتراك بين المجلس الأعلى للثقافة والجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، من ٦ الى ١٠ مارس ١٩٧٦ ، القاهرة ١٩٧٨ . أنظر بحثنا عن : مصر السيوطى ، وأيضا ، انظر : الضوء اللامع ، ٤ ص ٩٦ .

(٢) أنظر . مؤلفه : الـكاوى على تاريخ السخاوى ، مخطوط بدار الـكتب ، برقم ١٠١٠ أدب .

(٣) فى جزءين ، القاهرة ١٣٢٧/١٩٦٧ ، وتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٧ — ١٩٦٨ ، سبقه ابن ظهيره ، من علماء القرن التاسع الهجرى (١٥ م) فى كتابه : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ١٩٦٩ .

(٤) تحقيق فيليب حتى ، ط . New-York ، ١٩٢٧ .

(٥) تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٦٤ ، وله ترجمة انجليزية .

(٦) تحقيق Vienna ، ١٩٨٨١ ، والقاهرة ١٩٧٧ .

(٧) عن عصره وأخباره ، أنظر . ندوة ابن اياس عام ١٩٧٧ ، التى عملت بالاشتراك بين المجلس الأعلى للثقافة والجمعية التاريخية المصرية أنظر . بحثنا فيها عن التعبيرات الحضارية عند ابن إياس .

يتوفر على الكتابة ، ألف كتابه : تاريخ مصر أو تاريخ ابن إياس ، المعروف ببدائع الزهور[١] ؛ حيث يبدأه ، بتاريخ مصر منذ الفراعنة ، وذلك على عكس كثير من المؤرخين المسلمين ، الذين يبدأونه ببدء الخلق ، ولكن جوهر تاريخه ، هو عصر المماليك ؛ فيتكلم فيه عن كل الحوادث التي تتعلق بحياة سلاطين المماليك ، وبخاصة مؤامراتهم ، وكتاب: حوادث الدهور[٢] ، الذي ينقل فيه أخبار السلاطين المماليك ، وغير ذلك .

ثم ابن طولون الدمشقي ، شمس الدين (ت ٩٥٣/١٥٤٦) ، الذي لا تزال معظم كتبه خطية ، منها : مفاكهة الخلان من حوادث الزمان[٣] ، وكتاب: إعلام الورى بمن ولى نائباً من الاتراك بدمشق ، والشام الكبرى[٤] ، وكتاب : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية[٥] .

---

(١) طبع في ثلاثة أجزاء ، بولاق ١٣١١ — ١٣١٢ ، والأجزاء ٣ و٤ و٥ ، من ٨٧٢ إلى ٩٢٨/١٤٦٧ — ١٥٢٢ ، الطبعة الثانية ، نشر محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٠ — ١٩٦٣ ، حيث كان لايزال منه جزء مخطوط مابين سنوات ٩٠٦ — ٩٢٢ / ١٥٠٠ — ١٥١٦ (أنظر . Brock, II, 295) ، كما لدينا ترجمة لأجزاء منه ، من Wiet ، بعنوان:

Histoire des Mamlouks Cirassiens, 1945.

وأيضا منه بعنوان:

Journal d'un Bourgeois du Caire.
Paris, 1955-1960.

كما لدينا طبعات أخرى من Kahle ومصطفى و Sobernheim ، بعنوان :
Die Chronik, Istanbul, 1931-1936.

(٢) أنظر . ط California .

(٣) القسم الأول ، من سنة ٨٨٤ إلى سنة ٩٢١ / ١٤٨٠ — ١٥١٥ ، تحقيق مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢ ؛ انظر .

Das Tübingen Fragment der Chronik Ibn Tulun, 1926.

(٤) تحقيق عبد العظيم حامد خطاب ، القاهرة ١٩٧٧ ، وله ترجمة بعنوان :

Les gouverneurs de Damas sous les Mamlouks et les premiers Ottomans, 1952.

(٥) تحقيق دهمان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١ .

ثم ابن زنبل ، الرمال (ت ٩٦٠/١٥٥٢) ، فى كتابه : تاريخ السلطان العثمانى مع قانصوة الغورى(١) ؛ يفصل فيه الكلام عن سلطنتى الغورى وطومان باى، وسقوط دولة سلاطين المماليك ، على يد السلطان سليم العثمانى .

والخلاصة أنه بعد القرن العاشر/السابع عشر الميلادى، الذى زخر بهؤلاء المؤرخين الكبار ؛ فإن مصر والشرق ؛ قد خلتا ممن يهتم بكتابة التاريخ ، الذى أصبح يقتصر على تاريخ الدولة العثمانية ، وهم قلة(٢) ؛ وبذلك ختمت أكبر تجربة تاريخية إسلامية عربية ؛ ترعمتها مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك .

* *

---

(١) لايزال مخطوطا بدار الكتب ،فى جزءين ، وإن كان قد ظهر له نشر مختصر، بعنوان : آخر المماليك، واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

(٢) فنذكر مثلا : القرمانى أبو العباس (ت١٠١٩ / ١٦١٠) ، أخبار الدول وآثار الأول ، القاهرة ١٢٩٦ هـ، ومثل : ابن أبى السرور والبكرى الصديقى، وهو من أسرة مصرية تركية (ت ١٠٨٧ / ١٦٧٦) فى كتاب: النزهة الذهبية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٢٢٦٦ تاريخ، وكتاب :المنح الرحانية فى الدولة العثمانية، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة، برقم ١٩٢٦ تاريخ ، وكتاب: قطف الأزهار من الخطط والآثار، رتبه على حسب ترتيب المقريزى ، مخطوط بدار الكتب ،برقم ٤٠٧ جغرافية، وكتاب: تاريخنا الكبير، وله فيه فصل عن الجراكسة ،وله كتاب مختصر: عيون الأخبار ونزهة الابصار، وتوجد نسخ خطية منه بدار الكتب. عنه بصفة عامة :
أنظر .

Abdul Karim Rafeq : 'Ibn Abi'l-Surur and his works B.S.O.-A.S. vol. 38, I, 1975, p. 24 sqq.

ومثل عماد الدين (١٠٨٩ / ١٦٧٨)فى كتابه: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، من أجزاء ١ — ٨ ، القاهرة ١٩٣١ — ١٩٣٣ . وكذا مؤلفا آخر اسمه الاسحاقى ؛ لانعرف عنه شيئا يذكر، ألف كتابه بعنوان :أخبار الأوائل فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ،القاهرة ١٣١٥ هـ .

(١) أنظر . العزاوى ، التعريف بالمؤرخين ، الجزء الأول : فى عهد المغول والتركمان ، بغداد ، ١٩٥٧ .

وبجانب المؤلفات التاريخية المملوكية ، نهتم بالمؤلفات التاريخية المغولية والصينية والروسية والعثمانية ، حيث كان ظهور المغول والعثمانيين كقوتين سياسيتين أن أحدث إنقلاباً في التوازن الدولي ؛ وكلاهما عاصر دولة سلاطين المماليك في مصر ، من وقت ظهورها إلى وقت سقوطها ؛ ودخلتا في صراع معها ؛ أو أنهما كانتا على علاقات سياسية وحضارية بها ؛ وهذه المصادر التاريخية المغولية والعثمانية وغيرها ؛ قد ألفت في معظمها بلغات غير عربية ؛ ولاسيما بالفارسية والتركية .

فنذكر من المؤلفات التاريخيـــة المغولية كتاباً بالفارسية ، بعنوان : طبقات ناصري[١] ، تأليف الجوزجاني أو جزجاني (ت ٦٥٨/١٢٦٠) ، منهاج الدين ، وهو مؤرخ فارسي ، عاصر بركة خان ، الابن الرابع لجوشي بن جنجيزخان ، الذي أسلم وعمل على تعلم القرآن ، وربى أبناءه على يد المربيات المسلمات ، ويتناول كتابه أحوال المغول وأخبار الهند ، التي هاجر المؤلف إليها ، واستقر فيها ، منـــذ عام ٦٢٥/١٢٢٧ .

ثم كتاباً آخر بالفارسية بعنوان : تاريخي جهانگشاي[٢] ، تأليف علاء الدين عطا ملك الجويني (ت ٦٨١/١٢٨٢) ، الذي كان في خدمة شاه خوارزم في وسط آسيا ، وشاهد سقوط إيران في أيدي المغول ، وعمل في خدمة المغول ، وأصبح لقبه : « أتاملك » ، أي الوزير ، وعين حاكماً لإحدى ولاياتهم ، ثم حاكماً على بغداد ذاتها ، في عهد آباقا خان ـ أبغا ـ المغولي ، في عام ٦٦١ / ١٢٦٢ - ٣ ، ويبدو

---

(١) طبع النص في مجموعة : Biblioteca Indica. Calcutta, 1864
وله ترجمة إنجليزية ، من Paverty ، اشرف: London. 1873-1881.

(٢) حققه ميرزا محمد القزويني ، في ثلاثة أجزاء في مجموعة :
Gibb. Mém. Séries, London, 1912; 1916; 1937

، وحققه سيد جلال ، طهران ٢٥٢ هـ ، وله ترجمة انجليزية
من Boyle ، J.A. ، بعنوان: Ata Malik Juwaini;
The History of the World — Conqueror, 2 vols Manchester, 1958
، وله ترجمة في بعض أجزائه التي تهمنا من السوري القاهرة ١٩٠٣ .

أن عطا الله الجوينى ، قد بدأ فى تأليف كتابه فى بلاط الخان الكبير منجوخان بقره قورم ، فى حوالى ٦٥٢/١٢٥٤ ؛ وإن كتب عن المغول بحذر شديد ؛ فهو لايذكر فظائعهم ، ومع ذلك، فإنه مات مغضوباً عليه منهم .

ثم كتاباً آخر بالفارسية ، بعنوان : جامع التواريخ (١) ، تأليف رشيد الدين (ت ٧١٨/١٣١٨) فضل الله الهمذانى ، الذى ولد وقت الفتوحات المغولية ، وكان يتقن عدة لغات ، منها : العربية والعبرية والتركية والمغولية والصينية ، وعمل وزيراً لإيلخانات المغول فى إيران ؛ فوزر لكل من غازان وأولجايتو ؛ فهو فى ذلك مثل نظام الملك ، الذى وزر للترك السلاجقة ؛ فوزر للسلطان السلجوقى ألب أرسلان ، وألف كتبه عنهم ؛ وقد اطلع رشيد الدين على الوثائق المغولية ، وقال إن أحداً قبله لم يطلع عليها غيره ؛ ويبدو أنه قد ألف كتابه والمغول قد تحولوا إلى الإسلام ، وأصبحوا مسالمين للمسلمين ، وهو ماعبر عنه حديثاً بالسلم المغولى Pax Mongolia ، أو السلام التترى Pax Tartarica ، وربما ألفه بتحريض من غازان ، الذى كان أسلم ، ووزرله عام ٧٩٧ / ١٢٩٨ ، وعرف تاريخه باسم : « تاريخى مبارك غازانى »(٢) ، وهو كتاب غيره ، أخذت مادته من الكتاب السابق ؛ ومع أنه عمد

---

(١) حققة — أوما بقى منه — وترجمة إلى الفرنسية Quatremère ، بعنوان :

Histoire des Mongols de la Perse. Ecrite, en Persan par Raschid El-Din, publiée, traduite en Français, accompagnée de notes. Paris, 1836.

والمجلد الثانى والجزء الأول ، ترجمه إلى العربية صادق نشأت وآخرون ، القاهرة ١٩٦٠ .

؛ وله ترجمة إلى العربية من فؤاد الصياد ، القاهرة ١٩٦٣ ، وحقق على زاده Alizade الجزء الثالث ١٩٣٧ عن رشيد الدين ، انظر . فؤاد الصياد ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذانى ، القاهرة ٦٧ ١٩ ، أندر

(٢) ط . London ١٩٤٠ .

ألا يذكر فظائع المغول، ففي رأيه أن هذه الفظائع قد أصبحت في ذمة التاريخ[١]؛ ومع ذلك؛ فرشيد الدين، قد قتل بالسم، لاتهامه بدس السم لأولجاتيو، خلف غازان.

ثم كتاباً بالعربية، بعنوان: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة[٢]، تأليف ابن الفوطي، كمال الدين (ت ٧٢٣/١٣٢٣)، الذي شاهد بنفسه سقوط بغداد في أيدي المغول، واستعمارهم للعراق، ثم هزيمتهم على يد المصريين، وينتهي بسنة ٧٠٠/١٣٠٠.

ثم كتاباً آخر بالعربية، بعنوان: تجزية الأمصار وتزجية الأعصار[٣]، تأليف عبد الله بن فضل الله الشيرازي، المعروف بكتاب تاريخ وصاف الحضرة (ت ٧٢٨/١٣٢٧)، الذي تناول تاريخ المغول، من سنة ٦٥٦/١٢٥٨، إلى وقت وفاته، تكلم فيه عن حملة هولاكو على بغداد وخلفاؤه، وهو ذيل لتاريخ جهانگشاى للجويني.

ثم كتاباً بالفارسية، بعنوان: تاريخي گوزيده[٤]، تأليف حمد الله المستوفي

---

(١) أنظر. Caucasica III. P.S.O.A.S. : Minorsky. 1952, XIV/2, p. 222.

(٢) نشر بعناية محمد رضا الشبيبي، نشر بغداد، ١٣٥١/١٩٣٢.

(٣) نشر وترجمه Demaisons، بعنوان: Hist. généologique de Tartars، وله كتاب بالفارسية اسمه: تاريخي وصاف، نشر وترجم أجزاء منه Hammer، في ١٨٥٦.

(٤) نشر وترجمة فرنسية من Gantin، ط Paris ١٩٠٣. وله ترجمة انجليزية من Browne و Nicholsen، ط Leiden، ١٩١٠ — ١٩١٣.

القزويني[1] (ت ٧٤٠/١٣٣٩ ـــ ٤٠)، الذي عمل مع المؤرخ رشيد الدين، وتناول فيه هو الآخر تاريخ الإيلخانات في إيران.

ثم كتاباً بالفارسية، بعنوان: ظفرنامه[2] ـــ أي الانتصار ـــ تأليف شرف الدين علي يزدي (ت ٨٢٨/١٤٢٥)؛ روى فيه تاريخ تيمورلنك وفتوحاته، من خلال مؤرخ تيمور الرسمي: نظام الدين سامي[3].

ثم كتابا نادراً بالعربية، بعنوان: عجائب المقدور في نوائب تيمور[4]، تأليف ابن عربشاه الدمشقي (ت ٨٥٤/١٤٣٧)، الذي هو من دمشق، وعاصر الحوادث بنفسه، وأخذ أسيراً على أيدي المغول؛ وإن عاد إلى وطنه، يتكلم عن المغول، بكل ما يحيط بهم؛ حتى تشريعهم المعروف باليسق؛ فهو كتاب عن الدولة التيمورية المغولية، التي قامت على أنقاض الدولة الإيلخانية في المشرق الإسلامي؛ حيث يذكر فيه ابن عربشاه مقابلة المفكر ابن خلدون لتيمور، التي عثر على نصها منفرداً حديثا[5].

ثم كتابا بالفارسية، بعنوان: مطلع السعدين أو مجمع البحرين[6]، تأليف

---

(١) عنه، انظر: Ency. of Isl. (art Hamd Allah al-Mustawfi al-Kazwîni) 2ed. t. 3, p. 122.

(٢) تحقيق M. ʿAbbas، طهران ١٣٧٧/١٩٥٧، وترجمة Pétis de la Croix

(٣) ظهر له تحقيق خاص بهمن Tauer، جزء أول ١٩٣٧، والجزء الثاني ١٩٥٧.

(٤) أنظر طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ وطبعة أخرى، من علي محمد عمره، القاهرة ١٩٧٩، وله ترجمة فرنسية من Vattier، في جزءين ١٩٥٨، وترجمة إنجليزية من Sanders، ١٩٣٦.

(٥) طبعها تويت الطنجي، في ١٩٥١، وترجمها Fischel بعنوان: Ibn Khaldun and Tamerlane, 1952.

(٦) وهو مخطوط في B.N. برقم ١٠٦٣، حققه Shafi، ١٩٥٠، وأخذ منه ملاحظات Quatremère، في كتابه: Notice de l'ouvrage persan, qui a pour titre: : Matla - assudein ou madjima al-bahrein; et qui contient l'histoire des deux sultans Schah-Rokh et Abu Said, 1843,

عبد الرازق السمرقندي (ت ٨٨٧/١٤٨٢) ، تناول فيه تاريخ السلاطين: شاهرخ وأبي سعيد ، من خلفاء تيمور ؛ حيث أن عبد الرازق كان يشغل وظيفة القاضي والإمام في قصر شاهرخ ، وصحبه في حملته على الهند ، وهو يغطي بتاريخه فترة زمنية ، من حكم خلفاء تيمور ، تقدر بـ ١٦٠ عاماً .

ثم كتابا بالفارسية ، بعنوان : روضة الصفاء وسيرة الأنبياء والخلفاء(١) ؛ من تأليف ميرخواند ، محمد بن أمير (ت ٩٠٣/١٤٩٨) ؛ تناول فيه تاريخ تيمور ؛ معتمداً على مصادر تناولت تاريخ المغول قبله ، من تأليف الجويني ورشيد الدين ووصاف الحضرة .

ثم كتابين بالفارسية ، الأول بعنوان : حبيب السير في أخبار أفراد البشر(٢) ، تناول فيه الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة ، حتى عام ٩٣٠/١٥٢٣ ، والثاني ، بعنوان: دستور الوزراء(٣) ، تناول فيه تاريخ الوزراء وغيرهم ، من تأليف خواجه غياث الدين ، المعروف بخواندمير (ت٩٤١/١٥٣٤) .

ثم كتابا بالتركية ، بعنوان : شجرة تركي (٤) ، من تأليف أبي الغازي بهـا

---

(١) نشر في خمسة أجزاء، London، ١٨٩١ — ١٨٩٤ ، حيث ترجم بعضه، انظر: Storey: Persian Literature, cf., 1935-1955.

(٢) المجلد الأول طبع طهران ١٣٧٣هـ، وله ترجمة من Massé في Anthologie Persane ، وطبعة بمباي، في ثلاثة مجلدات ١٢٧١ — ١٢٧٣هـ، وما هو خاص بالتركستان، ترجمة Defrémery في J.A., 1852 .

(٣) وط. طهران ١٣١٧هـ. ش، وأيضا أنظر تاليف وترجمة تعليق حربي أمين سليمان ، القاهرة ١٩٨٠ .

(٤) ترجم الكتاب إلى الفرنسية Varenne de Mendesse ، بعنوان : تاريخ أنساب التتار . Hist. généalogique des Tartares وقد ترجمه ونشره Demaisons .

دورخان ، من أسرة جوچي ، مؤسس القبيل الذهبي ، تناول فيه تاريخ المغول ، حتى عصره ، إلى سنة ١٦٦٣/١٠٧٤ ، اعتمد فيه على وثائق القبيل الذهبي ، وقد استكمله ابنه محمد بهادور ، من بعده .

ثم حوليات باللغة الصينية عن المغول(١) ، من تأليف تسين بين Tsien-pien ، تتناول تاريخ جنكيزخان وخلفه ؛ إذ يعتبر جنكيزخان من أباطرة الصين والمغول .

ثم حوليات باللغة الروسية عن المغول أيضا ، بعنوان (٢) : Letop isei po lavrentievshoma Spislev ؛ كما نذكر ما كتبه الرحالة الروسي Afansi Nikitun (٣) ، الذي تناول تاريخ الهند في القرن الخامس عشر الميلادي في ظل الحكم المغولي .

ثم نذكر من المؤلفات التاريخية العثمانية كتابا هاما بالعربية ، تناول تاريخ العثمانيين وفتوحهم في مصر خاصة ، بعنوان : صحائف الأخبار في وقائع الأمصار(٤) ؛ تأليف منجم باشا أحمد دده (ت ١٧٠١/١١١٣ — ٢) .

---

(١) ترجمت إلى الفرنسية من Gaubil ، بعنوان : Histoire de Gientchiscan et de toute la dynastie; ses successeurs cf.

، كما ترجمت إلى الروسية بمعرفة Hyacinthe

(٢) طبعت في St. Petersbourg, 1872

(٣) نشرها Nemtinov, Butorin ، بعنوان : Afanasi Nikitun Khozhenic za tri moria, 1466-1472. Moscow, 1960.

، ولها ترجمة إنجليزية من Wilhorsky ، بعنوان : The Travel of Athansius Nikitun; أو India in the fifteenth century. Lodon, 1857

(٥) مخطوط بمكتبة طوب قبو سراى ، برقم A. 2954 ؛ وهو الجزء الخامس ، كما توجد ترجمة تركية للجزء الثالث ؛ برقم ٢٥٧٣ تاريخ ؛ بالخزانة التيمورية ، بدار الكتب .

ثم كتباً بالتركية عاصرت الفتح العثماني لمصر . مثل : مآثر سليم خاني ، طاب ثراه[١] ، تأليف جلال زاده قوجه نشانجى ، وكتاب : سلطان سليم بك إيران سفرينه ، دائر مخابرات ، أو كتاب روزنامه[٢] ، تأليف حيدر چلبي ، وكتاب : فتح نامه ديار عرب[٣] ، تأليف مقرجى نصوح ؛ وهي تتناول جميعها يوميات معارك سليم في مصر وغيرها .

ونفرد مكاناً خاصاً لمؤلفات تاريخية صليبية وبيزنطية ؛ فبالنسبة للأولى ؛ فإنها في غاية الأهمية ؛ بسبب أن الخلافة الفاطمية والدولة الإيوبية ، ومن بعدها السلطنة المملوكية ؛ قد دخلت في صراع مع الصليبيين ؛ حيث أن مملكة بيت المقدس ، التي كانت سقطت في أيدي المسلمين في أيام صلاح الدين ؛ إلا أنه بقي للصليبيين إمارات تتصل بنشأة الحركة الصليبية ، وهي ما أطلق عليه حركة الفرنج ؛ حيث أن المصادر المملوكية قد ذكرت بتفصيل الصراع مع الصليبيين[٤] ؛ إلا أن المصادر الصليبية المسيحية ، لها وجهة نظر غير وجهة نظر مؤرخي المسلمين .

ويهمنا من المصادر الكتابية الصليبية ، في عصر المماليك بالذات ، ما كتبه عنها

(١) مخطوط بقبو سراى ، برقم 415

(٢) مخطوط بقبو سراى ، برقم R. 1955

(٣) مكتبة نور عثمانية ، برقم ٤٠٨٧ .

(٤) عن هؤلاء ، انظر Extrait des Historiens, : Reinaud.
arabes relatifs aux guerres des Croisades, 2 vols.
Historiens Orientaux des Croisades 5 tomes. Paris, 1872-1906.

المؤرخون اللاتين واليونان(١) ، والأرمن بالذات(٢) ، الذين جمعوا مواد تاريخية دسمة ؛ فتكلموا عن مملكة أرمينية الصغرى ، وتحتوى كتاباتهم على وثائق متبادلة بين البابوات والإمارات الصليبية ؛ حيث أن أرمينية أخذت على عاتقها أن تدافع عن المسيحية ؛ بعد سقوط مملكة بيت المقدس فى أيام صلاح الدين ؛ فنذكر منهم : هيثوم Heithoum ، وروبين Robboun ، وماثيو Mathew (٣) .

كذلك نهتم بالمؤلفات التاريخية البيزنطية ؛ حيث كانت الروم أو بيزنطة المدافع عن المسيحية ، قبل الصليبيين ، ثم تحالفت مع هؤلاء ؛ إلا أنها ضعفت بسبب إستيلاء فئات الترك من السلاجقة والعثمانيين على أراضيها ؛ فعمدت إلى تحسين علاقتها بسلطنة المماليك فى الشرق ، وكل ما وصلنا عن هذه العلاقات نصوص اتفاقيات أو وثائق محدودة (٤) ، أما ما كتبته المؤلفات البيزنطية عن

---

(١) لعل أهم المصادر التى تتناول الحروب الصليبية ، المعروفة باسم :
Recueil des Hisaoriens des Croisades (R.H.C.)

وتأتى فى خمسة أجزاء للمؤرخين الاوربيين ، وجزءين لدواوين الدولة اللاتينية فى الشرق وهذه الأخيرة ظهرت منذ أن ظهرت مملكة بيت المقدس فى فلسطين ؛ الا أنها لم تكتب الا فى بداية القرن الثالث عشر ؛ وانظر أيضا Riant :
Archives de l'Orient Latin

؛ ويضاف اليها ؛ بالنسبة لغزوة الاسكندرية على يد الصليبيين :
Chronique du roi Pierre Ier de Lusignan, publiée pour la première fois pour la Société de l'Orient Latin par de Mas Latrie. Genève, 1877.

(٢) فى المجموعة الصليبية ، فى جزءين ، انظر ·
R.H.C. Doc. arm. Cf.

(٣) أنظر · Langlois : Collection des Historiens, anciens et modernes de l'Arménie. Paris, 1867-1868.

كتب عن أرمينية من ١٠٧٦ الى ١٣٠٧ م ، وروبين هو كاتب ليون الثالث (١٢٧١ ١٢٨٩م

(٤) أنظر · Dölger : Der Vertrag Sultan Qalauns, von Agypten mit dem Kaiser Michael VIII Serta Monacensia Fran 3 Babigrer, 1952.

؛ وانظر · Canard : Une lettre du Sultan, Malik Nasir Hasan à Jean VI Cantacuzine (750/1349) A.I.E.O. Alger = 1937, vol. VII, p. 27-52.

الصليبيين(١) ؛ فلا تهمنا كثيراً ؛ بسبب أنها اقتصرت على علاقات مباشرة بينهما .

ويجب أن نهتم بكتابات الرحالين الأوربيين(٢) ، الذين زاروا الشرق، ووصل بعضهم إلى بلاد المغول وما يحيط بها ؛ حيث كان معظمهم من الرهبان الفرنشسكان، مثل رحلات جيوفاني دي بيان كاربينو Giovanni de Pian Carpino ، في ٦٤٣/ ١٢٤٥ ؛ ووليم أوف روبروك William of Rubruquis ، في ٦٥٠/ ١٢٥٢ ومار كوبولو Marco Polo ، في ٦٧٤ — ٦٩٢ ١٢٧٥ — ١٢٩٢ ، وريجولوتي Regolotti ، في ٦٨٨/ ١٢٨٩٢ ، وكلافيجو Clovijo ، في ٨٠٦/ ١٤٠٣.

أما الذين زاروا الأماكن المقدسة في الشام ، وهي من بلاد المماليك ، ولاسيما مدينة القدس ، التي كانت ولاية صغيرة ؛ إلا أن المماليك استحدثوا فيها نظام النيابة سنة(٣) ١٣٧٥/٧٧١. فنذكر منهم : دي روتلان De Rothelin(٤) ، في ٦٦٠/ ١٢٦١ ، وفرانيكولو Franiccolo(٥) ، في ٧٤٦ /١٣٤٦ وكاسولا Casola(٦) ،

Un traité entre Byzance et, : Canard,
l'Egypte au XIIIe. siècle et les relations diplomatiques he Michael VIII
Paléologue avec les Sultans mamluks : Baibares, et Qala'un. Mélange,
Le Caire 1937, p. 197-224.

(١) وهي في جزءين ، في مجموعة . R.H.C.

(٢) أنظر . Dictionnaire des Explorations. Larousse, 1966.

(٣) صبح ، ٤ ص ١٩٧ ، ١٢ ص ١٠٤ .

(٤) أنظر . De Rothelin. Le continuateur Anynome de, Guillaume de Tyr : La Sainte Citv de Jérusalem; rédigés en Français aux XIe, XIIe, et XIIIe siècles; ed. Henri Michelland et Gaston Raymond. Génève, 1882.

(٥) أنظر . Fra Niccolo of Poggibonsi. A voyage, beyond the Seas 1346-1356. Jerusalem, 1945.

(٦) أنظر . Canon Pietro Casola's Pilgrimage, to Jerusalem in the year 1494. Manchester, 1907.

فى ٩٠٠ / ١٤٩٤ ، والسير ريتشارد جى فورد[1] Guylforde، فى ٩١٢/١٥٠٦ .

أما الذين زاروا مصر بالذات ؛ فنذكر منهم رحالة إيطاليا ، اسمه برتراندو ميجانيللى Bertrando de Mignanelli[2]، الذى زار مصر فى عام ٨١٩/١٤١٦ ؛ فكان ما كتبه عن السلطان برقوق ؛ بعنوان Ascenus Barcoch ؛ أول ما كتب فى أوربا عن سلطان مملوكى ، وأهمية ما كتبه هذا الرحالة ؛ فى أنه عمل كمترجم لإحدى سفارات ميلانو بالقاهرة ، وشاهد غزو تيمورلنك ، الأمبراطور المغولى لدمشق ؛ حيث ألف كتاباً آخر باسم : سيرة تيمورلنك Vita Tamerlani[3].

ورحالة أوربياً آخر ؛ يبدو أن أصله من كريت ، اسمه عمانويل بيلوتى Emmanual Piloti[4]، الذى زار مصر ووصف أحوالها فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، وإن كان له كتاب آخر ، يصف فيه رحلته إلى الأراضى المقدسة[5] .

---

(١) ، انظر Guylforde : The Pilgrimage to the Holy Land, 1506/1912, 1851.

(٢) انظر : Fischel : Ascenus Barcoch. A Latin, Biography of the Mamluk Sultan Barquq of Egypt. Rendred into English with an introduction and a commantary. Arabica Jan, 1959, p. 57 sqq.

(٣) عن النص اللاتينى ، انظر : Baluzius : Vita, Tamerlani in Miscellanea, Vol. IV. Lucae, 1764, p. 137-141.

وترجمة انجليزية بعنوان : A new latin, Source on Tamerlane's conquest of Damascus 1400-1401; in Oriens Leiden, 1956, p. 201-232.

(٤) له ترجمة فرنسية ، Dopp ، بعنوان : L'Egypte, au commencement du quinzième siècle, d'après le traité d'Emmanuel Piloti de Crète Incipit 142. Le Caire, 1950.

(٥) أنظر . Piloti sur le passage en Terre Sainte. Paris, 1958.

ورحالة أوربياً آخر من الأندلس ، اسمه بيروطافور Pero Tafur [1] ، الذى زار مناطق كثيرة فى البحر الأبيض ، بما فيها بلاد دولة سلاطين المماليك ؛ حيث بقى فى القاهرة وحدها ثلاثين يوماً ، كما زار قبرص ، التى كانت خاضعة للمماليك .

وأخيراً الرحالة القشتالى والسفير بدرو مارتن Pedro Martin [2] ، الذى زار مصر فى أيام السلطان الغورى فى ٩٠٦ / ١٥٠١ ، وزار الإسكندرية بالذات ، التى كانت أهم ميناء تجارى على البحر الأبيض ؛ حيث كثر فيها القناصل من دول العالم .

أما المراجع الحديثة عن المماليك ؛ فهى تشمل ما ألفه مؤرخون حديثون أوربيون ومصريون؛ اهتموا بدولة سلاطين المماليك ، وكرسوا عاميتهم لهـا . فنذكر من المؤرخين الأوربيين :

Guemard, Goitein, Gibb, Fischel, Petis de la Croix, 'Quatremère, Deguignes, Cahun, La n, Jomier, Heyd, Hans Ernest Lavoix, Laoust, Lane-Poole, Lammens, Pauty, Minorsky, Mercier, Meyer, Massé, Reinaud, Pierenne, Poliak, Pernoul, Canard, Van Berchem, Tyan, Sauvaget, Demombynes, Creswell, Colin, Casanova, Mayer, Wiet, Cahen, Ayalon, Devonshire, Becher, Ashtor, Muir, Zambauer, Garcin, Cahen, Cavaignac, De Cosson, Combe, Guillaume de Marchant, Holt, Bernard Lewis, Kable, Köprülü.

أما المؤرخون المصريون والعرب ، الذين اهتموا بدولة سلاطين المماليك ؛ فهم كثيرون ،

---

(١) رحلة طافور ، ترجمة عربية ، من حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨ .

(٢) أنظر .

Una Embajada, : Pedro Martin.
de Los Reyes Catholicos a Egipto Valladolid, 1947.

نذكر منهم : سعيد عاشور ، وجمال سرور ، والباز العرينى، ودراج ، وحسن الباشا ، والشيال ، وعبد الرحمن زكى ، وعبد اللطيف إبراهيم ، وحسن إبراهيم، وعلى إبراهيم ، وأحمد فكرى ، ومحمود رزق سليم ، ومحمد محمد أمين ، وعلى بهجت ، وأرتين باشا ، ودراج ، وسيده كاشف ، وطرخان ، وحامى أحمد ، وتوفيق سرور ، ومصطفى زيادة ، ونقولا زيادة ، وجوزيف نسيم، والحويطر ، وعبد المجيد بدر ، وأحمد عبد الرازق ، محمود نديم ، وغيرهم .

الفصل الأول

قيام دولة المماليك في مصر

اعتماد الأيوبيين على المماليك - أصل نظام المماليك — اتساع النظام بسبب غزوات المغول — ظهور طائفة المماليك الترك أو التركمانية في مصر — انتقال سلطة الحكم إلى المماليك — تولية شجرة الدر ثم أيبك السلطنة .

نعرف أن صلاح الدين الأيوبي ؛ قد تمكن من تكوين جبهة إسلامية واسعة ، تمتد من طرابلس غرباً ، حتى الفرات ودجلة شرقاً ؛ فضلا عن امتدادها إلى الحجاز واليمن في الجنوب . ولكن هذه الجبهة الموحدة القوية ؛ سرعان ما تمزقت بعد موته ؛ إذ ترك صلاح الدين سبعة عشر ولداً[1] ؛ غير الأخوة وأولاد العم ؛ فوقع بينهم الخلاف ؛ ووثب بعضهم على بعض ؛ ولم يقنع أحدهم بما في يده ؛ مع أن صلاح الدين كان قد قسم دولته بينهم ؛ فكونوا إمارات متشاحنة ؛ كل واحد منهم جعل له أتابك[2] ، أي وصياً على أبنائه ؛ وذلك على الطريقة السلجوقية ، السائدة في عصرهم ؛ فكان الأتابكة بدورهم يسمون إلى السيطرة والتشاحن فيما بينهم . ومع ذلك ؛ فإنهم كانوا يتحدون ؛ إذا ماظهر خطر خارجي من وراء البحار ؛ حينما يهاجم الصليبيون دمياط أو بيت المقدس .فهذا الطابع للمنازعات والمشاحنات ؛

---

(١) الفتح القسى ، ص ٣٢٦ · يقول ابن تغرى بردى انهم ستة عشر ذكرا وابنة واحدة · النجوم ، ٦ ص ٦٢ ؛ انظر ماجد ، الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى ، ص ١٨٧ ·

(٢) هى لفظة تركية مركبة من كلمة « أتا » بمعنى أب ، وكلمة « بك » بمعنى السيد الذى يربى أولاد الملوك · وفيات (ص ٣٤٤ ؛ انظر · حسن باشا ، الألقاب الاسلامية ، ص ١٢ وما بعدها ؛

Ency. de l'Isl. (art Atabek ou Atabeg), t. I, p. 753-4.

هو لقب سلجوقى ، ظهر بظهور السلاجقة ، منحة ملكشاه لوزيره نظام الملك ، واستحدثه الأيوبيون ·

بين أفراد الأسرة الأيوبية ، استمر طوال الفترة ، التى حكمت فيها الدولة الأيوبية ، فى مصر وبلاد الشام وبلاد الجزيرة .

فبعد موت صلاح الدين ، انقسمت أملاكه بين أبنائه الكبار ؛ فكانت مصر من نصيب العزيز عثمان ، والشام من نصيب الأفضل على ، وحلب من نصيب الظاهر غازى ، وبلاد الجزيرة فى يد العادل أبو بكر(١) ، أخى صلاح الدين ، واليمن فى يد طغتكين ، الذى ورث أباه توران شاه فى حكمها ، وهو أخو صلاح الدين ، ولكن العادل كان مثل أخيه صلاح الدين ؛ يرمى إلى إقامة الدولة الموحدة ؛ حيث استطاع إقامتها إلى حد ما ؛ حينما ضم إمارات أبناء أخيه ؛ فتداخل بينهم ؛ وحارب الجميع إلى أن استطاع أخيراً أن يصبح وصياً على المنصور ، ابن العزيز فى مصر ، الذى كان صغيراً ؛ فعزله وأعلن السلطنة لنفسه فى مصر .

ولكن عند موت العادل حدث ما حدث من قبل ؛ بعد موت صلاح الدين ؛ فقد كان العادل وزع مملكته بين أبنائه ؛ ففى دمشق المعظم عيسى ، وفى مصر الكامل محمد ، وفى بلاد الجزيرة الأشرف موسى ؛ فاستطاع الكامل ، مثل أبيه وعمه ، من قبل ، توحيد مصر ، مع الشام ، مع بلاد الجزيرة . ولما توفى الكامل ؛ تولى بعده ابنه العادل الثانى ؛ ولكن أخاه الأكبر نجم الدين أيوب نازعه النفوذ ، وأخذه وسجنه ، وتسلطن بدله فى مصر . ولما توفى نجم الدين أيوب ، تولت الحكم زوجته شجرة الدر ، وابنه توران شاه ؛ إلى أن سقطت الدولة الأيوبية .

ومع ذلك ؛ فإن أقوى أفراد البيت الأيوبى ، كان من يتولى حكم مصر ؛ وحينئذ يلقب بالسلطان ؛ حيث نجح عدة مرات فى أن يجعلهم يعترفون بنفوذه عليهم . وفى أول الأمر ، كان يعتمد فى ذلك ؛ على الكرد من بنى جنسه ، الذين ينتمى الأيوبيون إليهم ؛ إذ كان كل من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين قد

---

(١) عن منازعاتهم ، انظر : كتاب التاريخ المنصورى . لابن نظيف ـ المعاصر لهم ـ تحقيق أبى العيد دودو ، دمشق ، ١٩٨٢ .

جلب منهم أعداداً فى مصر ، عرفوا باسميهما : الأسدية والصلاحية ، ويبدو أن سلاطين مصر الأيوبيين ؛ كانوا قد امتنعوا عن أن يجلبوا طوائف أخرى منهم ، من موطنهم الأصلى فى المشرق . ولكن كثرة المشاحنات ، بين أفـــراد الأسرة الأيوبية ؛ جعلت السلطان الأيوبى فى مصر ؛ يعتمد على عنصر آخر ، يكون مالكاً له ؛ وتحت تصرفه فى كل وقت ؛ وهو عنصر المماليك؛ وهو غير عنصر الأكراد..

ولفظة « المماليك » أو « المملوكون(١) » — وإن كانت هذه الأخيرة غير مستعملة — ومفردها « مملوك » ، فى أصلهـــا اللغوى ؛ مستخرجة من فعل « مَلَكَ » ؛ لتعنى الرقيق الذى يشترى بقصد تربيته والاستعانة به كجند وحكام . هذه اللفظة حلت محل لفظة «عبيد »، ومفردها عبد — ومؤنثها جارية — التى استعملت فى العصر الإسلامى الأول ؛ وذلك لأن الإسلام بميوله الإنسانية ؛ كان يرفع من شأن الرقيق(٢) ؛ إذ لفظة العبيد تعنى العبودية ، والعبد يولد من الرقيق ؛ بينما المملوك يولد من أبوين حرين ، ويباع ؛ كما أن العبد قد يعنى انساناً أسود اللون ؛ بينما المملوك كان غالباً انساناً أبيض اللون .

*

ولا شك أن أصل نظام المماليك عموماً ؛ يتصل اتصالا وثيقاً بحيـــاة القصر الإسلامى ؛ منذ نشأته ؛ فى أيام الأمويين ؛ وكان معظم مماليكهم فى أول الأمر من سبى الترك فى وسط آسيا ؛ حيث يقول الكاتب الجاحظ ، عن هؤلاء : إن أجسامهم من دون أجسام سائر الناس ؛ بنيت على تقبل اللحوم(٣) ، وأنهم أقرب الشعوب

---

(١) عن ذلك ؛ انظر . لسان العرب ، ١٢ ص ٣٨٣ ؛ انظر .
Ency of Isl. (art Mamluk) 2ed, t 3, p. 230 sqq.
؛ ماجد ، نظم المماليك ورسومهم فى مصر ، ١ ص ١١ وما بعدها .

(٢) كلمة « مملوك » ، وردت فى القرآن الكريم : سورة ١٦ : ٧٧ .

(٣) الجاحظ ، رسالة الى الفتح بن خاقان فى مدح الترك ، تحقيق هارون ، مصر ١٩٦٥ ، ص ٢٩ ؛ انظر . سعد زغلول ، الترك والمجتمعات التركية ، ص ٧٣ .

إلى العرب ، حتى عرفوا بأعراب العجم[١] . كذلك توسع العباسيون فى هذا النظام من بعد الأمويين ، من مماليك الترك أيضا ؛ وبذلت الأموال لشرائهم ؛ فقد كان الخليفة المأمون العباسي ؛ يشتريهم ليجعلهم حراسه الأمناء ؛ وتغالى فى شرائهم . حتى أنه كان يشترى الواحد منهم بمائتى ألف درهم[٢] ، وهو مبلغ كبير وقتذاك ؛ وقد أقتدى به ابنه المعتصم من بعده ؛ فاستخدمهم فى جيشه[٣] ، وفى حكم الولايات واعتمد عليهم اعتماداً كبيراً ؛ حتى أنه أسقط عطاء العرب من الديوان[٤] ؛ وجعل معظم العطاء لمماليكه الترك ؛ مما جعل قواد الترك المماليك يلعبون دوراً هاما فى سياسة العباسيين ؛ وصل إلى حد التحكم فى تولية الخلفاء العباسيين أنفسهم .

وقد عرفت مصر الولاة من هؤلاء المماليك ؛ مثـــل : أحمد بن طولون والإخشيد ، اللذين استـكثرا من استخدام المماليك فى جيوشهما ؛ فابن طولون قد استـكثر من مشترى المماليك ؛ حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك ؛ أما الأخشيد ؛ فـكان يسير فى موكبه ثمانية آلاف مملوك[٥] . ولما جاء السلاجقة إلى الشرق الإسلامى — وهم ترك من وسط آسيا — زادوا من استخدام المماليك ؛ بحيث أن كل أمير سلجوقى ، كان يحيط نفسه بجماعة منهم ؛ فيذكر الوزير السلجوقى نظام الملك ، فى كتابه : سياست نامه[٦] ؛ ضرورة استعانة الأمير بالمماليك . وعلى العكس ؛ فإنه لمـــا جاء الفاطميون إلى مصر ؛ استـكثروا من السودانيين ؛ وسموهم عبيد الشراء أو الشرى[٧] ؛ لشرائهم إياهم بالمال ؛ ولذلك لايعتبرون من المماليك ، وإنما من العبيد .

*

---

(١) الجاحظ ، رسالة ، ص ٧ .

(٢) المقريزى ، النزاع والتخاصم ، تحقيق Vos ، ص ٦٣ .

(٣) نفسه ، ص ٦٤ ، وانظر ابن حسول ، كتاب تفضيل الاتراك على سائر الأجناد ، تحقيق عباس العزاوى ، استانبول ١٩٤٠

(٤) النزاع ، ص ٦٣ .

(٥) النجوم ، ٤ ص ٢٥٦ ؛ ابن اياس ، بدائع ، ١ ص ٣٧ .

(٦) أنظر . Siasset Nameh trad., Schefer, p. 135.

(٧) ابن اياس ، بدائع ، ١ ص ٤٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، ط بولاق ، ١ ص ٣٣٥ .

ولعل الذى ساعد على الإكثار من المماليك فى عصر الأيوبيين بالذات؛ التحركات الناجمة لعناصر أسيوية ، وهم المغول ؛ مما جعل هذا النظام يتسع اتساعاً كبيراً ؛ بسبب ماسببه المغول من دمار . فحينما هاجم جنكيز خان ، زعيم المغول، فى وسط آسيا ــ مجال أمم الترك خاصة ــ كان الأسيويون يهربون أمامه ، ورغبة فى الحصول على مايسك رمقهم ؛ كانوا يبيعون ذكور أولادهم وإناثهم[1] ؛ بسبب قسوة بيئتهم، فقد كان من عادة الشعوب الأسيوية ؛ أن تبيع أبناءها ؛ ولم يزل الصينيون إلى عهد قريب ، يبيعون أبناءهم .

يضاف إلى ذلك أن المغول فى تحركاتهم كانوا يستولون على أسرى كثيرين ؛ ويبيعونهم كرقيق فى الأسواق ؛ فقد كان المغول يوجدون فى كل مكان ، ويملأون الوديان وسفوح الجبال بجموع كثيرة[2]، وخيولهم لاتتعب أبداً ، وليست فى حاجة إلى العلف ، فهى تنقب الأرض بحوافرها بحثاً عن جذور النبات الذى تقتات به ، وكأنهم السيل أو الجراد ؛ بحيث أنهم وهم يهبطون على المدن أو الأمكنة فيملأونها؛ ولم يعد الناس يجدون ملجأ لهم لا فى الكهوف أو الغابات أو حتى فى أعماق الوديان ؛ بل كان المغول يجمعون الأسرى فى حظائر وكأنهم أغنام أو حيوانات ؛ فمن لا يقتل ، يباع كرقيق .

كل هذا أوجد سوقاً هامة لتجار المماليك فى مصر أيام الأيوبيين ؛ بحيث أن هؤلاء التجار زادت أعمالهم إلى حد أنهم لم يكن يخصون الرقيق كما كانوا يفعلون من قبل ؛ ليعملوا فى البلاط فى خدمة الحريم ، أو ليكونوا خلصاء الأمير الذى يضع حياته بين أيديهم ، ولكنهم كانوا يبقون على رجولتهم ليكونوا جنوداً أقوياء . ومع ذلك ، فإنه كان من الأسيويين أو حتى من غيرهم من يأتى مقبلا على المخاطرة برغبته من غير تاجر مماليك .

---

(١) معجم البلدان ، ٢ ص ٣٧٩ س ١٢ .

(٢) انظر Fragments, relatifs aux Mongols, trad., : Dulaurier, Guirgos J.A., 1828, p. 217-219.

؛ سعد زغلول ، الترك ، فى عالم الفكر ، ص ٤٢٣ .

ولاشك أن تجار المماليك وجدوا فى مشاحنات ملوك الأيوبيين، وسيلة لزيادة دخلهم من بيع المماليك ، ولاسيما أن السلطان الأيوبى ؛ الذى كان يشترى منهم الآلاف ؛ حتى أن المؤرخ المصرى ابن إياس يقول ضاقت القاهرة بالمماليك[1] . فكان يباع منهم للسلطان الأيوبى أو لأمرائه ؛ فإذا كان صغير السن أعطى للحريم لتربيته ؛ وإن كان شاباً يعلم ويعيش فى القصر مع السلطان، ثم يعتق ويحفظ الجميل لسلطانه . وقد كان لتربية المماليك فى مصر ؛ تحت إشراف السلطان الأيوبى ، ما جعلهم يتميزون بالأخلاق العالية ، والمنظر الطيب ؛ مما كان يهيئهم لأعلى المناصب فى الدولة والجيش .

*

وقد بدأ يظهر نفوذ المماليك فى مصر بعد موت السلطان الملك الكامل ، خامس السلاطين بعد صلاح الدين فى مصر ، الذى كون فرقة له من المماليك عرفت باسمه : الكاملية . فقد استطاع الكامل بهم توحيد مصر وسورية وبلاد الجزيرة ؛ ولكن موته جعل دولته تنقسم بين ابنه العادل الثانى ، الذى أخذ مصر وسورية ، وابنه الآخر نجم الدين أيوب ، الذى تلقب بالملك الصالح[2] ، وأخذ بلاد الجزيرة . وكان العادل الثانى ضعيفاً ، مع أنه كان تحت يده عدد كبير من مماليك أبيه ، وقد طمع نجم الدين فى ملك أخيه ، وكان ذكياً ؛ فاستطاع أن يستميل مماليك أخيه ، وتمكن من الاستيلاء على سورية ، ومصر ، وأسر أخاه ، وحبسه فى القلعة على جبل المقطم ؛ ونصب نفسه سلطاناً — ملكاً — وأرسل إلى أخيه من يقتله فى السجن فى عام ٦٣٧/١٢٤٠ .

وبعد ذلك ، عمل نجم الدين الذى لم يعد يثق فى مماليك أخيه ، وقد خانوا سيدهم ؛ على التخلص منهم . وقد كانت هناك جماعات هربت أمام تحرك المغول من خوارزم فى بلاد ماوراء النهر ، وجاءت مشردة إلى الشام ؛ فاستعان بهم نجم

---

(١) ابن اياس ، بدائع ، ١ ص ٨٣ .

(٢) عنه ، بتفصيل ، انظر ، Ency de l'Isl. (art al-Malik as-Sâlih) led., t. 4, p. 112 sqq.

الدين لمقاومة مماليك العادل الثاني . ويبدو أن هذه الجماعات بعد ذلك عاثت في الشام فساداً ؛ لأنه لم يسمح لهم بالنزول في مصر ، وجعلهم يقيمون في غزة(١) ؛ مما اضطر نجم الدين أن يذهب إلى الشام ، على رأس جند آخرين ، ليقضي على خطرهم .

ولما فكر نجم الدين في تكوين فرقة من المماليك الطازجة له ، جلب معظمها من عنصر التركمان أو التركمانية ، أي من فئات الترك(٢) المسلمين ؛ حتى أن المؤرخ ابن تغرى بردى قال إن نجم الدين ، هو الذي أنشأ المماليك الترك في مصر(٣) ؛ فهو فعل في دولته ما فعله المعتصم العباسي ؛ بالاعتماد على المماليك الترك بالذات ، من دون غيرهم بحيث زادوا في عهده زيادة هائلة عن أي عنصر آخر من المماليك في مصر ، وكونوا أمير جنده ، وبنى لهم قلعة في ساحل النيل خلف الفسطاط في منطقة الروضة ، وما سمى بالجزيرة الصالحية (٤) أيضا ، في سنة ونصف ؛ وبسبب ذلك عرفوا بطائفة المماليك البحرية(٥) ، والمقصود بالبحر النيل ، أو ربما لأنهم كمماليك جاءوا مع التجار عن عن طريق البحر(٦) ، وليس عن طريق البر ؛ وأصبحت هذه الطائفة من المماليك ،

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١ ص ٣١٦ .

(٢) صبح ، ١ ص ٣٦٧ . عنهم ، انظر . Wiel :
La Tourkmènie et les Tourkmènes. Paris, 1880
؛ وأيضا : Ibrahim Kofesoglu :
A propos des Türkman. Oriens Vol. II. Leiden, 1938, p. 146-150.
؛ وانظر . سعد زغلول ، الترك والمجتمعات التركية ، ص ٦٠ ؛ وبعده .

(٣) مورد اللطافة ، ص ٣٢ .

(٤) فورد ذلك في مخطوط من دار الكتب برقم ٢٧١٢ فيه فصل بعنوان : كتاب الاغتباط في حلى الفسطاط .

(٥) عنهم ، انظر .
Ency. of Isl. (art al-Bahriyya) 2éd., t. I, p. 944-5.
؛ وأيضا . Ayalon : Le régiment Bahriya dans, l'armée Mamelouke R.E. I, 1952, pp. 133-141.

(٦) انظر . رضا نور ، تاريخ الترك ، ط . ١٩٢٦ ، ٩ ص ١٩١ . أوردها الشيال تاريخ مصر الاسلامية ، ١٩٦٧ ، ص ١٤٧ .

تنسب إلى نجم الدين صالح ؛ فعرفت باسمه أيضاً : الصالحية ، أو بالاسمين معاً : الصالحية البحرية (١) .

*

ولكن انتقال سلطة الحكم فى مصر إلى المماليك ينسب على الخصوص إلى شجرة الدر ؛ فهذه المرأة التى أصلها هى الأخرى من الرقيق ؛ كان قد اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، قبل توليته سلطاناً على مصر ؛ وأنجبت منه ولداً اسمه خليل ؛ ولذلك عرفت به : أم خليل ؛ ولما كانت قد سيطرت على زوجها بجمالها وذكائها ؛ حيث وصفت بأنها بديعة الجمال (٢) ؛ فقد غمرها بالدر والجوهر ؛ وبسبب كثرة مجوهراتها اشتهرت باسم : شجرة الدر أو شجر الدر (٣) ؛ أو شجرة الدر الصالحية ، نسبت له ؛ أو لعلها سميت هكذا : لأنها امرأة ثقة كالشجرة التى تظلل عرشه . هذه المرأة سيطرت فى حياة زوجها السلطان على شئون الدولة أيضاً ؛ وكانت تلقى من وراء حجابها بالأوامر ؛ ولما كان يذهب زوجها فى حملاته إلى الشام ؛ فإنه كان يتركها نائبة عنه فى مصر .

وقد أتيحت الفرصة قوية للمماليك فى مصر بالتدخل فى الحكم ، لمجابهتها حملة فرنسية صليبية (٤) بقيادة الملك لويس التاسع (٥) Roy Louis IX — سماه المسلمون فى وثائقهم ريد فرنس ، أى ملك فرنسا Roi de France — حيث

(١) الخطط ، ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧ س ٨ .

(٢) ابن حبيب ، درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، برقم ٤٦٨٠ ورقة ٧ .

(٣) انظر Hist. des Croisades, t. 3, p. 42 8-9 : Grousset ؛ بتفصيل : Ency. of Isl., (art Shadjar al-Durr) 1ed., t. 4, p. 249-50.

(٤) المقريزى ، السلوك ، ١ ص ٣٤٢ ـ ٣٤٦ ؛ انظر .

Joinville : Histoire de Saint Louics. Texte original de XIVe. siècle, accompagné d'une traduction en Français moderne par Natalis de Wailly. Paris, 1877.

Idem : Memoire of Louis IX, king of France. An English translation by Johnes of Hafod. London, 1848.

Icdm : The life of Saint Louis. Penguin, 1977.

؛ مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، وهزيمته فى المنصورة ، القاهرة ١٩٦٠ . ؛ جوزيف نسيم ، العدوان الصليبى على مصر ، الاسكندرية ١٩٦٩ .

(٥) صبح ، ٨ ص ٣٦ ؛ انظر . حسن الباشا ، الألقاب ، ص ٣٠٧ .

اعتبرت مملكته أصل مملكة الفرنجة في أوربا (١) . فجاء في أعداد كبيرة؛ بصحبة الملكة زوجته مارجريت Marguerite، وأخويه، وعدد كبير من الأمراء، ومن النبلاء؛ فتجمعوا في قبرس؛ فحملتهم سفن الجنويين والبيزيين؛ إذ لم يكن للفرنسيين أسطول وقتذاك؛ فقد لاحظ المؤرخ ابن فضل العمري ذلك (٢) ، فقال إن عساكر الملك الفرنسي لويس التاسع في البر، أطول منها في البحر، وأنه ليس من أسطول ولا مراكب؛ فوصلت الحملة إلى دمياط، واستولت عليها في صفر ٦٤٧ / ٥ يونية ١٢٤٩ وقبل مجيء الحملة، كان ملك فرنسا، قد أرسل رسولا إلى نجم الدين، يطالب ببيت المقدس (٣) ، على أن تبقى مساجد المسلمين، وإدارة إسلامية فيه، وأن يدفع الجزية؛ وإن كان عرضه قد لقى قبولا من القبط، إلا أن المسلمين قد رفضوه؛ ورد الملك الصالح بالرفض؛ كما كان لويس يحرض ملوك أسبانيا النصارى للاشتراك معه في الحملة.

ثم مات السلطان الملك في المنصورة، وهو يترقب هجومهم، في منتصف شعبان ٦٤٧ / ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩ (٤)؛ فجمعت شجرة الدر مماليكه، وتكتموا موته؛ خوفا من أن الفرنجة يطمعون في البلاد، وحمل جسده في مركب إلى القلعة في الروضة، واستمرت المراسيم تخرج حاملة علامة السلطان. ولما قتل قائد الجيش المملوكي؛ فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، في أثناء قتالهم؛ ويبدو أن همته كانت ترقى إلى أن ينال الملك (٥) ؛ بعد نجم الدين؛ فإن شجرة الدر كلفت القيادة في الجيش، إلى إبراز المماليك،

---

(١) صبح، ٨ ص ٣٤ .

(٢) أنظر . تحقيق أماري Amari ، Roma ؛ ص ٧ ؛ انظر جوزيف، علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية؛ بحث مستخرج ١٩٧١، ص ٧٣ وهامش (٥) .

(٣) صبح، ٨ ص ٣٦ — ٣٨ ؛ السلوك، ١ ص ٣٢٤ — ٣٢٥ .

(٤) النجوم، ٦ ص ٣٢٠ ؛ انظر . الباز، مصر في عهد الأيوبيين، ١٩٦١، ص ١٤٢ .

(٥) أنظر . أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت ١٩٦٩، ص ١٠٣ .

وهو بيبرس[١] ، الذى يعنى الفهد ، ولد فى عام ٦٢٠/١٢٣٣ ، وبيع للملك الصالح بما قيمته عشرين جنيها ؛ حيث كان سيده أيدكين بندقدار ، الذى عمل فى خدمة الملك الصالح ، وهو فى الشام ، فنسب إلى الاثنين ؛ فعرف بالصالحى أو البندقدارى ، وكان بيبرس يمتاز بالذكاء والفروسية تدرب على قتال أعداء المسلمين ؛ فكان تعيينه فى قيادة الجيش الأيوبى ، إيذانا بوضع قوة الدولة الحربية بالفعل فى يد المماليك ..

وفى الوقت ذاته أرسلت شجرة الدر إلى رئيس المماليك ، واسمه فارس الدين أقطاى (أو أقطيا) الصالحى ، نسبة إلى أستاذه الملك الصالح أيضاً ، ليدعو توران شاه ، ابن الملك الصالح ؛ وولى العهد ، من بلاد الجزيره ؛ إذ كان خليل ، ابن شجرة الدر قد توفى وهو صغير .

كذلك مملوكاً ثالثاً ، وهو عز الدين أيبك الجاشنكير[٢] الصالحى أيضاً ، أى من وظيفته تذوق الطعام قبل أن يتناوله السلطان ؛ حتى لايسمه أحد[٣] ، عرف بتدينه وجرأته ، أصبح اليد اليمنى لشجره الدر .

ولما وصل توران شاه إلى مصر ، الذى تلقب بالسلطان الملك المعظم ، بعد رحلة طويلة ، بدأت من حصن كيفا — بلده فى بلاد الجزيرة ، مشرفة على دجلة — ماراً بدمشق وغزه ؛ حتى وصل إلى ميدان المعركة مباشرة ؛ دون أن يمر بالقاهرة ، حيث أن الفرنسيين قد انتشروا فى الدلتا ؛ فهزمهم هزيمة ساحقة عند فارسكور ، فى

---

(١) صبح ، ٢ ص ١٤٥ ، ٥ ص ٤٥٨ ؛ انظر ، جمال سرور ، بيبرس ، ١٩٣٨ ، ص ٢٩ ، ؛

Ency. of Isl., (art Baybars I) 2ed., t. I, p. 1124 sqq.

(٢) صبح ، ٤ ص ٢٩ ، ٥ ص ٦٠ ، ؛ Corpus, I, p. 2 ؛ نظم المماليك ، ٢ ص ٤٩ .

وهى كلمة مكونة من جاشنى ومعناها ذوق ، وكير ومعناها المتناول .

المحرم ٦٤٨/ أبريل ١٢٥٠ ؛ حيث استخدم المماليك النار الإغريقية بقوة[١] ، وربما البارود أيضاً ، الذي كان المصريون قد عرفوا استخدامه كسلاح حربى ؛ مما أخاف فرسان أوربا ، كما يذكر جوانفيل Joinville [٣] ، الذى صاحب الحملة الفرنسية ، وألف عنها .

ولما هرب الفرنسيون إلى المنصورة المجاورة ، دارت فيها حرب الشوارع [٣]، بالسلاح الأبيض والعصى والحجارة ؛ فكان تدفقهم إليها بمدهزيمتهم أن أوقع بهم خسائر كبيرة ، بلغت خمسين ألفا[٤] ، مابين قتلى وجرحى وأسرى ، بما فيهم الملك الفرنسى نفسه ، الذى أسره فى إحدى طرقات المنصورة مماليك السلطان ، الذى أطلق عليهم جوانفيل Joinville ، جند الحلقة Halequa[٥] ؛ لأن أساس عملهم كان الإحاطة بالسلطان ؛ فحمل الملك فى القيود ، وأودع دار فخر الدين بن لقمان[٦] ، صاحب ديوان الانشاء ؛ الذى فوض فى أمره الطواشى صبيح ؛ ليحبسه فى بيته — دار ابن لقمان — أما زوجة الملك مارجريت ، فلم تقع فى الأسر : لأنها بقيت فى دمياط .

وقد تمكن توران شاه من أن يعقد مع لويس اتفاقية ، من نصوصها أن يتعهد توران شاه ، من جانبه ؛ بأن يطلق سراح الأسرى المسيحيين فى مصر والشام ، حتى هؤلاء الذين أسروا من أيام السلطان الكامل ، الذى كانت قامت فى

---

(١) أنظر Joinville, p. 46; p. 52

(٢) أنظر Feu Grégeois. Paris, 1845, p. 53 sqq.: Reinaud et Favé.

أورد ذلك الممبيد عمودنديم فهيم ، فى رسالته للماجستير التى ظهرت مطبوعة مؤخراً عام ١٩٨٣ .

(٣) أنظر . الباز ، مصر فى عصر الأيوبيين ، ص ١٤٦ .

(٤) صبيح ، ٨ ص ٣٨ . لدينا نص كتاب توران شاه عن انتصاره بالمنصورة . أنظر . سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، طبع الهند ، ٨ ص ٧٧٨ — ٧٧٩ .

(٥) أنظر . Grandeur, p. 252 : Wiet و Joinville, p. LXIX

(٦) أنظر . La maison dc, : Hassan Abdel Wahab Lokman. C.H.E. Vol. 2, 1949, pp. 529-539.

عهده حملة فرنسية صليبية مشابهة . أما لويس ؛ فقد تعهد من جانبه بأن يدفع فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار بالعملة البيزية[1] ؛ يدفع منها نصفها مباشرة ، والنصف الآخر عند رحيله من عكا ، جمعتها له زوجته وهى فى دمياط ، كما يسلم الأسرى المسلمين فى حوزته ، الذين وقعوا فى أسر المسيحيين حتى فى الشام ، ويسلم مدينة دمياط ، أما مايوجد فيها من أمتعة الفرنسيين ؛ فترسل لهم فى وقت لاحق .

ومع هذا النجاح الكبير لتوران شاه فى حربه مع الفرنسيين ؛ إلا أن تصرفه نحو مماليك أبيه ؛ حدد لمن ستؤول السلطة أو السيطرة فى مصر ؛ ستكون للأيوبيين الأكراد ، أم لطائفة المماليك الترك . وعلى كل حال كان توران شاه ، قد قدر لهذا الصراع مقداره ؛ بحيث كان قد حضر ومعه الأكراد من بنى جنسه ؛ مع أن أباه كان قد ترك له وصية — لدينا نصها[2] — نصحه فيها بضرورة الاستماع إلى نصائح زوجته شجرة الدر ؛ واستمالة قلوب مماليك أبيه ، أو ربما كان توران شاه ينوى تسليم مصر إلى الخليفة المستعصم بالعراق [3] .

فمن أول يوم وصوله إلى مصر ؛ عمد إلى أن يقاوم سلطة المماليك البحرية الترك المتزايدة فى الدولة ؛ فمثلا تنكر لفارس الدين أقطاى ، الذى كان أرسل لاستدعائه من بلاد الجزيرة ؛ ليتولى السلطنة بعد أبيه ؛ فأبعده عن مجالسه ؛ حيث كان يضرب فيها برؤوس الشمع ؛ حتى تنقطع ؛ ويقول : هكذا أفعل بالبحرية [4] ، ويضرب بشمعة شامة بعد أن يسميها باسم المملوك .

ومع ذلك ؛ فإن المماليك البحرية لم يثوروا عليه ؛ إلا حينما تجرأ على شجرة الدر ، وكانت هى التى رفعتهم إلى أعلى مراتب الدولة بعد موت زوجها ؛ وذلك بأن

---

(١) النجوم ، ٦ ص ٣٧٤ .

(٢) أنظر الوصية فى كتاب النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٥٤٩ معارف عامة ، ورقات ٨٩ — ٩٣ ؛ انظر : محمد محمد أمين ، الملك الصالح نجم الدين أيوب ، رسالة ماجستير لم تنشر ، ص ٢٣٩ — ٢٤٩ .

(٣) النجوم ، ٦ ص ٣٢٨ .

(٤) نفسه ، ٦ ص ٣٧٢ .

أخذ يحاسبها على مال أبيه ويطالبها به وبالجواهر (١)؛ فقرر المماليك البحرية قتله بفارسكور، وقيل إن شجرة الدر نفسها، هي التي أمرتهم بذلك؛ فدبرت مؤامرة قتله في المأدبة التي أقيمت احتفالا بالنصر على الفرنسيين، في يوم الاثنين ١٩ من المحرم سنة ٦٤٨/٢٣ أبريل ١٢٥٠ (٢)، ولما رأى توران شاه السيوف تلمع أمام عينيه، حاول الهرب؛ فعاجله بيبرس بضربة سيف قطعت أصابعه، فأسرع إلى البرج الخشبي الذي نصب بفارسكور، والدماء تنزف من أصابعه؛ فأشعل المماليك النيران في البرج وأحرقوه، ومع أن النار اشتعلت بجسد توران، فإنه رمى بنفسه في النيل، وهو يقول: لا تقتلوني، ولا أريد ملكاً؟ ولكن النشاب — وهي السهام — عاجلته، وسبح بعض البحرية وراءه، عاقبهم بيبرس قائد الجيش؛ وقطعوه بالسيف؛ حتى مات جريحاً حريقاً غريقاً؛ فأخرج أقطاي قلبه، وقدمه لملك فرنسا، الذي لم يكن قد غادر المنصورة بعد؛ حيث كان توران شاه قد أساء إليه، بعد أسره؛ وبذلك انتهى حكم توران شاه، الذي لم يدم غير شهرين.

*

عندئذ أصبح هناك عدة أشخاص من كبار المماليك الترك أو طائفة البحرية؛ كل منهم يطمع في حكم مصر، وهم: بيبرس قائد الجيش، وفارس الدين أقطاي مقدم المماليك (٣)، وعز الدين أيبك الجاشنكير (٤)، الذي حاز على مايظهر قلب شجرة الدر؛ فكان خوف كل واحد من هؤلاء الطامحين من الآخر؛ مما جعلهم يتفقون على سلطنة شجرة الدر، وحلفوا لها؛ على أن يكون عز الدين أيبك مدبراً المملكة.

---

(١) ابن حبيب، درة ،١ ورقات ١٥ — ٥ ب.

(٢) نفسه، ١ ورقة ١٥ — ٥ ب. كذلك جوا نفيل، الذي كان في حملة لويس، وصف قتله، بلغته الفرنسية الدارجة، بما يتفق مع المصادر الإسلامية. أنظر. Joinville : Loc. Cit. LXIX, cf. وقيل في ٢ صفر سنة ٦٤٨/٢ مايو ١٢٥٠.

(٣) الذي يشرف على تعليم المماليك. بتفصيل: ماجد. نظم ،٢ ص ٤٧.

(٤) يتصدى لتذوق الطعام والشراب بمنزل السلطان. نفسه ،٢ ص ٤٩ — ٥٠؛ قبله

ولكى تبقى شجرة الدر على سلطانها ، اعتمدت كلية على المماليك الترك من البحرية ؛ فزادت فى إقطاعاتهم ، وفرقت عليهم الوظائف ؛ بحيث زادت قبضتهم على المملكة ، ومع ذلك ؛ فكان عز الدين أيبك لايتصرف فى أى أمر إلا بعد مشورتها ، وكانت توقع على المراسيم بعلامتها الخاصة : « والدة خليل » ، ونسبت نفسها إلى الخليفة العباسى المستعصم ، فأصبحت تلقب بالمستعصمية الصالحية ملكة المسلمين ، ويدعى لها على منابر مصر بعد الدعاء للخليفة بألقابها النسائية ، فيقال[1] : « واحفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب » ؛ كما نقشت اسمها على الدينار والدرهم ، بالإضافة إلى نقش ألقاب الخليفة العباسى المستعصم[2] .

وعلى مايظهر ، لم يجد حكم إمرأة فى مصر معارضة من المصريين ، ولاسيما امرأه قوية الشخصية مثلها ؛ حيث وصفت بأنها صعبة الخلق ، قوية البأس[3] ، بل إن بعض المؤرخين مثل السيوطى، يقول صراحة إن المصريين ؛ هم الذين ولوها ، وقاتلوا عن توران شاه ، الملقب بالمعظم ، حتى لايتولى أحد من الرقيق الترك الحكم، وقتل من المصريين طائفة كبيرة ؛ بسبب ذلك . فالمصريون كان لاضير عليهم من أن تحكمهم امرأة ، وهم الذين تعودوا على أن يروا النساء بجانب الرجال فى الملك طوال تاريخهم . فقد حكمتهم بعض النساء فى العصر الفرعونى ، كما أنه فى أيام الفاطميين وجدت ملكات قويات سيطرن على الحكم ، مثل : ست الملك أخت الحاكم بأمر الله ، والملكة سلطانة أخت الظاهر لدين الله ، والملكة أم المستنصر بالله ، التى كانت لها مثل أخت الظاهر ، علامة خاصة ؛ توقع بها على المكاتبات

---

(١) النجوم ، ١ ص ٣٦٢ ؛ والسلوك ، ١ ص ٣٦٢ ؛ انظر . Lane-Poole : History of Egypt, p. 255.

(٢) يوجد دينار وحيد فى المتحف البريطانى ، بتاريخ ٦٤٨ / ١٢٥٠ . انظر . Lane Poole : Catalogue, IV, 136.

(٣) ابن إياس ، ١ ص ٩١ .

الرسمية ، هي عبارة : الحمد لله ولي كل نعمة[1] ، بل كانت الملكة الحرة السيدة أروى تحكم للفاطميين في اليمن ، حيث أن هذه البلاد هي الأخرى ، كانت قد تعودت على أن تحكمها ملكات ؛ عرفن باسم : «سبأ» ؛ في العصر القديم .
ولكن المعارضة لحكم شجرة الدر جاءت من خارج مصر ، من الخليفة العباسي العراقي ، المتربع على سرير الملك في بغداد، الذي لم يعجبه أن تحكم الرجال امرأة، ويذكر المؤرخون أن الخليفة العباسي المستعصم وقتذاك ، عاتب أهل مصر في ذلك ؛ وقال لهم : « إذا كانت الرجال قد عدمت عندكم ؛ فاعلمونا ، حتى نسير إليكم رجلا[2] » .

عندئذ عزلت شجرة الدر نفسها ؛ بعد حكم دام ثلاثة شهور ؛ وإن أبقت على السلطة الفعلية في يدها ؛ لأنها تزوجت من أحد الطامحين الثلاثة ؛ من كبار المماليك البحرية ، هو عز الدين أيبك الصالحي[3] ،الذي كان مقرباً لها .
ولكن أيبك ، الذي كان يمثل طبقة المماليك الترك ؛ حتى عرف بالتركماني أيضاً ؛ لم يستطع أن يستولي على السلطة لهم ؛ لوجود ملوك الأيوبيين في الشام ، في معظم مدنه الهامة ، في حلب وحمص ، ودمشق ، وكرك ، وكلهم يرى أن مصر جزء من دولتهم الأيوبية ، ولاسيما أظهرهم الملك الناصر يوسف ، عم الملك الصالح أيوب ، ثم إنه لم يعجبهم قتل توران شاه[4] وهو واحد منهم ، على أيدي المماليك ؛ كما أن ملوك الأيوبيين ، كانوا على عكس المماليك ؛ لهم نبل الأصل ، يتقلدون حكمهم من الخليفة العباسي ، الذي يؤيد شرعية حكمهم .
ولذلك ؛ فإن أيبك التركماني اختار طفلا صغيراً من الأيوبيين ، عمره ست سنوات ؛ هو حفيد الملك الكامل الأيوبي ، أولقبه بالملك الأشرف موسى[5] »

---

(١) أنظر السجلات المستنصرية ، تحقيق ماجد ، سجل ٥١ و ٥٢ .

(٢) السلوك ، ١ / ٢ ص ٤٨٦ .

(٣) عن حياته ، انظر النيل الصافي ، ص ٥ وما بعدها .

(٤) ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ١ ورقة ٢ ب .

(٥) هو موسى بن ناصر يوسف بن المسعود يوسف بن الكامل .

وجعل نفسه أتابكاً له[1] ؛ على عادة الترك ؛ حيث لدينا عملة باسم أيبك الأتابك والملك الأشرف ، بتاريخي ٦٥١ و ١٢٥٣/٦٥٢ — ١٢٥٤[2] ؛ فكان يخطب لهما مع الخليفة ، وصارت التواقيع تخرج باسميهما معاً[3] ؛ ولكن ملوك الأيوبيين في الشام رفضوا تصرف أيبك ، واجتمعوا بقيادة الملك الناصر يوسف ؛ لمواجهة أيبك في مصر ، وربما كان الملك الناصر يوسف ؛ يريد أن يكون أيبك نائبه في مصر ، وأن تكون الخطبة له فيها .

فيخرج أيبك لقتال الأيوبيين ؛ على رأس المماليك التركمان ، من طائفة البحرية ، ويهزمهم في بلبيس ، قرب الصالحية ، داخل الأراضي المصرية ، وخصوصاً أن جيش الأيوبيين كان فيه مماليك ترك ، فقد كان الأيوبيون هم الذين استخدموا المماليك الترك وغيرهم ؛ فينضم مماليك الناصر يوسف إلى أيبم ؛ وينهزم الناصر يوسف ، ويتراجع إلى الشام . وقد استمر النزاع بين أيبك والناصر ست سنوات ؛ واضطر الخليفة العباسي المستعصم للتدخل بينهما بالمصالحة ؛ بسبب أن المغول كانت تزحف من إيران ، واتفق نهائياً على أن تبقى مصر وغزة وعقبة والقدس إلى الأردن ضمن أملاك الملك أشرف موسى ، ووصية أيبك ، وأن يضم الناصر باقي الشام وبلاد الجزيرة .[1] ولكن لما يصل المغول إلى العراق ، يعزل أيبك الأشرف موسى ، ويقتل عدداً كبيراً من أنصار الأيوبيين في مصر ، ويعلن نفسه نائباً للخليفة المستعصم ؛ ويتلقب بالسلطان المعز الدين أيبك [4] ، ويطلب التقليد من الخليفة أسوة بملوك الأيوبيين . وبذلك

---

(١) أنظر . قبله ؛ عن لفظة أتابك .

(٢) أنظر . Egypt, p. 256, : Lane-Poole.

٣) المنهل ، ص ٧ .

٤) نفسه ، ص ١٠ ؛ السلوك ، ١/ ٢ ص ٣٨٥ .

(٥) قيل إن ذلك تم في ربيع الأول سنة ٦٤٨ / يوليو ١٢٥٠ ؛ ربما باعتبار سلطنته منذ تولية شجرة الدر الحكم ؛ حيث كان مدبراً لمملكتها ؛ ولكن بسبب وجود عملة بتاريخي ٦٥١ ، ٦٥٢ — ١٢٥٣ — ١٢٥٤ ؛ باسمي أيبك والملك الأشرف موسى (أنظر . Egypt, p. 256, : Lame-Poole) نرى أن إعلان سلطنته كان بعد هذين التاريخين ؛ ولعله قبل سقوط بغداد في يد المغول في ٦٥٦ /١٢٥٨ .

يكون أيبك أول سلطان للمماليك الترك فى مصر[١] ؛ وإن كان من الملاحظ أن قيام دولة المماليك فى مصر ، جاء نتيجة من نتائج الحملات الصليبية ، مثلما كان قيام دولة الأيوبيين فى مصر نتيجة للحملات الصليبية أيضاً .

* *

والخلاصة أن دولة سلاطين المماليك قامت فى مصر ؛ ليتتابعوا فيها سلطاناً بعد سلطان ، وبها بدأت صفحة جديدة فى تاريخ مصر ؛ ساد فيها حكم المماليك الترك .

---

(١) ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ١ ورقة ٢ .

الفصل الثاني

دولة سلاطين المماليك

تسمية دولة الترك أو الأتراك — تسمية المماليك البحرية — تتابع سلاطين البحرية — تسمية المماليك البرجية — تتابع السلاطين البرجية — جدول بأسماء سلاطين المماليك الترك ، وتواريخ حكمهم فى مصر .

يعتبر مؤرخو الإسلام وغيرهم فى العصور الوسطى ، أن دولة سلاطين المماليك فى مصر ؛ ليست دولة واحدة ، وإنما دولتان متميزتان فى واقع الأمر : قامت إحداهما فى أعقاب الأخرى ؛ وإن لاحظوا أيضاً أنه كان يجمعها اسم دولة الترك أو الأتراك[1] ؛ نسبة إلى عنصرهم التركى الغالب على سلاطينهم ، وهى التسمية الرسمية ، التى تظهر فى وثائق الدولة المملوكية ومراسلاتها ؛ منذ نشأتها إلى وقت سقوطها .

ومهما يكن ؛ فقد ترتب على قيام دولة سلاطين مماليك الترك فى مصر ، أنه قد قام لهم فيها نظام خاص ؛ اعتبر من ركائز حكمهم الهامة ؛ حرصوا فيه على أن تكون طبقة الحكام والجيش من رقيق الترك فى ... وبذلك ظهرت لأول مرة فى مصر ؛ بل فى الإسلام ؛ عصبية الرق فى الحكم ، التى ليست عصبية أنساب أو أحساب ؛ بحيث أن كل مملوك فى دولة سلاطين الترك فى مصر ؛ بما فيهم السلطان نفسه ، كان يتباهى بأن أصله من الرقيق .

(١) الخالدى ، كتاب المقصد الرفيع المنشا ، مخطوط بالمكتبة الأهلية (B.N.) برقم ٤٤٣٩ ورقة ١٤ ب ؛ الخطط ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ، ١ ص ١٥٣ س ٨ — ٩ ، ٣ ص ٢٣٩ س ٣ ؛ انظر — ماجد ، نظم المماليك ، ط ٢ ، ١ ص ٩ .

ومع ذلك ؛ فإن دولة سلاطين المماليك الترك فى مصر ، لم تستطع طوال مدة حكمها ، الذى امتد زهاء ثلاثة قرون من ٦٤٨ــ ٩٢٣/١٢٥٠ــ١٥١٧ ، أن توجد حكما مستقراً فى دائرة حكومتهم أو طبقتهم إلا فى النادر؛ وذلك بسبب طبيعة المملوك السلوكية ، التى كانت تميل إلى الفردية ، إذ المملوك لا يعترف بالسيادة عليه ؛ إلا أولا من قبل سيده ، أما الولاء لغيره فيأتى فى الاعتبار الثانى ؛ وإن كان الولاء للدولة التى أقاموها كان ضرورة ؛ بحكم أنها هى التى رفعتهم كطبقة متميزة . ومن الملاحظ أنه فى فترة حكمهم ؛ قد حدثت انقلابات عسكرية متلاحقة ، لم يستثن منها عهد أى سلطان إلا فى النادر ، لم يحدث لها مثيل فى أى دولة معاصرة لهم ؛ أو سابقة أو لاحقة عليهم ، حتى عصرنا الحديث . ومع ذلك ؛ فقد بقيت أهداف الدولة السياسية والحربية واضحة وثابتة فى تاريخ مصر والإسلام ، مما ميز أيضاً حكمهم ، عن غيره فى تاريخ مصر والإسلام ؛ ولم يظهر لهم مثيل فى أى مكان آخر ، أو أى فترة سابقة أو لاحقة على حكمهم .

*

ولقد بدأ حكم دولة سلاطين المماليك الترك فى مصر ، بعنصر التركمان أو التركمانية أو حتى التراكمين(١) ، الذين وصفوا بأنهم من قبائل الغز التركية المسلمة؛ إذ كان الترك بالفعل قبائل متعددة(٢) ؛ يختلف بعضها عن بعض ، كما أنهم قبل الإسلام انقسموا إلى ترك شرقيين، وترك غربيين (٣)، وإن كانت وسط آسيا عرفت بهم باسم : التركستان(٤) ، أى ناحية الترك ، وهى التى كانت تلامس الهند والصين

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ، ٣ ص ٧٧ ؛ القاموس المحيط ؛ الكامل ، ٩ ص ١٨٨
انظر كذلك . A propos du nom Turkman : Ibrahim Kafesoghy
Leiden, 1939, p. 146-150.

(٢) مثل : التغزغز والخزلجية والخلنج والكيماك والغز ــ جمعها ــ أغزاز وخرخيز والطغطاخ والبجناك . معجم البلدان ، ٢ ص٣٧٨ س ١٧ ــ ١٨ ، ٥ ص ٤٠٩ وما بعدها ؛ انظر . سعد زغلول ، الترك والمجتمعات التركية ، فى مجلة كلية الآداب ، بالإسكندرية ، ١٩٥٦، ص ٥٩ وما بعدها .

(٣) أنظر . Ency. de l'Isl. (art Turks), I éd., t. 4, p. 947 sqq.

(٤) معجم البلدان ، ٢ ص ٢٧٨ — ١٢٧٩ :

وأوربا ، مما يبين اتساعها المترامى ؛ وكثرة قبائل الترك فيها .

ومع ذلك ، فيبدو أن التركمان أو التركمانية ، لم يكونوا أتراكاً خلصاء ، وإنما من الترك الغز ، الذين اختلطوا بشعوب المناطق التى نزحوا منها ، حتى استقروا فى المنطقة الواسعة فى جنوب روسيا الحالية ، التى امتدت حول نهر الفاجا — يسميه العرب إتل[١] — وفى نواحى بحر قزوين ، والمنطقة القوقازية ، حتى البحر الأسود ؛ فأصبحت مجالا لهجرتهم .

ومن قبل ؛ كانت هذه النواحى بالذات مجالا لسكنى شعوب متعددة ، منها شعب الخزر[٢] ، الذين قيل عنهم إنهم من الترك ، أو من غير الترك ، وهم الذين حاربهم الأمويون[٣] ، والعباسيون ، وكانوا قد اعتنقوا اليهودية ، وأقاموا لهم أول دولة يهودية ، مجاورة لدولة الإسلام ؛ ثم أزال الروس المجاورون لهم سلطانهم من هذه النواحى ، وأن بعضهم قد رحل إلى البلقان ، مع عناصر البلغار وغيرهم[٤] ، وأصبحوا من رعايا بيزنطة أو الروم فى القرن الخامس الهجرى/١٢ ميلادى[٥] ؛ مما مهد لهجرة عناصر رعوية أخرى مكانهم ؛ عرفت بأسماء متعددة ، سميت بها المنطقة ، مثل إقليم الاستبس الذى يقع بجوار البحر الأسود ، وعرفت ببلاد القفجاق .

---

(١) معجم البلدان ، ١ ص ١٠٣ — ١٠٤ . لعله اسم لمدينة خزرية .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٣٢ ، وما بعدها ؛ صبح ، ١ ص ٣٦٧ . عن هؤلاء ، انظر .
Des Peuples du Caucase. Paris, 1829, p. 199 sqq. : D'Ohsson
The History of the Jewish Khazars. Princeton, 1954 : Dunlop
Ency. de l'Isl., (art Khazar) I éd., t. 2, p. 99 sqq.

(٣) انظر . ماجد ، التاريخ السياسى للدولة العربية ، ٢ ص ٢٩٦ وما بعدها ؛ ماجد ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٨٠ ومابعدها .

(٤) أنظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٢٧٢ ومابعدها ؛
Ency. de l'Isl. (art Bulgâr) t. I, p. 805; 2éd., t. I, p. 1304 sqq. ;
هم الصقالبة .

(٥) أنظر . Cedrenus : Synopsis, 11, 384-385.
Anne Commène, 11, 43. ; Dolger : Regesten, p. 955
؛ أسد رستم ، الروم ، ١ ص ١٢٣ ، ٢ ص ١٠٩ ؛ انظر .
Alexis, 104; 113; 116. : Chalandon.

أو القبجاق أو الخفجاق[1] ، أو حق البشنق أو البشناق[3] ، ولا سيما بـبـلاد البنجاك[3] ، الذين قال عنهم المؤرخون البيزنطيون إنهم ليسوا من الأتراك ، وعرفوا باسم "Patzinacia" أو "Pechengs"[4] ، بينما رأى مؤرخو الإسلام أنهم من أصل تركي[4] ؛ فـكانت بيزنطة تعتبرهم من سلالة الشيطان ؛ لأنهم كانوا يحاربونهم ، ويحاربون الترك ، ويحاربون الروس ، وربما كانت بيزنطة ، هي التي شجعت عناصر التركمان هذه ، وهم من الغز الترك ـ كما ذكرنا ـ بالهجرة إلى هذه النواحي ، ومحاربة البجناك ؛ بحيث تمكن التركمان من الإستيلاء على العاصمة صراي[6] ، التي كانت مركزاً هاماً للتجارة الأسيوية ، بما فيها تجارة الرقيق .

فـكان من هذه العناصر التركمانيه في هذه النواحي ، أن جلب نجم الدين أيوب أغلب مماليكه ، الذين أسكنهم في قلعة بجزيرة الروضه على النيل ، أو ما كان يسمى أيضاً ببحر النيل ؛ فعرفوا لذلك بالمماليك البحرية[7] ؛ حيث كان منهم أغلب السلاطين

---

(١) العمري ، المصطلح الشريف ، ص ٤٣

(٢) صبح الأعشى ، ٤ ، ص ٤٥٨ . عن هذه الجماعات عموماً ، انظر . الزبوزى ، تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار ، في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ، بلدة أورنبورج ، المجلد الأول ، ص ٩٠ .

(٨) شرف الزمان (حوالي ٥١٤ / ١١٢٠) ، من أبواب في الصين والترك والهند ، منتخب من كتاب طبائع الحيوان ، تحقيق Minorsky ، ص ٢٠ ـ ٢١ ؛ وأيضاً .
: Op. cit., p. 202. : D'Ohsson.

(٣) بورفير وجنيتوس ، كتاب الإدارة De Administrato ؛ ترجمة مع التصرف من عمران ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ٥٣ وما بعدها .

(٤) أنظر الهامش قبله ؛ ومعجم البلدان ، ٢ ص ٢٧٨ ص ١٧ — ٨ ، ١٨ ، ٥ ص ٤٠٩ وما بعدها .

(٥) بورفير جنيتوس ، الإدارة ، ص ٥٩ .

(٦) أنظر . بورفيرو جينتيوس ، كتاب الإدارة ، ترجمة عمران بتصرف .

(٧) عنهم ، أنظر الخطط ، ٣ ص ٣٨٤ ؛ موردا للعافية ، ص ٣٣ ؛ انظر .
Ency. of Isl. (art al-Bahriyya) 2 éd., t. I, p. 944-5;
(art Rawda), t. p. 1121).
Le régiment Bahriyya dans, : Ayalon
l'armée Mameluok. R.E.I., 1952, p. 133-41.
Ency. de l'Isl. (art al-Malik as-Sâlih) 1éd., t. 4, p. 112, sqq.

المماليك الأوائل ، الذين حكموا مصر ، فى الفترة مابين ٦٤٨ - ٧٨٣ / ١٢٥٠ - ١٣٥٢ ؛ فعرف حكمهم بدولة المماليك البحرية ، وكان عددهم خمسة وعشرين سلطاناً ؛ ومع ذلك ؛ فإن هذه التسمية ، على عكس تسميه دولة الترك ، لاتظهر فى فى وثائقهم ومراسلاتهم الرسميه .

*

وقد كان المعز أيبك التركمانى ، أول سلاطين دولة المماليك البحرية ، وهم وإن كانوا قد وافقوا على سلطنته عليهم ، فإنه لم يكن يعنى إطلاقاً تركه مطلق اليد فى حكم مصر ، فهم اختاروه ؛ لأنه على حسب قولهم من أواسط المماليك ؛ بحيث قال بعضهم عنه : هذا متى أردنا صرفه أمكننا ذلك[1] . ولذلك لما تسلطن أيبك سرعان ماظهر له منافسون ؛ تآمروا عليه من صفوف المماليك البحريه مثله ؛ بحيث أن مقدم البحرية ، وهو فارس الدين أقطاى نافسه منافسة شديدة فى حكم مصر ، ولا سيما أنه كان له خشداشية[2] كثيرون ، أى من زملائه فى الطباق ، وهى مدارس المماليك العسكرية .

ويظهر أن المماليك البحرية ، انقسمت إلى قسمين ، فكان معظمهم مع أيبك ، وقلة مع أقطاى ، الذى كان على مايبدو هو الذى أجبر أيبك على أن يولى الأشرف موسى الأيوبى معه فى الحكم ؛ حتى لا يستقل أيبك بحكم مصر . ولكن أيبك استدرج أقطاى إلى القلعة بقصد مشاورته وقتله ؛ فلما حاصر مماليك أقطاى القلعة ؛ بقصد إسقاط أيبك ، رمى لهم أيبك برأس أقطاى ؛ فتفرقوا وهربوا جميعاً إلى الشام عند الأيوبيين ، أو عند أمراء سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ؛ فأرسل

---

(٢) المنهل ، ص ٦ .

(٢) هى كلمة معربة من اللفظة خواجه تاش ، أى زميل الخدمة ، وهى الخشداشية ، أو الخوشداشية ، أو الجداشية ، أو الخواجدشية والمفرد خشداش ، أو خجداش . أنظر . Pers. Ency. Dict. cf.

ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٨ وهامش (٣) .

أيبك وراءهم من حذر ملوك الأيوبيين وأمراء السلاجقة منهم .

بل إن العداء لأيبك جاء من زوجته شجرة الدر أيضاً ؛ وهى مملوكة مثله ؛ كانت تنازلت له عن الحكم ظاهريا ؛ وليس عن سيطرتها على المملكة ؛ ولأنه كانت لها هى الأخرى طائفة خاصة بها من المماليك ، تثق فيهم . ولا نظن أن عداء شجرة الدر لأيبك — كما تذكر معظم المصادر — من أنه خطب عروساً أخرى غيرها ، من الأسرة الأيوبية ؛ هى ابنة لؤلؤ أمير الموصل ؛ إذ كان لأيبك جوار كثيرات ؛ فضلا عن أنه كان عمره فى نحو الستين[1] ؛ إنما عداؤها أتى له من التنافس بينهما على السلطة ؛ إذ أن أيبك قد أصبح ينفرد بالسلطة من دونها .

ولذلك سمت شجرة الدر إلى إزالة أيبك من الحكم ، وعمدت إلى تدبير مؤامرة لقتله ؛ وحين أحس أيبك بقصدها ، عمد هو الآخر إلى تدبير مؤامرة لقتلها ؛ إلا أن شجرة الدر كانت أسرع منه ؛ فعمدت إلى تخبئة خمسة من الخدم المخلصين لها فى الحمام لخنقه ؛ على الرغم من توسلاته لشجرة الدر ، التى كاد قلبها يلين ؛ لولا أن القتلة قالوا لها إن خرج حياً ،فلن يبق علينا أو عليها؛ فقتلوه خنقاً ، وادعوا أنه مات بالصرع ؛ كما قيل فى موته إن الخدم وثبوا عليه وأمسكوه ، وصارت هى تضربه بالقبقاب إلى أن فارق الحياة[2] ، أو أنه لما دخل الحمام ، قفلته عليه ؛ فبقى فيه إلى أن مات[3] ، وذلك فى ليلة الأربعاء ١٤ من ربيع الأول سنة ٦٥٥/٢٨ فبراير ١٢٦٠ .

ولكن لأيبك مماليك تركمانية من جنسه ، كان اشتراهم من جماعة الخوارزمية ، التى هربت من أمام المغول ؛ تزعمهم مملوك اسمه قطز ، اعتبر من

---

(١) ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ١ ورقة ٢٢ ب .

(٢) المنهل ، ص ١٢ .

(٣) مورد اللطافة ، ص ٢٤ .

أخلص مماليكه ؛ فيولى عليّ بن أيبك ،وكان صبياً عمره حوالى خمس عشرة سنة ، وسلطنته باسم الملك المنصور ، وعين نفسه أتابكاً له — أى وصياً — وسك العملة باسمه(١) ؛ فيأمر عليّ بن أيبك بقتل شجرة الدر ، قاتلة أبيه ، بأن سلمها لجوارى أم عليّ ، الذين قتلوها بالقباقيب ؛ بحيث سحقت تحتها كحشرة ، وألقوا بجسدها للكلاب ؛ وذلك بعد ثلاثة أيام من قتل أيبك .

ولكن قطز مالبث هو الآخر أن طمع فى أن يتولى السلطنة ، من دون عليّ ابن أيبك ؛ ولعله لم تعجبه قسوة على المبكرة ، التى ظهرت له بأمره بقتل شجرة الدر ، ولحبه للهوايات العنيفة مثل مناقرة الديوك ، ومناطحة الكباش ، وهى هوايات كانت انتشرت فى ذياك الوقت ، ولا سيما أن الأمر كان خطيراً بوصول المغول إلى الشام، بعد اجتياح العراق وقتل الخليفة؛ فنجده يخبر علماء مصر ومشايخها وأعيانها أن مصر والإسلام فى حاجة إلى سلطان قوى،له خبرة فى القتال، وليس صبياً مراهقاً لاهياً ، فمنحه علمــاء مصر وأعيانها — الذين كانوا يمثلون مصر أمام الحكام المماليك — الإذن بعزل على ؛ وتولى قطز السلطنة من دونه ؛ حيث أعلن سلطنته فى مصر بتأييد أهل الحل والعقد من المصريين ، وتلقب بالملك المظفر ، سيف الدين، وسك العملة باسمه (٢) .

وبعد أن انتصر قطز بجيش كبير جمعه خاصة من فلاحى مصر على المغول فى الشام ؛ فإن مماليك الأمير فارس الدين أقطاى، الذين بقوا بالشام بعد إضطهاد أيبك لهم ، بعد قتله أقطاى ؛ عمدوا إلى التآمر على قطز ، الذى كان استمالهم، ومنحهم الأمان ؛ بحيث أشتركوا معه بقدرة فى هزيمة المغول . فيتقدم الأمير

---

(١) Lavoix, t. 3, p. 275.

(٢) أنظر . Lane-Poole : Egypt, p. 261; n. (2).
بتاريخ ٦٥٨ / ١٢٥٩ — ٦٠ .

بيبرس ، زعيمهم[١] ، ليقبل يد قطز ، بمناسبة انتصاره على المغول[٢] ، فيمد قطز يده إلى بيبرس ، الذى يقبض عليه ويضربه بالسيف فى خيمته ، ويحمل عليه بقية الأمراء ؛ كما قيل أيضاً إن سبب غضب بيبرس على قطز وقتله له ؛ هو أنه عمد إلى حرمانه من إقطاع كان قد وعده أقطاى من قبل[٣] .

ومع أن القاهرة كانت قد زينت لإستقبال السلطان المظفر قطز ، الذى انتصر على المغول ؛ فإنها أبقت على زينتها لاستقبال بيبرس القاتل ؛ فكان المنادى فى القاهرة ينادى : ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا للسلطان الملك الظاهر سلطانكم[٤] ، فلما وصل بيبرس إلى القاهرة ، سأله شيخ المماليك عن قاتل قطز ؛ فقال بيبرس : أنا قتلته ؛ فقال له : ياخوند[٥] أجلس على مرتبته . وقد تلقب بيبرس ، بالملك القاهر ، ولم يعجبه بعد ذلك لقبه ؛ فغيره إلى الظاهر[٦] ، ولعل ذلك حدث وهو فى الشام ؛ قبل وصوله إلى مصر ؛ أما اسم البندقدارى ؛ فرجعا نسبة إلى سيده إيدكين البندقدارى ، الذى كان أشتراه ، قبل إلحاقه بمماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب ، أما اسم بيبرس ذاته ؛ فيعنى الفهد .فقبل الأمراء المماليك لبيبرس الأرض وحلفوا له على المصحف بألا يخونوا ، أو يغدروا ، أو يثبوا عليه ، مما يبين طبيعة المماليك الفردية ، ولكن مالبث أن ثار عليه نائب الشام ؛ الذى كان قطز قد ولاه عليها ، فتلقب بالسلطان المجاهد ، ولكن بيبرس تمكن من التخلص منه .

وكان بيبرس يتمتع بقوة الشخصية ؛ وبالقوة الجسمانية ؛ فكان يستطيع أن يعبر النيل سباحة ، وهو لابس درعه ، دون أن يتعب ،وهو نفسه الذى كان سبح

(١) ابن إياس إياس ، ١ ص ٩٧ ؛ انظر . جمال سرور ، بيبرس ، ص ٥١ وما بعدها .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٧٤ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٦٧ ومابعدها ؛ الصبح ، ٥ ص ٣٨٠ ؛ أبوالفدا ، المختصر ، ٣ ص ٢٠٧ . يقال إن بيبرس أجهز عليه بمفرده .

(٤) المفضل (P.O.) ، ص ٤٠٩ .

(٥) كلمة تركية بمعنى سيد . Suppl. I, p. 414 : Dozy.

(٦) المفضل ((P.O.)) ص ٤١١ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ٣ ص ٢٠٨ .

وراء توران شاه فى النيل وقتله ؛ وإلى وقتنا هذا مازالت تحكى فى مقاهى مصر سيرة السلطان بيبرس ؛ فهو شخصية تمثل القوة والخديعة والمكر . وقد استمر بيبرس فى السلطنة إلى أن توفى مسموماً بيده ؛ وذلك لأنه بعد أن سم ابن توران شاه ؛ بقصد التخلص منه ؛ ووضع السم فى الكأس التى قدمها له ، سها عليه ، فشرب منها ، وكان السم لا يزال عالقاً فيها ؛ مما تسبب فى موته .

وقد حاول بيبرس فى حياته أن يثبت حكم المماليك فى مصر ، ويجعله مستقراً ، ولا سيما أن بيبرس يعتبر سبباً فى قيام دولتهم ؛ فعمد إلى أن يجعل السلطنة المملوكية إرثية فى أسرته) إذ كان مبدأ العصبية جائزاً من السلمين ،حتى للرقيق إذا ماوصلوا إلى الملك ؛ فى أن يولوا أبناءهم[١] ، ولدينا نص تقليد من بيبرس[٢]، فى حياته ، بولاية العهد لابنه الملك السعيد بركة ٦٧٦/ ١٢٧٧ ،وذلك قبل ثمانى سنوات من وفاته ، فتولى السعيد بركة السلطنة من بعده ، وعمره تسع سنوات ، ولدينا عملة باسمه[٣] .

ولكن الأمراء أجبروا ــ الملك السعيد بركة على التنازل عن السلطنة ؛ بعد سنتين من الحكم ، ونفوه إلى كرك بالشام ، وجاءوا بسلامش ، ابن بيبرس الصغير ، وكان له من العمر سبع سنوات ، وولوه السلطنه ، بدل أخيه ، ولقبوه بالعادل ، وجعلوا له أتابكاً ، هو الأمير قلاوون ، الذى كان شارك بيبرس فى قتل قطز ، وكان هو الذى عينه أمير ألف[٤] ــ أى من كبار الأمراء المماليك ــ ولدينا عملة باسم سلامش هذا[٥] أيضاً .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨ .

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب ، الجزء ٢٨ .

(٣) أنظر Lavoix, t. 3, p. 295 (747).

(٤) بتفصيل : Ency. of Isl. (art Kalâwûn), 2 éd., t. 4, p. 484.

(٥) أنظر . Lavoix, t. 3, p. 298-9 (757).

ولما كانت لقلاوون أطماع فى السلطنة ، فإنه مهد لها بعزل أفراد الأسرة البيبرسية ، وأرسلهم إلى السجون ، وولى من قبله مكانهم ، من يثق فيهم من خشداشيته ، أى من زملائه فى الطباق أو المدرسة العسكرية ، كما سعى إلى أن يشترى المماليك من نوع آخر لحسابه[(١)] ، حتى يدينوا له وحده بالولاء ، فلما تمهدت له الأرض ، عزل سلامش ، ونفاه إلى كرك أيضاً ، فهرب سلامش إلى القسطنطينية[(٢)] ، التى كان يحكمها البيزنطيون اليونان ، وذلك بعد أن بقى مائة يوم فى السلطنة فقط .

وقد أعلن قلاوون سلطنته فى ٦٧٩/١٢٨٠[(٣)] ، وتلقب بالملك المنصور ، وإن اشتهر بالألفى أيضاً[(٤)] ، لأنه كان قد أشترى بألف دينار ، ولكن نائب الشام ، وهو سنقر ، الذى كان هو الآخر من قواد بيبرس ، قد حقد على قلاوون إستيلاءه على السلطنة ، من دون أولاد بيبرس ، فأخذ لنفسه لقب سلطان ، مستعيناً فى ذلك بالصليبيين فى الشام ، وإن كان قلاوون قد استطاع أن يتغلب على سنقر .

وقد سعى قلاوون ، مثلما فعل بيبرس من قبل ، أن يجعل الحكم إرثياً فى أسرته بفضل ما اشتراه من مماليك جدد ، ونجح فى ذلك ، بحيث تولى السلطنة من نسله أربعة أجيال ، فتولاها منهم أربعة عشر سلطاناً ، ومع أن قلاوون ، كان قد عين فى حياته ابنه الأكبر ، علاء الدين ، ولياً لعهده ، إلا أن علاء الدين كان قد توفى فى حياته ، فحزن قلاوون عليه حزناً شديداً ، حتى أنه فكر فى أن يترك الحكم ، ومات متأثراً بحزنه .

فتولى السلطنة بعد وفاته ، ابن آخر له ، هو الأشرف خليل ، الذى كان

---

(١) أنظر . بعده .

(٢) الجزرى ، جواهر السلوك ، مخطوط (B.N.) ، ٦٧٣٩ ، ورقة ٧٧ (٤ ب) .

(٣) عنه ، بتفصيل :

Ency. of Isl. (art Kalawûn) 2ed., t. 4, p. 484.

(٤) الجزرى ، جواهر السلوك ، مخطوط (B.N.) برقم ٦٧٣٩ ، ورقة ٢٠٥ (١٠٥) .

قلاوون غير راض عنه ؛ إذ ربما يكون خليل هو الذى دس السم لأخيه علاء ؛ ولدينا نص تقليد خليل السلطنة[١] ، والعملة التى سكت باسمه[٢] ؛ ولكن خليلا استخف بأمراء مماليك أبيه الجدد ، وعمد إلى سجنهم ، وخنق عدداً كبيراً منهم ، حتى أنه فى مرة خنق سبعة أمراء دفعة واحدة ، من بينهم أمير اسمه لاجين ، أصله من عنصر التيتون الألمان ، من نواحى البلطيق ، ثم أصبح مسلماً ؛ ولكن هذا الأمير لم يمت ، وبقى به رمق من الحياة ، ولما أفاق طلب من السلطان خليل أن يعفو عنه ؛ ولاجين هذا قد أصبح سلطاناً فيما بعد . ولذلك حقد المماليك بزعامة بيدار على خليل ، فقتلوه بوحشية[٣] ، وهو فى نزهـة صيد بجوار الإسكندرية ، بأن وضعوا السيف فى حلقه ، وتركوه لتأكله الذئاب ؛ ولما سئل بيدار فى سبب قتله ، قال : « استهتاره بالأمراء ومماليكه » .

وبعد خليل ، ولى المماليك بيدار ، ولقبوه بالملك الرحيم ؛ ولكن أنصار بيت قلاوون ؛ عادوا من جديد إلى سطوتهم ، وتآمروا عليه بزعامة كتبغا ، وقتلوه ، فقطعوه قطعاً ، وشقوا بطنه ، وأخرجوا كبده ، وصار كل واحد منهم يقطع منه قطعه ويأكلها .

ثم جاءوا بابن آخر لقلاوون ، هو الناصر محمد[٤] ، وكان صغيراً ، له تسع سنوات ، فسيطر عليه كتبغا هذا ؛ ولكن نافسه فى الوصاية عليه ، مملوك آخر اسمه أبو الشجاع ؛ فتمكن كتبغا من قتل أبى الشجاع . ولكن بعد عام واحد ؛ قرر الأمراء المماليك أن الدولة قد فسدت ؛ لأن السلطان صغير السن ؛ فخلعوه ، وولوا الوصى كتبغا ، ولقبوه بالسلطان العادل ، وسكوا عملة باسمه فى ٦٩٤/

---

(١) ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ١ ورقة ١٠٣ وما بعدها .

(٢) أنظر . Lavoix, t. 3, p. 315 sqq.

(٣) الجزرى ، جواهر ، ورقة ٢١٩ وما بعدها .

(٤) عنه بتفصيل ، انظر : Sultan Nassir : Weil
Fragment de l'histoire des Sultans Mamelouks d'Egypte. Cf.

١٢٩٥(١) ، وهو أصله من سبى التتر؛ أى المغول. فعين كتبغا نائباً عنه فى السلطنة، وهو لاجين، الذى انتهز فرصة خروج كتبغا إلى الشام، وتسلطن فى مصر ، وتلقب بالسلطان المنصور ، وسك عملة باسمه(٢) . ولكن المنصور لاجين استبد بالأمراء المماليك ، واستولى على معظم إقطاعاتهم ، وأعاد واتقسيمها حسب رغبته ، فغضبوا عليه ، وهاجموه ، وقطعوا رجله إلى أن مات .

فجاءوا بالناصر محمد مرة ثانية ، بعد خمس سنوات من عزله الأول ، وسكت له عملة بسلطنته الثانية ؛ فسيطر عليه اثنان أيضاً ، هما : بيبرس الجاشنكير وسلار نائب السلطنة ، وعلى الرغم من أن كليهما كان يكره الواحد الآخر؛ إلا أنهما أظهرا الود لبعضهما ، وأصبح همهما جمع الثروات ، حتى أنهما كانا يحميان اللصوص ، وفى الوقت ذاته حرموا السلطان الناصر محمد من كل شيء ؛ بحيث لما رغب مرة فى أكل أوزة منعوها عنه ، وسعيا إلى قتله ؛ فادعى الناصر محمد الرغبة فى الحج ، ليهرب بجلده من طغيانهما ، وحينما خرج إلى الشام أرسل تنازله طواعية عن السلطنة .

وعلى هذا كان لابد من أن يستولى على السلطنة ، إما بيبرس الجاشنكير ، أو سلار نائب السلطنة ؛ فنجد أن سلار يتنازل للمظفر بيبرس ، الذى لما تولى السلطنة أساء السيرة فى الأمراء المماليك ، وقتل فى المصريين ، لكى يبعث الرهبة ، بل أرسل إلى الناصر محمد الذى بقى فى الشام بعد تنازله ، يهدده بالقتل .

عندئذ استصرخ الناصر محمد أمراء مماليك الشام ، واجتمع بهم ، وزحف على مصر ، وذلك بعد حوالى سنتين من خروجه الثانى من مصر ؛ فلما سمع بيبرس الجاشنكير بقدومه ، أخذ أموالا كثيرة ، وفر إلى الصعيد ؛ ومع أن الناصر محمد وعده بالأمان ، إلا أنه أرسل إليه فى الصعيد من خنقه ، أما بالنسبة لسلار،

---

(١) أنظر . Lavoix, t. 3, p. 336 (835).

(٢) أنظر . Ibid., t. 3, p. 345.

فإنه فى أول الأمر ولاه الشوبك بالشام ، ثم استدعاه ، ووضعه فى السجن ، وتركه دون أكل ، لمدة اثنى عشر يوماً ، حتى أكل أصابعه ، ومات . فكان ماحدث للناصر محمد سابقاً ؛ أن جعله مستبداً ، ويبث الرهبة بالقتل . ومع ذلك ، فقد تآمرعليه بكتمرأتابك العساكر (الجيش)[١] ،فى أثناء حجه إلى مسكة ،فدس الناصرمحمد له السم[٢] ، ومن باب الاحتياط خنق نائبه فى الشام[٣] ، كما حدثت بعض الفتن فى الشام من النصيريين العلويين فى عهده . وقد طالت مدة سلطنة الناصرمحمد الأخيرة ؛وهى الثالثة،حوالى ثلاثين عاماً ؛ بخلاف من تقدمه، وتوفى عام ٧٤٠/ ١٣٣٩ [٤].

وبعد الناصر محمد ، إلى نهاية دولة المماليك البحرية ، فى مدة ثلاث وأربعين سنة ، من ٧٤١/ ١٣٤١ إلى ٧٨٤/ ١٣٨٢ ، استقر فى السلطنة بعده ، أولاده وأحفاده ؛ بحيث بلغ عدد من تولى السلطنة من أولاده ثمانية ، ومن أحفاده أربعة ، منهم اثنان من أحفاده المباشرين ، واثنان من أحفاد أحفاده .

إلا أنه كثرت فى عهدهم مؤامرات المماليك بشكل لم يعرف من قبل ؛ بحيث أصبح الأمراء المماليك يتقاتلون على الوصاية عليهم؛ فكان من ينتصر من الأوصياء لايتورع عن أن ينفى أو يسجن أو يخنق أو يعصر أعداءه ، ومن كثرتهم لم نعد نعرف أسماءهم ؛ وتواريخ وصياتهم ، وكأننا أمام جماعة من الأمراء المماليك قد فقدت رشدها بالفعل . فكان كل من هؤلاء الأوصياء ، هو فى واقع الأمر سلطان مختصر ، ولقب أتابك[٥] ،الذى كان ظهر من أيام السلاجقة ؛ ليعنى مربى الأمير ، لم يعد كافياً ، وإنما أصبح الواحـــد منهم يتلقب بأتابك العساكر ، كناية عن

---

(١) صبيح ، ٢ ، ٤٢ ص ١٨ ؛ وأنظر . نظم ١ ص ١٥٧ ، ٢ ص ٤٤ ؛ Ency. of Isl., (art Atabak al-'Asâkir), 2ed., t. I, p. 732.

(٢) ابن إياس ، بدائع ، ١ ص ١٦٧ .

(٣) نفسه، ١ ص ١٧٢ .

(٤) نفسه ١ ص ، ١٧٣

(٥) أنظر . Ency. of Isl. (art Atabak) 2 éd., t. I, p. 731-2; وقبله .

سيطرته على الجيش ؛ فكانوا غالباً لايتركون السلاطين الصغار مدة طويلة ، ولا يتورعون عن القبض عليهم ، أو حبسهم أو نفيهم ، أو حتى قتلهم ، إذا لزم الأمر .

أما السلاطين أنفسهم ، فإنهم كانوا إذا ما كبروا ؛ قبضوا على أوصيائهم أو حتى قتلوهم ، ولايتورعون أيضا عن قتل إخوتهم ، حسداً منهم ؛ أو خوفاً من منافستهم لهم ؛ ومن الملاحظ أنه لدينا عملات بأسماء من تولوا منهم ، فيما عدا الثلاثة الأوائل ؛ فليس لدينا منهم عملة[١] .

وقد بدأ قوصون المتولى هذه السلسلة من الأوصياء الأقوياء ؛ فعين أتابك لعساكر السلطان المنصور أبى بكر بن الناصر ، إلا أن قوصون قتله غيلة ؛ خوفاً منه ، وولى بدله الأشرف كجك بن الناصر أى الصغير ، الذى كان له من العمر سبع سنين أو أقل ؛ فكان قوصون لتوقيع الأوامر السلطانية ؛ يأخذ يد كجك ، والقلم فى يده ، ويريه كيف يوقع على المراسيم والمناشير[٢] ، التى هى تنفيذ لإرادة قوصون نفسه ؛ فكان كجك — كما يقول المؤرخ ابن إياس — كالعصفور فى يد النسر[٣] ؛ ولكن سادت الفوضى البلاد ، وعصت المماليك فى كل مكان ، وتآمرت ضده ، وتمكنوا من قتله ، وخلع كجك .

حينئذ ولى الأمراء المماليك الناصر أحمد بن الناصر ، الذى ظهر عليه الجنون فجأة[٤] ؛ فأخذ يقتل الأمراء الذين ولوه ، وخوفاً منهم ؛ حملهم معه فى غدواته وروحاته مقيدين ، ثم إنه رحل إلى الشام دون أن يهتم بالأمر . فعين أمراء المماليك أخاه الصالح إسماعيل بن الناصر ، وله من العمر سبع عشرة سنة ،

---

(١) أنظر . ملاحظة : Lane-Poole. Eg., p. 317-318; n. (2).

(٢) ابن إياس ، بدائع ، ١ ص ١٧٧ .

(٣) نفسه ، ١ ص ١٧٨ .

(٤) نفسه ، ١ ص ١٨٠ .

وسكت باسمه العملة فى ٧٤٣/١٣٤٢ (١) ، فكان أول ما عمله أن أمر بقتل أخيه الناصر أحمد ، الذى كان رحل إلى الشام ، وإسماعيل هذا بقى فى السلطنة إلى أن مات.

يأتى بعد الصالح إسماعيل أخوه الكامل شعبان بن الناصر ، الذى حاول أن يقتل أخويه حجاج (حاجى) ، وحسن ، حسداً منهما ، مما أثار الأمراء المماليك ضده (٢) ، وولو بدله المظفر حجاج (حاجى) بن الناصر (٣) ، الذى سجن أخاه شعبان ، وأرسل إليه من خنقه (٤) ، وخنق الدين ولوه (٥) ، فحاربه الأمراء المماليك بزعامة يابغا (٦) ، وخنقوه (٧) ، وبعده ولوا الناصر حسن بن الناصر ، وما لبث الأمراء أن وثبوا عليه وسجنوه ، بزعامة الأمير طاز (٨) ، وجاءوا بعده بالصالح صلاح الدين بن الناصر (٩) ، ولدينا عملة باسمه (١٠) ، وهو الثامن من أولاد الناصر محمد ، وصار طاز صاحب الحل والعقد ، والصالح صلاح الدين معه مثل اللولب يديره كيف يشاء (١١) .

ولكن أمراء الشام المماليك ثاروا ضد طاز ، فذهب طاز إلى الشام ، واستعمل

---

(١) أنظر Lavoix, t. 3, p. 347 (856). Ency. de l'Isl. (art al-Malik al-Sâlih), 1 éd., t. 4, p. 112-114.

(٢) ابن إياس ، ١ ص ١٨٥ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٢١٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl., (art Hadjdji) 2 éd. t. 4, p. 115-116.

(٤) نفسه ، ١ ص ١٨٦ .

(٥) نفسه ، ١ ص ١٨٧ .

(٦) نفسه ، ١ ص ١٨٨ .

(٧) نفسه ، ١ ص ١٨٩ .

(٨) نفسه ، ١ ص ١٩٤ .

(٩) عنه : Ency. de l'Isl. (art Salâh al-Dîn) t. 4, p. 116.

(١٠) أنظر . Lavoix t. 3, p. 364 (889).

(١١) ابن اياس ، ١ ص ١٩٤ .

فى حربهم المدافع(١) ، حيث كانت مصر أول من استعملها فى حربهم ضد المغول ، وبذلك خالف تقليد الفرسان المماليك فى عدم استعمال البارود إلا ضد أعداء الإسلام ، ومالبث الأمراء المماليك فى الشام أن تمكنوا من خلع الصالح صلاح الدين ، وأعادوا الناصر حسن بن الناصر للمرة الثانية(٢) ، وهو فى هذا يشبه والده الناصر ، الذى كان تولى السلطنة عدة مرات ، بعد عزله عنها ، حيث كان أبوه قد عزل مرتين(٣) ، من قبل ، وقد سيطر على حسن فى هذه المرة مملوك اسمه شيخو(٤) ، ولكن مالبث أن قتل ، وبعده سيطر يلبغا(٥) ، وبلغ هذا الوصى من القوة ، بحيث أن مماليكه كانت تصطف من بيته حتى القلعة ليمر بينها (٦) ، وأخيرا خنق يلبغا السلطان ، وتزوج امرأته (٧) .

بعد هؤلاء الأولاد من نسل الناصر محمد ، جاءت سلسلة من الأحفاد أولهم المنصور محمد بن حاجى بن محمد بن قلاوون ؛ وكان وصيه يلبغا الذى ولاه بعد حسن ، ولكنه عزله . فولى يلبغا الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر — شعبان الثانى — وكان عمره نحو اثنى عشرة سنة ، فحاول يلبغا خلعه ، ولكن الأشرف شعبان قد تمكن من قتله(٨) ، وقتل أتباعه ، فكان يضع خوذ النار على رءوسهم(٩) . فثار المماليك هذه المرة بقيادة الأمير أستدمر ، ولكن السلطان شعبان هزمه(١٠) ولما خرج عليه زوج أمه قتله أيضاً(١١) . فظن هذا السلطان أن الأمور قد استتبت

---

(١) نفسه ، ١ ص ١٩٦ وما بعده .
(٢) نفسه ، ١ ص ٢٠١ .
(٣) نفسه ، ١ ص ٢٠٢ .
(٤) نفسه ، ١ ص ٢٠٨ .
(٥) نفسه ، ١ ص ٢٠٩ .
(٦) نفسه ، ١ ص ٢١٩ .
(٧) نفسه ، ١ ص ٢١١ .
(٨) نفسه ، ١ ص ١٢٨ .
(٩) نفسه ، ١ ص ٢٢٠ .
(١٠) نفسه ، ١ ص ٢٢٤ .
(١١) نفسه ، ١ ص ٢٢٨ .

له ، فخرج للحج ، ولكنه قبل أن يصل إلى مكة تآمر عليه المماليك ، الذين أخذهم معه محجون خوفاً منهم ، واضطر إلى العودة إلى القاهرة ، أو اختفى عند إمرأة دلت عليه[١] ، فسجنوه ، ثم خنقوه ، وكسروا ظهره ، ووضعوا جثته فى قفة ، خيط عليها ، ورموها فى بئر[٢].

وفى الوقت ذاته كان المماليك قد ثاروا بالقاهرة بزعامة أينبك[٣] ، الذى ولى المنصور على بن شعبان — على الثانى — وله من العمر سبع سنوات[٤] ؛ إلا أن أمراء الشام ثاروا ضد أينبك ، فحمل أينبك السلطان معه ليحاربهم ، إلا أنه قتل قبل أن يصل إلى الشام[٥] ، فسيطر عليه الأمير الكبير برقوق ، الذى كان أتابكاً للعسكر[٦] ، فأراد أن ينافسه فى الوصاية عليه كل من إينال وبركة ، ولكن برقوقاً هزمهما[٧]، ومع أن السلطان المنصور على قد توفى بالطاعون[٨] ، إلا أن برقوقاً لم يجسر أن يتسلطن ، وأخرج أخا له هو الصالح صلاح الدين (حاجى[٩]) ابن شعبان وسلطنه .

ولكن لما ساءت حالة البلاد نتيجة لضعف السلاطين ، وطمع الأوصياء ، وأصبحت فى حاجة إلى سلطان قوى ، فإن أعيان البلاد وعلماءها — أى كبار

---

(١) نفسه ، ١ ص ٢٣٣ ؛ السلوك ، ٣/ ١ ص ٣٨١ (سنة ٧٧٨ /١٣٧٦)

(٢) نفسه ، ١ ص ٢٣٤ ؛ نفسه ، ٣ / ١ ص ٢٨٢

(٣) نفسه ، ١ ص ٢٣٣ .

(٤) نفسه ، ١ ص ٢٣٩ .

(٥) نفسه ، ١ ص ٢٤١ .

(٦) نفسه ، ١ ص ٢٤٢ .

(٧) نفسه ، ١ ص ٢٤٤ — ٢٤٦ .

(٨) نفسه ، ١ ص ٢٥٥ .

(٩) وبتفصيل .
Ency. de l'Isl., (art al-Malik al-Sâlih) I éd. t. 4, p. 115-6.

أهل مصر ـ عمدوا إلى تنحية المماليك البحرية عن السلطة نهائياً ، بخلع الصالح حاجي ، وتولية برقوق السلطنة، الذي كان من فئة أخرى ، غير المماليك البحرية .

*

وفي الواقع يعتبر مؤرخو الإسلام وغيرهم في العصور الوسطى ، أن سلطنة الظاهر برقوق ، هي بداية لمرحلة جديدة ، أو دولة جديدة ، في تاريخ دولة سلاطين المماليك في مصر ، باعتبار أن برقوقاً ، ومن خلفه من السلاطين إلى نهاية حكم دولتهم ، لم يكونوا من فئة المماليك التركمانية ، وإن استمرت الدولة المملوكية تسمى رسميا بدولة الترك . فبرقوق وخلفه ، هم من فئة الجراكسة أو الشراكسة [٢] ، الذين لم يكونوا كذلك تركاً خلصاً ، وإن كانوا يدورون في فلك الترك مثل التركمان أيضاً ، وذلك بملاحظة المؤرخ ابن إياس [١] . فقد يكونون من أصل تركي ، أقدم من عنصر التركمان ، منذ أيام الإسكندر الأكبر ، حيث لوحظ أن الترك فئات متعددة ، كما ذكرنا من قبل . كذلك قد تكون للجراكسة أصول عربية مبكرة ، من نسل الغساسنة قبل الإسلام ، ولدينا مخطوط من مؤلف مجهول : بعنوان : قهر الوجوه العابسة ، بذكر نسب الجراكسة [٢] ؛ يربط نسبهم بقريش . ولعل ذلك قد أتى من أنه طوال فترة حكم الجراكسة ، فإن أغلب سلاطينهم كانوا على ثقافة عربية وإسلامية عاليتين ، فبعضهم كان يقرض الشعر العربي [٣] ، أو يدخلون في مناقشات

---

(١) ابن إياس ، ١ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

(٢) مخطوط بالمكتبة الأهلية B.N. ، برقم 4613 ، لذي ألف بعد فتح العثمانيين مصر، عام ١٠٤٣ / ١٦٣٣ .

(٣) يذكر ابن زنبل ، أن طومان باي عند أهرام الجيزة — وكأنها الكعبة الشريفة بالنسبة له — قرض قصيدة طويلة من الشعر العربي ، بلغت مائة بيت ، تتضمن النوائب التي حلت به وبدولته . أنظر . ابن زنبل الرمال ، واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٥٢ وما بعدها ؛ انظر . ماجد . طومان باي ، ص ١٧٩ .

لغوية عويصة(٦) ؛ وأنهم جميعاً اعتبروا أنفسهم زعماء للعرب ، بحيث أصبح لقب زعيم العرب ، لقباً دالا عليهم ، بل إن كثيراً من مؤلفي وعلماء المماليك ، في الفن الحربي على الخصوص — وهو تخصصهم العسكري — وغيره من العلوم الأخرى مثل التاريخ ألفوه باللغة العربية وحدها(٧) ، ولم تظهر لهم أي تآليف بالتركية .

وحتى الوطن الذي أتى منه الجركس ، من نفس المنطقـــة التي أتى منهم التركمانية ، وإن كانت مجاورة لما كنهم فيها ، فعرف موطنهم ببلاد الجركس أو شركس ، وهي لفظة روسية تعني بلاد القوقاز ، ولذلك عرف الجركس أو الشركس بالقوقازية(٣) أيضاً . وعلى كل حال ، كانت تحركات المغول منذ أيام جنكيزخان التي كانت السبب في تدفق المماليك التركمانية إلى مصر ، كانت هي أيضاً السبب في تدفق المماليك الجراكسة إلى مصر ، ولا سيما من عهد تيمور لنك ، آخر زعماء المغول العظام ، فقد سعى تجار المماليك إلى جلبهم من موطنهم في القوقاز ، حيث كان الجركس يبيعون أولادهم ، مثل كثير من الشعوب الأسيوية الأخرى ، وأصبح لهم سوق خاص بهم في القاهرة ، هو سوق خان الخليلي(٤) ، الذي أنشأه جهاركس في أيام برقوق ، فالإختلاف مع التركمانية هو الاختلاف بين مساكنين فقط .

---

(٦) ابن إياس ، ٢ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٧) مثل بكتوت الرماح (ت ٧١١ / ١٣١١) ، السؤل والأمنية في تعلم الفروسية ، مخطوط في .B.N : برقم 2828

وتيقبغا اليونيني (٧٧١ — ١٣٦٨) ، الرامي ، والركوب ، مخطوط في .B.N ، برقم 6160 .

وحسام الدين لاجين (٧٨١ / ١٣٧٩) ، عمدة المجاهدين في ترتيب الميادين ، وكتاب في لعب الدبوس ، مخطوط في .B.N ، برقم 6604

ومحمد بن منكلي (٧٧٨ / ١٣٧٦) ، التدبيرات السلطانية في سياسة الصنائع الحربية ، مخطوط بالمكتبة التيمورية ، برقم ٢٣ .

(٣) أنظر . قبله .

(٤) أنشأه جهاركس الخليلي أيام الظاهر برقوق . الخطط ، ص ١٠٧ ؛ أنظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٣ .

كذلك كان للجركس فى مصر مثل التركمانية تسمية أخرى مشهورة ، هى المماليك البرجية[١]، التى لاتظهر فى الوثائق والمراسلات الرسمية أيضاً ،وإنما ذكرها مؤرخو الإسلام وغيرهم ؛ بسبب سكناهم فى بروج القلعة ، على جبل المقطم ، التى بنيت من أيام صلاح الدين ، وأصبحت مقراً لحكم المماليك التركمانية بعد الأيوبيين ، وهى تسمية نسبة إلى أن غالبية سلاطينها من مماليك بروج القلعة ، وحكموا فى مصر إلى وقت الفتح العثمانى ، فى الفترة من ٧٨٤ — ٩٢٣ / ١٣٨٢ — ١٥١٧ ، كما استمرت بقاياهم تحكم مصر مع العثمانيين ، إلى أن قضى على نفوذهم محمد على باشا ، وكان عدد سلاطينهم ثلاث وعشرين سلطاناً ؛منهم تسعة حكموا ١٢٥ عاماً ، والباقى أربعة عشر حكموا ٩ سنوات[٢] .

*

ومع ذلك ؛ فلا يرجع ظهور نفوذ المماليك الجراكسة إلى أيام الظاهر برقوق أول سلاطينهم ، وإنما يرجع قبله ، فى أثناء حكم المماليك التركمانية أنفسهم من أيام المنصور قلاوون ، الذى أراد أن يستكثر من نوع جديد من المماليك[٣] ، غير المماليك التركمانية، بسبب رغبته فى أن يعتمد عليهم فى توريث أسرته فى مصر ؛ حيث كان التركمانية؛ تتعصب للأسرة البيبرصية ، وإن كان أول دور سياسى لهم قد ظهر فى سلطنة الناصر محمد الثانية ، حينما تنازع الوصاية عليه اثنان ، فكان الجراكسة فى صف بيبرس الجاشنكير ضد سلار[٤]، بحيث لما تسلطن بيبرس الجاشنكير ، بعد رحيل الناصر محمد إلى الشام، ظهر للجراكسة نفوذ سياسى قوى على التركمانية . ولذلك لما عاد الناصر محمد إلى السلطنة ، لثالث مرة ، لم نعد نسمع عنهم فى عهده ؛ مما يبين أنه عمد إلى إزالة نفوذهم . ولكن بعد ذلك؛ كانوا مع بيدار ،

---

(١) بتفصيل ، انظر Ency of Isl., (art Burdjiyya), 2ed., t. I, p. 1324-1325.

(٢) أنظر Lane-Poole : Eg., p. 326 .

(٣) ابن إياس ، أنظر .

(٤) نفسه .

الذي تسلطن بعد قتله لاجين ، وظهر لهم زعيم اسمه كرجي[1] . ثم بسبب الفوضى التي سادت في أواخر أيام المماليك التركمانية ؛ نتيجة لضعف السلاطين ، وطمع الأوصياء ؛ أصبحت البلاد في حاجة إلى سلطان قوي من غير عصبية التركمانية ؛ فولوا برقوقا ، الذي هو من الجركس[2]، فاصبحت السلطة في يد الجركس بالفعل de facto، من دون التركمانية .

ومع ذلك ؛ ففي أول حكم دولة سلاطين الجراكسة، لم تكن الأرض ممهدة لهم ؛ بسبب أنه لايزال للتركمانية نفوذ . فقد ثار يلبغا أو إلبغا الناصري أمير حلب[3] ، الذي اتفق مع منطاش أمير ملطية ، وكلاهما من المماليك التركمانية ، على سلطنة برقوق — وهو من الجركس — وتمكنا من أن يحضرا إلى مصر ، ويستوليا عليها من برقوق ، وأعادا الصالح صلاح الدين (حاجي)، السلطان التركماني الأصل ، إلى السلطة مرة[4] ثانية ، بالاعتماد على عصبية التركمانية ، ولاستخدامهما البارود في قتال الجركس ، إذ يقول النص إنه قد استخدمت مدافع النفط[5]، مع أن البارود الذي عرف سره المصريون في معاركهم مع الصليبيين والمغول كسلاح حربي ، لم يكن يستخدم أبداً في النزاع بين فرسان المماليك، وإنما استجيز استعماله فقط ضد الكفار، وحتى ليس ضد المسلمين الأعداء .

ومع أن برقوقاً قد أيقن أن أمره وأمر الجركس قد زالا ؛ حتى أنه طلب الأمان من يلبغا ، الذي نفاه إلى كرك بالشام ، إلا أن برقوقا انتهز فرصة النزاع بين يلبغا ومنطاش ، فهرب من سجنه في كرك ، واستولى على الشام ، ثم على مصر ، بمؤازرة المماليك الجراكسة ، فيعزل الصالح صلاح الدين (حاجي) نفسه ، ويقتل برقوق منطاش ، ويعفو عن يلبغا ، ثم يقتله أيضا لما هرب

---

(١) نفسه .
(٢) أنظر . قبله .
(٣) أنظر رحلة طافور ، ص ١٣٠ وما بعدها .
(٤) السلوك ، ٣/٢ ص ٦٢٠ (٧٩١) .
(٥) نفسه ، ٣/٢ ص ٦١٥ (٧٩١) .

إلى الشام ، وأعلن برقوق سلطنته الثانية ؛ حيث بقى فيها إلى أن توفى ، وهو وإن كان عرف بلقب الظاهر ، إلا أنه عرف بالشهيد أيضاً — لاندرى لماذا — إذ يظهر له لقب الشهيد منقوشاً على عملته[١] .

ومع استتباب الحكم للجركس ، بتولية برقوق السلطنة للمرة الثانية ، إلا أنه قد بقى لها طابع دولة التركمانية ؛ فى أن مبدأ الوراثة لم يكن مقبولا عندهم ، فضلا عن أنه لم يكن يوجد بين سلاطين المماليك الجراكسة شخصيات مثل بيبرس وقلاوون يضعون أسساً للوراثة ، وإن حاول كل من سلاطين الجراكسة أن يترك السلطنة لابنه على غير جدوى ، فلا يمكث إلا قليلا ، ولكن لايمكن أن يستمر ؛ بحيث اعتبر السلطان فى دولة الجراكسة ، ماهو إلا الأول بين أقرانه : Primus inter Pares[٢] . فكان كل من السلاطين الجركس يعتمد عادة على مؤازرة زملائه فى الطباق ، وهى المعسكرات الحربية؛ ولذلك قويت الزمالة أو الخشداشية[٣] فى عصرهم ، أكثر مما كانت فى ظل عهد التركمانية .

يضاف إلى ذلك أنه بتولية الجركس الحكم فى مصر ، زادت القسوة والقتل والغدر عن ذى قبل؛ حتى أن المتنافسين كانوا يدخل بعضهم على بعضهم ، وهم يلبسون الزرديات[٤] — أى الدروع — تحت الثياب، أما المنتصر منهم ، فكان يفعل بالمهزوم مايشاء، كما يلاحظ فى هذه الفترة أن نائب السلطان فى دمشق، كان كثيراً مايثور على سلطانه[٥] ؛ فالمسألة لم تقف عند ثورة المماليك بمصر ضد سلطانهم ، بل امتدت أيضاً إلى ثورة المماليك بالشام، بل أن بعض الموظفين، ولا سيا رجال الدين المصريين

---

(١) أنظر . Lavoix, t. 3, p. 411 (1971)

(٢) أنظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ٢٧ ؛ Lane-Poole. : Eg., p. 325.

(٣) أنظر . قبله .

(٤) ابن إياس ، ١ ص ٢٧٠ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ٣٥ .

كانوا هم أيضاً يستطيعون عزل السلطان الجركسى ، الذى لم تصل سلطته إلى المستوى السابق لسلطة السلاطين التركمانية .

وبعد برقوق ، تولى السلطنة ابنه الناصر فرج[١] ، وله من العمر ثلاث عشرة سنة ، وتكررت نفس المآسى السابقة ، ، بثورة بيبرس نائب دمشق عليه ، الذى زحف إلى مصر ، وولى مكان فرج أخاه المنصور عبد العزيز ، وتوصى عليه ؛ مما جعل فرجا يختفى ، وإن أعاده أنصاره للسلطنة مرة ثانيــة ، وخوفا من أخيه عبد العزيز ، اعتقله فى الإسكندرية ، ثم عمد إلى قتله ، ولكن شيخاً نائب الشام الجديد ، قتل فرجاً بحجة سوء سيرته ، وإدمانه الخمر ، وسفكه للدماء ؛ حيث كان فرج يذبح أعداءه بيده .

ولكن شيخا نازعه الأمير نوروز ، وإن اتفقا على سلطنة آخر هو الخليفة العباسى المستعين بالله[٢] ، ولقباه بالعادل ؛ حيث كانت الخلافة العباسية قد انتقلت إلى مصر من أيام المماليك التركمانية ، بعد ذبح آخر خلفاء العراق على يد المغول ، فأقاماه صورة ، فبقى فى السلطنة مدة سبعة أشهر ؛ وكانت له العلامة التى يوقع بها السلاطين المماليك على المكاتبات الرسمية ، وله السكة من الذهب والفضة باسمه ، بالإضافة إلى الخطبة ، ولكن شيخا ، الذى أصبح يسيطر فى دولته ، وعزل الخليفة ــ السلطان ، واعتقله فى الإسكندرية ، وإن ترك له حرية الاشتغال بالتجارة ، ومات هذا الخليفة بمرض الطاعون .

وبعد ذلك ، استحوذ شيخ على السلطنة لنفسه ، وتلقب بالمؤيد ، وسك العملة باسمه[٣] وإن طلب من خطباء المساجد ، أنه إذا ذكر اسمه أن ينزل الخطيب

---

(١) السخاوى ، الضوء ، ١ ص ٣٢ .

(٢) مورد اللطافة ، ص ١٠٦ — ١١٠ ؛ ابن حجر ، إنباء ، تحقيق حبشى ، ٠ ص ٤٤٦ .

(٣) إنباء ، ٣ ص ٤٤٦ ؛ انظر .

Op. Cit., t 3, : Lavoix p. 417 (983).

درجة ، حتى لايذكر اسمه فى الدرجة ذاتها ، التى ذكر فيها اسم الله[١] ولما ثارت مماليك الشام عليه ، تمكن من إخماد فتنتهم ، كما سعى إلى قتل ابنه إبراهيم[٣] ؛ فدس له السم مرتين ، ربما بوشاية بعض كبار الموظفين ، أو لأن إبراهيم كان قد اشتهر بالإسراف والتبذير والمجاهرة بالفسق واللواط وشرب الخمر ، والتعرض لحريم أبيه ، فأحب حظية لشيخ ، وقد استمر شيخ فى السلطنة حتى مات .

وبعد شيخ ، تولى ثلاثة سلاطين لمدد قصيرة ، لا تتعدى شهوراً ، وذلك فى عام واحد فقط . فكانت السلطة للأوصياء ، وهم السلاطين : المظفر أحمد بن شيخ ، الذى عزله وصيه الظاهر ططر ، وتسلطن مكانه ، وتزوج أم أحمد ، التى دبرت قتله ، فتولى الصالح محمد بن ططر ، بوصاية جانى ، فانتزع برسباى الوصاية عليه ، ثم عزله .

فتولى الأشرف برسباى[٣] السلطنة ، إلا أن ممالك الشام ثارت عليه ، فتمكن من إخماد فتنتهم ، ومن كثرة ماقتل برسباى ، بسبب قسوته ، اختل عقله ، واستمر فى السلطنة ستة عشر عاما إلى أن مات .

فتولى بعده العزيز يوسف بن برسباى ، وله من العمر أربعة عشر عاما ، إلا أن الظاهر جقمق ، وهو من معاتيق برقوق ، مؤسس دولة الجراكسة ، أعلن سلطنته ، ولما هرب يوسف من القلعة ، فى هيئة طباخ عليه ثياب رثة ، وعلى رأسه الطعام ، فإن جقمق بحث عنه إلى أن عثر عليه ، ثم سجنه ، ولكن قرقماش نافس جقمق على السلطنة ، إلا أن جقمق بمساعدة مماليكه تغلب عليه ، وأرسله إلى

---

(١) أنظر : Hautecœur et Wiet : Les Mosquées, p. 47

(٢) الضوء ، ١ ص ٥٣ — ٥٤ .

(٣) بتفصيل ، انظر ; Ency de l'Isl. (art Barsbay) 1ed., t. I. p. 683-4
Ency of Isl. (art Barsbay) 2ed., t. I, p. 1085-6.

الإسكندرية ، فضرب عنقه فيها ، ولما ثار إينال نائب الشام عليه ، تمكن جقمق من هزيمته ، وبقي جقمق في السلطنة إلى أن مات .

فتولى المنصور عثمان بن جقمق ، وكان حدثا ، له تصرفات غريبة ، منها تزييفه العملة[١] ، فعزله المماليك وسلطنوا مكانه الأشرف إينال العلائي ، الذي استمر في السلطنة ثماني سنوات إلى أن مات .

فتولى المؤيد أحمد بن إينال العلائي ؛ إلا أن وصيه الظاهر خشقدم[٢] ، وهو يوناني الأصل من مصر ، تسلطن مكانه ، فنافسه جانم بك نائب الشام ، فهزمه خشقدم ، الذي استمر في السلطنة ، هو الآخر ، ثماني سنوات إلى أن مات .

ثم تأتي سلسلة من السلاطين ؛ لايبقون في السلطنة مدداً طويلة ، منهم : الظاهر ألب ـ باي ، الذي كان مجنوناً ؛ فسيطر عليه الظاهر تمربغا ، سيطرة قوية ، وسلبه كل سلطة ، وعزله بعد شهرين ، وتسلطن مكانه ؛ وإن كان المماليك بقيادة قايت باي ، أتابك العسكر ، مالبثوا أن عزلوه هو الآخر ونفوه إلى دمياط .

فتولى مكانه الأشرف قايت باي المذكور ، الذي اعتبرت سلطنته أطول العصور ، فقد امتدت نحواً من تسع وعشرين سنة ، على الرغم من كثرة الفتن في عهده من من قبل مماليكه ، ومماليك الشام ، وحتى لما هدد بالتنحي عن السلطنة ، فإن ممثلي الشعب المصري ، من العلماء ورجال الدين ، رفضوا تنحيته ، وقد بقي قايت باي في السلطنة إلى أن مات .

فتولى الناصر محمد بن قايتباي ؛ فسيطر عليه الظاهر قانصوة خمسمائة ، وتسلطن مكانه ، ولم يستمر قانصوة خمسمائة غير ثلاثة أيام ، فعاد الناصر محمد بن قايتباي للسلطنة مرة ثانية ، إلا أن المماليك قتلوه .

---

(١) أنظر . Lavoix, t 3, p. 448 (1044).

(٢) أنظر عملته في . Ibid., t 3, p. 461 (1069).

فتولى الأشرف جان بلاط ، إلا أن العادل طومان باى (الأول) ، دبر عزله ، ثم خنقه ، وتسلطن مكانه ، وهو نفسه قتل بعد ثلاثة أشهر من الحكم .

فتولى الأشرف قانصوة الغورى ، بناء على رأى أهل مصر ، الذى دافع عن الشام ضد أطماع الترك العثمانيين ، إلا أن خاير بك ، وجان بردى الغزالى ، من أمراء مماليك الشام ، تآمرا ضده ، وقتل الغورى فى المعركة مع العثمانيين .

وأخيراً ، تولى الأشرف طومان باى ، هو الآخر ، بناء على رأى أهل مصر ، وهو آخر سلاطين المماليك الجراكسة ، وشنق على يد العثمانيين .

جدول بأسماء سلاطين المماليك الترك ، وتواريخ حكمهم فى مصر(١).

١ — دولة السلاطين البحرية.

	هجرى	ميلادى
١ — المعز ، عز الدين ، أيبك.	٦٤٨–٦٥٥	١٢٥٠–١٢٥٧.
٢ — المنصور ، نور الدين ، على بن أيبك	٦٥٥–٦٥٧	١٢٥٧–١٢٥٩.
٣ — المظفر ، سيف الدين ، قطز	٦٥٧–٦٥٨	١٢٥٩–١٢٦٠.
٤ — الظاهر ، ركن الدين ، بيبرس (الأول) البندقدارى	٦٥٨–٦٧٦	١٢٦٠–١٢٧٧..
٥ — السعيد ، ناصر الدين ، محمد بركة خان بن بيبرس	٦٧٦–٦٧٨	١٢٧٧–١٢٧٩.
٦ — العادل ، بدر الدين ، سلامش بن بيبرس	٦٧٨	١٢٧٩.
٧ — المنصور ، سيف الدين ، قلاوون	٦٧٨–٦٨٩	١٢٧٩–١٢٩٠.
٨ — الأشرف ، صلاح الدين ، خليل قلاوون	٦٨٩–٦٩٣	١٢٩٠–١٢٩٣.
٩ — الرحيم ، بيدار	٦٩٣	١٢٩٣.
١٠ — الناصر ، ناصر الدين ، محمد بن قلاوون	٦٩٣–٦٩٤	١٢٩٣–١٢٩٤.
١١ — العادل ، زين الدين ، كتبغا	٦٩٤–٦٩٦	١٢٩٤–١٢٩٦.
١٢ — المنصور ، حسام الدين ، لاجين	٦٩٦–٦٩٨	١٢٩٧–١٢٩٩..
٩ — الناصر ، محمد بن قلاوون (ولاية ثانية)	٦٩٨–٧٠٨	١٢٩٩–١٣٠٨
١٣ — المظفر ، ركن الدين ، بيبرس (الثانى) الجاشنكير	٧٠٨–٧٠٩	١٣٠٩–١٣١٠.
٩ — الناصر ، محمد بن قلاوون (ولاية ثالثة)	٧٠٩–٧٤١	١٣١٠–١٣٤١.

---

(١) أنظر على الخصوص : زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى حسن ، وحسن محمود ، القاهرة ١٩٥٢ ، الجزء الأول . ولقد أضفنا بعض الأسماء الناقصة ، وضبطنا التواريخ حسب المصادر الموثوق بها ، ولاسيما بالرجوع إلى العملة والنقوش .

	هجرى	ميلادى
١٤ـ المنصور، سيف الدين، أبو بكر بن الناصر محمد	٧٤١-٧٤٢	١٣٤١.
١٥ـ الأشرف، علاء الدين، كجك بن الناصر محمد	٧٤٢	١٣٤١-١٣٤٢.
١٦ـ الناصر، شهاب الدين، أحمد بن الناصر محمد	٧٤٢-٧٤٣	١٣٤٢.
١٧ـ الصالح، عماد الدين، إسماعيل بن الناصر محمد	٧٤٣-٧٤٦	١٣٤٢-١٣٣٥.
١٨ـ الكامل، سيف الدين، شعبان بن الناصر محمد	٧٤٦-٧٤٧	١٣٤٥-١٣٤٦.
١٩ـ المظفر، زين الدين حجاج (حاجى) بن الناصر محمد	٧٤٧-٧٤٨	١٣٤٦-١٣٤٧.
٢٠ـ الناصر، بدر الدين، حسن بن الناصر محمد	٧٤٨-٧٥٢	١٣٤٧-١٣٥١.
٢١ـ الصالح، صلاح الدين، صالح بن الناصر محمد	٧٥٢-٧٥٥	١٣٥١-١٣٥٤.
٢٠ ـ الناصر، بدر الدين، حسن (ولاية ثانية)	٧٥٥-٧٦٢	١٣٥٤-١٣٦١.
٢٢ ـ المنصور، صلاح الدين، محمد بن حجاج (حاجى)	٧٦٢-٧٦٤	١٣٦١-١٣٦٣.
٢٣ ـ الأشرف، زين الدين، شعبان بن حسن	٧٦٤-٧٧٨	١٣٦٣-١٣٧٧.
٢٤ـ المنصور، علاء الدين، على بن شعبان	٧٧٨-٧٨٣	١٣٧٧-١٣٨١.
٢٥ـ الصالح، صلاح الدين، حاجى بن شعبان	٧٨٣-٧٨٤	١٣٨١-١٣٨٢.

٢ ـــ دولة السلاطين البرجية.

١ ـ الظاهر، سيف الدين، برقوق	٧٨٤-٧٩١	١٣٨٢-١٣٨٩.
٢٥ـ الصالح، حاجى (ولاية ثانية)	٧٩١-٧٩٢	١٣٨٩-١٣٩٠.
١ ـ الظاهر، برقوق (ولاية ثانية)	٧٩٢-٨٠١	١٣٩٠-١٣٩٩.
٢ ـ الناصر، زين الدين، فرج بن برقوق	٨٠١-٨٠٨	١٣٩٩-١٤٠٥.
٣ ـ المنصور، ناصر الدين، عبد العزيز بن برقوق	٨٠٨	١٤٠٥.
٢ ـ الناصر، فرج (ولاية ثانية)	٨٠٨-٨١٥	١٤٠٥-١٤١٢.
٤ ـ سلطنة الخليفة العادل، المستعين بالله، المؤقته	٨١٥	١٤١٢.
٥ ـ المؤيد، أبو النصر، شيخ	٨١٥-٨٢٤	١٤١٢-١٤٢١

	هجري	ميلادي
٦ — المظفر ، أحمد بن شيخ.	٨٢٤	١٤٢١م
٧ — الظاهر ، سيف الدين ، ططر .	٨٢٤	١٤٢١م
٨ — الصالح ، ناصر الدين ، محمد بن ططر	٨٢٤ — ٨٢٥	١٤٢١ — ١٤٢٢م
٩ — الأشرف ، سيف الدين ، برسباى	٨٢٥ — ٨٤١	١٤٢٢ — ١٤٣٨م
١٠ — العزيز ، جمال الدين ، يوسف بن برسباى	٨٤١ — ٨٤٢	١٤٣٨م
١١ — الظاهر ، سيف الدين ، جقمق	٨٤٢ — ٨٥٧	١٤٣٨ — ١٤٥٣م
١٢ — المنصور ، فخر الدين ، عثمان بن جقمق	٨٥٧	١٤٥٣م
١٣ — الأشرف ، سيف الدين ، إينال العلائى	٨٥٧ ٨٦٥	١٤٥٣ — ١٤٦١م
١٤ — المؤيد ، شهاب الدين ، أحمد بن إينال	٨٦٥	١٤٦١م
١٥ — الظاهر ، سيف الدين خشقدم (خشقدم)	٨٦٥ — ٨٧٢	١٤٦١ — ١٤٦٧م
١٦ — الظاهر ، سيف الدين ، ألب ـ باى (بلباى)	٨٧٢	١٤٦٧م
١٧ — الظاهر ، تمربغا	٨٧٢	١٤٦٧ — ١٤٦٨م
١٨ — الأشرف ، سيف الدين ، قايت باى	٨٧٣ — ٩٠١	١٤٦٨ — ١٤٩٦م
١٩ — الناصر ، محمد بن قايت ـ باى	٩٠١ — ٩٠٤	١٤٩٦ — ١٤٩٨م
٢٠ — الظاهر قانصوة خمسمائة	٩٠٤ — ٩٠٥	١٤٩٨ — ١٥٠٠م
١٩ — الناصر ، محمد بن قايت ـ باى (ولاية ثانية)	٩٠٥	١٥٠٠م
٢١ — الأشرف ، جان بلاط	٩٠٥ — ٩٠٦	١٥٠٠ — ١٥٠١م
٢٢ — العادل ، طومان باى (الأول)	٩٠٦	١٥٠١م
٢٣ — الأشرف ، قانصوة الغورى	٩٠٦ — ٩٢٢	١٥٠١ ١٥١٦م
٢٤ — الأشرف ، طومان باى (الثانى)	٩٢٢ — ٩٢٣	١٥١٦ — ١٥١٧م

*

والخلاصة أن تاريخ تولية سلاطين المماليك الترك فى مصر ، يؤكد خواص دولة عجيبة جداً ، بأنهم جميعا ، فيما عدا واحد منهم ، وهو الخليفة العباسى ، الذى أصبح خليفة سلطانا ، ولمدة ثلاثة قرون ؛ من المماليك الرقيق ؛ كما يبين سلسلة متوالية من انقلابات العسكرية لم يحدث لها مثيل فى أى دولة إسلامية سابقة أو لاحقة أو آتية ، ومع ذلك بقيت دولة متماسكة حققت إنجازات حربية وحضارية، لم تحققها أى دولة إسلامية سابقة عليها .

الفصل الثالث

شرعية حكم سلاطين المماليك فى مصر

إنتقال الخلافة العباسية إلى مصر – موقف المماليك من الخلفاء العباسيين – موقف المصريين من حكم المماليك – ظهور هيئات دينية تمثل شعب مصر – استبداد المماليك ورد الفعل المصرى – موقف العربان من حكم المماليك ومن المصريين .

هذا المبدأ مبدأ القوة وحده ، الذى بسببه توصل المماليك إلى الاستحواذ على السلطة فى مصر ؛ كان غير كاف لحكم شعب مصر المسلم ، أو غيره من شعوب الإسلام الأخرى ؛ بسبب أنه لا شرعية للحكم عند المسلمين ، إلا بتقليد من الخليفة ، الذى اعتبر منذ ظهور منصبه الحارس الأمين للشريعة الإسلامية ، ولاسيما بعدما أصبحت الخلافة سلطة دينية فقط ، منذ أن سيطر العنصر التركى على مقدراتها فى العراق ، ولذلك فإن ملوك المسلمين وحكامهم قاطبة ، كانوا يجرون وراء التقليد من الخليفة العباسى ، ليضفوا الشرعية على حكمهم ؛ بحيث بلغ عدد ما أصدره الخليفة الناصر لدين الله العباسى ، فى وقت الأيوبيين ، أكثر من سبعين تقليداً (١) .

ولذلك ؛ فإن المماليك ، بطبيعة الحال ، منذ قيام دولتهم فى مصر ، سعوا إلى الحصول على التقليد الخلافى ، لضرورة إضفاء الشرعية على حكمهم ؛ ولاسيما أن المماليك ، كانوا على عكس بقية حكام المسلمين ، جماعة من الرقيق ، ليس لهم نبل الأصل أو المحتد ، مما جعلهم فى حاجة ملحة ، أكثر من غيرهم ، لتقليد الخليفة لهم .

---

(١) السلوك ، ١ / ١ ص ٦٠ ؛
انظر : ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ط ٢ ، ص ١٢٠ — ١٢١ . فى سنة ٥٧٠ / ١١٧٤ .

ولعل الظروف وحدها ؛ هي التي هيأت المماليك إكساب الشرعية على حكمهم في مصر؛ بسبب تحرك المغول فجأة نحو بلاد المسلمين ، على الرغم من أنه لم يقم حكم للمماليك من قبل في مصر؛ كما جعل الخليفة المستعصم بالله العباسي يسعى لمصالحة المسلمين؛ أيا كان أصلهم أو طبقتهم ، ليقفوا جميعا معاً أمام خطر المغول الداهم على المسلمين؛ والذي هدد من قبل شعوبا أخرى غيرهم ، وانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ، فوافق الخليفة المستعصم بالله على قيام دولة سلاطين المماليك في مصر ، بمنح المعز أيبك ، أول سلاطينهم التقليد الخلافي[1] ، وحتى مشاركتهم للايوبيين في حكم الشام[2] ، الذين كانوا على عكس المماليك ، لهم نبل الأصل .

ثم إن استمرار تحركات المغول ، قد أتاحت من جديد ، تقوية شرعية حكم المماليك ، حينا دخل المغول إلى بغداد ، مقر الخلافة العباسية ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسي ، بحيث أصبح الإسلام فجأة ، ولأول مرة ، بدون خليفة ، ولاسيما أن الخلافة العباسية ، كانت قد بقيت وحدها ، بعد زوال خلافتي قرطبة ، والفاطميين وحتى خلافة الموحدين ، فكان هذا أمرا ليس من السهل استيعابه لدى المسلمين ، حتى أنه نقلت روايات[3] ؛ منها أنه لما قتل الخليفة المستعصم بالله بيد المغول ، هبت ريح عاصفة ، وفاضت أنهار .

ولذلك لما سمع المماليك ، الذين كانوا قد أنتصروا على المغول في الشام انتصاراً ساحقاً ، بقيادة السلطان المملوكي قطز ، عن فرار واحد من أسرة المستعصم بالله من بغداد ، واسمه أبو القاسم (أبو العباس) أحمد[4] ، في صحبة بعض العربان ، أسرع قطز بالقول[4] : إذا رجعنا إلى مصر ، أنفذه إلينا ، نعيده إن شاء الله ، ولاسيما أن

---

(١) انظر . قبله .

(٢) أنظر . قبله .

(٣) بتفصيل عن أهمية الخلافة العباسية : القلقشندي ، مآثر الأنافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار فراج ، في ثلاثة أجزاء ، الكويت ١٩٦٤ .

(٤) هو ابن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر .

(٥) مفضل بن أبي الفضائل ، النهج السديد ، ص ٩٣ ؛ انظر . جمال سرور ، بيبرس ، ص ٦٤ .

قطز نفسه لم يكن قد قلد التقليد الشرعي ، من قبل خليفة ، بسبب قتل المغول المستعصم بالله في بغداد ، وكان قطز يقصد من إعادة الخليفة ، إعادته إلى العراق ، لأنه لم يكن يتصور وقتذاك أن تكون الخلافة الا في العراق ، لارتباطها به ، منذ نشأة الخلافة العباسية ، أي منذ أكثر من خمسمائة عام . يضاف إلى ذلك ، أنه لم تكن توجد أي قوة حربية إسلامية أخرى ، غير قوة المماليك الحربية التي عسكنها ذلك ، بسبب انتصارها الساحق على المغول ، بقيادة قطز ، لأول مرة ، منذ تحركهم نحو بلاد المسلمين .

ولما قتل قطز ، على يد بيبرس ، الذي تولى السلطنة بعده ، فإن بيبرس ، أصبح هدفه ، هو الآخر ، إعادة منصب الخلافة إلى ما كان عليه ، فاستدعى أبو القاسم أحمد هذا إلى مصر ، وخرج هو والعلماء والأعيان والمؤذنون ، وحق القبط واليهود ــ من سكان مصر ــ بل جميع سكان مصر قاطبة ، لإستقباله . فجلس السلطان بيبرس مع أحمد في سرادق كبير ، ذكر فيه قاضي الشافعية في مصر نسب أحمد ، الذي وصلوا به إلى الرسول ، وبويع ، له بالخلافة [٢] في ٦٥٩ / ١٢٦١ ، وتلقب بالإمام أحمد المستنصر بالله [٣] . وهكذا عاد منصب الخلافة على يد المماليك ، بعد انقطاع لمدة ستة أشهر . ولدينا نص مخطوط من تأليف أبي الفرج البصري [٤] ، بعنوان : المناقب العباسية ، والمفاخر المستنصرية ، يتناول فيه مؤلفه تاريخ بني العباس ، مهدى إلى السلطان بيبرس ، الذي أعاد منصب الخلافة إلى المسلمين .

ولاشك أن هدف بيبرس من إعادة منصب الخلافة ، هو قبل كل شيء لإسباغ

---

(١) ابن عبد الظاهر ، الروض ، تحقيق الخويطر ، ص ٩٩ — ١٠٠ .
(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ٢ ص ٧٦٠ — ٧٦١ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ٤ ص ٤٢ ، ٥٩ .
(٣) الخالدي ، المقصد ، مخطوط B.N ، برقم ٤٤٣٩ ، ورقة ٥٥ .
(٤) مخطوط بالمكتبة الأهلية B.N. ، برقم ٦١٤٤ .

الشرعية على حكمه ، إذ أنه مثل قطز لم يكن قد قلد التقليد الشرعى من قبل خليفة؛ وإن كانت أهمية عودة منصب الخلافة هو فى واقع الأمر للمسلمين جميعاً ، لاستمرار الشرعية لهم ، ليس فقط بالنسبة للحكام ، وإنما بالنسبة للمسلمين جميعاً ، من أكبر الحكام إلى أدنى الناس ، وإلا أصبح كل شيء فى بلاد المسلمين غير شرعى ، بما فيه الزواج ، فهكذا كان يتصور المسلمون وقتذاك أهمية منصب الخلافة فى الإسلام ، ولدينا نص تفويض من الخليفة أحمد بالسلطنة لبيبرس ؛ بقصد اضفاء الشرعية على حكمه[1] .

ثم إن بيبرس ، هو الآخر ، عمد إلى إعادة الخليفة أحمد إلى العراق ، دون ابقائه فى مصر ، بسبب أن العراق كان مقر الخلافة العباسية منذ نشأتها ، ولاسيما أن بيبرس بعد أن نال التفويض الخلافى ؛ لم يكن مرتاحاً لشخص الخليفة أحمد بالذات ، حتى يبقيه فى مصر،فحرضه على العودة الى العراق ،لاسترداد ملكه،وزوده بأموال كثيرة ، وبقليل من الجند ، بأمل أن يتخلص منه ، وفى الوقت ذاته ، قد يثور أهل العراق على المغول ، فيكون بذلك قد ضرب عصفورين بحجر واحد ، إلا أن المغول خرجت للخليفة أحمد وقتلته وقتلت جنده[2] .

ومع ذلك فقد عمد بيبرس الى استمرار الشرعية لحكمه وللمسلمين جميعاً ؛حينما ولى منصب الخلافة لآخر ، اسمه أبو العباس أحمد أيضاً ؛ من نسل الخليفة القتيل ، وقرأ نسبه هو الآخر على الحاضرين ، ولقبه بالحاكم بالله[3]، وإن قرر بيبرس فى هذه المرة أن يكون مقر الخلافة الدائم ، هو فى مصر ، وليس فى العراق ؛ حيث

---

(١) صبح ، ١٠ ص١١١ وما بعدها ؛ السلوك ، ١ / ٢ ص٤٥٣ — ٤٥٧ ؛ نهاية الأرب ، ٢٨ ورقات ٢١ — ٢٨ .

(٢) ربما خوفاً من أن ينازعه بعد ذلك . أورد ذلك المقريزى . أنظر . السلوك ، ١/ ٢ ص ٤٦٢ . وحتى يشك فى نسبه . أبو الفدا ، المختصر ، ٤ص ٤٢ ، ٥٩ ؛ انظر . عبد المجيد بدوى ، الخلفاء العباسيون ، فى ظل دولة المماليك ، حوليات دار العلوم ، ٨ ، ١٩٧٧ ، ص ١٨٤ — ١٨٥ وهامش .

(٣) ابن عبد الظاهر ،الروض ، ص١٤١ ؛ ابن إياس ، ٢ ص٢٨ .

استمرت مصر مركزاً لها ، من وقت حكمه الى أن سقطت دولة سلاطين المماليك ؛ باستيلاء الترك العثمانيين على مصر ، فأدعى هؤلاء انتقال منصب الخلافة اليهم ، وبذلك بدأ عصر جديد للخلافة العباسية فى مصر .

والواقع إن الذى جعل بيبرس يسعى إلى إحياء الخلافة العباسية فى مصر ، دون العراق ، هو أن المماليك ، قد أصبح يقع على عاتقهم وحدهم القتال عن المسلمين جميعا ؛ قتال الحياة أو الموت ، ضد المغول والصليبيين ، فوجود الخليفة فى مصر ، التى تقع كواسطة العقد فى العالم الاسلامى ، بين مشرقه ومغربه ، يساعد على تحميس شعوب الإسلام جميعها فى قتال هذين العدوين . هذا بالإضافة إلى أن وجود الخليفة فى مصر ، التى اتخذوها قاعدة لحكمهم ، فيه فوائد ؛ بتأييد هذا الحكم ، والسيطرة على مسلمى الشام والحجاز واليمن وليبيا ، وهى البلاد التى ورثوا حكمها عن الأيوبيين ، ولاسيما إن الخلافة الصحيحة ، هى ما كان يدعى لها فى الحرمين . بل قد يساعدهم أيضا على مد نفوذهم على جميع مسلمى العالم قاطبة ، على أساس تدهور أحوال المسلمين فى الأندلس والمغرب ، مما يوجه الأنظار إليهم ، بصفتهم حماة الخلافة العباسية .

ومع ذلك ؛ فإنه لم تكن هذه أول مرة ؛ تبذل فيها محاولات لإقامة الخلافة العباسية فى مصر ، فمن قبل سعى أمير مصر التركى ، أحمد بن طولون إلى نقل الخليفة العباسى المعتمد على الله إليها (١) ، ولكن أبا أحمد الموفق أخا الخليفة ، منع المعتمد من الخروج من بغداد . كذلك حاول الإخشيد ، بعد ابن طولون ، أن يأتى بالخليفة المتقى بالله إلى مصر (٢) ، إلا أن القائد التركى توزون ، الذى سيطر على بغداد ، قتل الخليفة المتقى قبل أن يغادر العراق إلى مصر . ولاشك أن الخلافة العباسية لوكانت قد انتقلت إلى مصر ، قبل أن يقرر بيبرس إقامتها فيها ؛ ربما كان تاريخ مصر

---

(١) البلوى ، سيرة أحمد بن طولون ، حققه محمد كرد على ، دمشق ١٣٥٨/١٩٣٩ .
(٢) أنظر . يحيى الأنطاكى (P.O.) ص ٧٣٥ [٣٧] .

الإسلامية قد تغير ، وربما كان ذلك حائلا لمنع قيام الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر .

*

ومنذ أن استقرت الخلافة العباسية فى مصر ، فإن بيبرس ، وضع لها الحدود التى تتناول علاقتها بالسلطة الزمنية المملوكية ، على أساس أن لا تخرج بأى حال عن سلطتها الدينية(١)، وحتى بالنسبة لهذه الأخيرة؛ فإن السلطان شاركه فيها، حينما تلقب قسيم أمير المؤمنين (٢) وألزم بيبرس الخليفة بعدة أمور منها: أن يأتى إلى السلطان على ملأ كل شهر ، لزيارته فى القلعة ، ليمنح ذلك تأييداً شرعياً مستمراً لحكمه وحكم طبقته من المماليك المسلمين، كما أن بيبرس وإن كان قد سك العملة مرة واحدة باسم الخليفة المستنصر بالله(٣)، ومرة أخرى باسم الخليفة الحاكم بالله(٤)، إلا أنه بعد ذلك منع سك العملة باسم أى خليفة آخر، واعتبرت العملة من شعارات السلطنة وحدها؛ وإن سمح بذكر اسم الخليفة مع السلطان فى الخطبة ، وحدد مرتباته ، ولأفراد أسرته . وبذلك تماثل موقف الخليفة العباسى من السلطان المملوكى فى القاهرة ، مع موقف الخليفة العباسى من أمراء الترك ، وملوك البويهيين ، وسلاطين السلاجقة ، فى بغداد .

والواقع إن قيمة هؤلاء الخلفاء العباسيين الفعلية فى مصر ، قد أصبحت تقتصر فقط على إسباغ الشرعية على حكم السلاطين المماليك ؛ فهم لا يتدخلون فى السياسة ، أو حتى فى مخاصمات المماليك ، ويبايعون كل من يطلب منهم المبايعة ، دون اهتمام

---

(١) أنظر .
Notes on the nature of the Caliphate. Rome, 1819, p. 9.
: Nallino

(٢) مخطوط ٤٤٤٠ B.N. ، ورقة ٤٧ ب ؛ أنظر . مرزوق ، جامع بيبرس البندقدارى ، المجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث ، مايو ١٩٥٠ ، ص ٩١ — ١٠٢ .

(٣) أنظر . Lavoix, t. 3, p. 278 (706).

(٤) أنظر . Ibid., t 3, p. 280 (712).

عما يحدث ، سواء أكانت التولية نتيجة اغتصاب للسلطة أم غير ذلك ، بحيث أن أحد الخلفاء العباسيين فى مصر ، قد قلد وحده ، ستة من سلاطين المماليك(١) .

وكان سلاطين المماليك يستبدون بالخلفاء العباسيين فى مصر ، إذا رأوا منهم طموحاً ، أو أرادوا أن يكونوا أكثر من أشباح ، ومع ذلك ، لانجد منهم امتهاناً لمنصب الخلافة ذاته ، مثلما حدث فى بغداد من قبل ، من قتل الخلفاء ، أو سمل عيونهم ، أو غير ذلك ، مما لايليق بكرامة المنصب الخلافى الدينى . فمثلا الناصر محمد ابن قلاوون ، من دولة المماليك البحرية ، أمر الخليفة المستكفى(٢) ، ألا يجتمع بالناس ، ولايغزل المدينة ، ويلزم داره ، ثم نفاه إلى قوص بأقصى الصعيد ؛ بحيث مات الخليفة كمداً ، وبعد المستكفى هذا ، بقيت البلاد بدون خليفة لمدة أربعة أشهر ، فعين السلطان أخا المستكفى ، وسماه الواثق ، على الرغم من أن المستكفى ، كان أوصى بالخلافة لابنه من بعده . بل نجد من أوصياء السلاطين الصغار ، من كانوا يتحكمون فى الخلفاء أيضا ، مثل وصى السلطان شعبان ، من سلاطين المماليك البحرية ، وهو يلبغا ، الذى عزل الخليفة محمد المتوكل(٣) ، وولى المستعلى بدله بدون مبايعة ، ولا عهد سابق ، ثم أرجع المتوكل بعد ذلك . كذلك برقوق ، مؤسس دولة المماليك البرجية ، عزل هذا الخليفة ، محمد المتوكل(٤) ، وقيده وسجنه فى أحد أبراج القلعة ، ست سنوات ، وولى مكانه عمر الواثق ، وهو ابن عم المتوكل ، ولما مات الواثق ، ولى أخاه المستعصم ، ثم عزل هذا الأخيرة ، وأعاد المتوكل ، الذى اعتبر أول خليفة عباسى فى مصر ، يقضى مدة طويلة فى منصبه(٤) ، فكان تمادى برقوق مع هذا الخليفة ، أن جعل أحد الشعراء (٥) يقول :

---

(٥) ابن إياس ، ٢ ص ٢٨ .

(١) نفسه ، ١ ص ١٦٩ — ١٧٠ . وذلك فى سنة ٧١٢ / ١٣١٣ .

(٢) نفسه ، ١ ص ٢٤١ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٢٦٠ — ٢٦١ ، ٢٦٥ . وذلك فى سنة ٧٨٥ / ١٢٨٣ .

(٤) أنظر . طرخان ، الجراكسة ، ص ٦٢ .

(٥) ابن إياس ، ١ ص ٢٧٢ .

على رأس عبد تاج عزيز يشينه
وفى رجل حر قيد ذل يهينه.

ويظهر أن قسوة المماليك وإرهابهم الشديدين ، قد جعل الخلفاء العباسيين فى مصر ، لا يجرأون على الطموح إلى تحسين حالتهم ، مع أن كثرة منافسات المماليك ومشاحناتهم ، كانت تتيح لهم هذه الفرصة ؛ فكان من يطمع من الخلفاء ، أو يثق فى وفاء المماليك ؛ تكون نهايته مؤلمة فى الغالب . فمثلا بعد مقتل السلطان شعبان بن حسين ، من المماليك البحرية ، حاول المماليك ، الذين لم يكونوا قد اتفقوا على تولية واحد منهم ؛ أن يولوا الخليفة محمد المتوكل ـ المذكور سابقا ـ السلطنة ، ولكنه رفض(١) منصب السلطنة بشدة لحذره من المماليك وغدرهم .

وعلى العكس ، فى دولة المماليك البرجية ، كان الخليفة المستعين ، وهو ابن محمد المتوكل ، قد طمع فى أن يجمع بين يديه السلطتين الدينية والزمنية ، وشجعه على ذلك الظروف التى حدثت من قبل أمراء المماليك ، بسبب تنافسهم بعد موت فرج بن برقوق ، على تولية أحدهم ، فالتجأوا إلى المستعين ، الذى امتنع فى أول الأمر غاية الإمتناع ، ولم يقبل إلا بعد أن تعهد(٢) له الأمراء المماليك ، بأنه فى حالة ما إذا ظهر له منافس من أمراء المماليك على السلطنة ، فإنهم يبقون له على منصب الخلافة . وقد ابتهج الناس ، بتولية الخليفة المستعين منصب السلطنة ـ كما يظهر من قول خطيب جامع الأزهر(٣) ـ على أساس أن منصب الخلافة ، بتولية المستعين السلطنة ، قد عاد إلى حجمه الكبير الأول ، الذى كان له فى أيام الخلفاء الأقوياء من راشدين وأمويين وعباسيين . وما لبث أن ظهرت أطماع أحد الأمراء المماليك واسمه : شيخ ،

---

(١) نفسه ، ١ ص ٢٢٥ .

(٢) نفسه ، ١ ص ٣٥٨ ؛ انظر . طرخان ، المماليك الجراكسة ، ص ٦٣ .

(٣) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨١ ـ ٨٣ .

فذهب إلى القلعة ، وحاصر الخليفة السلطان ، وخلعه ، وظهرت وقتذاك فتوى شرعية بذلك من القاضى الشافعى المعروف جلال الدين البلقيني . ولم يف المماليك بوعدهم ؛ فعزلوه من الخلافة أيضا ، وأرسلوه إلى سجن الإسكندرية المخيف ، كما كان يحدث لأى سلطان مملوكى مغضوب عليه .

كل هذا جعل الخلفاء العباسيين لايطمعون فى أى سلطة خارج سلطتهم الدينية .

*

ولدينا قوائم(١) أسماء الخلفاء العباسيين جميعا ، وتواريخ خلافتهم فى مصر ،

---

(١) من المصادر : ابن اياس وغيره ، وانظر : عبد المجيد بدر ، الخلفاء العباسيون فى دولة المماليك : مستخرج ١٩٨٠ ص ١٩٥ – ١٩٦ ، وهم على التوالى :

١ – فى عهد المماليك البحرية أو القبجاق

١ – المستنصر بالله أحمد ، ٦٥٩ – ٦٦٠ هجرى ، ١٢٦١ – ١٢٦٢ ميلادى
٢ – الحاكم بأمر الله أحمد ، ٦٦٦ – ٧٠١ هجرى ، ١٢٦٧ – ١٣٠١ ميلادى
٣ – المستكفى بالله سليمان ، ٧٠١ – ٧٤٠ هجرى ، ١٣٠١ – ١٣٤٠ ميلادى
٤ – المستعصم بالله أحمد ، ٧٤٠ هجرى ، ١٣٤٠ ميلادى
٥ – الواثق بالله ابراهيم ، ٧٤٠ – ٧٤١ هجرى ، ١٣٤٠ ميلادى
٤ – المستعصم بالله أحمد (مرة ثانية) ، ٧٤١ – ٧٤٨ هجرى ، ١٣٤٠ – ١٣٤٧ ميلادى
٦ – المعتضد بالله أبو بكر ، ٧٤٨ – ٧٦٣ هجرى ، ١٣٤٧ – ١٣٦٢ ميلادى
٧ – المتوكل على الله محمد ، ٧٦٣ – ٧٧٩ هجرى ، ١٣٦٢ – ١٣٧٧ ميلادى
٨ – المستعصم بالله زكريا ، ٧٧٩ هجرى ، ١٣٧٧ ميلادى
٧ – المتوكل على الله محمد (مرة ثانية) ، ٧٧٩ هجرى ، ١٣٧٧ ميلادى

(ب) فى عهد المماليك البرجية أو الجراكسة

٧ – المتوكل على الله محمد (مرة ثانية) ٧٧٩ – ٧٨٥ هجرى ، ١٣٧٧ – ١٣٨٣ ميلادى
٩ – الواثق بالله عمر ، ٧٨٥ – ٧٨٨ هجرى ، ١٣٨٣ – ١٣٨٦ ميلادى
٨ – المستعصم بالله زكريا (مرة ثانية) ، ٧٨٨ – ٧٩١ هجرى ، ١٣٨٦ – ١٣٨٩ ميلادى
٧ – المتوكل على الله (مرة ثالثة) ، ٧٩١ – ٨٠٨ هجرى ، ١٣٨٩ – ١٤٠٥ ميلادى
١٠ – المستعين بالله العباس ، ٨٠٨ – ٨١٥ هجرى ، ١٤٠٥ – ١٤١٢ ميلادى
١١ – المعتضد بالله سليمان ، ٨١٥ – ٨٤٥ هجرى ، ١٤١٢ – ١٤٤١ ميلادى

يوردها المؤرخون ، مثلما يوردون أسماء السلاطين ، وإن كان عدد الخلفاء أقل من عـــدد السلاطين ، بسبب أن الخلفاء يتوارثون منصب الخلافة ، بينما السلاطين لايتوارثونها فى الغالب ، فقد تولى منهم ١٧ خليفة ، أمام ٤٩ سلطانا .

*

ولابد من التعرف على موقف المصريين من الحـكم المملوكى ؛ بسبب أن هذا الحـكم تميز بحـكم طبقة من الرقيق ، لشعب عريق ، من ذرارى قدماء المصريين ؛ وهو موقف لايظهره بوضوح مؤرخو تلك العصور ، لأن جل اهتمام كان بالملوك والحروب ، وليس بالشعوب . ولـكننا نستطيع أن نقرأ بين السطور أن الشعب المصرى ، كان مثل بقية الشعوب الإسلامية ، منساقاً مع روح العصر ، الذى وجد فيه حكم المماليك ، وهو عصر خال من الحركات القومية ، والفـكرة المسيطرة على شعوبه الإسلامية ، هى صالح الإسلام العام ؛ فالعصبية فى هذا العصر ، كانت للدين قبل كل شىء ، وأن معنى المواطنة فى ذلك الوقت ، إن جاز استعمال هذا اللفظ على الاطلاق ، بالنسبة للمسلمين ، فى أى مكان ، هو الانتساب قبل كل شىء لعالم الإسلام .

ومنذ إسلام المصريين ؛ وهم يشاركون فى حياة المسلمين فى بقاع الأرض، ولـكن الشعب المصرى ، أكثر من أى الشعوب الإسلامية الأخرى، يقف موقفاً خاصاً من

---

١٢ — المستكفى بالله سليمان ، ٨٤٥ — ٨٥٥ هجرى ، ١٤٤١ — ١٤٥١ ميلادى
١٣ — القائم بالله حمزة ، ٨٥٥ — ٨٥٩ هجرى ، ١٤٥١ — ١٤٥٥ ميلادى
١٤ — المستنجد بالله يوسف ، ٨٥٩ — ٨٨٤ هجرى ، ١٤٥٥ — ١٤٧٩ ميلادى
١٥ — المتوكل على الله عبد العزيز ، ٨٨٤ — ٩٠٣ هجرى ، ١٤٧٩ — ١٤٩٧ ميلادى
١٦ — المستمسك بالله يعقوب ، ٩٠٣ — ٩٢٢ هجرى ، ١٤٩٧ — ١٥١٦ ميلادى
١٧ — المتوكل على الله محمد ، ٩٢٢ — ٩٢٣ هجرى ، ١٥١٦ — ١٥١٧ ميلادى

ظلم الحكام وطغيانهم ،فهو يقاومه ، وإن خضع له على مضض ، ومقاومته له قد تصل إلى حد الثورة . وكانت أغلب شعوب الإسلام فى العصور الوسطى ، تثور لتأييدمذهب أو شخص، ولكن ثورة المصريين كانت غالباً ضد الظلم والطغيان[١] ، وفوق ذلك ، فإن الشعب المصرى ــ كما هو ملاحظ دائماً ــ يريد أن يكون له رأى فى تصرفات حكامه ، وهو فى حالات كثيرة رأى سلبى ،ولكنه فى حالات أخرى يكون إيجابياً .

فمنذ أن فقد المصريون خلافتهم الفاطمية ، التى عرفت المؤرخين باسم دولة المصريين[٢] ــ بسبب أنها أول دولة جعلت من مصر الإسلامية قاعــدة للاسلام وحضارته ــ وقعوا تحت سيطرة الأسرة الأيوبية الطامحة ، مثلما وقعت معظم شعوب الشرق الإسلامى ، التى كانت تحت حكم الفاطميين . ومع أن المصريين قاوموا حكم الأسرة الأيوبية [٣] ، فى أول الأمر ، بالقيام بثورات عارمة ، بمئات الألوف، وبجميع فئاتهم وطبقاتهم وأديانهم ، بقصد إعادة الخلافة الفاطمية ؛ إلا أنهم قبلوا حكم الأيوبيين لما قام هؤلاء بالدفاع عن الاسلام ضد الصليبيين ؛ الذين احتلوا أجزاء من الشام ، وطمعوا فى الشرق الاسلامى .

وقد ضحى المصريون فى الحروب الصليبية ، بكل ما يملكونه من مال وأنفس؛ بحيث أنه كان إذا أعلن النفير العام[٤] ــ أى التعبئة العامة ــ أقبل المصريون من القاهرة ومصر ، وسائر النواحى ، حتى من أسوان فى أقاصى الصعيد . وبفضل

---

(١) أنظر : Poliak : Les révoltes populaires en Egypte, R.E. I, 1934, p. 255.

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، القاهرة ١٢٨٨ هـ ، ١ ص ٢٣٠ .

(٣) نفسه ، ١/٢ ص ٢١٩ ومابعدها ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ ، ١ ص ٢٤٣ ومابعدها ؛ ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، مصر ١٣٤٨ هـ ، ٩ ص ١٢٣ — ١٢٤ ؛ انظر . ماجد ، الناصر صلاح الدين ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٧٦ وما بعدها ؛ Casanova : Les Derniers Fatimides. M.M. A.F. Paris, 1870, p. 415-445.

(٤) المقريزى ، الخطط ، مصر ١٣٢٤ هـ ، ١ ص ٣٥١ ص ٢٤ ، ٢٦ .

تضامنهم مع الشاميين، والجزريين[١] ـ سكان شمال العراق ـ انتصر صلاح الدين فى موقعة حطين أو حطين[٢] ، ثم تحققت معجزة استرداد بيت المقدس ، على أيدى عسكر مصر وحدهم، من دون عسكر المسلمين جميعهم ، حتى قال المؤرخ عماد الدين الكاتب ، وزير صلاح الدين[٣]: « ولتفخر بمصر وعسكرها على سائر الأمصار ». ولما هاجمت أوربا الشام بمعظم شعوبها وإمكانياتها ، فإن صلاح الدين ما كان يستقر له بال فى مقاومة جيوش أوربا ، إلا عندما يصل العسكر المصرى ، من السمر وسودان مصر[٤] . وأكثر من ذلك ، أنه لما أقام صلاح الدين « البدل » فى عكة ، التى حاصرها الأوربيون ، فإن أغلب من دخلها كان من الجند المصريين ، وكان فيهم بعض القبط[٥] .

وكان بسبب إخلاص الأيوبيين فى الدفاع عن الاسلام ، أن تمسك المصريون بهم ، مثلما تمسكوا بالفاطميين من قبل ، الذين هم كانوا قد جاهدوا الروم أو بيزنطة ، لما سمت قبل الصليبيين إلى الاستيلاء على الشام . فيذكر المؤرخ ابن إياس أن المصريين هم الذين أعلنوا سلطنة شجرة الدر[٦] ، للابقاء على استمرارية الدولة الأيوبية ،

---

(١) عماد الدين الأصفهانى ، الفتح القسى ، مصر ١٣٢١ هـ ، ص ٢٢٦ .

(٢) الكامل ، ١٠ ص ١٧٧ — ١٧٩ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، القاهرة ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ ، ٣ ص ٢٩٨ — ٢٩٩ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl. (art. Hattîn ou Hittîn)
1éd., t. 2, p. 308.
؛ ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ١١٤ وما بعدها .

(٣) الفتح القسى ، ص ٣٩ س ٢٠ — ٢١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٦٣ س ١٢ ، ١٥ ؛ انظر . ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ١٣٠ .

(٥) الفتح القسى ، ص ٢٢٨ س ١٦ . يقول إن الذين كانوا يدفعون للجند من ابواب الديوان من نصارى مصر

(٦) ابن إياس ، تاريخ مصر ، بولاق ١٣١١ هـ ، ١ ص ٨٩ — ٩٠ .

ونظروا إلى شجرة الدر على أنها من الأيوبيين وحتى لاتسقط الدولة الأيوبية في يد المماليك الذين كانوا فى خدمتها ، وسيطروا على الدولة والجيش. فقد نظر المصريون إلى المماليك بازدراء ، وأنفوا أن يحكمهم الرقيق ، وكانوا كما يقول السيوطى : يسمون أيبك — زعيم المماليك — إذا ركب مايكره ، ويقولون له : لانريد إلا سلطانا رئيساً ، ولد على الفطرة (١) . ولكن أيبك ، كما يقول المقريزى ، كان يقتل فى المصريين ، ليوقع الهيبة فى النفوس ، وفعل بالمصريين عن طريق مماليكه ، مالم يفعله الفرنجة ، لو استولوا على مصر (٢) . فوطد أيبك حكم المماليك فى مصر ، بالحديد والنار ، وسار من تولى بعده من سلاطين المماليك على سنته .

ومع ذلك ، فقد قبل المصريون حكم المماليك ، بسبب أن هؤلاء قد أصبحوا كالفاطميين والأيوبيين يدافعون عن الاسلام ، ضد بقايا الصليبيين فى الشام ، الذين لم يستطع الأيوبيون طردهم منها ؛ على الرغم من أنهم بذلوا غاية جهدهم فى محاربتهم ، وقام المماليك بصد المغول الوثنيين ، الذين هددوا الشرق الاسلامى بغزواتهم المدمرة ، كما كان حكم المماليك قد باركه الخلفاء العباسيون ، الذين انتقلوا إلى مصر من العراق ، بعد إستيلاء المغول عليها ، وأصبحوا حماة الخلافة العباسية فى عهدها الجديد ، مما جعل المصريين يقبلون على حكم المماليك لهم .

وعلى كل حال ، أصبح المماليك ، فى نظر المصريين ، هم فرسان الاسلام ؛ حيث عرفت دولتهم باسم : المملكة أو الممالك الإسلامية (٣) ، وأن فقهاء العصر المملوكى وغالبيتهم من المصريين ، أفتوا أن السلطان المملوكى شرعاً هو رأس الأمة الاسلامية ، وبه وحده ، تستقر أحوالها ، وروجوا أحاديث منها : إن ستين سنة من إمام جائر ، أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان ، فالسلطان ، هو ظل الله فى الأرض ، حتى أن من لم يقبل حكمه وصفوه بالخروج على الشرعية ؛ فأصبح موقف المصريين من حكم سلاطين المماليك ، هو الاعتراف به ، بل وشرعية المساندة له .

*

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢٧ هـ ، ٢ ص ٣٥ .

(٢) الخطط ، ٣ ، ص ٣٨٦ س ٩ .

(٣) أنظر Van Berchem : Corpus, Egypte, I, pp. 216-217, 726, 244

؛ انظر . على إبراهيم ، المماليك البحرية ، ص ١٨٤ .

ولكون المماليك طبقة عسكرية ، شديدة بأسها فيما بينها، جر ذلك إلى استبدادها بشعب مصر ؛ مما كان سبباً في ظهور هيئات دينية مصرية ، تقف أمام استبدادهم ، استمرت تمثل شعب مصر حتى عصرنا الحديث القريب ؛ حيث بقي المماليك إلى عصرنا الحديث[١] ، تتكلم بلسانه ، وتدافع عنه ضد كل طغيان ، ولاسيما أن الدين الإسلامي ، هو دين النصيحة ، وأن النصح يأتي أولا من رجال الدين ، الذين اعتبرهم الشرع أهل الحل والعقد ؛ بحيث كثيراً ما كان السلطان المملوكي يطلب نصحهم ، ويرجو رضاهم ، ولايقوم بحروب ، أو يتخذ قرارات هامة ، إلا بعد استشارتهم .

كذلك كان رجال الدين من ناحيتهم ، يعتبرون سلاطين المماليك درع الأمة الإسلامية ، وأن احترامهم هو من إحترام الإسلام[٢] ، الذي ينشأون عليه ، منذ دخولهم الطباق.

وقد كان المصريون ، منذ أن تحولوا إلى الإسلام ؛ يسمون إلى التفقه في الدين، بحيث يذكر المؤرخون طبقات لفقهاء مصر على إختلاف مذاهبهم ، وهم أعداد كبيرة ، تمتد إلى عهد الإسلام الأول ، بل بعضهم كان من صحابة النبي[٣] ، ومن طبقة التابعين الأولى[٤]، وقد تنبأ النبي العربي ، بقيمة مصر الاسلامية ؛ فظهرت أحاديث نبوية تدعو إلى معاملة المصريين بالحسنى[٥] .

---

(١) إلى وفاة محمد على باشا ،

(٢) ابن جماعة ، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٢٣٨٤١ ب ، ورقات ١٤ — ١٥ .

(٣) مثل: أبي رافع مولى رسول الله من قبط مصر ، شهد غزوة أحد ، وتوفى بالكوفة سنة ٤٠ / ٦٠ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق الأبياري ، ٢ ص ٨ — ٩ . كذلك روى عن ابن عباس ، خمسة عشر نفساً من أهل مصر ، من صحابة النبي . نفسه ، تحقيق أطاس ، ٣ ص ٢٢٦ .

(٤) حسن المحاضرة ، ١ ص ١١٨ ومابعدها .

(٥) منها : استوصوا بقبط مصر ؛ فإنكم تجدون منهم نعم الأعوان على عدوكم ، «القبط أكرم الأعاجم ، وأسمحهم يداً ، وأفضلهم عنصراً ، وأقربهم رحماً للعرب عامة ، ولقريش خاصة » . أبو صالح الأرمني ، الكنائس ، ٢٨ ب ، ص ٣٧ وما بعدها .

كذلك انتشرت المذاهب الاسلامية فى مصر ، بنفس السرعة التى انتشرت بها المذاهب الاسلامية فى أقطار أخرى . ومع أن مذهب مالك (ت ٧٩٥/١٧٩)،(١) كان أول المذاهب السنية التى انتشرت فى مصر ؛ إلا أنه مالبث أن طغى عليه المذهب الشافعى(٢)؛ حيث كان الشافعى قد جاء إلى مصر ، وتوفى فيها (ت ٢٠٤/٨١٩)، وتفرق مذهبه فى سائر أنحاء مصر ، وأصبحت غالبية مسلمى مصر من اتباعه ؛ أما مذهبا أبى حنيفة وابن حنبل ، فمع وجود أتباع لهما فى مصر ، فإنهما لم ينتشرا انتشار مذهبى مالك والشافعى .

ولما جاءت الخلافة الفاطمية إلى مصر ، وقامت بتنظيم الدعوة لمذهبها الشيعى ، وانتشر دعاة الشيعة فى جميع أنحاء البلاد المصرية(٣) ، فإن أهل مصر أقبلوا على التشيع رجالا ونساء ، بسبب حب المصريين العميق لآل البيت ، ولأن التشيع نفسه كان قد انتشر فى مصر منذ عهد مبكر ، من أيام الخليفة عثمان ، ثم لما تولى على ابن أبى طالب ، وصفت مصر بأنها دار تشيع(٤) ، فكانت غالبية المصريين ، الذين أسلموا من الشيعة ، ولم تتأصل المذاهب السنية فى مصر ، إلا بظهور الخلافة العباسية. فكانت الدعوة الفاطمية فى مصر ، التى لم تكن تختلف عن كونها مذهباً من المذاهب الاسلامية ، قد برزت أول ما برزت فى مصر من جامع الأزهر(٥): الذى بنى فى أول نشأة القاهرة فى عهد المعز لدين الله ، وتم فى عهد العزيز بالله فى رمضان ٣٦٧/

---

(١) حسن المحاضرة ، ١ ص ١٢١ ومابعدها . عنه ؛ انظر . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، القاهرة ١٢٩٩ ، ٤ ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٢) نفسه . عنه ، انظر . وفيات ، ٢ ص ٢١٤ ومابعدها .

(٣) الخطط ، ١ ص ٣٤٤ س ٢ ،

(٤) وذلك حينما جاءها رجل اسمه عبد الله بن سبأ ، ويلقب بابن السوداء . عن ذلك بتفصيل ، انظر . نفسه ، ٤ ص ١٤٦ ومابعدها .

(٥) نفسه ، ٢ ص ١٨١ ، ٤ ص ٤٩ وما بعدها ؛ انظر .
Ency. de l'Isl. (art Azhar) 1ed., t. I, p. 541
2ed., t I, p. 837 sqq.

يونية ٩٧٢ ، وهو الذى عرف فى أول أمره بجامع القاهرة ، نسبة إلى العاصمة ، ثم اشتهر إلى وقتنا باسم الأزهر ، نسبة إلى فاطمة الزهراء ، التى تنتسب إليها الدولة الفاطمية ، فكان يعقد فيه مجلسان ، أحدهما للرجال والآخر للنساء . ومع أن الدعوة الفاطمية فى مصر قد أتت ثمرتها تماماً فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، فيذكر المؤرخون أن المصريين أقبلوا عليها رجالا ونساءاً ؛ بحيث أصبح المذهب السنى غريباً[١] ، وذلك مع أن الخلافة الفاطمية لم تكن تجبر أحداً على أعتناق مذهبها ، أو عرف عنها أنها تعصبت ضد المذاهب الأخرى ، أو كما قال القلقشندى[٢] : إن مذهبي مالك والشافعى ظاهرى الشعار فى زمن الفاطميين ، وذلك بحكم أن الاسلام سنة واحدة ، وشريعة متبعة[٣] ؛ على حسب تعبير جوهر ، قائد الفاطميين ، فى أمانه لشعب مصر .

ولما جاء الأيوبيون ، فإنه قد أصبح للفقهاء الشافعية الصدارة ، من دون المذاهب كلها ، حيث يوجد نقش فى قبة الامام الشافعى من عصرهم ، ورد فيه أن الشافعى إمام الناس كلهم ، فكان كل من أراد أن يتقرب للمصريين من ملوكهم ، بما فيهم شيركوه أو صلاح الدين ، كان شافعى المذهب[٤] ؛ على أساس أنه مذهب غالبية المصريين ، وربما لأن الفاطميين السابقين على الأيوبيين كانوا يرعون مذهب مالك أكثر من رعايتهم للمذهب الشافعى . ولكن الأيوبيين ، على عكس مافعله الفاطميون من ترك المذاهب السنية الأخرى ؛ فإن الأيوبيين قضوا نهائياً على المذهب الشيعى ، وأغلقوا جامع الأزهر الشريف[٥] ، مركز الدعوة الشيعية ، ومنعوا الصلاة فيه ،

---

(١) النجوم ، ٥ ص٣ س ٢ ؛ انظر . ماجد ، الإمام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٦٢ .
(٢) صبح ، ٣ ص ٥٢٤ .
(٣) اتعاظ ، ص ١٢٨ وما بعدها .
(٤) صبح الأعشى ، طبع دار الكتب ، ٣ ص ٥٢٤ .
(٥) أنظر . بعده .

وعملوا كلية على إزالة أصول المذهب الشيعي من مصر ، وحتى التنفى بمآثر آل البيت ، بما فيه شعر المصرع الخاص بمقتل الحسين .

ولما جاء المماليك ، بقى المذهب الشافعي فى أول الأمر الصدارة أيضاً ، من دون المذاهب الأربعة السنية الأخرى ؛ بحيث ظهر لقاضي قضاة الشافعية في عهدهم لقب شيخ الإسلام[١] ، الا أنه فى عهد السلطان بيبرس الذى يعتبر المؤسس الفعلي لدولة سلاطين المماليك فى مصر وواضع نظمها ، فإنه عين قضاة القضاة يمثلون المذاهب السنية الأربعة ، بما فيها المالكي والحنفي والحنبلي . كذلك أعاد بيبرس فتح الازهر الشريف[٢] ، الذى أغلق من أيام الأيوبيين ، وبقى معطلا نحو مائة عام[٣] ؛ وإن لم يعد إليه المذهب الشيعي ، بل مذاهب السنة الأربعة ، بحيث أصبح الأزهر الشريف ، منذ إعادة فتحه إلى وقتنا الحاضر ، يخرج العلماء الدينيين السنة ، ورجال الفكر فى مصر ، أو ما كان يطلق عليهم مشايخ العلم[٤] ، أو أهل العمامة ، أو المتعممين[٥] ؛ وإن كان رجال الدين المسلمون جميعاً يلبسون العمائم .

ولا نعرف السبب الحقيقي الذى من أجله اتخذ السلطان بيبرس هذه الخطوات ؛ بإبراز دور المذاهب السنية الأربعة ، فلعله خاف من قوة أتباع المذهب الشافعي ، الذى كان يمثل المذهب القومي فى مصر منذ ظهوره ، فقصد تقويض نفوذه بين المصريين . فوزعهم بين عدة مذاهب ، ولاسيما أنه فى تلك العصور كان التعصب

---

(١) ابن إياس ، ٢ ص ٣٢ س ٢٦ .

(٢) مفضل ، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، ص ٤٩٨ . ذكر إقامة أول جمعة به بعد اعادة فتحه فى الثامن من شهر ربيع الأول سنة ٦٦٥/ديسمبر ١٢٦٦ . ابن عبد الظاهر ، تحقيق الخويطر ، ص ٢٧٧ . يذكر المقريزي ربيع الآخر . السلوك ١/٥٥٦ .

(٣) عن ذلك انظر . أحمد بدوى ، الحياة العقلية فى عهد الحروب الصليبية بمصر والشام ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٧٦ .

(٤) ابن إياس ، ٢ ص ٣١ ، ٣٤ .

(٥) النجوم ، ٧ ص ٢٠٥ .

المذهب يجر إلى عداوة شديدة بين أتباع المذاهب المختلفة ، حتى أن الحنابلة مثلا بسبب تعصبهم وتكفيرهم لغيرهم ، سموا بالأراذل ، لمضايقتهم للناس ؛ فكانت المبالغة فى التعصب للمذهب ، تجعل السلطان المملوكى ، يصدر أوامره أحياناً بمنع التكلم فى العقائد .

وأكثر من هذا اهتم السلطان بيبرس ، ومن أتى بعده من سلاطين المماليك بالتصوف والمتصوفة[1] . فيذكر الرحالون، مثل ابن بطوطة وغيره كثرة الخوانق ـ[2] مفردها خانقاه ، بمعنى البيوت ، وهى كلمة فارسية ـ والروابط والصوامع والزوايا والتكايا، التى تضم الصوفية ، وإن ظهر التصوف فى مصر من قبل على يد ذى النون الإخميمى المصرى (ت[3] ٢٤٥ /٨٥٩)، الذى كان متأثراً بالرهبنة المسيحية. فكانت أماكن الصوفية ، أشبه بالأديرة ، وإن لم تكن للرهبنة ، وإنما بالأولى هى معاهد دينية للرجال والنساء ، انشئت أساساً للمنقطعين للعلم ؛ حيث كان صلاح الدين أول من أحدث ذلك . ولعل إقبال المصريين على التصوف زاد فى عهد بيبرس ، عما يشبه ما كان من إقبال القبط على الرهبنة ، بسبب ما يتبع التصوف من تزهد وتعبد وكرامات ، والبعد عن المداهنة لذوى السلطان ، والجهاد بالنفس .

---

(١) كتب التصوف ، أنظر .

Ency. de l'Isl. (art Tasawwaf) Ied., t. 4, p. 717.

؛ ماجد ، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، ط ٤ ، ص ١٨٣ ومابعدها ؛ كامل حسين ، بين التشيع وأدب الصوفية بمصر فى عصر الأيوبيين والمماليك » مجلة كلية الآداب ، ١٩٥٥ ، ص ٤٥ ومابعدها .

(٢) وهى ايضا الخوانك . بتفصيل : الخطط ، ٤ ص ٢٨٥ ؛ السلوك ، ١ ص ١٨٢ هامش (٤) .

(٣) هو ذو النون أبى الفيض ثوبان بن إبراهيم الإخميمى المصرى . أنظر . كتاب محى الدين بن عربى المرسى ، الكوكب الدرى فى ترجمة ذى النون المصرى ، مكتبة محمد الفاتح ، يحققه محمود مكى .

وفى زمن المماليك ، افتتن الشعب المصرى بالتصوف أكثر من ذى قبل ، لما صاحبه من تطوير وتنويع ؛ بحيث أصبح للتصوف طرقاً متعددة ، فى إيجاد الهيام الصوفى ، منها على سبيل المثـــال إنشاء الأوراد والأحزاب ، وهى أدعية دينية تتخللها عبارات ذكر الجلالة ، مثل : ياالطيف ، أو الله ، بالقلب أو اللسان ، وهو ماعرف بحلقات الذكر[١] ، وقد يصحبها التغنى بحب الله أو الموسيقى ، وتطويح الجسم مما يفضى بهم إلى الرقص ، والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم ، والشموع الكثيرة ؛ حتى أنه كان العوام من كثرة رقص الصوفية يظنون أن مذهب الصوفية يقتصر على الرقص ، ويعيبون عليهم ذلك ؛ مما تسبب فى صدور قرار يعارض رقصهم[٢]. يضاف إلى ذلك أنه زاد من انتشار التصوف فى مصر فى عهد المماليك ؛ مجىء عدد كبير من شيوخ وأقطاب الصوفية إليها ، أصحاب طرقها المشهورة . ولعل أبعدهم ذكراً : الشاذلية[٣] ، نسبة إلى على الشاذلى التونسى (ت ٦٥١/١٢٥٣) ، والأحمدية[٤] ، نسبة إلى أحمد البدوى (ت ٦٧٥/١٢٧٦) ، والنقشبندية[٥] ، نسبة إلى بهاء الدين نقشبند (ت ٧٩١ / ١٣٨٩) ، وغير هؤلاء .

---

(١) القرآن ٣٣ : ٢١ ؛ الخطط ، ٤ ص ٣٤٣ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl. (art Dhikr) 1ed., t I, p. 983-4.

(٢) السخـــاوى ، التبر المسبوك ، بولاق ١٨٩٦ ، ص ٢٢٠ . وذلك فى سنة ٨٥٢ / ١٤٤٨ .

(٣) عنه بتفصيل :
Ency. de l'Isl. (art al-Shâdhilf) Iéd., t. 4, p. 256; (art Shâdhiliya) t 4, p. 256-9.

(٤) الخفاجى ، النفحات الأحمدية والجواهر الصمدانيـــة ، القاهرة ١٣٢١ هـ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl. (art Ahmed al-Badawi) t. I, 196-9.

(٥) عبد الماجد الخانى ، الحدائق الوردية فى حقائق أجلاء النقشبندية ، القاهرة ١٣٠٦ هـ انظر .
Ency. de l'Isl. (art Nakshband) 1ed., t 3, p. 899-900.

وعلى كل حال ، أصبحت هذه الهيئات الدينية المصرية؛ لسان حال الشعب المصرى ، فى ظل المماليك ، والناطقة باسمهم ، ولاسيما قضاة القضاة للمذاهب الأربعة وأعيانهم ،[١] وكان جلهم من المصريين؛ فقد كانت بيعة هؤلاء ضرورية لإسباغ الشرعية على حكم السلاطين ، كما أن السلاطين أنفسهم كانوا دائماً يستشيرونهم ، ويكنون لهم احتراماً قد يبلغ حد تقبيل السلاطين لأيديهم[٢] ، وحتى بعد إنتقال الخلافة إلى مصر ، كان قضاة القضاة لابد من أن يبايعوا الخلفاء أيضاً[٣] ، ويصادقوا على مبايعة السلطان[٤] . أى أن مبايعتهم كانت ضرورية للسلطتين الزمنية والدينية ، ولأهمية دورهم هذا ، خصص لهم المؤرخون سرداً مفصلا لحياتهم ؛ مثلما يسردون حياة السلاطين ، والخلفاء العباسيين ، ويذكرون موت الأعيان منهم فى كل سنة .

ثم زاد من نفوذ هذه الهيئات الدينية المصرية[٥] ، أن السلاطين قد استخدموهم فى عزل[٦] من يغضبون عليهم من الخلفاء ، أو للحد من نفوذهم ، إذا ما طمعوا فى السلطة ، ونظروا إليهم على أنهم قوة للموازنة . ومع أن رجال الدين المصريين ، فى معظمهم ليسوا رجال دولة ؛ إلا أن بعضهم كان يقبل الوظائف الدينية الإدارية . وعلى العكس ؛ فإنهم أصبحوا بدورهم يستفيدون من فوضى الحكم المملوكى أحياناً ؛ بزيادة نفوذهم ، حتى وجدنا قضاة القضاة ، يتآمرون مع الخليفة فى خلع سلطان لصالح آخر[٧] .

---

(١) ابن إياس ، ٢ ص ١٩

(٢) حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٠١ س ١٧ ٥

(٣) ابن إياس ، ١ ص ١٠١ س ١٣ ، ٣ ، ١٠٣ س ٢٥ ؛ انظر . ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، ١ ص ٣٩ .

(٤) صبح ، ٣ ص ٢٨٠ — ٢٨١ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ٣٨ .

(٥) السلوك ، ٣/١ ص ٨٦ ، ص ٢٠٨ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر بأبناء العمر ، فى ثلاثة أجزاء ، تحقيق حسن حبشى ؛ انظر .

(٦) ابن إياس ، ٢ ص ٥٢ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٢٤ س ١٢ .

فكان تدخلهم في سياسة المماليك ؛ على حسب مقتضى الحال ، بقصد الرأفة بالرعية ؛ ليس فقط لدى السلاطين ، وإنما لدى الأمراء المماليك أيضاً ، وكانوا يؤلفون لهم في أصول الحكم والسياسة[1] ، بقصد النصيحة ،ولدينا أمثلة عديدة على ذلك ، طوال عهدي المماليك البحرية والبرجية . ومع ذلك ، وجدنا مقاومة من قبل بعض السلاطين للحد من نفوذ هذه الهيئات الدينية المصرية . فالسلطان بيبرس القوى ، الذي أحيا الخلافة العباسية في مصر ، وأخضعها له ، لم يرض أن تتدخل طبقة العلماء في الحكم؛ فهددهم بالعزل من وظائفهم ؛ مما جعل أحوالهم تسوء ، ولاسيما أن أغلبهم لم يكن لهم من موارد غير وظائفهم ؛ ومع ذلك استمر تدخل هذه الهيئات الدينية المصرية في حكم المماليك لصالح الرعية . ولعل سلطتهم قد زادت في بعض الأحيان عن الحد ، حتى أنه في عهد السلطان أمير حاج ، أمر بأن لا يركب الفقيه المتعمم فرساً[2]؛ ليجعلها قصراً على رجال الحرب ، أي المماليك. كما كان سلاطين المماليك يلجأون لمن يقاوم حكمهم من رجال الدين بما سمى بالامتحان ؛ فكثيراً ماعقدت في أيام المماليك مجالس الامتحان لكبار العلماء والزهاد ، مثلما عقد الإمتحان للفقيه الدمشقى المشهور تقى الدين ابن تيمية[3] (ت ٧٢٨ / ١٣٢٨) .

والأمثلة على تدخلهم في صلب سياسة حكم السلاطين المماليك كثيرة. فمثلاأراد السلطان قطز ، وهو من سلاطين المماليك البحرية ، فرض ضريبة على المصريين ،

(١) كذلك فقهاء الشام كانوا يؤلفون لهم عن ذلك ، مثل ابن تيمية (ت ٧٢٨ /١٣٢٨) الذى ألف كتاباً عن : السياسة والشريعة ؛ للسلطان محمد بن قلاوون فى ٧١١ / ١٣١١. أنظر . تحقيق عمر فروخ ، بيروت ١٩٦٦ .

(٢) ابن إياس ، ١ ص ٢٨٢ س ٢١ — ٢٢ .

(٣) أنظر مرسوم مملوكى شريف بمخالفة عقيدة ابن تيمية ؛ استخرجه من مخطوط الدر الفاخر ونشره صلاح الدين المنجد ، فى مجلة المجمع العلمى بدمشق ، المجلد ٣٣ ،١٩٥٨ ، ص٢٥٩ — ٢٦٩ . أنظر . مقالات قيمة للاستاذ عبد الرحمن الشرقاوى،عن تقى الدين ابن تيمية فى أعداد الأهرام ،عام ١٩٨٢ .

زيادة عما كان مفروضاً من ضرائب لمحاربة المغول ؛ ولكن العلماء منعوه ، وقالوا[١] : لا تأخذ أموال العامة ، مع بقاء ما فى أيدى المماليك من الأموال ، فرضخ قطز لرأى العلماء ؛ وأخذ من المماليك قبل إن يأخذ من المصريين .

وفى عهد السلطان قلاوون ، وهو من سلاطين المماليك البحرية أيضاً ؛ رفض سكان القاهرة الرضوخ لإحدى القرارات الجائرة ، فظهرت طبيعة السلطان الوحشية ؛ وأمر مماليكه بوضع السيف فى المصريين ، حتى أنهم أخذوا يقتلونهم مدة ثلاثة أيام ؛ فطلع القضاة ومشايخ العلم ونحوه[٢] ؛ ولكى يكفر عن ذنبه بنى مارستاناً[٣] أى مستشفى — لتبرأ أمراض المصريين رجالا ونساء ، وأحضر الأطباء ، وأعطى الدواء .

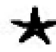
وفى عهد السلطان برقوق ، وهو من سلاطين المماليك البرجية ؛ لما أراد أن يستولى على الأوقاف ، أغلظ له المشايخ فى القول ، فاستمع لهم السلطان[٤] ، وخصوصاً أن برقوقا بالذات ، كان يعظم العلماء ، ويقوم لهم[٥] .

ويظهر أن الكيل قد طفح بممثلى شعب مصر ، من هيئاته الدينية ، وتعبوا من استئثار اختيار السلطان ، وهو رأس الدولة[٦] ، من قبل المماليك وحدهم ، دون أن يكون لهم الرأى فى اختياره ، لذلك سعوا إلى أن يكون لهم الرأى فى إختيار السلطان ويظهر هذا من تدخلهم فى تعيين طومان باى فى السلطنة ، فقد أجبروا أمراء المماليك

---

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٣٥ — ٣٦ .
(٢) ابن إياس ، ١ ص ١١٦ .
(٣) عنه بتفصيل ، انظر . الخطط ، ٤ ص ٢٥٩ — ٢٩٣ .
(٤) ابن إياس ، ١ ص ٢٦٧ .
(٥) تقى الدين ، ذيل ، ٢ ورقة ١٤٧ أ .
(٦) ابن اياس ، ٣ ص ٥٧ ، ٦٩ ؛ انظر ، ماجد ، طومان باى ، ١٩٧٨ ، ص ٤١ — ٤٢ .

على المبايعة له ، والحلف على المصحف بالولاء له ، وعدم الغدر ، كما أن اختيار قانصوة الغوري ، قبل طومان باي ، وكان هو الآخر قد تولى السلطة برأي رجال الدين المصريين . فهذا يبدو مبدأ خطيراً في تقاليد مصر الإسلامية ، لو كان استمر لأصبح له شأن كبير في تغيير نظام الحكم فيها ، ولكن بمجيء الأتراك العثمانيين ، وقضائهم على دولة سلاطين المماليك في مصر ، تغيرت ظروف مصر من جميع نواحيها .



ولا شك أن المماليك لكونهم أصلا من الرقيق ؛ فإنهم كانوا يميلون بطبعهم إلى الاستبداد ، والصلافة ؛ نتيجة لعقدة الرق عندهم ، ولأنهم الطبقة العسكرية الحاكمة ؛ فكان إذا ظهر سلطان أو أمير مملوكي ، لا يميل إلى الاستبداد ، أسرع المؤرخون [١] ، بذكر أن هذا السلطان أو الأمير ، كان قليل الأذى ، منقاداً للشريعة ، محباً للرعية . ثم بسبب كثرة مؤامرات المماليك ، وخلعهم لسلاطينهم ، طوال فترة حكمهم في مصر ؛ فإن شرطتهم [٢] كان إذا خلع أحد السلاطين وهرب ، يكبسون غالبا البيوت والحارات ، مع ما فيها من إذلال للناس واغتصاب الحقوق [٣] ، بل كان إذا جاء أمير مملوكي من خارج مصر ، أتى مع طائفة من مماليكه ؛ فهؤلاء كانوا ينهبون الدكاكين والأسواق والبيوت [٤] ، ويخطفون النساء من الحمامات ، والصبيان من الطرقات للفساد بهم [٥] .

وبسبب الاستبداد ، والميل للأذى لدى المماليك ؛ فقد ظهرت في عصرهم عقوبات

---

(١) ابن إياس ، ١ ص ١٩٧ س ٩ .

(٢) عن هذه الوظيفة ؛ انظر . نظم المماليك ، ٢ ص ١٣٠ وما بعدها .

(٣) ابن إياس ، ١ ص ٢٥ .

(٤) نفسه ، ١ ص ٢٧٥ .

(٥) حوادث ، ١/ص ٢٣١ .

كثيرة لم يعرف أغلبها من قبل ، أو حتى في أي مكان آخر من بلاد الإسلام ، مثل: تعليق الرؤوس والشنق على أبواب القاهرة ، والضرب حتى الموت ، وشرب الجير بالملح[١] ، وإلباس خوذة محمية بالنار فوق الرأس[٢] ، كما ظهر ما عرف بالتوسيط ، أي قطع الجسم من الوسط[٣] ، وهذه أصبحت من وسائل القتل العادية ، وحتى قطع أيدى العوام[٤] ، كان يحدث لأتفه الأسباب .

وحتى شباب المماليك الجلبان أو المشتروات أو الكتابية[٥] ، كانوا إذا نزلوا من طباقهم بالقلعة ، وهى المدارس الحربية ، فى وقت أجازاتهم ؛ فإنهم كانوا يذهبون فى القاهرة ، إلى المواقع التى يجتمع بها العامة للنزهة ، ويتفننون فى العبث والفساد ، مثل أخذ عمائم الرجال ، أو إنزال الأعيان عن خيولهم ، ولكن للحقيقة ؛ فإن السلاطين كانوا يقفون بحزم أمام تصرفاتهم غير المسئولة ، ومعاقبة من يعود منهم إلى ذلك[٦] ، وحتى منعهم كلية من النزول من الطباق ، وحرمانهم من أجازاتهم .

وفوق ذلك ؛ فإن المماليك لكونهم الطبقة الحاكمة ، كانوا يتغطرسون على موظفيهم المصريين ، حتى على الكبار منهم ، ولاسيما على الكتاب فى الداواوين — وهى المصالح الحكومية — فيستبيحون لأنفسهم معاقبتهم إذا ما ظهر منهم أى تقصير فى عملهم ، فيضربونهم بالعصا ، وبالمقارع — وهى عدة عصوات[٧] وذلك

---

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، حيدر آباد ١٣٤٨ هـ ، ١ ص ٣٠٩

(٢) نفسه ، ١ ص ٢٠٦ .

(٣) نفسه ، ١ص ٢٧٨ .

(٤) السلوك ، ٢ / ١ ص ٣٠٠ .

(٥) عن هذه المصطلحات : نظم المماليك ، ١ ص ١٥ وما بعدها .

(٦) حوادث ، ١ / ٢٣١ .

(٧) عنها ، انظر . Dozy : Suppl., 2, p. 333.

على الرغم من أن السلطان الناصر محمد ، من سلاطين المماليك البحرية ، كان رسم بإبطال ضرب الموظفين بالمقارع[١] ، وكتب بذلك عدة مراسيم أرسلت إلى أنحاء البلاد ، ومع ذلك ، فإن برقوقاً من سلاطين البرجية ، لماغضب على أحد الكتاب الكبار ، وهو ناظر الجيش[٢] – أى كبير الكتاب الذين يشرفون على الشئون الإدارية فى دواوين الجيش – ضرب به علقه فى قصره ؛ نحو مائة وخمسين عصا إلى أن مات[٣] .

كذلك تميز حكم المماليك بالميل إلى اغتصاب الأموال ، وتكديس الثروات ، وإفقار الشعب المصرى ؛ حتى وجدنا أحد السلاطين ، وهو السلطان جقمق ، من سلاطين المماليك البرجية ، كان يزيف العملة[٤] ؛ بحيث كثرت فى عهده العملة الزغل ، أو البهرج أو غير الخالص ، وإن كان هذا السلطان نفسه قد عزل[٥] . فقد كان ظهور التزييف فى العملة يسبب غضب الناس الذين يسبون السلطان والقضاة وأرباب الدولة[٦] . ويظهر الغنى الفاحش لأحد أمراء المماليك ؛ من أنه لما مات قد ترك ستمائة ألف دينار ذهبا ، ومن الفضة واحداً وسبعين ومائة قنطار ، ومن الخيل والجمال مالا يحصره عدد ، ومن النحاس المطعم والفضيات ما لا يوجد للملك ، هذا غير

---

(١) ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة ، تحقيق Carlyle ، ط Cantabrigiae ١٧٩٢ ، ص ٦٠ .
(٢) عن وظيفته ، انظر صبح : ٤ ص ٣٠ — ٣١ ؛ الخطط ، ٣ ص ٥٠ ؛ ابن إياس ، ١ ص ٢٦٤ س ١٤ . لدينا تكليف بتعيينه ، ووصية له : صبح ، ١١ ص ٣٢٣ — ٣٢٦ .
(٣) ابن إياس ، ١ ص ٢٦١ .
(٤) السلوك ، ٣/١ص ٢٠٥ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، مخطوط دار الكتب ، ٣١ ورقة ٣ ؛ حوادث ، ١/ص ٢٩٥ س ٧ — ٩ .
(٥) ابن إياس ، ٢ ص ٣٧ — ٣٨ .
(٦) حوادث ، ١ ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

حواصل الغلال والبضائع فى جميع الديار المصرية والشامية[١] . كذلك كان آخر يملك مائتى بستان ، ومن الأبقار والأغنام ثلاثمائة ألف ، ومن المراكب ستمائة مركب[٢] .
وقد شجع ذلك بعض موظفى الدولة — حتى من غير طبقة المماليك — على استنزاف أموال الشعب ، بكل الوسائل ؛ بما فيها البراطيل والرشوة [٣] ؛ وإن كان السلاطين يعاقبون من يرتشى بأشد العقوبات[٤] ، ويصف أحد الشعراء إنحراف أحد الموظفين فى الدولة المملوكية ، بقوله[٥] .

ومباشر السلطان ، شبه سفينة فى البحر ترجف دائماً من فوقه
إن أدخلت من مائه فى جوفها أدخلها وماءها فى صدره

كذلك ، ظهر من آن لآخر ، تعصب من قبل سلاطين المماليك نحو أهل الذمة ، وهم جزء هام من شعب مصر ؛ مثلما حدث فى عهد السلطان كتبغا [٦] ؛ أحد سلاطين المماليك البحرية ، الذى كان قد أجبر القبط على لبس عمائم زرق ، واليهود عمائم صفر ، ولا يتظاهرون بملبوس فاخر ، ولا يركبون أفراسهم ، وذلك ، مع أن القبط بذلوا الأموال لرفع هذا الاضطهاد عنهم ؛ إلا أن هذا السلطان استمر فى كيده لهم ، وللحقيقة أنه كان نادراً ماتطبق الشروط المعروفة بالشروط العمرية ، التى وضعت من عهد عمر بن الخطاب ؛ لتنظيم العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة .

ولاشك أن التعصب ضد أهل الذمة ، كان يأتى غالباً من تحرش الموظفين منهم بالمسلمين ؛ بحكم أنهم غالبية الموظفين فى الدواوين السلطانية — وهى الصالح

---

(١) ابن الجزرى ، جواهر السلوك ، مخطوط (B.N.) ، رقم ٦٧٣٩ ، ورقات ٢٨ — ٢٩ (١٦ ب — ١٧ أ) .
(٢) ابن اياس ، ١ ص ١٩٨ .
(٣) أنظر فى ذلك كتاب أحمد عبد الرازق ، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٩ .
(٤) النجوم ١٢ ص ١٠٤ ؛ السلوك ، ٣ ص ٩٢٧ .
(٥) ابن اياس ، ١ ص ١٩٧ — ١٩٨ .
(٦) الدرر الكامنة ، ١ ص ٥٠٣ — ٥٠٤ .

الحكومية بحيث كان المسلمون يطالبون بعزلهم أو يقومون بفتن ضدهم ؛ إلا أن الدولة لم تكن تستطيع أن تستغنى عن خدماتهم ، على أساس أنهم على إلمام تام بشئون الإدارة المصرية أكثر من غيرهم ؛ حتى أن السلطان كان قد حارب المسلمين ، حماية لهم ، فصلب جماعة منهم ، وقطع أيدى بعظهم[١] ؛ مما يدل على تمسكه بموظفى الدولة من أهل الذمة .

كذلك كان التعصب ضد أهل الذمة يأتى بتحريض من طوائف رجال الدين المسلمين المتعصبين ، وقد يمتد إلى أنحاء البلاد ، من أعلاها إلى أدناها . ولدينا مثل على ذلك ، فى نص مكتوب[٢] ، عن مظاهرة ضد أهل الذمة ، من قبـــل رجال الصوفية الفقراء ، فى قوص بأدنى الصعيد ، ترتب عليها هدم الكنائس ؛ إلا أن السلطان حمى أهل الذمه ، وقبض على بعض المتظاهرين .

وحتى النساء المصريات ، لم يسلمن هن أيضاً ، من مضايقة وسوء معاملة المماليك ؛ وذلك عن طريق المحتسب[٣] المملوكى ، وهو موظف دينى كبير فى دولة سلاطين المماليك ؛ كان من عمله مراقبة سلوك الناس . فمثلا فى عهد السلطان برسباى ، وهو من سلاطين المماليك البرجية ، منعت النساء من لبس القمصان التى خرجت فى كبر حجمها عن الحد[٤] ، واستمر ذلك إلى أن توفى ، كما منعهن من الخروج ، وكانت من تريد الخروج تحصل على ورقة من المحتسب ، وتجعلها فى رأسها ؛ حتى

---

(١) السلوك ، ٢/١ ص ٢٢٥ س ١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ .

(٢) يوجد النص فى كتاب : الوحيد فى سلوك أهل التوحيد ، لعبد الغفار بن نوح القوصى ، تحقيق Denis Grill :

وانظر . . Une Emeute anti-chrétienne à Qu.
Annales Isl., t. XVI, 1980, p. 241 sqq.

فى عهد السلطان الناصر محمد بن كلاوون .

(٣) عن وظيفته ؛ انظر . نظم المماليك ، ١ ص ١١٤ وما بعدها .

(٤) وذلك فى عام ٨٤١ / ٤٣٧ . ابن اياس ، ٢ ص ٢١ — ٢٢ .

تمشى فى السوق . ومع ذلك ؛ فلنا أن نقرر أن المرأة فى العهد المملوكى ، كانت مكرمة ؛ ولها ألقاب خاصة بها ، تطلق عليها فى جميع البيوت ، احتراما لشأنها ، مثل : الست (١) .

حقاً ؛ إنه أصبح يوجد لدى المصريين ، بسبب الاستبداد المملوكى ، إقتناع عام ؛ بأن كل من كان له حق عند شخص من الناس ؛ لابد له من أن ينتمى لبعض المماليك ؛ ليستعين به على خلاص حقه(٢) ؛ إلا أنه مع ذلك ؛ كان يوجد للمصريين أسلوب خاص بهم فى مقابلة الطغيان والمستبدين من الحكام ؛ وهو أسلوب سلبى فى أغلبه ؛ إلا أنه كان إيجابياً فى بعض الأحيان . ولعل أفضل وسيلة عندهم فى مقاومة الاستبداد لديهم ؛ كانت السخرية من حكامهم المستبدين ، أشهرها بالنكتة اللاذعة ، ولعل ذلك يفسر انتشار النكتة عند المصريين ، حتى وقتنا الحاضر .

ولا أدل على محاربة المصريين للمستبدين بالنكتة ، ما كان فى العصر الأيوبى ، السابق على عصر المماليك ، حينما سخروا من الأمير قراقوش ، الذى اسمه يعنى الطائر الأسود ، وبلغت قسوته على المصريين حداً كبيراً ، كما أراد أن يهدم الأهرامات ؛ ليبنى من حجرها قلاعاً ، ولكى يقاوم المصريون تصرفاته الشاذة ، وهى كل ما كانوا يستطيعون عمله ضده ؛ عملوا صوراً مضحكة على شكله ، وهو ما أطلقوا عليه اسم القراقوز ، الذى هو فى الأصل قراقوش ، وهى الصورة التى بقيت إلى وقتنا الحاضر تضحك الأطفال والكبار . بل إن أحد كتاب القبط المشهورين فى وقته ، وهو ابن مماتى(٣) ألف فى سيرته كتاباً بعنوان : « الفاشوش فى أحكام قراقوش » ، أى الغباوة فى حكمه .

أما بالنسبة لحكام مصر من المماليك المستبدين ، فلدينا مقالات كثيرة عن

---

(١) أنظر كتاب أحمد عبد الرازق عن المرأة المملوكية ؛ بالفرنسية .

(٢) حوادث ، ١/٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٣) وفيات ، ١ ص ١٨٣ .

سخريتهم منهم ، وردت فى قصص ألف ليلة وليـــلة على الخصوص ؛ حيث شملت السخرية جميع فئاتهم ، من السلاطين ، إلى الأمراء ، إلى الموظفين فى دولتهم .
ولما أقام السلطان الناصر محمد ، وهو من سلاطين المماليك البحرية ، الخليفة الواثق بالله ، وعزل الخليفة المستكفى بالله ، سموا هذا الواثق المستعطى بالله(١) ، لقذارة نفسه . وحينما قارنوا بين حكم برقوق لما عزل بعد سلطنته الأولى ، وتولى يلبغا الناصرى الوصاية ، على السلطان الجديد الصالح حاجى ، وثقلت وطأة يلبغا على الناس ، قالوا راح برقوق وغزلانه ، وجاء الناصرى وفيرانه(٢) ؛ بل سموا أحـد السلاطين ، الذى لم يكن له نفوذ على الإطلاق ، وهو يلباى : قل له(٣) ، وسموا أحد السلاطين دقين ، لأن دقنه لايثبت فيها الشعر(٤) .

كذلك وجدنا المصريين يعبرون عما يجول بخاطرهم نحو إستبداد حكامهم ، من المماليك ، أو حتى ممن قبلهم ، بما يعرف بدار الخيالة الساخرة ؛ أو ما كان يسمى أيضا بشخوص الظل ، أو ظل الخيال ، أو طيف الخيال ، أو مسرح الدمى(٥) ؛ حيث عرفت فى مصر من أيام الفاطميين ، ولكنها انتشرت انتشاراً كبيراً على يد المماليك ، وكان أساسها التمثيليات ، أو تقليد الناس ، وفى سبيل ذلك استوعب من أجلها الأدب الفصيح والعامى ، وظهر لها مؤلفون مشهورون ؛ من النثريين والشعراء ، ولاسيما بالزجل ؛ فكانت دار الخيالة ، وسيلة شعبية لمقاومة السلطان الجائر ، ولذلك كثيراً ماقاومه السلاطين المماليك الطغاة ، بينما مال إليه العادلون منهم .

وفوق ذلك ؛ ظهر لعامة أهل مصر تنظيمات حقيقية لمقاومة الطغيان المملوكى

---

(١) ابن إياس ، ١ ص ١٧٠ س ١٤ .
(٢) السلوك ، ٣/٢ ص ٦٢٧ (٧٩١) .
(٣) أوردها : طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٣٧ .
(٤) ابن إياس ، بدائع ؛ أنظر .
(٥) ابن إياس ، ١ ص ١٠٥ ؛ ابن دانيال ، خيال الظل ، تحقيق حادة ، القاهرة ؛ أحمد تيمور ، خيال الظل والتماثيل المصورة عند العرب ، القاهرة ، ص ١٧ وما بعدها .

بطريقة عملية؛ حيث يصف الرحالة ابن بطوطة[1] (ت ٧٧٩/١٣٧٧) أفرادها بأنهم من أهل الصلابة، وأنهم طائفة كبيرة، وهم الذين غلبت عليهم تسميات متعددة، منها: الحرافيش[2] — جمع حرفوش — أو الشلق، أو الذعار[3]، وحتى السفلة، والأراذل؛ وربما هذه التسميات أو غيرها، أتت من أن هذه التنظيمات الجماهيرية كانت من الكادحين والفقراء أو حتى من العاطلين، ولذلك وصفوا أيضاً بالأوباش والغوغاء والرعاع واللصوص والحرامية، وهم غالباً غالبية سكان الأحياء الشعبية بالقاهرة، مثل حي الحسينية؛ حيث عرفوا فيه بحشرات الحسينية، وحي بولاق، وحي باب الشعرية[4]، وكانت لهم قيادة متمثلة في مشيخة[5]، عرف رئيسها بشيخ الحرافيش؛ وحينما تتأزم الأحوال بين العامة والمماليك؛ فإن عامة الشعب كانت تتجمع للمقاومة؛ حتى أن الرحالة ابن بطوطة تعجب من جرأتهم أيضاً، وشاهدهم بنفسه، وهم يتجمعون في أسفل القلعة مهددين ومتوعدين، ويقولون للسلطان: ياأعرج النحس. كذلك لم يترددوا في مقاومتهم للطغيان باستخدام كل ما يصل إلى أيديهم من حجارة، أو رمي بالمقاليع، أو استخدام قضبان حديدية، وبلغت جرأتهم، في أنهم كانوا إذا قبضوا على أحد المماليك، قتلوه شر قتله، بل إن أحد السلاطين من جرأتهم قد ظن أنه مأخوذ بيدهم لا محالة.

وكانت روح مقاومة الطغيان المملوكي، تنتشر بين جميع المصريين، ليس فقط في القاهرة، ومصر، وإنما في جميع أنحاء القطر المصري، حتى أصبح المماليك يخافون المصريين، ولا يخرجون إلى الشوارع، إلا وقد لبسوا الدروع، ومعهم الأسلحة.[6]

---

(١) رحلة، ٢، ص ٢٤؛ انظر. رجب، حكايات، الشطار والعيارين في التراث المصري، الكويت ١٩٨١، ص ١٨٠.

(٢) هي كلمة عربية، تعني المصارعة أو المتطوعة. لسان، ٦ ص ٢٨٢.

(٣) النجوم، ١١ ص ٣٤٧.

(٤) رجب، حكايات، ص ٢٠٣.

(٥) السخاوي، التبر، ص ١٢٦.

(٦) ابن إياس، ٢ ص ٢٠١ (في آخر الصفحة).

ففى مرة ، فى القاهرة ، ظهرت الطبيعة الوحشية لأحد الأمراء ومماليكه ، بعد انتصاره على منافسه ؛ فعمد المماليك إلى نهب الأسواق ، وخطف النساء ؛ فقام العامة بمهاجمتهم بالحجارة والمقاليع ، وقضبان الحديد ، وإجبارهم على الفرار(١). كذلك لما توجهت جماعة من المماليك المفسدين إلى بيوت النصارى ، لأخذ الخمور(٢)؛ فإن النصارى أخذوا فى الدفاع عن بيوتهم ؛ فوقع بينهم قتال ، قتل فيه ثلاثة من المماليك ، بل إن الناس من المسلمين ، وثبوا عليهم أيضاً ، وعمد جميع الرؤساء والأعيان وأمروا البوابين بغلق الأبواب بالدروب وقت آذان العشاء .

كذلك تجرأ المصريون على كبار موظفى الدولة المنحرفين ، أو الذين يسيئون التصرف معهم ، حتى أنهم هاجموا المحتسب المملوكى ؛ بسبب غلو الأسعار ورجموه بالحجارة(٣) . وأكثر من هذا ، أنهم وقفوا تحت القلعة ، ومنعوا الأمراء من الطلوع إليها ، وطلبوا عزل والى القاهرة ، الذى كان يظلمهم ، واضطر السلطان إلى إجابة طلبهم وعزله(٤) . كذلك اشتكى القبط فى بلدة منية ابن خصيب(٥) ـ وهى تقع فى الدلتا ـ إلى نائب السلطان ، وهو التالى له فى السلطنة ، من مباشريهم جامعى الضرائب ، فلما لم يستمع إليهم ، رجموه بالحجارة(٦) . وفى الإسكندرية ، هاجم الأهالى الوالى ، مع أن منصبه هو الآخر خطير ، لأنه نصر الفرنجة من التجار عليهم ؛ فعملوا على إخراج الأمراء ، أعداء السلطان من السجن ، وكانوا معتقلين بالثغر ؛ ولولا أسراع السلطان بالقضاء على فتنتهم(٧) . كذلك رجم أهل الحلة والبها المملوكى(٨)؛

(١) نفسه ، ١ ص ٢٢٣ ؛ السلوك ، ٣ / ١ ص ١٧٣ .
(٢) حوادث ، ١/٣٣٢ – ٣٣٣ . وذلك فى ذى الحجة عام ٨٤٩/فبراير ١٤٤٦ .
(٣) ابن اياس ، ٢ ص ٣٢ .
(٤) نفسه ، ١ ص ٢٢٦ ،
(٥) عنها : معجم البلدان ؛ أنظر .
(٦) ابن إياس ، ١ ص ٢٢٤ .
(٧) نفسه ، ٢ ص ٢٨٤ — ٢٨٦ .
(٨) وذلك فى ربيع الآخر سنة ٨٢١ / أبريل ١٤١٨ .

بسبب مبالغته فى طلب المال ، ونزح كثير من أهلها إلى القاهرة .

وقد جر موقف المصريين الجرىء ، أن بدأ المماليك أنفسهم ، يستعينون بالعامة من الشعب ، فى منافساتهم الشخصية ؛ فكان إذا انتصر أمير على آخر طلب من العوام نهب بيت منافسه ؛ فكانت العامة تذهب لنهب البيت ، وتأخذ منه كل شىء ، حتى رخامه وأبوابه وشبابيكه ؛ كما كان السلطان نفسه ، يستعين بهم ضد منافسيه من الأمراء ؛ بل إنهم فى إحدى المرات ، حموا سلطاناً محبوباً لهم[١] ، من قتلته من الأمراء منافسيه .



كذلك كانت توجد طائفة من سكان مصر وهى العرب ، التى سكنتها أجيالهم منذ الفتح العربى لها ، ولاسيما منذ أن نقل إليها الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ؛ بيوتات من عرب قيس الكبرى ، بلغوا بالتحديد ثلاثة آلاف أهل بيت[٢] ؛ حيث كان تجمعهم الكبير فى الحوفين[٣] ، الشرقى والغربى من مصر ، وهما المنطقتان المتصلتان : الأولى من جهة الشام ، والأخرى غربى دمياط ؛ يشتملان على بلدان وقرى ؛ حتى غلب على سكانها اسم الحوفية ، أو أهل الأحواف أو الحوف[٤] ؛ ولاسيما فى مدينة بلبيس[٥] ، من مدن الحوف الشرقى الرئيسية ، التى وجد فيها وحدها ألف وخمسمائة من بيوتات قيس[٦] ، ثم قدمت إلى مصر قبائل عربية أخرى من البادية ؛ نزلت الصعيد والريف[٧] ؛ فكان هؤلاء المهاجرون العرب إلى مصر يسيطرون فى البلاد فى أيام الراشدين والأمويين سيطرة تامة .

---

(١) السلوك ، ٢ ص ٢٥٠٣ س ١٧ ومابعدها .

(٢) الخطط ، ١ ص ١٢٨ — ١٢٩ ؛ الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٧٦ .

(٣) معجم البلدان ، ٣ ص ٣٦٢ . وجدت أحواف أخرى ، مثل حوف رمسيس .

(٤) الكندى ، الولاة ، ص ١٤٦ ؛ الطبرى ، ١٠ ص ٦٢ .

(٥) معجم البلدان ، ٢ ص ٢٦٢ .

(٦) الخطط ، ١ ص ١٢٩ س ٧ .

(٧) نفسه ، ١ ص ١٢٨ — ١٣١ ؛ ساويرس ، سير البيعة ، نشر يسى عبد المسيح و.ب. مستمر ، القاهرة ١٩٤٣ ، ٢/١ ص ٣٦ .

ومنذ قيام الخلافة العباسية ، التى أصبح الموالى[١] يسيطرون على مقدراتها ، وجعلوهم فى الجيش والولايات [٢] ؛ فإنه قد أصبح الاعتماد على العرب وحدهم غير ممكن فى مصر . وفى أول الأمر ، حاول العرب الإبقاء على سيطرتهم فى البلاد ، وأصبحوا يولون الولاة بأنفسهم ، وحتى خلعوا الخلفاء مثل الأمين والمأمون ، وتوقفوا عن أداء الخراج ؛ بحيث اضطر المأمون أن يرسل ضدهم كبار قواده ، مثل : عبد الله بن طاهر ، والأفشين ، وأخاه المعتصم ، كما حضر بنفسه للقضاء على فتنهم ، وثبت حكم الخلافة العباسية فى مصر .

ثم كان اعتماد المعتصم العباسى وخلفه على عنصر الترك وحدهم فى الجيش، وإبقاؤه على حامية من هؤلاء فى مصر ، سبباً فى إضعاف نفوذ العرب فى مصر ، كما أن المعتصم أسقط[٣] أرزاقهم من ديوان الجيش، التى كانوا يتوارثونها منذ عمر بن الخطاب ، أى منذ مائتى سنة ؛ إذ كان قد جعلها لهم رزقاً محدداً بالمال والعين ، بدلا من تقسيم أرض مصر بينهم ، وقد مهد ذلك إلى إضعاف نفوذ العرب فى مصر ، حتى قال المقريزى : إنه انقرضت دولتهم فى مصر[٤] ، فأصبحوا يعرفون فيها بالعربان[٥] على الخصوص ، مثلما كان يقال الأعراب[٦] قبل الإسلام ، بمعنى البدو وغير صحيحى الإيمان ، بل أوقف ولاة الترك فى مصر هجرة العرب ، إليها[٧] ، وحاربوا العربان وكبتوا أنفاسهم كما يقول الكندى[٨] .

---

(١) الخطط ١ ص ١٥٢ س ٦ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١٥١ س ٢٦ ، ٢ ص ١٠٣ وما بعدها ؛ ولاة ، ص ١٥٩ .

(٣) نفسه ، ١ ص ١٥١ – ١٥٢ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٣٢ ؛ انظر . ماجد ، الدولة العباسية ، ١ ص ٢٩٣ . وذلك فى رجب عام ٢١٨ / ٨٣٣

(٤) الخطط ، ١ ص ١٥١ س ٢٨ ، ١٥٢ .

(٥) الطبرى ، ٢ ص ٩٤ ؛ الأغانى ، ١٧ ص ١٦١ س ٢٤ .

(٦) الطبرى ، ٢ ص ٩٤ .

(٧) الخطط ، ١ ص ١٢٩ ؛ الكامل ، ٥ ص ١٠٧ .

(٨) الكندى ، ولاة ، ص ٢٠١ .

ولكن العربان فى مصر ، مالبثوا أن استعادوا بعض نفوذهم فى وقت الفاطميين؛ لأنه قد جاءتها هجرات قبائل عربية جديدة ، من قبائل بنى هلال وبنى سليم[١] ، وهى قبائل رحالة كانت تسكن بلاد الخليج وأطراف العراق والشام ، يدفعهم فى الغالب الفقر للاستيلاء على مصر الغنية ، مدفوعين من قبل دولة القرامطة فى البحرين وعمان؛ بقصد أن يزيحوا الفاطميين عن مصر ، الذين دخلوها بعسكر من البربر أو المغاربة ، بناء على دعوة أهل مصر ، ورغم هزيمة القرامطة وانسحابهم ، إلا أن عرب بنى هلال وبنى سليم عرفوا طريقهم إلى مصر ، حينما نقل الفاطميون إليها من بقى منهم فى فلسطين ؛ حيث أسكنهم العزيز الفاطمى الصعيد[٢] ، حتى لايتفقوا مع عرب الشام ضد الفاطميين ؛ وإن كانت المصادر لاتذكر مواطن سكناهم فى مصر ، مما يبين أنهم سكنوا الجبال والصحارى المحيطة بها.

وقد أصبح هؤلاء العرب الذين انتقلوا إلى مصر ، فى عهد الفاطميين ، عناصر قلق ، لاهم لهم إلا الإغارة على القرى وتهديد طمأنينتها ، والزحف عليها ، والإحاطة بالمزارع ، أما من كان يسكن منهم الجبـــال والصحارى ، فكانوا يهاجمون الأديرة ويقتلون الرهبان وحتى الراهبات[٣]؛ مما حدا بالفاطميين إلى أن يتخلصوا من أكثرهم؛ حينما انتقض المغرب عليهم ، فأرسلوهم إليه فى أعداد كبيرة ، قيل مليون أو أكثر أو أقل ، حيث نعرف من السجلات المستنصرية ـ نسبة للخليفة الفاطمى المستنصر بالله ــ وكتب المؤرخين أسماء بعض قبائل العرب التى ارسلت إليه ، مثل : رياح وزغبة والأثبج (الأسبج) وعدى وصعصعة وسليم[٤]؛ ومع ذلك ، فإنه غلب على غزوة

---

(١) الخطط ، ص ١٨١ ؛ العبر ، ٦ ص ١٣ ، ٧٢ ، ٧٣ ؛ انظر . يونس ، الهلالية ، القاهرة ١٩٥٦ ؛ انظر
Ency. de l'Isl. (art Hilâl) 2ed., t. 2, p. 325-6.
(art Soulaim) t. 4, p. 542.

(٢) العبر ، ٦ ص ١٣ س ٩ ــ ١٠ ؛ انظر . يونس ، الهلالية ، ص ٧٤ .

(٣) ساويرس ، تشريسى عبد المسيح وغيره ، ٢/١ ص ٣٢ ؛ الخطط ، ٤ ص ٣٩٥ .

(٤) سجل ، ٥ ص ٤٣ س ٢٠ ؛ العبر ، ٦ ص ٥ ومابعدها ، ١٤ ومابعدها ؛ الكامل ، ٥ ص ٥٥ ــ ٥٦ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Riyâb) 1éd., t. 3, p. 1243.

العرب هذه للمغرب اسم الغزوة الهلالية[١] ، وربما بسبب أن أغلب هذه القبائل السابقة من أحياء بنى هلال ؛ وإن كان يبدو أنه لم يذهب أغلبهم ، بدليل بقاء بعض الهلالية فى مصر إلى أيام المماليك . ولقد كان غزو العرب للمغرب عاملا على تغيير جذرى فى أصول سكانه ؛ مع أنهم لم يستطيعوا ذلك فى مصر ، حيث خلد القصص الشعبى المصرى هذه الغزوة فيما عرف بسيرة أبى زيد الهلالى ؛ نسبة إلى بنى هلال من مصر ، والزناتى خليفة نسبة إلى قبيلة بربرية ، هى زناتة فى المغرب .

وعلى مايظهر ، بقى من العربان فى مصر أعداد كبيرة مع ذلك ، تخللتها فى جميع أنحائها ، بحيث تركوا فيها أثراً فى بعض أسماء بلادها [٢] ، ولاسيما فى الفيوم [٣] ، وإن وجد القبط فيها أيضاً[٤] ، وبنواحى الإسكندرية ، وإمتدوا إلى الصعيد فى أعماقه ، حتى أسوان ؛ بحيث أن المقريزى[٥] يذكر أنه فى أيام المماليك كانت توجد منهم فى مصر جميع فروع شجرة النسب العربى ؛ مثل : جذام ، وسعد من جذام وشيبان ، وعذرة ، وطىء ، وهلال ، وجهينة ، وهذيل ، ومخزوم ، وربيعة ، ولواتة ، وهوارة ، ومزاته ، وخفاجه ، وبلى ، وسنبس ، ولخم ، وعزالة ، وبقر ... الخ .

فكان موقف هؤلاء العرب فى مصر من المماليك ، موقف العداء المطلق ، ولاسيما أن المماليك كانوا أصلا من الرقيق ، وغرباء عن البلاد ، فاعتبر العرب أنفسهم ، بحكم توالى أجيالهم فى مصر منذ الفتح العربى ، أحق بحكمها منهم ،

---

(١) العبر ، ٦ ص ١٢ — ١٣ ، ٢٤ ، انظر .
Ency. de l'Isl. (art Hilâl) 1éd., t. 2, p. 325-326;
2éd., t. 3, p. 393-400 : Hartmann ;
Die Beni Hilâl. Geschichte der, Zetschrift fur Afrika,
؛ كحالة ، قبائل العرب (هلال) ٣ ص ١٢٢١ وما بعدها ؛ يونس ، الهلالية ، ص ٦٧ — ٦٨ .

(٢) العبر ، ٦ ص ٥٠ .

(٣) صبح ، ٤ ص ٦٧ — ٧٢ .

(٤) الصفدى ، تاريخ الفيوم ، القاهرة ١٧٩٨ ، ص ٢ ، ٦ ، ٣ ص ، ٢٤ .

(٥) أنظر . البيان والأعراب فيمن سكن أرض مصر من الأعراب ، تحقيق Wust ط . Gottingen ، ١٨٧٤ ص ٩ ومابعدها ؛ صبح ، ٤ ص ٦٧ — ٧٢ .

وحينما تسلطن أيبك ، الملقب بالمعز ، وهو أول سلطان مملوكى فى مصر ، ثاروا ضده ، وقطعوا الطريق ، وقالوا نحن أولى بالملك منهم [1] وقد تزعمهم فى ثورتهم شخص اسمه حصن الدين ثعلبه الجعدى ، وانضم إليه العربان فى كل مكان ، حتى بلغ عددهم مائة ألف ، كما يظهر أنهم توحدوا بزعامة لواته [2] ، التى هى من أصل عربى ، وربما كانت من أصل مشرقى ، تقيم فى نواحى برقة وإفريقية على أيام الفتوح الأولى ، وتبيع أبناءها لدفع الجزية ، ولا نعرف متى انتقلوا إلى مصر ، وربما كان أغلبهم فى مصر نتيجة لهذا البيع ، إذ بلغ عددهم فى أيام الفاطميين ، نحو خمسين [3] ألفا ، سوى اتباعهم ؛ حيث شبهوا فى السجلات المستنصرية فى أيام الفاطميين بالوحوش ، وأنهم ليسوا من البشر ، وأنه بسبب غاراتهم المتعددة فى أنحاء مصر خربت البلاد ، وتوقفت الزراعات ، كما كانوا يهاجمون الرهبان فى أديرتهم فى الصحارى . فخرج لهم السلطان أيبك بمماليكه وقابلهم فى ناحية سخا [4] ، بأرض البحيرة ، ولكن زعيمهم ثعلبة استطاع الفرار ، وإن قبض عليه بالإسكندرية ، وشنق [5] . ويبدو أن العربان وجدوا ألا فائدة من مقاومة المماليك ، فسعوا إلى الاتفاق معهم ، على اقتسام البلاد ؛ حيث أسرع أيبك بوعدهم بالإقطاعات والأمان ، ولكن حينما جاء زعماؤهم للاتفاق معه ، شنقهم على الأخشاب التى نصبها من بلبيس إلى القاهرة ، وأمر مماليكه بمعاملة العرب بقسوة ، وزاد عليهم الضرائب .

---

(١) نفسه ، ص ٩ ؛ النجوم ، ٧ ص ١٣ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ٣٥٥ ؛ البيان ، ص ٣٤ ؛ معجم البلدان ، ٧ ص ٣ ؛ أنظر : Brémond : Berbères et Arabes, p. 124

(٣) سجل ٥٦ ص ١٨٤ ، ٥٧ ، ص ١٨٧ .

(٤) معجم البلدان ، ٥ ص ٤٦ — ٤٧ .

(٥) البيان ، ص ١٠ ، ٢٤ .

ومع قبول العربان حكم المماليك ، إلا أنهم استمروا في حرق الأخضر واليابس(١) ، وإثارة قلاقل عنيفة ، مثلما كانوا يفعلون غالبا ، وساعد على ذلك تغيير السلاطين الدائم ؛ فكان مشايخهم يشيعون الفساد في البلاد ؛ بحيث اضطر السلطان الناصر محمد بن قلاون في ١٣١٣/٧١٣(٢) ، أن يذهب بنفسه إلى الصعيد ، ليعيد إليه حالة الإستقرار ، مما جعلهم يرحلون إلى الجبل ، وأسر البعض ، ووضعهم في جنازير الحديد ، واستخدمهم في حفر الجسور ، بل كانت بعض قلاقل العربان في مصر ، تستمر سنوات ، مثلما استمرت من ٨٨١ إلى ١٤٧٦/٨٨٣ — ١٤٧٨(٣) ، وغير ذلك من فتن عديدة ، استمرت طوال حكم دولة سلاطين المماليك في مصر . ويبدو أنه من كثرة مقاومة السلاطين لهم ، وبسبب أنهم عناصر اعتادت الإجرام ، فإنه قد خمدت جمرتهم ؛ من كثرة فتنهم ، وتبدد شملهم(٤) ، وكان نتيجة ذلك أن تركوا الريف ودخلوا المدن ؛ فكانوا يقومون بالسرقة ؛ ومع ذلك ؛ فإنه كان لهم مشايخ لهم شهرة السلاطين والملوك ، ويكتب لمشايخهم التقليد الرسمي بأمرة العربان ، ولهم مكاتبـــات رسمية(٥) ، وكان العرب يستقلون ببعض المناطق ، ويستخفون بالولاة ، ويتسمون بأسماء الأمراء المماليك .

ومع ذلك ؛ نلاحظ أنه طوال العصور ، فإنه كان يفرق ما بين عربان ومصريين ، فالعربان غير الفلاحين ، وبقى المصريون يعرفون باسم المصريين(٦) ، وأن العرب من

---

(١) ابن اياس ، ١ ص ١٤ ؛ إغاثة ، ط ٢ ، ص ٢٤ س ٦ .

(٢) ابن إياس ، ١ ص ١٥٨ — ١٥٩ .

(٣) نفسه ، ١ ص ١٦٠

(٤) السلوك ، ٢/٢ ص ٣٧٧ .

(٥) المصطلح الشريف ، ص ٧٦ — ٧٧ .

(٦) النجوم ، ٨ ص ١٤٩ .

ناحيتهم ظلوا يعيشون فى مصر عيشة منفصلة لاتختلط بالمصريين ، محتفظين بظروف معيشتهم الصحراوية ، فى قبائل ، لها أنسابها ، كما يظهر من كتاب البيان والإعراب للمقريزى ، وظل يوجد تقليد عندهم هو منع الزواج مع المصريين ، وبقى ذلك إلى وقت قريب فى عصرنا الحديث .

كذلك يبدو من القصص الشعبى المصرى أن المجتمع المصرى كان يرفضهم بشدة(١)، ولم يتعاطف معهم ، ويعتبرهم أشد وطأة عليه من المماليك ، فكان الأعراب على عكس المماليك الذين تعاطفوا مع أهل البلاد . والواقع إن دور العربان فى مصر ، كان سبباً فى تدهور أحوالها ، بسبب فتنهم التى لم تنقطع ، فضلا عن أنه كان فى قلبهم نحو المماليك الشيء الكثير ؛ بحيث أنهم كانوا عاملا أساسيا فى زوال دولة المماليك ؛ حينما أتيحت لهم الظروف بوصول العثمانيين إلى مصر ، فهؤلاء العربان كانوا السبب فى خراب مصر ؛ بحيث انتهز واهزيمة المماليك من العثمانيين ، فقتلوا من الفلاحين مالا يحصى(٢)، وهجموا على بلاد عديدة ونهبوها ، ولم يبقوا فيها مواشى ولا بقرا ولا غنما ، وأخذو النساء ، وقطعوا جميع الطرقات ، بل كانوا غالبا مع أعداء مصر ، وحتى قبل ذلك ، مع الفرنجة (٣) . ولاشك أن ثورات العربان وإقلاقها راحة المصريين ، صحبها مجاعات وطواعين فى سنين متعددة من حكم المماليك ، مما زاد من وطأة الأحوال فى مصر .



وإجمال القول إن شرعية حكم المماليك فى مصر ، استندت على التقليد الخلافى ، وإستظلال الخلافة بحمايتهم ، وقبول المصريين لحكمهم ، ورضوخ العربان لهم .

---

(١) أنظر . رجب ، حكايات الشطار والعيارين فى التراث المصرى ، الكويت ١٩٨١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٥٤ س ٨ وما بعدها .

(٣) البيان ، ص ٧٥ .

الفصل الرابع

السياسة الحربية لدولة سلاطين المماليك

أهدافها ـ انتصارات المغول فى آسيا وأوربا ـ هو لاجو يهاجم فى بلاد المسلمين ـ قضاؤه على الخلافة العباسية فى العراق ـ انتصار المماليك على المغول فى موقعة عين جالوت ـ استعمال سلاح البارود لأول مرة ـ هجوم إيلخانات إيران فى الشام ـ حروب تيمور لنك وغزوه الشام ـ علاقة المماليك بخلفه ـ علاقة المماليك بالممالك التركمانية ـ مرحلة حاسمة فى قتال الصليبيين فى الشام ـ موقف أوربا السلبى ـ غزو المماليك لأرمينية ـ الغارة القبرصية على الإسكندرية ـ غزو المماليك لقبرس ـ تنازل المماليك عن قبرس لجمهورية البندقية ـ غزو المماليك لرودس ـ أسس جديدة لسياسة المماليك فى جنوب الوادى ـ علاقة المماليك بمملكة الحبشة ودول الطراز الإسلامى ـ علاقة المماليك بدول السودان الغربى .

*

نجد أن أركان سياسة دولة سلاطين المماليك الحربية ؛ هى ذاتها أركان السياسة الحربية لمصر كدولة قوية ، وهى التى بدأت فى الإسلام بخلافة الفاطميين ؛ إذ كانت مصر قبلهم ، منذ الفتح العربى ، إلى وقت حكمهم ، مجرد ولاية تابعة ، تنفذ ما تمليه عليها العواصم العربية : المدينة ، ومن بعدها دمشق ، ومن بعدها بغداد . ولكن تحول مصر من ولاية تابعة ، إلى خلافة مستقلة ، على يد الفاطميين ، جعل لحكام مصر المستقلة سياسة حربية خاصة بها ، ولما جاءت دولتا الأيوبيين والمماليك ، عملتا أيضاً على أن تكون مصر قوية ؛ ولذلك استمرت لمصر سياسة حربية خاصة بها فى

عهدهما . ولقد كان ظهور مصر المستقلة القوية ، معناه دائماً ، أفول غيرها من الدول المجاورة ، كما كان الحال فى وقت مصر الفرعونية القديمة .

فكان المماليك فى سياستهم الحربية فى مصر ، مثل الفاطميين والأيوبيين من قبل ، لم يكن قصدهم فرض سيطرة المصريين على العالم الإسلامى ، مثلما كان الحال فى أيام الأمويين ، حينما كان هدفهم فرض سيطرة العنصر العربى ، أو فى أيام العباسيين ، الذين قاموا بتأييد الفرس ؛ ففى ذلك الوقت ، كانت حركة الشعوبية ، أى الشعوب أو القوميات ، أو حق السلالية والعنصرية ؛ قد اختفت من العالم الإسلامى ، وإنما الذى كان يسيطر على الشعوب الإسلامية آنذاك الروح الإسلامية ، التى تمكنت من المسلمين ، وجعلتهم أخوة،لافرق بين عربى وعجمى .

ولذلك كان قصد سلاطين المماليك ، كما كان قصد ملوك الأيوبيين ، ومن قبل خلفاء الفاطميين ، اتخاذ مصر الغنية برجالها ومالها ، قاعدة أصيلة فى الدفاع عن هذه الروح الإسلامية ، من الأخطار التى ظهرت بمجىء الصليبيين ، وخصوصاً أن الأيوبيين قبل المماليك ، لم يستطيعوا أن يقضوا على هذا الخطر الداهم ، الباقى فى أرض الإسلام . كذلك ، كان على المماليك ، أن يقفوا أمام خطر أكبر ، لايقل فى تهديده للاسلام عن الخطر الصليبى ، وهو الخطر المغولى الوثنى .

ولذلك نجد أنه قد أصبح من أسس السياسة الحربية لدولة سلاطين المماليك الجهاد باسم الإسلام ضد هذه الأخطار الكبيرة ،التى أصبحت تتهدده ؛ حيث كان جهادهم يتفق مع أصول فريضة الجهاد فى الدفاع عن الكيان الإسلامى ، ولاشك أن مضمون الجهاد فى الإسلام كان قد تطور ، فبدلا من أن يكون مغازى فى دار الحرب ، مثلما كان الحال فى أيام الفتوحات العربية الكبرى ؛ فإن هدفه أصبح بالأولى الدفاع عن الإسلام المهدد فى عقر داره ، فى دار الإسلام ذاتها . ولذلك كان من أميز ألقاب سلاطين المماليك ونعوتهم المتعددة ، ماهو فى مضمون الجهاد ، مثل لقب : سيد ملوك المجاهدين ، كما كانوا هم أنفسهم يحثون مفكرى عصرهم على

التأليف عن فضائل الجهاد ؛ حيث كان العلماء والمفكرون المسلمون يتقربون لهم بذكر شيء من أخباره .

ولا ريب ، فإن الشعب المصرى فى وقتهم ، كان قد تحول معظمه للاسلام ، وكان مستعداً للتضحية فى سبيله بأى ثمن ؛ ويكفى أن نقرأ فى كتاب السلوك للمقريزى ، لنرى بعض فقرات فيه تروى حماس المصريين للاسلام ، بحيث أنه فى إحدى مظاهراتهم كانوا ينادون : لادين إلا الإسلام ؛ وقد لاحظ السيوطى أن الدين الإسلامى لم يكن بقوته فى أى مكان مثلما هو بمصر ، فيقول : وليس الدين قائماً ببلادهم — أى البلاد الأخرى — كقيامه فى مصر ، ولا شعائر الإسلام فى أقطارهم ظاهرة كظهورها فى مصر[١] . ومن ناحية أخرى ، وجدت الرغبة الصادقة فى الجهاد عند المماليك أنفسهم ؛ إذ كانوا متحمسين للاسلام ؛ بحكم تربيتهم الدينية القوية فى الطباق ، وهى مدارسهم العسكرية ؛ ولأنهم كانوا بطبعهم فرساناً مسلمين ، يذودون عن الكيان الإسلامى بأرواحهم .

كذلك ظهر هدف آخر فى السياسة الحربية لسلاطين المماليك ، هو جعل العالم الإسلامى كله يعترف بالشرعية الدينية ، متمثلة فى الخلافة العباسية السنية ، التى أقاموا صرحها فى مصر بعد سقوطها فى بغداد على يد المغول ؛ وقد اعتبروا أنفسهم مشاركين فى شرعيتها ، فكان من لقب السلطان المملوكى : قسيم أمير المؤمنين[٢] ؛ حيث كان يعترف بها فى البلاد التى امتد إليها النفوذ العسكرى المملوكى ، فى ممالكهم ، وخارجها . فكان ذلك ، على عكس ما كان فى أيام الأيوبيين ، الذين قامت دولتهم على أنقاض الخلافة الفاطمية الشيعية ، بقصد إعلان شرعية الخلافة العباسية السنية وحدها ، بحيث كان هم الأيوبيين فى مصر ، هو أن يعترف المسلمون بالخلافة العباسية فى العراق ، واعتبروا أنفسهم حماتها .

---

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٧٦ — ٧٨ ؛ انظر طرخان ، المماليك الجراكسة ، ص ٥٢ .
(٢) مخطوط ، برقم ٤٤٠ ، ورقة ٤٧ ب .

ثم إن موقع مصر الجغرافى المتميز ؛ كان هو الآخر يتدخل بالضرورة فى رسم السياسة الحربية لسلاطين المماليك ، مع جيرانها ؛ ومع العالم أجمع ؛ فموقع مصر السكانى باعتراف الجغرافيين العرب أنفسهم ، وبتعبيرهم ؛ يعتبر : أرفع بقاع الدنيا فى الشرف والجلال [١] . فبالنسبة للشام ، وهو القطر المجاور لمصر من ناحية الشرق ؛ فإنه كان من سياسة حكام مصر ، عبر العصور ، العمل على ضمها مع مصر فى وحدة ما ؛ بأى شكل ما ، بسبب أن الشام يعتبر حدوداً طبيعية لتأمين المنطقة بما فيها مصر ؛ حيث يمتد الشام من حدودها إلى جبال طوروس ، ونهر الفرات .

فمنذ قديم الزمان ، دافع المصريون القدماء ضد الغزاة ، عن سوريا فى سوريا ، لأن المصلحة المشتركة لهذين القطرين كانت تقتضى ذلك ؛ مما كان سبباً فى ترسيخ رابطة قوية أزلية بين مصر وسوريا ، وهى رابطة ، ليست دينية ـ إذ كانت سوريا القديمة لها أديانها الخاصة بها ـ بقدر ما هى رابطة مصالح مشتركة وحضارية . فلما أقام الإسلام قوى الارتباط بينهما عن ذى قبل ؛ فقد أضيفت إلى روابط المصالح المشتركة والحضارية رابطتا الدين واللغة على الخصوص ؛ فقد تحولت الناس فيهما ، منذ أيام الأمويين إلى الإسلام ؛ بحيث كان الإسلام من أشد الروابط التى تربط بينهما ، وإن كان الدين فى موقعه فى المحل الثانى لرابطة اللغة ؛ بسبب أن جميع سكانهما ، بمن فيهم المسيحيون فى مصر أو سوريا يتكلمون العربية ؛ فهؤلاء أصبحوا يعبدون الله بالعربية ؛ مما جعلهم يدخلون أيضاً فى القومية العربية ، وينشأ وطن عربى منهما ، ومما يجاورهما .

كذلك حرصت سياسة دولة المماليك الحربية على أن تخضع لها أقاليم جزيرة العرب ، الواقعة فى جنوب مصر الشرقى ، لأهميتها من الناحيتين الدينية والتجارية .

---

(١) ابن شاهين ، الممالك ، ص ٩ .

فمن ناحية ، كان لابد أن يدين الحجاز بالولاء لدولتهم ؛ بسبب أنه كان من العرف السائد ، منذ نشأة منصب الخلافة ، أن يذكر اسم الخليفة في الحرمين ، في مكة والمدينة ؛ حتى تكتسب الخلافة شرعية كاملة ، وهي الخلافة العباسية ، التي أقامها المماليك في مصر ، بعد سقوطها في بغداد . فمين السلطان له نائباً بمكة ؛ أصبح يسمى : « باش مكة » أو « باشا الترك » ، يكون الحل والعقد على يديه[١] ؛ وذلك منذ أن قام بيبرس برحلته إلى الحجاز[٢] . ولكن حينما يتحد بعض أمراء الحجاز ضد السلطان المملوكي ؛ فإنه كان يرسل نحوهم الحملات[٣] . يضاف إلى ذلك ، أنه كان من تقاليد حكام مصر الإسلامية ، وذلك منذ أيام الولاة الطولونيين ؛ أن يشرفوا على الأماكن المقدسة في الحجاز ؛ بسبب فقر الحجاز ، وغنى مصر ؛ فكانت مصر تحمل دائماً « صدقة » الغلال ، والمال إليه . وقد استمر ذلك التقليد في أيام الفاطميين ، وفي أيام الأيوبيين ، فأطلق على صلاح الدين لقب : خادم الحرمين الشريفين[٤] ؛ أما في عهد المماليك ، فكان من ألقاب السلطان المملوكي : خادم المساجد الثلاثة[٥] ، بالإضافة إلى بيت المقدس . كما أصبح من تقاليد دولة المماليك ، مثلما كان الحال قبلهم ؛ إرسال الكسوة إلى الكعبة[٦] ، التي كانت في أيام الفاطميين تسمى : الشمسية .

---

(١) عبد القادر الجزري ، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، القاهرة ١٣٨٤ هـ ، ص ٢٨٣ .

(٢) صبح ، ٤ ص ٢٨٩ ؛ الذهب المسبوك ، ص ٨٧ — ٩٢ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٨ .

(٣) النجوم ، ١٤ ص ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٨٢ — ٣ ؛ السخاوي ، التبر ، ص ٤٦ ؛ ابن إياس ، ٤ ص ٨٢ .

(٤) أنظر . Répertoire, vol. 9, n. 3447

(٥) مخطوط ١٧٢١ ، ورقة ٣٥ أ .

(٦) ترجع عادة إرسال الكسوة للكعبة ؛ إلى زمن الأمويين أنظر . بتفصيل : ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، ط ٢ ، ١٩٧٨ ، ٢ ص ١٣٠ — ١٣١ .

أما فى أيام المماليك ؛ فسميت : الكسوة ، أو المحمل ، أو المحمل الشريف [١] ؛ بمعنى أنها تحمل إلى مكة . وعادة يصحب المحمل العسكر ، الذى يعتبر المظهر العسكرى لسيطرتهم فى الحجاز ؛ فكان أمير الحجاز يظهر ولاءه للمماليك بتقبيل خف اليد اليمنى للجمل الذى يحمل المحمل [٢] . ولما حاول أحـــد سلاطين اليمن أن يكسو الكعبة ؛ فإن أمير مكة منعه ، وأخذ أسيراً إلى مصر [٣] ؛ مما يدل على تمسك المماليك بالإشراف على الحجاز .

ومن ناحية أخرى ؛ فإن الجزيرة العربية ؛ بموقعها الاستراتيجى ؛ كانت تطل بشواطئها على شرايين التجارة البحرية المؤدية إلى تجارة البهار والتوابل ، وذلك عن طريق الخليج العربى أو الفارسى ، وبحر القلزم أو الأحمر ؛ فكلاهما يصل إلى المحيط الهندى ، الموصل بالتالى إلى مواطن التوابل فى الهند والصين . ومن قبل كانت أقاليم الجزيرة العربية من يمن وعمان وبحرين ؛ تخضع لنفوذ الفاطميين [٤] ، ومن بعـــدهم لنفوذ الأيوبيين ؛ ولذلك أصبح الإشراف على الأقاليم العربيـــة ؛ يعتبر ركناً هاماً فى سياسية الدولة المملـــوكية الحربية ؛ حتى كان من ألقاب سلطان مصر المملوكى : صاحب اليمن والبحرين [٥] ، وخادم الحرمين الشريفين .

أضف إلى ذلك أن سلاطين المماليك اهتموا بجنوب مصر أو إقليم السودان ؛ بنفس الحماس الذى كان فى وقت ملوك الفراعين ، وهو الذى أهمل فى عهد الدول الإسلامية فى مصر قبلهم ؛ بسبب الاهتمام أكثر بالأحداث فى الشام ، فالمماليك

---

(١) بتفصيل ، أنظر . ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، ط ١٩٦٧ ، ٢ ص ١٤١ وما بعدها .

(٢) صبح ، ٤ ص ٢٧٧ ؛ النجوم ، ١١ ص ٢٤٥ — ٢٤٦

(٣) هو سلطان اليمن داوود الظافر يوسف ، فى أيام السلطان الناصر . صبح ، ٥ ص ٣٢ ؛ الذهب المسبوك ، ص ١١٤ — ١١٨ .

(٤) أنظر السجلات المستنصرية : ٥٠ و٥٤ و٦٣ .

(٥) زبدة ، ٦٧ .

هم الذين عملوا على فتح السودان ؛ بإطلاق قبائل العرب فى مصر نحوه ، وبالتالى صبغوه بصبغة العروبة والإسلام . ولا ريب ؛ فقد كان السودان أبداً على مر العصور ؛ يستمد مقوماته من مصر فى أيام الفراعنة ، والقبط ، والمسلمين . بل فى عهدهم ظهرت لهم سياسة أفريقية ، لم تظهر من قبل ؛ بالنسبة لحكام مصر المسلمين ؛ بسبب ظهور ممالك وأمبراطوريات أفريقية من السود فى غرب القارة ووسطها ؛ وهى بالأولى علاقات حضارية إسلامية .

أما من ناحية حدود مصر الغربية ؛ فبسبب وجود صحارى واسعة ؛ فإن حكام مصر بمن فيهم المماليك ؛ لا يخصصون قسطا كبيراً فى سياستهم للبلاد الواقعة فى غربى مصر ؛ إلا على حسب مقتضى الحال ؛ ومع ذلك ؛ فإن حكام مصر الإسلامية منذ الخلافة الفاطمية ؛ كانوا يحرصون على جعل حدود مصر تمتد إلى برقة[1] ؛ بحكم أنها مناطق تعتبر امتداداً لمصر ، منذ أيام الفراعنة ، والبطالمة ، وفى أيام المحتلين الرومان ، وكذا فى أيام الفتح الإسلامى ؛ حينما فتحت برقة وطرابلس ، بعد فتح مصر ، وضمتا إلى ولاية مصر .

أما إفريقية ، المجاورة لبرقه وطرابلس ؛ فقد كانت انقسمت إلى أقاليم متميزة بأسماء غلبت عليها فيما بعد ، مثل : تونس ، والجزائر ، ومراكش ، ونشأت فى كل منها ممالك إسلامية عاصرت المماليك ؛ منها:[2] : الحفصيون فى تونس ، وبنو زيان فى تلمسان ، وبنو مرين فى فاس ، وكلها قامت على أنقاض دولة الموحدين . فكانت علاقة مصر وقت سلطنة المماليك بهذه الممالك هى علاقة حضارية واقتصادية ؛ حيث كان ملوك هذه النواحى يشعرون باحترام كبير لملوك مصر ؛ لما خصهم الله من شرف ولاية المساجد المعظمة ، وخدمة الحرمين ؛ ولأن

---

(١) ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤١٤ — ٤١٦ فى أيام بيبرس حارب بابوش أحد عربان برقة وأسره واستحلفه بالطاعة .

(٢) أنظر - زامباور ، معجم الأنساب والأسرات فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى حسن وحسن محمود ، ١٩٥٢ ، الجزء الأول

مصر كانت فى طريقهم للحج[١] ، ومركز إشعاع تعليمى هام ؛ حيث كان يوجد رواق للمغاربة ، خاص بهم فى الأزهر الشريف ، عرف برواق المغاربة ، لا يزال يوجد حتى الآن ، فكانت لهم فى ديوان الإنشاء المملوكى مكاتبات ومصطلحات[٢] ؛ ويلقب سلطان مصر الواحد منهم بالأخ .

ومع ذلك ؛ فإن مصر كانت تخص تونس من ضمن الممالك المغربية بعلاقات أوثق ، ربما لقربها ؛ حيث ظهر فيها الحفصيون ، الذين قاموا على أنقاض الموحدين ، ويدعون النسب إلى عمر بن الخطاب[٣] ؛ وإن كان من أهل النسب من ينكر عليهم ذلك . كذلك لعل السبب فى صلة مصر الوثيقة معهم ؛ تعود أيضا إلى أنهم وإن كانوا يتسمون بألقاب الخلفاء ؛ إلا أنهم لم يتلقبوا بلقب الخليفة[٤] ؛ مما يجعلهم معترفين ضمنا بالخلافة العباسية فى مصر ، ولأنهم كانوا يشاركون المماليك فى بعض غزواتهم على جزائر البحر الأبيض[٥] ؛ فهم شاركوا المماليك فى حملتهم الأولى على قبرس .

وقد بدت الروابط قوية مع تونس ؛ حتى أنه لما حضر إلى مصر أحد ملوكهم ، وهو أبو زكريا يحيى فى ٧١١ هـ/١٣١١[٦] ؛ ليطلب مدداً من سلطان مصر ضد منافسه ؛ فإن السلطان الناصر أرسل إليه العسكر من مصر ؛ فاعترف أبو زكريا

---

(١) المصطلح الشريف ، ص ٢٤ .

(٢) صبح ، ٨ ص ٧٩ ، ٨٥ ، ٩١ .

(٣) المصطلح الشريف ، ص ٢٤ .

(٤) أنظر .

Contribution à l'étude des : Colin relations diplomatiques entre les Musulmans d'Occident et l'Egypte, au XVème siècle. Le Caire, 1923.

(٥) صبح ، ٨ ص ٨٤ .

(٦) المصطلح الشريف ، ص ٢٤ .

بفضله ، وخطب له على المنابر فى طرابلس وتونس، وسك العملة باسمه ، وإن عادت عسكر مصر من تونس ، دون أن تبقى فيها .

كذلك كانت المماليك سياسة خاصة ، لثغر الأندلس[١] ؛ تتمحور حول تشجيع المسلمين فيه على الصمود فى الأرض الاسبانية ، أمام حركة الريكونكستا Reconquista ؛ وهى حروب الأسبان النصارى ، لاسترداد الأرض من المسلمين فى أسبانيا ؛ وذلك فى شكل تبادل للمكاتبات مع المسلمين فيها[٢] ، أو بمكاتبة ملوك النصارى الأسبان أنفسهم؛ لرفع الأذى عن رعاياهم المسلمين ؛ فكانت لهؤلاء الملوك الأسبان مكاتبات متبادلة رسمية فى ديوان الإنشاء المملوكى ، أو بإرسال الرسل إليهم ، مثلما فعل قايت باى ، حينما أرسل مادروس[٣] ، أسقف دير صهيون فى بيت المقدس ؛ ليتدخل فى رفع الأذى عن مسلمى الأندلس . كما لجأ المماليك إلى إغاثتهم عن طريق إغراء ملوك النصارى فى أسبانيا بالتجارة معهم ، ولدينا أرشيف كبير خاص بمكاتبات تتعلق بتبادل التجارة مع ممالك النصارى فى أسبانيا ، ومع مختلف مدن أسبانيا التجارية المشهورة .

وقد كان مسلمو الأندلس ينظرون إلى دولة سلاطين المماليك مصر[٤] ، على أنها أعظم دول الإسلام فى الشرق ، التى طردت الصليبيين من بلاد الإسلام ، واستنقذت الأراضى المقدسة فى فلسطين ، وانتصرت على حملات المغول الوثنية ؛ بحيث أصبح سلطان مصر أملهم الوحيد ؛ فهو فى نظرهم، من دون ملوك المسلمين ،

---

(١) سميت هكذا فى المكاتبات الرسمية ؛ لأنها أصبحت ثغرا للجهاد . صبح ، ٨ ص ١١٠ .

(٢) أنظر . مخطوط برقم ٤٤٠ (B.N.) ، ورقة ٨ب وما بعدها (من جقمق)؛ ورقة ٦٢ وما بعدها (خشقدم) ، وانظر رسالة من أهل اشبونة ، ورقة ٥٩

(٣) ابن إياس ، ٢ ص ١٨٢ — ١٨٥ ؛ انظر . سعيد عاشور ، قبرص ، ص ١١٦ .

(٤) صبح ، ٨ ص ١٠٦ وما بعدها . يطلقون عليه : سلطان الحج والجهاد . نفسه ، ٨ ص ١٠٨ .

ولى المسلمين ؛ كما يظهر فى مكاتبات مسلمى لشبونة[1] ، عاصمة مملكة البرتغال .

وعلى العكس ؛ فإنه بالنسبة لملوك بنى الأحمر فى ثغر الأندلس ؛ لم يقف الأمر عند المماليك، على تشجيعهم على الصمود ، وإنما كانوا يمدونهم بالمؤن والسلاح أيضاً ؛ حيث كان بنو الأحمر ؛ قد أسسوا لهم ملكا فى غرناطة[2] (أو إغرناطة)، إحدى مدن الأندلس الكبيرة فى القرن الرابع الهجرى/الحادى عشر الميلادى؛ ونسبوا أنفسهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ؛ فكانت مملكتهم هى المملكة الوحيدة ، من بين ممالك الطوائف الإسلامية ، التى بقيت صامدة أمام طوفان الأسبان النصارى. فكان بنو الأحمر ينظرون إلى سلاطين المماليك كمنقذين لهم ، للبقاء بين ممالك النصارى ، التى أحاطت بهم من كل جانب ؛ بينما لما كانوا يطلبون مساعدة من بنى مرين ، المعاصرين للمماليك ، من دول شمال أفريقيا ، والقريبين من بلادهم ؛ فإن هؤلاء لم يكونوا يسمعون لهم ، أو يجيبونهم ، وتخاذلوا عن نصرتهم . فكان المماليك على الرغم من انشغالهم بحروبهم الكثيرة فى الشرق ؛ يرسلون إليهم المؤن والسلاح . ولا شك أن بنى الأحمر كانوا يفتخرون بمواقف المماليك فى حروبهم ؛ حتى أنه بمغادرة الإسكندرية ، التى غزاها ملك قبرص على غير انتظار ، وارتكب بشاعات لم تحدث فى غزوات الصليبيين السابقة ؛ فإن ملك غرناطة المسلم ، كان يقاتل النصارى بشعار : يالثأرات الإسكندرية[3] . ولدينا مصادر عديدة ، تبين نجدة السلطان المملوكى لأهل غرناطة ؛ من دون جميع ملوك المسلمين، منها رسالة أرسلها ملك غرناطة إلى خشقدم ، سلطان المماليك فى مصر (٨٦٥ - ٨٧٢ / ١٤٦١ -

---

(١) أنظر . Colin : Op. Cit., p. 201

(٢) عنهم، بتفصيل، انظر. Ency. de l'Islam (art Grenade) t. 2, p. 186-7

(٣) أنظر . صبح ، ٨ ص ١١٦ ؛ وقبله . فى رسالة من قبل أبى عبد الله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر إلى سلطان المماليك يواسيه فيها .

— ١٤٦٧) يقول فيها (١) : فالدين هنا فى خطب مهول ، واشتباك مع الكافرين ، الذين عمروا الحزون والسهول ؛ حتى أذهلوا مع قلتنا القلوب ؛ فنحن نستغيث بنصركم ، فنقول : «ياولى المسلمين» ؛ فأرسل السلطان المملوكى فى حدود الطاقة بعض المراكب المملوءة بالذخيرة . وحتى فى أيام الغورى (٢) ، لما استنجدت غرناطة من جديد به ؛ فإنه لم يكن يستطيع إغاثتها ؛ بسبب انشغال المماليك تماماً فى حروبهم مع العثمانيين ، وكانت دولتهم على وشك السقوط .

* * *

والخلاصة أن سياسة سلاطين المماليك الحربية ، تبرز ركائز ثابتة فى سياسة حكام مصر ؛ منذ وجدت الدولة الإسلامية القوية فى مصر ؛ مما يبين الاستمرارية فى سياسة مصر ، عبر العصور .

*

ولعل الشام هو المكان الهام ، الذى ظهرت فيه سياسة دولة سلاطين المماليك الحربية قوية ومحددة ؛ وهو القطر الذى كان مايجرى فيه ؛ يؤثر تأثيراً كبيراً فى مصر ، فقد غزاه على أيام دولتهم ، وفى بداية قيامها فى مصر ؛ جنس المغول الآسيوى الذى زحف إلى بلاد الإسلام ، من أقاصى شرق آسيا ؛ بعد أن أحرز انتصارات مذهلة ومتوالية ؛ مما جعل السياسة الحربية المملوكية ترتبط لفترة طويلة بالغزو المغولى للشام ، ولا سيما فى مرحلته الأولى ؛ حينما كان المغول وثنيين فى أغلبهم (٣) ، ولم يدخلوا الإسلام بعد .

فقد ظهر نشاط الجنس المغولى فجأة (٤) ، وهى التسمية التى ترددت فى المصادر الإسلامية المعاصرة ؛ لتعنى بالأولى دولتهم ، وإن عرفوا بالتتر أو التتار أيضاً ،

---

(١) فى رسالة مؤرخة فى شهر جمادى الأولى سنة ٨٦٨ / يناير - فبراير ١٤٦٤ . مخطوط ٤٤٤٠ ، ورقات ٦٢ ب — ٦٥ أ ؛ أنظر دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٩٧ — ٩٨ ؛ ملاحق ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ .

(٢) مخطوط ٤٤٤٠ ؛ ورقات ٥٨ — ٥٩ .

(٣) أنظر . Minorsky : Politics in 13th, 14th, 15th centuries. Reprinted from the J. of R.A. Sc, XXVIII, 1940, p. 429.

(٤) أنظر . D'Hsson : Histoire de, Mongols, I, 216 suiv.

التي ترددت في المصادر الأوربية من لاتينية وفرنسية قديمة باسم: "Tartarius" (١)، لتمتى بالأولى شعبهم؛ حيث وردت هذه التسمية في كتابات أرخون« "Orchon" »، الصينية القديمة؛ كما ذكرهم ابن الأثير باسم: « التتار الأولى(٢) »؛ حيث كان يوجد نزاع بين المغول والتتار، ربما لأن التتار كانوا قد اختلطوا بالترك؛ وإن سيطر المغول على التتار في النهاية.

ومع ذلك؛ فقد تميز المغول بعضهم عن بعض؛ على حسب أحوال معيشتهم؛ فمنهم البيض « آق »، الذين سكنوا قرب سور الصين، وعلى حدود منشوريا، في الوديان والجبال، والسود « قره »، الذين سكنوا شمال صحراء جوبي في وسط آسيا، والمتوحشون الذين سكنوا الجبال المكسوة بالغابات، في شمال منغوليا Mongolia ـ أو بلاد الصفر بتسمية العرب ـ المجاورة لسيبريا، ومن هذه التسمية أخذ اسم المغول.

فكان المغول يعيش أغلبهم في جماعات قبائلية بدوية؛ إذ ليس لهم أماكن استقرار، شديد والبأس فيما بينهم؛ يخضعون تارة للصين في الشمال، وتارة للترك في وسط آسيا، ووصفهم الرحالون الأوربيون(٣)؛ بأنهم يحلقون رءوسهم، ويتركون ماحولها، ويضفرونها ضفائر؛ تنحدر على الجانبين، ويلبسون الفراء شتاء، وفي الصيف يكون لباسهم الحرير الصيفي، ويشربون لبن الفرس المخمر، كما وصفهم المؤرخ العربي ابن الأثير؛ بأنهم يأكلون جميع الدواب؛ وحتى الكلاب.

---

(١) عنهم، بتفصيل:
Ency. de l'Isl. (art Tatar) 1éd., t. 4 p. 736-737.
؛ وانظر. Joinville : Histoire de Saint Louis, éd. Wailly

(٢) ابن الأثير، ط Tornberg ١٢ ص ٢١٧؛ انظر.
Ency. de l'Isl. (art Tatar) 1ed., t. 4, p. 737.
: Brocks Histoire des Peuples trad. fr., p. 208.

(٣) أنظر: Grousset : L'Empire des Steppes. Paris, 1939, 140-141.
هكذا وصفهم الرحالة رُوبرك Rubrock في رحلته الهامة في ١٢٥٣م؛ حينما أرسل من قبل ملك فرنسا لويس التاسع.

كذلك لم يكن للمغول ديانة معروفة(١) ؛ فهم وثنيون في أغلبهم ، يسجدون للشمس عند طلوعها ، ولا يتدينون بشيء من أديان أهل الأرض ، ولا يعرفون الحلال من الحرام ؛ وإن انتشرت بينهم ديانات أسيوية ، مثل : البوذية ، والسكونفوشسية ؛ والسمنية ، التي هي عبـــادة إله السماء تنجري ـ تنـكري ـ وحتى انتشرت بينهم المسيحية .

وحينما ظهر المغول زعيم اسمه تيموجين « Temoutchin » ؛ الملقب بجنكيز خان ـ جنجيز خان(٢) ـ إذ كلمة خان(٣) تعني أخاً كبيراً ، أو ســيداً مطلقاً ، أو حتى ابن السماء ؛ فإنه جمع شملهم ؛ وأوجد قانوناً سماه الياسة(٤) ، وخلصهم من سيطرة الصين والترك المجاورين لهم ، ووجههم نحو الفتوح ؛ فغزا بهم الصين ، واستولى بنفسه على أغلبها ، بما فيها العاصمة بكين « Pekin » في ١٢١٥ م (٦١٢ هـ) ، فقضى على نفوذ أسرة سونج « Song » (٩٦٠–١٢٨٠ م / ٦٤٩ ـ ٦٧٩ هـ) في شمالها ، فانسحبت هذه الأسرة إلى الجنوب ؛ وكما غزا أيضاً بلاد توران(٥) ، وهي بلاد الترك ، أو المملكة الخاقانية بأممها المتعددة ، وبلاد ماوراء

---

(١) عن دياناتهم : حمد الله القزويني ، تاريخ گزيده ، ترجمة Nicholson و Browne ص ٥٩٩ ؛ انظر . الصياد ، المغول في التاريخ ، المكتبة التاريخية ، ١٠ ، القاهرة ، ص ٤٤ ؛ Minorsky : Op. Cit., p. 428.

(٢) منه : Grenard, : Gengis - Khan, Paris, 1935, ; O'Hsson : Hist. des Mongols, I, 216 suiv. ; Quatremère : Hist. des Mongols I, 85 et n(1), (ينقل عن المؤرخ المسلم رشيد الدين) . Ency of Isl., (art Gingis Khan) 2ed., t. 1, p. 41-44. ويوجد مؤرخ صيني معاصر له اسمه : منج هنج Meng Hung ، ترجمة Vasiliev ، في مجموعة : Trudgvost otd Arkh Obss, vol. IV, cf.

(٣) خان تتوافق أيضاً مع قاآن ، أو حتى قاعان .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٥٨ .

(٥) المصباح الشريف ، ص ٤٣ .

النهر ؛ حيث يوجد فيها كثير من المسلمين ؛ فأحرق سمرقند[١] أهم مدنها ، واستولى على إقليم خوارزم[٢] وخراسان وغزنة ؛ وسادنفوذه فى ملك عريض ، امتد من البحر الأصفر إلى البحر الأسود ؛ حيث جعل عاصمته قريته ، التى نشأ فيها ، وهى قرية قره قورم[٣] .

ولما مات جنجيز خان فى ٢٥ أغسطس ١٢٢٧ م/ رمضان ٦٢٤ هـ) ؛ فإن حفيده منجوخان — منكوقا آن —[٤] من أسرة طاوى «تولى» ١٢٢٧ — ١٢٥٧ م /٦٢٤—٦٥٥هـ) ؛ قد أعاد لامبرطورية المغول تماسكها ، ولاسيما أنه كان أكثر طموحاً من جــده ؛ فأراد أن يفتح جميع بلاد العالم ، ووجد فى أسرته قواداً مهرة ، فهو نفسه سعى إلى استكمال فتح الصين ؛ فحارب بقايا أسرة سونج Song فى جنوبها ؛ بحيث خضعت له الصين بجميع أجزائها ، وأصبح يعرف بصاحب الصين[٥] ، وجعل بكين عاصمته الشتوية .

ومن قبل ، كان جوشى (ت ١٢٢٧ م/٦٢٥ هـ) [٦] ؛ أكبر أبناء جنجيز خان ، هو الذى كون الامبراطورية الغربية للمغول ، وساعد إياه فى القضاء على دولة خوارزم شاه ، وسيطر على بلاد الفرس إلى جنوب بحر قزوين[٧] ؛ وإن كان

---

(٦) ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ٤٠٨ — ٤٠٩ .

(٢) حافظ حمدى ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ١٩٤٩ ، ص ١١٥ وما بعدها .

(٣) المصطلح الشريف ، ص ٤٣ ؛ انظر . Hist. des Mong., p. 115: Quat.
وأيضاً :

Louis Hambis : Histoire des Campagnes, de Genghis Khan. Leiden, 1951.

Boyle : The History of the World Conquers., 2 vols. Manchester, 1958.

(٤) المصطلح الشريف ، ص ٤٣ .

(٥) نفسه .

(٦) يوشى ، أودوشى ؛ أرجوجى .

(٧) أنظر . Wolf : Geschichte der Mongolen, der Tarteem, Breslau, 1872.

الابن الثانى لجوشى ، وهو باتوخان[١]، كان هو الذى اجتاح الإمارات الروسية ، وهدم كييف Kiev ، عاصمة الروس وقتذاك ، فى ١٢٤٠ م (٦٣٨هـ)؛ حيث ذكر ذلك فى الحوليات الروسية[٢] ذاتها ؛ كما اجتاح البلاد حول البحر الأسود ، منها بلاد اللان[٣]،وعاصمتها مغص[٤] ، وغزا فى بلاد أوروبا من بولندا إلى هنغاريا فى العام نفسه[٥] ، ووصل إلى الأدرياتيك ، وخاض موقعـــة ليغنتز — Legnitz — المشهورة (Legncia) ، فى عام ١٢٤١م/٦٣٩هـ[٦]؛ فـكسر فيها جيشاً كبيراً من الألمان والهنغاريين والبولنديين . ولا شك أن وصول المغول إلى أوروبا أيضا ، دليل على مهارة المغول الحربية أكثر من أن يكون ذلك راجعاً إلى كثرة عددهم ؛ فـكان المثل المغولى يقول[٧] : إن الـكلاب لا تستطيع أن ينبح فى هذه المنطقة ؛ بدون إذن المغول .

إلا أن هذه الفتوحات المغوليـــة فى غرب آسيا ؛ مالبث أن قام لها كيان مستقل ، عن إمبراطورية الخان المغولى الـكبير ؛ وإن اقتصرت فى عهد باتو نفسه ، على البلاد التى تقع على ضفاف نهر إتل[٨] (الفولجا)؛ حول بحرى قزوين، والأسود، بما فيها بلاد القفجاق على الخصوص ، وبلاد السرير واللان المجاورة،[٩] ، التى كانت اتخذت

---

(١) عنه :
Ency. de l'Islam, (art Bâtu) 1éd., t. 1, p. 699, sqq.
كان لجوشى ١٤ ولداً .

(٢) أنظر . Minorsky : Lietopis' po la vrentievshoma, spislev ed. St. Peterbourg, 1872.

(٣) معجم البلدان ، ١ ص ٣ .

(٤) أنظر . Minorsky : The Alan capital Magas., another Mongol. campaigns B.S. O.A.S.A. XXIV, 2, p. 222-223.

(٥) Pelliot : Notes sur l'histoire de la Horde d'Or, 1950, 228.

(٦) أنظر . Minorsky : Op. Cit., p. 430.

(٧) أنظر . Zananiri : Op. Cit., p. 98

(٨) هى تسمية عربية لهذا النهر .

(٩) المصطلح الشريف ، ص ٤٧ ؛ معجم البلدان ، ٥ ص ٨٠ .

سراي عاصمة[1]، وخضعت لها الإمارات الروسية في سيبريا الوسطى وفي الجنوب؛ إلا أن هـذه الإمارات الروسية ما لبثت أن انفصلت عنها، منذ أن استقل بها الأمير الروسي الـكبير ياروسلوف Yaroslov ،الذي نصب نفسه ملـكا عليها منذ عام[2] ١٢٥٥ م/٦٥٣ هـ ،في السنة الذي توفى فيها باتو . ولقد اشتهرت الدولة المغولية الغربية ، باسم : القبيلة الذهبيـة [3] Golden Horde ؛ فلعل هذه التسمية ، قد أتت من أن خيمة زعيمها ؛ كانت دائماً مملوءة بالذهب .

كـذلك قوبيلاى خان — قوبيلاى قا آن[4] — (١٢٦٠ — ١٢٩٤ م/٦٥٨ — ٦٩٤ هـ) ، وهو حفيد جنجيزخان ، وكان قد ساعد أخاه منجو خان في فتح الصين ؛ فقضى على حكم آخر ملوك سونج في ١٢٨٠م (٦٧٩هـ) ؛ إلا أنه في حكمه عمد إلى فتح بلاد الهند أيضا، وهي البلاد التي فتحت أجزاء منها في أيام الفتوحات العربية الأولى،على يد القائد العربي، محمد بن القاسم الثقفي،في عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، كما ظهرت في الهند دول إسلامية في مدخلها ، على فرع السند ، وفي منطقة كشمير أو قشمير [5] ، على فرع الـكنج ؛ عملت على نشر الإسلام في الهند ، مثل الدولة الغزنوية ، التي تلتها الدولة الغورية[6] (٥٤٣ — ٦١٣/١١٤٨—١٢١٦)؛ بحيث انتشر الإسلام في ربوع الهند ،ولاسيما في شمالها، ووصـــل إلى المنطقة الشرقية منها في البنجالة — البنجاب — إلا أنه كان قد

---

(١) عنها Ency. de l'Isl., (art Sarai) 1ed., t. 4, p. 163 sqj.

(٢) أنظر . Vernadsky : The Mongols and Russia, New Haven 1953.

(٣) بتفصيل، انظر . Spuler : Die Golden, Horde, Leipzig, 1943

(٤) أنظر Ency. of Isl., (art Kubilay) 2ed., t. 3, p. 300-301.

(٥) عنها : معجم البلدان، ٧ ص ٩٤٠ توجد قشمير الداخلة على نهر الـكنج، وقشمير الخارجة على جبال الهيملايا . ماجد . أطلس ، خريطة رقم ٧ .

(٦) الجويني ، كتاب تاريخ جهانـكشاه ، طهران ١٣٥٢هـ ، ص١٢ وما بعدها .

سيطر على سلاطين هذه الدولة فى آخر أيامها مماليكهم الأتراك[١]، مثلما حدث فى مصر، حينما سيطر المماليك الترك على سلاطين الأيوبيين؛ وما لبث أن ارتفع مماليك الترك فى الهند إلى مناصب الحكم أيضا، على يد المملوك التركى قطب الدين أيبك[٢]، الذى أعلن سلطنته فى دلهى، بعد موت الغورى فى ٦٠٣/١٢٠٧؛ حيث استمر مماليك الترك يحكمون فى الهند إلى ٦٨٩/١٢٩٠. فكان شمس الدين التمش[٣]، (ت ٦٣٣/١٢٣٦)، هو أهم سلاطين المماليك فى الهند، الذين قاموا بصد غزوات المغول الأولى، بقيادة جنجيز خان، الذى ترك غزو الهند، وعاد إلى بلاده.

ومن قبل انتهز المغول فى عهد منجوخان[٤] اضطراب أحوال الدولة المملوكية فى شمال الهند، بتولية امرأة ضعيفة، وهى رضية الدين[٥]، ابنة التمش، وعادوا إلى غزوها؛ فدخلوا السند والملتان، وغربى البنجاب، ونهبوا لاهور فى ٦٣٩/١٢٤١. وقد كانت تولية رضية الدين سلطنة دلهى، فى الوقت الذى كانت شجرة الدر تحكم فيه فى مصر؛ بحيث انتهى الأمر بقتلها أيضا، على يد بعض الهنود فى ٦٣٧/١٢٤٠. ولكن بلبان أو بلبن، من مماليك أبيها، تمكن من الاستحواذ

---

(١) أنظر بتفصيل. مختار العبادى، دولة سلاطين المماليك فى الهند ٦٠٣ — ٦٨٩/١٢٠٧ — ١٢٩٠، فى أوجه الشبه بينها وبين دولة المماليك. فصلة فى مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٩ ديسمبر ١٩٥٥، ص ٦٥ وما بعدها.

(٢) أنظر طبقات ناصرى؛ انظر

Holt: The Cambridge History of Islam, volume 2A, p. 5 sqq.

؛ محمود السادات، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم، ١ ص ١٠٧.

(٣) السادات، ١ ص ١٢٥.

(٤) نفسه. ١ ص ١٣٣، ١٣٥؛ انظر:

The Cambridge History of Islam, vol. 2A, p. 6.

(٥) الجوينى، كتاب تاريخ جهانشاه، ص ١٢ وما بعدها.

على السلطنة فى ١٢٦٦/٦٦٤ ، وهو يعتبر آخر سلاطين المماليك فى الهند ، وكان نفسه قد استرقه المغول . وفى الواقع فى عهد قوبيلاى خان زادت غزوات المغول فى الهند ؛ وإن لم يمنع ذلك قيام دول لسلاطين مسلمين متتالية فى دلهى»[١]، فاستولى المغول على التبت[٢] المجاورة ، وهذه الأخيرة كانت تنتشر فيها الديانة اللامية ، نسبة إلى ملـكها اللاما ، أى المتفوق ، الذى كان يحكمها .

إلا أن أكبر الجيوش المغولية وجهت فى عهد منجوخان — قبـــل تولية قوبيلاى خان ـــ نحو بلاد المسلمين ، بقيادة أخ آخر لهما ، وحفيد لجنجيزخان أيضاً ؛ هو هولاجوخان ـــ هولاكو ـــ الذى كان عليه أن يستولى على بلاد المسلمين جميعها ، حتى المحيط الأطلسى ؛ وإن نصحه الخان الـكبير ، باحترام تقاليد المسلمين[٣] ، وطلب منه أن يسير فيهم سيرة حسنة ؛ ولـكن إذا رفضوا الخضوع للمغول ، فعليه أن يحول بلادهم إلى صحراء ، كما فعل جنجيزخان وقواده من قبل فى بلاد ماوراء النهر وغيرها[٤] ، من البلدان الإسلامية التى فتحوها .

فاستعد هولاجو لهذه الحملة استعداداً كبيراً ، دام خمس سنوات ؛ فجمع آلاف المنجنيقات[٥] وهى آلات قذافة؛ لرمى الأحجار والنفط ، وكذا الأقواس[٦] على

---

(١) أنظر بالتفصيل :
The Cambridge History of Islam, vol. 2A, cf.

(٢) عنها . ماجد ، الأطلسى التاريخى للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، خريطة ١٦ ، أنظر : Hist., p. 129, : Quat.

(٣) أنظر . Hist., p. 129, Quat ، وترجمة عربية من الصباد، ص ٢٣٤ ومابعدها . عن هولاجو ; Ency. of Isl., (art Hulagu) 2ed., t. 3, p. 569-570.

(٤) أنظر Hist., p. 143, : Quat.

(٥) أنظر Middle, p. 431, : Minorisky.

(٦) أنظر Hist., p. 133 : Quat.

أنواعها ، وأعد القناطر المتنقلة[1] ، والسفن الكثيرة؛ لأنه كان عليه أن يعبر أنهار الشرق الكبيرة ، مثل : جيحون ودجلة والفرات والنيل ، كما عمل على تدريب أكثر من مائة ألف فارس مغـــولى ، وجمع من المؤن والإمدادات كميات هائلة[2] ، أشبه بالجبال .

وقد بدأ هولاجو غزوه لبلاد المسلمين فى سنة ٦٥١/١٢٥٣ـ ٤[3] ؛ فوصل إلى بلاد ماوراء النهر فى شعبان ٦٥٣/سبتمبر ـ أكتوبر ١٢٥٥ ، وأمضى فى سمرقند ـ من المدن الإسلامية الكبيرة ـ أربعين يوماً[4]، ثم عبر جيحون إلى خراسان ، وتقدم فى شمال إيران[5] ، وهاجم الدولة الإسماعيلية[6] الشيعية ، التى أسسها الحسن بن الصباح،داعية الخلافة الفاطمية المصرية، وكان قد حضر إلى مصر ، فى أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وكان شاهداً للنص على نزار بن المستنصر ، ليقوم فى الخلافة بعد أبيه؛ ولكن خلفاء الحسن بن الصباح؛قطعوا دعوتهم للفاطميين فى مصر ، لما قام فى مصر أئمة من غير نسل نزار ؛ فانفصلوا عن الدعوة الفاطمية ، وأقاموا لهم فى إيران دولة شيعية قوية؛ لها أيدلوجية مذهبية مختلفة عن الفاطميين ، داخل دولة السلاجقة السنية ؛ ما لبثت أن سيطرت على معظم إيران ، وغالت فى أئمتها[7]؛ بحيث أن بعض فرق الإسلام الأخرى ، أعتبرتها مخالفة للإسلام فى عقيدته.

---

(١) أنظر Ibid., p. 135.

(٢) أنظر Ibid., p. 137.

(٣) العمرى ، المصطلح ، ص ٤٣ . يقول رشيد الدين فى ذى الحجة سنة ٦٥٠/ فبراير ١٢٥٣ . أنظر : Quat Hist., p. 145

(٤) أنظر Ibid., p. 149

(٥) أنظر . Quat : Hist., p. 123

(٦) عن هذه الطائفة بتفصيل، انظر . كامل حسين ،طائفة الاسماعيلية، تاريخها ،نظمها، عقائدها ، القاهرة ١٩٥٩ (مكتبة عزت عبد الكريم)٠ ولد الحسن بن الصباح فى عام ٤٣٠/١٠٣٨ .

(٧) الجوينى، جهانكشاه ،ص ٨٦ .

ومع أن علاء الدين ، من سلالة الحسن بن الصباح ، قاوم الغزو المغولى بقيادة هولاجو ؛ إلا أن ركن الدين خورشاه ، ابنه ، قتل أباه[١] ، وقبل التسليم المغول ؛ فمنحه هولاجو الأمان ، وما لبث أن قتله وأولاده ونساءه ؛ وقضى بذلك على هذه الدولة الإسماعيلية ، وبلغ ما استولى عليه من قلاعها مائة قلعة ، وبخاصة قلعة ألموت[٢] ، التى اعتبرت العاصمة لهذه الدولة ، وتمىعش العقاب ، لوقوعها فى منطقة جبال ، فى جنوب بحر قزوين ؛ فدخلها فى ذى القعدة سنة ٦٥٤ / نوفمبر ١٢٥٦ ؛ مع أن هذه الدولة كانت قد عرفت بنظام الفداوية — أى المنتحرين — وبأوكارها التى كانت لها فى كل مكان ؛ بحيث كان الفداوية يستطيعون قتل أى شخص ، فى بلاد أعدائهم ، مهما نأى أو اختفى ، فكان جنود هولاجو يقاتلونهم ، وهم يلبسون الدروع ، خوفاً من خناجرهم[٣] ، وحتى نصير الدين الطوسى ؛ فيلسوف المذهب الإسماعيلى ، الذى كان فى خدمة أئمته ، انضم هو الآخر لهولاجو ؛ وبذلك اعتبر هولاجو خان بانتصاره على دولة الإسماعيلية ، أول ملك مغولى لإيران من أسرة الإيلخانات[٤] .

وفى الوقت ذاته ، جاءت هولاجو طاعة إقليم آذربيجان — التى هى جورجيا الحالية — وكان أهلها نصارى ، وربما تكون هى البلاد التى عرفت للمسلمين ببلاد الكرج[٥] وقتذاك ؛ حيث تقع على حدود بلاد الروم ، فى منطقة جبال القبق — القوقاز — وعاصمتها تفليس ، وحلت مكان الخزر ، الذين كانوا من اليهود ، ولم يعد لهم ملك فى هذه النواحى ؛ فضم هولاجو رجال الكرج إلى جيشه[٦] ،

---

(١) أنظر . Quat. Hist., p. 157 sqq.

(٢) الجوينى ؛ جهانكشاه ، ص٦٤ وما بعدها ؛ انظر :
Quat. : Hist., p. 213-215,

(٣) أنظر Quat. : Hist., p. 123.

(٤) عن معناها ؛ انظر بعده .

(٥) معجم البلدان ، ٧ ص ٢٣٠ — ٢٣١ ؛ صبح الأعشى ، ٨ ص ٢٧ .

(٦) صبح الأعشى ، ٨ ص ٢٧ .

إذ كانت إحدى زوجاته نصرانية[١] ، وكان يبنى لها كنائس فى كل مكان[٢].

ثم اتجه هولاجو إلى العراق بعد ذلك ، التى بها خليفة رب العالمين ، وإمام المسلمين ، المستعصم العباسى ؛ حيث كانت ظروف العراق سيئة للغاية ؛ بسبب ضعف الخلافة العباسية ، منذ أن خضعت للمتغلبين عليها ، من قواد الترك ، أو من الأسر الفارسية وغيرهم ؛ وقبل الغزو المغولى سيطر عليها الأوباش[٣] ، وضاق الناس ذرعاً بهذه الخلافة . فأرسل هولاجو إلى المستعصم العباسى خطاباً ؛ يندد فيه بأنه لم يساعده فى حربه ضد الإسماعيلية الملاحدة ، مع أنه – أى الخليفة – زعيم السنة ، وقال له[٤] « إنك ، وإن كنت من أسرة عريقة ؛ فما أنت إلا كالقمر ، الذى يظهر طالما كانت الشمس – يقصد نفسه – غائبة » . ثم طالبه بالحضور إليه ، وتسليم بغداد ؛ وإلا جعل بغداد طعمة للنار . فرد الخليفة عليه بقوله[٥] : بأنه – أى هولاجو – ليس إلا شاباً مغروراً ، وأن الخلافة باقية بإذن الله إلى يوم الدين ، وأن من يمس بغداد بسوء ، تكون نهايته الهلاك ، وضرب له أمثلة بالدولة الصفارية – نسبة إلى مبيض للنحاس (وهو أصفر) مؤسسها – وما جرى من قبل للدولة الفاطمية ، التى قامت فى مصر ، وأن قوته مهما كبرت ؛ فإنها لا تستطيع أن تسقط نجما ؛ هذا فضلا عن أنه يستطيع أن يثير جميع المسلمين ضده .

وقد هاجم هولاجو العراق ، بجيش كبير أشبه بالنمل أو الجراد ، ومعه

(١) اسمها دوقوز خاتون . أنظر .
Hist., p. 93 : Quat.

(٢) أنظر Ibid., p. 225.

(٣) الفخرى ، ط٢ ، ص ٢٩٠ .

(٤) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ٢/١ ، الترجمة العربية ، ص ٢٦٧ وما بعدها ، الترجمة الفرنسية ، انظر .
Hist., p. 231, : Quat.
العبارة هى : « درفشيدن ماه چندان بود كه خورشيد تابنده پنهان بود »

(٥) نظر Hist., p. 235 sqq., :Quat.

جندمن إقليم جورجيا النصارى[١]، وبمساعدة الأرمن المجاورين لهم أيضا، بقيادة بايجو Badjou [٢] نويان – أى الأمير[٣] – فنزل هذا الجيش تكريت[٤]، فى شمال بغداد – دار السلام – ليعبر دجلة إليها؛ فوصلها فى يوم الخميس ٤ من المحرم سنة ٦٥٦/ ١١ يناير ١٢٥٨؛ فأحاطها بالمنجنيقات، وهى الآلات القذافة باللهب والحجارة، من كل جانب. حرض الحنابلة[٥] فى بغداد الخليفة على المقاومة؛ فتكون جيش معظمه من أوباش الناس، بقيادة رجل تركى اسمه أيبك الدودار[٦]؛ حيث أقاموا المتاريس فى كل مكان. وعلى العكس؛ فإن وزير الخليفة مؤيد الدين محمد، المعروف بابن العلقمى[٧]، الذى كان شيعى المذهب، متعصبا له؛ كان صاحب التصرف فى بغداد؛ فكان يحرض الخليفة على التسليم، وأراد أن يعزله، ويولى بدله طفلا اسمه عباس؛ لكى يسيطر عليه، ويسلم بغداد المغول.

ولما كثر القتل فى أهل بغداد على أيدى المغول، وتحولت المدينة إلى أنقاض، ظن الناس أن هؤلاء ليسوا بشرا، وأنهم قوم يأجوج ومأجوج، الذين تحدث عنهم القرآن الكريم؛ فإن الخليفة قرر التسليم: برفع رايات بيضاء على حوائط بغداد، وخرج بنفسه ومعه أولاده الثلاثة، وثلاثة آلاف من الأشراف؛ ليقدموا خضوعهم لهولاجو، الذى أحسن استقبالهم فى مبدأ الأمر، وطلب من الخليفة أن يأمر

---

(١) أنظر: Minorsky : Middle, p. 432.

(٢) أنظر: Quart. : Hist., p. 225.

(٣) هى لفظة فارسية «نوين» بمعنى: أمير أو نبيل. أنظر: حسن الباشا، الألقاب، ص ٥٣٦

(٤) معجم البلدان، ٢ ص ٣٩٩–٤٠٠

(٥) عنهم: Lacust : Hanbalisme sous les Califats, de Bagdad R.E. 1959, p. 67-128.

(٦) أنظر: Quat. Hist., p. 227-2.

(٧) عنه خواندمير، دستور الوزراء، تأليف وترجمة وتعليق حربى أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠، ص ٢٠٠ وما بعدها؛ نظر: Minorsky : Middle, p. 432

المقاومين بالتسليم. فلما توقف أهل بغداد عن القتال فى ٢١ من المحرم سنة ٦٥٦/ ٢٨ يناير ١٢٥٨ — أى أكثر من أسبوعين من المقاومة — أمر هولاجو بإحراق بغداد، بما فيها من الجوامع والمعاهد والمشاهد وقبور الخلفاء(١)؛ وحتى بردة الرسول(٢)، نبي الإسلام، واستمر التخريب أربعين يوماً. فكانت بغداد أول عاصمة عريقة للإسلام، تتحول إلى أنقاض، وتأكلها النيران، وقد بكى بغداد الشاعر الفارسي المعروف سعدى (ت ٦٩٤/١٢٩٤)؛ بقصيدة عربيـــة طويلة، وله قصيدة فارسية أخرى جاء فى مطلعها: حق للسماء أن تمطر على الأرض الدماء. وعلى المستعصم أمير المؤمنين العفاء.

كذلك طلب هولاجو من الخليفة أن يطلعه على خزائن قصره، فلما فعل أمر بقتله، وقد اختلف فى كيفية قتله(٣)؛ فقيل خنق، أوديس بأرجل الخيل؛ إذ كان من عادة المغول أنهم لا يريقون دم كبار القوم؛ بل يحطمون عظامهم فقط؛ لأنهم يعتقدون أن روح الإنسان تعيش فى دمه. وقد قال ابن الأثير(٤) عن حادثة قتل الخليفة على يد المغول: لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً

---

(١) ابن حبيب درة الأسلاك، ورقة ٢٤ ب؛ انظر.
Hist., p. 303, Quat.

(٢) قيل إن البردة الأصلية لم تحرق، وهى التى توجد فى متحف استانبول. بتفصيل:
Dictionnaire des noms dc, : Dozy.
Vêtements chez les Arabes, p. 59-64.
Ency. of Isl. (art Burda) 2ed., t. 1, p.1314.

(٣) ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ط. بغداد، ص ٣٢٧؛ انظر. أبو الفدا، المختصر، ٣ص ٢٠٣؛ الصياد، المغول فى التاريخ، ١٩٧٤، ص ٢٦٨؛ سعد زغلول، عالم الفكر؛ ١٩٧٩؛ ص ٤٤٩؛ انظر.
The death of the, : Boyle
last 'Abbasid Caliph; a contemparary Muslim account, in j. ss, VI/2 (1961) 145-61.

(٤) الكامل، ١٢، ص ٣٤٢ — ٣٤٤ (ط بيروت).

لها كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم إليها رجلا وأوخر أخرى ؛ فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين .

وقد قيل إن أهل بغداد هلكوا جميعاً ، من فيهم الأشراف من بنى العباس ، والأمراء ، وأكابر الدولة ، والعلماء ، والتجار ، والصناع ، والعامة ؛ بحيث لم يتبق منهم غير فئة صغيرة من النصارى . فيذكر المؤرخون المسلمون أن من قتل من أهل بغداد ، قد بلغ حوالى مليونى نسمة (ألف ألف وثمانمائة) . فقد كان المغول يقتلون الرجال والنساء ، ويشقون بطون الحوامل ، ويقتلون الأجنة ، وحتى الأطفال على صدور أمهاتهم ، دون رحمة لأم لابنها ، أو نداء رجل كهل ؛ بحيث عرف للمغول نشيد للدم ، ورد فيه مايفيد أنه[1] ؛ إذا لم نجد الرجل ، خطفنا أولاده ، وإذا لم نعثر على أولاده ، أسرنا زوجته ، وإذا لم تكن له زوجة طاردناه ؛ حتى نجده ؛ فإذا لم نجده أشعنا أننا فعلنا ذلك . فكان ذلك ؛ على عكس مسلك المسلمين فى فتوحاتهم ، الذين جعلوا القتل يقتصر على المقاتلة الرجال ، فنلفت هنا إلى قول أبى بكر لجيوشه[2] : «لاتخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولاتقتلوا طفلا ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ... ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيراً ، ودعوا النساك فى صوامعهم يتعبدون » .

وبذلك انتهت خلافة بنى العباس من بغداد إلى الأبد ؛ كما انتهى نظامها السياسى ، الذى استمر ٥٢٥ سنة ، بعد الأمويين ، وكان عدد خلفائهم حوالى ٣٧ خليفة .

★

بعد ذلك ، أخذ هولاجو يستعد لغزو الشام ومصر ؛ فتحرك جيشه العرمرم ، ومعه الجورجيون والأرمن إلى بلاد الجزيرة فى شمال العراق ، واستولى على الموصل وحران والرها ، من أهم مدنها ، ثم جاوز الفرات ، وحاصر حلب سبعة أيام ،

---

(١) أنظر ماأورده المقريزى عن الياسة من جملة ماشرعه جنكيزخان من عاداتهم الفارسية . الخطط ، ٣ ص ٣٥٨ — ٣٥٩ ؛ انظر .

Fragments relatifs aux, : Guirgos
Mongols, trad. Dulaurier, J.A., 1828, p. 217-219.

(٢) الكامل ، ٢ ص ٢٢٧ أيضا .

إلى أن استولى عليها عنوة فى ٩ من صفر سنة ٦٥٨/٢٥ يناير ١٢٦٠[١] ؛ فقد رفض نائبها ، من قبل الملك الناصر يوسف سلطان الشام الأيوبى التسليم ؛ فقام المغول فى حلب بمذبحة كبرى ، حتى امتلأت أزقتها بالقتلى ؛ وصارت عساكر المغول تمشى على جثثهم المتعفنة ، ولم يبق بالمدينة حى ؛ كما خربت المساجد[٢] .

ثم أمر هولاجو الذى رجع إلى بلاده بسبب موت منجو خان ، والنزاع على عرش الخان الكبير ؛ قائده كتبغا نويان — أو كيتوبوقا نويان — وهو من أصل مسيحى ، بالسير إلى دمشق[٣] ؛ فهرب منها الناصر يوسف ، وأسرع الأشراف فيها بالخروج إلى قائد المغول ، لطلب الأمان ، فدخل المغول دمشق فى ١٧ من ربيع الأول سنة ٦٥٨/٢ مارس ١٢٦٠ ؛ إلا أنهم غدروا بأهل دمشق ، وارتكبوا فيها مذبحة شبيهة بمذبحة حلب ، فقتلوا معظم أهلها إلا من استطاع الفرار ، وساعدهم فى المذبحة النصيرية[٤] ؛ وهم فرقة من الغلاة ؛ التى كانت تعتبر عليا هو المثل الأعلى ، من دون محمد ، وكانوا من قبل فى عداء الإسماعيلية فى إيران ، والفاطميين فى مصر[٥] ، ومع الطوائف الإسلامية جميعها ؛ كما كان الجورجيون والأرمن يسيئون للمسلمين فى دمشق . وبعد دمشق انتشر المغول فى كل أنحاء فلسطين ، حتى وصلوا إلى نواحى غزة وتمكنوا من أسر الناصر يوسف ، سلطان الشام وقتلوه ؛ مع أنه كان قد هادنهم منذ وصولهم إلى بغداد ، وأراد التقرب منهم .

---

(١) مورد اللطافة ، ص ٣٧ ؛ انظر - Quat. : Hist., p. 339,

(٢) السلوك ، ١/٢ ص ٤٢٢ ؛ س ٨ .

(٣) السلوك ، ١/٢ ص ٤٢٣ وما بعدها ؛ انظر .

Ency. of Isl., (art Dimashk) 2cd., t. 2, p. 284 sqq.

(٤) نسبة إلى محمد بن نصير من البصرة ، الحيذ للامام العاشر ؛ وهو الباب ، جاء إلى الشام فى ٨٥٩/٢٤٥ ، وتوفى فى ٨٧٣/٢٦٠ ، وبدأ ينشر فيها دعوته ، فى أيام الحمدانيين ؛ وإن كان مجىء الصليبيين إلى الشام ساعد على نشر دعوته ؛ نتيجة لتحالفه معهم ضد المسلمين . انظر :

Weuleresse : Les pays des Alaouites, Tours, 1940, I, p. 53 sqq.

(٥) لدينا رسائل حمزة ؛ فى أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ؛ كلها طعن وسب فى النصيرية ، وهى أول من ذكرت فرقتهم ؛ لخروجها على الدين الإسلامى . ورسائل الحاكم بأمر الله ، توجد مخطوطة فى دار الكتب برقم ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٥٤ ، ١٣٢ ، ١٣٥ عقائد نحل ، وبالمكتبة الأهلية (.B.N) برقم ٦١٢١ ، ٦٧٤٦ ، ٧٦٥١ ، ٦٧٥٠٢ ؛ انظر كتابنا الحاكم بأمر الله ، الطبعة الثانية .

(٦) السلوك ، ١/٢ ص ٤١٠ — ٤١١ .

وفي الوقت ذاته ، أرسل هولاجو برسالة تهديد إلى حكام مصر ، أورد المقريزي نصها في كتابه السلوك[1] ، وها هي بعض عباراتها : « من ملك الملوك شرقاً وغرباً ، القان الأعظم ، .. فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم .. فنحن مانرحم من بكى ، ولانرق لمن شكى ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ... وقتلنا معظم العباد .. فما من سيوفنا خلاص ... وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لاتمنع ، والعساكر لقتالنا لاتنفع ؛ فابشروا بالمذلة والهوان ... » . ومما ورد فيها أيضاً عبارات خص بها هولاجو أهل مصر[2] ، منها : « ياأهل مصر ، أنتم ضعاف ، فصونوا دماءكم مني ، ولاتقاتلوني أبداً ، فتندموا .. » .

ولما وصلت هذه الرسالة إلى المماليك ، الذين أصبحوا حكام مصر ، بعد الأيوبيين ؛ إذ كانوا من جنودهم وتربيتهم ؛ فإنهم عزلوا نور الدين علي بن أيبك الأيوبي ، وكان صغير السن ، وولوا واحداً آخر منهم ، هو : الملك المظفر سيف الدين قطز[3] ، الذي كان في أصله أميراً آسيويا ، أسره المغول واسترقوه ، وبيع في أسواق الرقيق في مصر ، وكان معروفا بالجرأة والإقدام . وقد شد من أزر قطز أهل مصر ، وعلى رأسهم مشايخها وعلماؤها ، الذين كانوا يدركون عظم المسئولية ؛ في أنه إذا ماضاعت مصر ، التي أصبحت مركز الثقل العربي والإسلامي ، بعد سقوط العراق ، ثم الشام ؛ فمعناه ضياع العروبة والإسلام . وقد كان قطز ، مثل المصريين ؛ مقتنعا بضرورة مقاومة المغول ؛ حتى قال للمماليك :[4] « إذا كسبنا وصلنا إلى الهدف — بمعنى تأكيد حكم المماليك في مصر — وإلا فنحن لاجناية علينا أمام الناس » . كذلك عاونه كبير آخر ، وهو بيبرس ، أمير الأمراء[5] ، وقائد الجيش ، الذي تميز بجهاده

(١) السلوك ١/٢ ص٤٢٧ — ٤٢٨ ؛ صبح ٨ ، ص٦٣ ؛ انظر .
Hist., p. 343 : Quat.
(٢) ابن إياس ، ١ ص ٩٦
(٣) قيل قطز أيضا . بتفصيل ومصادر ومراجع في مقالة :
Ency. de l'Isl., (art Kutuz) 1éd., t. 2, p. 1239-1240.
(٤) جامع التواريخ والترجمة العربية للصياد وغيره ٢ ، ١/٢ ص ٣١١ — ٣١٢ .
Hist., p. 347 : Quat.
(٥) انظر .

من قبل، ضد حملة الصليبيين ، لما هاجموا مصر أيام حملة لويس التاسع؛ فكان متحمساً لجهاد المغول الوثنيين ، وكان يقول للأيوبيين في الشام: « أنتم سبب هلاك المسلمين[1] »، وأخذ البادرة من نفسه ، بقتل رسل هولاجو، الذين علقت رؤوسهم على باب زويلة، الذي كانت تعلق عليه رؤوس المشنوقين ، ووافقه بقية المماليك على تصرفه ، وشبهوا هولاجو بالثعبان المتحفز .

حينئذ أعلن قطز النفير العام بين المصريين ، إلى الغزو في سبيل الله[2] ؛ حيث كان ذلك بمثابة التعبئة العامة في مصر ، يلجأ إليها حكامها ؛ كلما أدلهمت الأمور ، وأصبحت المسألة مسألة مصير ؛ فيدعى المصريون للقتال ؛ فكانوا يأتون من جميع أنحاء البلاد من أسوان إلى الإسكندرية ؛ فيقول النص التاريخي: إنهم جاءوا من القاهرة ومصر ، وسائر إقليم مصر[3] . وقد أمر قطز الولاة بضرب من يختفي ولا يذهب لقتال المغول[4] ، كما أخذ ديناراً واحداً من كل ذكر وأنثى – أي من كل مصري ومصرية – كضريبة بناء على فتوى من الشيخ ابن عبد السلام ، بعد أن أخذ من المماليك كل ما عليكون ويقول النص التاريخي أيضا : فإن الفلاحين ملأوا الوديان[6] ، متجهين إلى الشام ، لقتال المغول ؛ كما ورد ذكر ذلك أيضا في الملاحم الشعبية ، ولاسيما في سيرة الظاهر بيبرس .

وضع قطز نفسه على رأس الجيش المصري، الذي هاجم المغول في الشام ؛ وهو يصرخ صرخة عظيمة بعبارة : « وا إسلاماه » . وبعد أن أسقط المغول سهامهم على المصريين كالمطر ، نجد أن هؤلاء – وهكذا يستعمل النص التاريخي لفظ المصريين – يوهمون المغول بالهزيمة ، ويتقهقرون أمامهم ؛ فيتشجع المغول بهذا النصر الزائف،

---

(١) السلوك ، ١/ ص ٤١٩ س ١٠ – ١٩ .

(٢) ابن إياس ، ١ ص ٩٦ س ٢٤ .

(٣) السلوك ، ١/ ٢ ص ٤٢٩ س ١٩ .

(٤) نفسه ، ١/ ٢ ص ٤٢٩ س ١٣ .

(٥) ابن إياس ، ١ ص ٩٦ س ٢٦ .

(٦) السلوك ، ١/ ٢ ص ٤٣٠ – ٤٣١ .

ويتبعون المصريين ، الذين كانوا قد رتبوا لهم كمينا قويا فى منطقة جبال ووديان، فى مكان عرف باسم : عين جالوت[١] ، نسبة إلى الوادى المسمى بوادى جالوت بين بيسان ونابلس من أرض فلسطين، وهزم المغول هزيمة منكرة ، بعد أن استمر القتال من الصبح إلى الظهر فقط[٢] ، وذلك فى يوم الجمعة ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ / ٣ سبتمبر ١٢٦٠[٣] .

هذه المعركة الفاصلة ، التى لم تستمر وقتا طويلا ، لا تزيد على ساعات قليلة ، قتل فيها نصف المغول فى الشام ، أما من تبقى منهم ؛ فقد ولوا الأدبار ، وطمع فيهم الناس يتخطفونهم ؛ كما أخذ كتبغا قائد الجيش المغولى أسيراً ، وساروا به إلى قطز ، الذى قال له[٤] : « أيها الجبان الذى أسال دماء الأبرياء ، ونزع الحياة من صدور الشجعان » . ولكن كتبغا رد عليه بقوله[٥] : « بأنه – أى قطز – وإن كان قد انتصر عليه ؛ فإن المغول ستأتيه كالبحر الهائج ، وستسحقه سنابك خيلها ، وأن المغول ستأخذ رمال مصر فى حقائبها » . فأمر قطز بقطع رقبة كتبغا ، وجميع قواد المغول ، ودخل دمشق مؤيداً منصوراً ، وأرسل بيبرس خلف التتار إلى بلاد حلب وطردهم منها ، ووصل المصريون إلى الفرات ، وانتهز المماليك الفرصة ، واستولوا على أملاك الأيوبيين فى الشام ، حتى تصبح الشام ومصر وحدة فى قتال المغول .

---

(١) عنها : ابن عبد الظاهر ، بيبرس الأول ، تحقيق صادق ، ط ١ Decca ١٩٥٦ ؛ ص ١٣ وما بعدها وهامش ؛ أبو شامه ، الذيل ١٩٤٨ ، ص ٢٠٧ – ٢٠٩ ؛ اليونينى ، ذيل مرآة الزمان ، حيدر آباد ١٩٥٤ ، ص ٣٦٧ ؛ ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة بغداد ١٣٥١ ، ص ٣٤٤ ؛ السلوك ، ١ ص ٢٠ ؛ وما بعدها ؛ أبو المحاسن ، النجوم ، ٧ ص ٧٩ ، العبر ، ٥ ص ٣٧١ مورد اللطافة ، ص ٣٧ . ويقول المقريزى فى ١٥ من رمضان . السلوك ؛ ١ ٢ ص ٤٣٠ ؛ س ١٦ .

أنظر . Le Strange : Palestine, p. 384-46,
Quat. : Hist. I, I, 104-6,
Ency. of Isl. (art 'Ayn Djalut) 2éd., t. I, p. 786-7.

(٢) أنظر . Spuler : Die Mongolen in Iran,
Leipzig, 1979, p. 57.

(٣) أنظر . Quat. : Hist., p. 347,

(٤) جامع التواريخ ، الترجمة العربية ، ٢ ١١٢ ص ٣١٤ وما بعدها ، والترجمة الفرنسية
أنظر . Quat. : Hist., p. 349,

(٥) أنظر . Quat. : Hist., p. 353

فكان لهذا النصر على المغول رنة فرح كبيرة ؛ حينما وصلت البشائر إلى مصر؛ أقطار الناس فرحاً ؛ إذ أنها أول هزيمة للمغول توجه إليهم منذ تحركهم الهائل من الشرق الأقصى ؛ بعد أن ملكوا معظم المعمور من الأرض ، واستولوا على الصين والتبت ، وبعض الهند ، وبلاد وسط آسيا ، وبلاد البحر الأسود ، وبلاد بحر قزوين ، وبلاد البلقان ، وإيران ، والعراق ، وبلاد الجزيرة ، والشام ، وقهروا الملوك ، وقتلوا العباد ، وأخربوا البلاد ، وخصوصاً أن هزيمتهم هذه جاءت على يد مصر وأهلها بالذات ؛ مع أنه كان من المشهور أن المغول لا يهزمون ؛ فظهروا عليهم وهزموهم ؛ بحيث لم تقم لهم قائمة بعد ذلك. كذلك ، كان لهذا النصر رنة فرح كبيرة أخرى ؛ في أقطار العالم الإسلامي أجمع ؛ بسبب أن المغول قتلوا خليفة المسلمين ، وهو رمز الإسلام ؛ ومعناه أنهم كانوا يريدون القضاء على الإسلام[1] . وكرمز لانتصار مصر في عين جالوت أقام فيها بيبرس مشهداً سماه مشهد النصر[2] .

*

ولاشك أن السبب في هزيمة المغول على يد المصريين ، راجع إلى شجاعة هؤلاء ، وفروسية المماليك ، الذين أصبحت تهابهم الأسود ؛ إلا أن نصوصاً تاريخية ، تشير صراحة إلى استعمال المصريين سلاحا جديداً لأول مرة ؛ كان السبب في هزيمة المغول .

---

(١) يحاول مؤرخو الفرس أن يقللوا من قيمة النصر في هذه المعركة؛ باعتبار أن هولاجو صار ملكا للفرس . عن هذا انظر .
Ency. of Isl., (art Baybars) 2ed., t. I, p. 1125.

(٢) محيي الدين بن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، تحقيق الخويطر ، ص ٩١ .

فمن المؤكد أن البارود[1] كسلاح حربي أول ما استعمل في مصر بالذات ؛ إذ أن مادته الأساسية ، وهي النطرون[2] — أو ملح البارود — توجد فيها ، في وادي النطرون ؛ وذلك قبل أن يعرف في أي مكان آخر ؛ فكلمة بارود انتقلت إلى اللغات الأوروبية ، باسمها العربي ، الذي أصله من البرادة — أي شظايا الحديد — ففي الإنجليزية : « Powder » ، وفي الفرنسية : « Poudre » ؛ ولا نظن بأن الصينيين ، هم الذين اخترعوه كسلاح حربي — وإن كانوا قد عرفوا المفرقعات[3] — بدليل أن المغول ، الذين فتحوا الصين لم يأخذوه عنهم ، أو حتى استعملوه في حروبهم .

وقد ترتب على إستخدام البارود في مصر كسلاح حربي ، ظهور إختراع آخر ، يعتبر مكملا له ؛ فقد أبرز آلة حربية جديدة للوجود ، لم يعرف أنها ظهرت في أي مكان آخر غير مصر ، لاتزال تسيطر في ميدان القتال إلى وقتنا الحاضر ، هذه الآلة هي المدفع أو المدفع ، أو المكحل أو المكحلة[4] ، وهي كلمات مترادفة . فيصف

---

(١) بعامة : صبح الأعشى ، طوزارة الثقافة ، ج٣ ص ١٤٤ ؛ ٤٥٦ — ٤٥٧ ؛ انظر .

Ayalon: Gunpowder and Firearms in the Mameluk kingdom London, 1956.

Mercier: Le feu grégeois: Les feux de guerres depuis l'antiquité. La poudre à canon, 1957.

Ency. de l'Isl., (art Barûd) 2ed., t. I, p. 1087 sqq.

؛ ماجد ، نظم المماليك ، ط٢ ؛ ج١ ص ١٧٢ .

(٢) حسن الرماح ، مخطوط بالمكتبة الأهلية B.N. ، برقم 2825 ، ورقات ٤٠ وما بعدها . يذكر تركيبه ؛ بتفصيل أنظر . بعده

(٣) أنظر . Reinaud : Nouvelles observations sur le feu, Grégeois. Extrait J.A. 1850, p. 3.

(٤) ربما التسمية آتية من اسم الكحل أي المعروف في الشرق الذى له علاقة بالالتهاب في العين . ابن إياس ، ج٢ ص١٩٦ س٣ ، ج٣ ص ٢٥ ، ج٤ ص ٢٦٦ .

كذلك يقال له طبرزد ، وهو الصلب ؛ دلالة على المادة التي يصنع منها المدفع ، أو حتى طوارق ؛ حيث قيل الطوارق والمكاحل . نفسه ، ج٣ ص٩٣ س١١ . إذ الطوارق ، تعني الحديد هي الأخرى . أنظر .

Dozy : Suppl. 2, p. 20-21; 40-41

المؤرخون المصريون المدفع أو المكحل[١]؛ على أنه آلة من نحاس ورصاص أو حديد، يوضع فيه الحجر أو البندق — وهذه الأخيرة كلمة عربية أيضاً ، لتعنى كرة من الحديد — ينبعث من خزانة أمام النار الموقد فى البارود ؛ وقد عرف المماليك أنواعاً من المدافع ، الصغيرة والكبيرة ، وهذه الأخيرة يطلق عليها: مدافع النفط المهولة[٢]. فكان للمماليك مسابك خاصة بهذه الآلة الحربية الجديدة ، عرفت باسم : مسابك المدافع ، أو سبك المكحلة ، كانت تقع إحداها خلف القلعة[٣] .

وقد اختلف فى وقت ظهور المدفع فى مصر ؛ فيذكر المستشرق كاترمير « Quatremère » ؛ أنه استخدم لأول مرة فى عام ٧٩٢/١٣٩٠[٤] ، ولكن يبدو مما لدينا من نصوص تاريخية أن هذه اللفظة: مدفع ، وجدت قبل ذلك بوقت طويل ، فى سنة ٧٦٠/١٣٥٩ ، أو فى سنه ٧٥٣/١٣٥٢[٥] ، وحق قبل هذه التواريخ بكثير . فيذكر ابن فضل الله العمرى ، الذى انتهى من تأليف كتابه فى عام ٧٤١/ ١٣٤١ : التعريف بالمصطلح الشريف ، من بين أسلحة المماليك فى مصر : مكاحل البارود[٦] . فهذا النص الصريح يؤيد معرفة المماليك بالبارود والمكحل والمكحلة ، أى المدفع ؛ إذ كان يقال : المكاحل بالمدافع[٧] ، وذلك فى وقت مبكر عن الوقت الذى عرف

---

(١) صبح ، ٢ ص ١٤٤ ؛ العبر ، ٤ ص ٦٩ — ٧٠ ؛ انظر ، ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ٢ ٩٧ — ١٧٣ ؛ انظر . Dozy Suppl, I, p. 449-50.

(٢) ابن اياس ، ٣ ص ١٢٤ س ٢٠ ؛ النجوم ، ٦ ص ٢٥٦ س ١٣ — ١٤ .

(٣) حوادث الدهور ، ٢ ص ٤٧٤ — ٤٧٦ .

(٤) أنظر . Observations sur le feu, : Quat. Grégeois, J.A., 1950, no. 4, p. 25.

(٥) صالح بن يحى ، تاريخ بيروت ، ص ١٠٥ ؛ ابن اياس ، ١ ص ١٩٦

(٦) نشر القاهرة ١٣٢١ ؛ ص ٢٠٨

(٧) ابن إياس ، ١ ص ١٩٦ س ٣ ، ٣ ص ٩ س ٢٥ — ٢٦

العالم البارود فيه ؛ إذ أن أول ماذكر من استعماله فى أوربا ، هو بعد قرن أو أكثر من عصر ابن فضل الله .

وما يدل على براعة استخدام المدفع فى عهد المماليك ، وتطوير مدى إطلاقه ، ماذكره المؤرخ المصرى أبو المحاسن[١] ؛ بخصوص قياسى مدى إطلاق إحدى قذائفه من القلعة ؛ حيث لم يكن رجال الدولة يعرفون تحديد مدى المسافة ؛ فقام أبو المحاسن — وهو من أصل مملوكى — بنفسه ، « بعد تصريح المدفع السلطانى » ؛ وذلك فى شوال سنة ٨٦٠ / سبتمبر ١٤٥٦ ؛ بعد أن سأل عن زنه المدفع ، وزنة حجره ، وزنة باروده ؛ فقاس مسافة سقوط الحجر ؛ فجاءت ٥٦٤٨ ذراعا ، أى ميل ونصف . ويصف أبو المحاسن هذا المدفع بأنه كان قطعة واحدة ، مضلعا ، يزن مائة وسبعين قنطاراً بالمصرى ، ويزن حجره المرمى به أربعة قناطير بالمصرى ؛ كما يزن باروده سبعة وثلاثين رطلا بالمصرى .

ومن الطريف أن نذكر ؛ أن المدافع أول ما استخدمت كانت غالباً فى السواحل المصرية ؛ حيث كانت تقام فى القلاع ، فى البر أو على ساحلى البحرين الأبيض والأحمر . فيذكر المؤرخ القلقشندى[٢] ، أنه كان يوجد فى الإسكندرية مدفع صنع من نحاس ورصاص ، وقيد بأطراف الحديد ، رمى عنه ببندقة من حديد عظيمة ؛ فوقعت فى ناحية السلسلة خارج باب البحر — وهى مسافة بعيدة — مما يدل على تطوير مدى إطلاق المدفع فى عهد المماليك . كذلك يقول ابن شاهين إنه كانت بالإسكندرية ، وبأعلى الأبراج ، مناجيق ومكاحل تستخدم فى وقت الضرورة[٣] ، وبها مخازن — قصر السلاح — فيها المدافع[٤] .

كذلك ظهر استعمال البندقية كسلاح لأول مرة فى أيام المماليك ؛ حيث يذكر

---

(١) حوادث الدهور ، ٢ ص ٤٧٤ — ٤٧٦ .
(٢) صبح ، ٢ ص ١٤٤ — ١٤٥ .
(٣) زبدة ، ص ٣٩ — ٤٠ .
(٤) السلوك ، ٣/١ ص ٤٣١ س ١٥ .

المؤرخون المصريون(١) : للبندقيات ، والبنادق ، كما أطلق عليها : قوس البندق ، أو الجلاهق ، أو الزبطانة ؛ وهذه الأخيرة هي بالأولى بندقية للصيد. فكانت البندقية تطلق الرصاص ، وهو البندق الذي يوضع في آلة من الجلد ، تسمى الجراوة(٢).

ويقال إن البندقية استعملت أول الأمر لتمي أنبوبة ، في وسطها قطعة دائرة تسمى الجوزة ، توضع فيها البندقة عند الرمي ؛ ومن يرمي بها يسمى : بندقاني أو بندقي أو حق بنداقي . وقد كان لها في مصر في أيام المماليك ، سوق خاصة في القاهرة ، عرفت باسم : سوق البندقانيين(٣) ؛ حدث فيه حريق مروع في عام ٧٥١/١٣٥٠ ؛ أي بعد أقل من قرن من المركة الفاصلة مع المغول . ولدينا نسختان (٤) لتوقيعين – وثيقتان – خاصتان برماة البندق ، وتعيين رئيس لهم من الأمراء المماليك يطلق عليه : حاكم البندق ، ويلقب بالجناب العالي ، يكون على معرفة بسبب كيفية الرمي وإتقانه ؛ حيث يتطلب الرمي بالبندق مهارة ورياضة وفنا(٥) ، واعتبرت رتبة جليلة (٦) .

حقا ؛ وإن كان ابن فضل الله العمري ، أو المقريزي ، أو أبو المحاسن أو غيرهم ، ممن تناولوا تاريخ موقعة عين جالوت أو أشاروا إليها ، لم يكونوا معاصرين لهذه المعركة مع المغول ؛ إلا أن مؤرخا معاصراً لها ، وهو أبو شامة ، المتوفى سنة ٦٦٥/١٢٦٧ ، في كتابه : الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين(٧) ، يذكر

---

(١) صبح ، ٢ ص ١٤٥ ؛ انظر : Ayalon : Gun, p. 60, Dozy : Suppl., I, p. 116,

(٢) المصطلح ، ص ٢٠٥ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ١٦٩ – ١٧٠ .

(٤) صبح ، ١٢ ص ٢٦٩ – ٢٧١ ، ٢٧٢ – ٢٧٣ .

(٥) نفسه ، ١٢ ص ٢٧١ س ١٢ .

— استخدامها كرياضة عرف في العراق وبلاد الإسلام الأخرى . أنظر : ابن البقال البغدادي (ت ٥٨٨ ، ١١٩٢) ، كتاب المقترح في المصطلح ؛ في تعليم رمي البندق والصيد . مخطوط دار الكتب ؛ برقم ٣٥٠٦ ح .

(٦) صبح ، ١٢ ص ٢٧٣ س ٦ .

(٧) عنوانه بالكامل : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، وهو المعروف بالذيل على الروضتين ، تحقيق عزت العطار ، القاهرة ١٣٦٦/١٩٤٧ ، ص ٢٠٧ ؛ أنظر : Ayalon : Gun, p. 13

بصراحة أن نجاح المصريين فى معركتهم ضد المغول فى عين جالوت ؛ راجع إلى إستعمال سلاح النفط ، الذى كان السبب الحاسم فى نصرهم ، ويعتمد فى ذلك على مؤرخ مملوكى اسمه نجم الدين حسن الرماح ، الذى عرف بالأحدب (ت ٦٩٥/١٢٩٥ — ٦).

ولاشك أن النفط ، الذى أشار إليه أبو شامة ، يقصد به البارود ، الذى أساسه ملح البارود ، وليس النفط الذى أساسه البترول ؛ إذ أن هذا الأخير كان معروفاً لجميع جيوش الدنيا منذ أن اخترعه الرومان أو البيزنطيون ، بما فيهم جيش هو لاجو نفسه ، ويدل على أن النفط وقتذاك كان يعنى البارود ، هذه التعابير الإصطلاحية التى يذكرها مؤرخون كثيرون ، مثل : مدفع النفط ، أو صواعق النفط ، أو صواريخ النفط أو النفوط ، أو آلات النفط ، أو هندام النفط[1] ، أو النفط من المكاحل[2] . وحتى ابن فضل الله العمرى يستخدم أحياناً كلمة نفط ؛ لتعنى البارود ؛ ويقول : إن قوارير النفط تقتلع القلاع[3] ؛ مما يدل على أنها كانت تعنى البارود ؛ ومع ذلك ؛ فإن كلمة نفط بقيت مستعملة لتعنى البارود طوال عصر المماليك ، ولم تختف إلا فى أيام العثمانيين ؛ لتبرز كلمة بارود وحدها ؛ حيث أطلقوا عليه : باروت .

وبالرجوع إلى كتاب حسن الرماح ذاته ، وهو بعنوان : الفروسية ، والمناصب الحربية[4] ؛ فإنه يتكلم فيه بدقة وبجزئيات كثيرة عن البارود فى عشرات الصفحات[5] ،

(١) أنظر : Ayalon : Gun, p. 9-44,

(٢) ابن إياس ٣ ص ٦٩ س ٥ — ٦ .

(٣) المطالع ص ٢٠٨ .

(٤) لايزال مخطوطا ويوجد فى المكتبة الأهلية بباريس (B.N.) ، برقم 2825 ، ونسخة منه موجودة فى مكتبة جامعة الدول العربية ، برقم ٣٨ فروسية ، ويعتبر أول مؤلف يتناول المفرقعات .

(٥) مخطوط B.N. ، برقم ٢٨٢٥ ، ورقم ٣٨ وما بعدها .

وكأنه بسلاح معروف فى مصر منذ زمن مبكر ؛ وإن ذكر عبارة برج النفط[1] أيضا . فيذكر تفاصيل تركيب البارود ، من : الملح ، والكبريت المسحوق ، وماد الفحم ، والبرادة ، والنشادر ، والزرنيخ الأحمر ، والفتيلة الزرقاء والفتايل ،[2] ، كما يذكر طريقة عمل كل مادة منها ، ونسبتها بين المواد الأخرى ؛ فبعضها ينخل ، وبعضها يسحق ناعماً ، وبعضها يقدح جيداً ، وأنها توضع فى طاجن . ويتكلم عن استعمالات البارود المتعددة ، مثل الصواريخ[3] ؛ ويرى أنها من البارود ، والقنبلة وعمل ذخيرتها ، وأنها لا تشتعل إلا إذا جاءتها النار[4] . كذلك لدينا مؤلف عسكرى آخر ، من الكاتب المملوكى محمد بن منكلى[5] ، نقيب الجيش فى أيام المماليك البحرية ، يبحث فى فنون القتال ، وبعض أبوابه تنصب على طبيعة الرمى بالمدافع . ثم إن تسمية بيبرس بالبندقدارى[6] ، وهو الذى خاض معركة عين جالوت ، قد يعنى أنه كان ماهراً فى إستعمال البندقية ؛ حيث أن نصوصاً تبين أنه كان يتريض برمى البندق ، مما يؤيد استخدامها هى أيضا ، فى هذه المعركة ، كآلة من آلات البارود .

ومما يجب أن يذكر للمصريين فى استعمال البارود ، هو أنه وآلاته من المدفع والبندقية ، كان قاصراً على أبناء مصر وسودانها وحدهم[7] ؛ إذ يقول النص التاريخى

---

(١) نفسه ، ورقة ٣٨ .

(٢) نفسه ، ورقة ١٠٧ .

(٣) نفسه ، ورقة ٩٨ وما بعدها . وقد تسمى النفط الملتهب - النويرى ، الإلمام ، ١ ص ٣٠٨ .

(٤) مخطوط B.N. برقم 2825 ، ورقة ٣٥ وما بعدها .

(٥) المخطوط بدار الكتب ، برقم ٧٠٥ فنون حربية . عاش المؤلف فى أيام شعبان ، سلطان مصر (٧٦٤ـ٧٧٨/١٣٦٣ـ١٣٧٧) .

(٦) أنظر سيرته فى ابن عبد الظاهر . ومع ذلك قد تكون التسمية نسبة إلى أيدكين البندقى ، الذى كان سيده من قبل .

(٧) ابن اياس ، ٢ ص ٣١٠ س ١٣ ، ١٦ .

إن من كان يرمى بالمدافع أو البنادق فى أيام المماليك هم أولاد الناس، أى المصريين [(١)] « وسودان مصر » ؛ وذلك لأن المماليك كانوا من الفرسان، ولا يستعملون إلا السيف، أو ما فى نوعه ، رمزاً للرجولة[(٢)]، واتباعا للسنة النبوية ، وحتى لا يتساوى المصريون فى الجندية بالمماليك ؛ سماهم هؤلاء بالعساكر الملفقة ، أوحتى عسكر الطبقة الخامسة[(٣)] ، وحتى آخر أيام دولة المماليك ؛ فقد كان هؤلاء لا يرون أن يستخدموا البارود وآلاته ، وإنما يستخدمه فقط المصريون والعبيد وحدهم ، ولا يجيزون الحرب به إلا ضد الكفار ، وليس إطلاقا ضد المسلمين، ومن هنا ؛ فإنهم لم يستخدموه ضد العثمانيين ؛ مما جعل هؤلاء ينتصرون عليهم ، ويعملون على القضاء على دولتهم.

مما سبق ؛ يتبين أن سلاحاً فتاكا كما اخترعه المصريون هو البارود وآلاته من المدفع والبندقية ، كان السبب فى انتصارهم الحاسم فى موقعة عين جالوت ؛ مما يرهن على براعات مصر فى ميادين الحرب دائما . ولاشك أن استعمال البارود كسلاح حربى على يد المصريين ، يعنى أنهم كانوا متطورين حضاريا على المغول فى الحرب ؛ كما أنهم استطاعوا الوقوف ضد تخريبهم للحضارة الإنسانية . ويعنى أيضا أن المصريين عملوا على اكتشاف جديد للطاقة ، تلك التى لا يزال العلم يسعى إلى الإزدياد منها ؛ بحيث أصبح من يملكها يملك القوة والسطوة . وأخيراً ؛ فإن سلاح البارود ، وإن لعب دوراً هاما فى هزيمة المغول فى عين جالوت ؛ فإنه لا يزال يلعب دوراً هاما فى الحروب ، حتى وقتنا الحاضر ؛ مما يدل على خلود عظمة مصر على مدى تاريخها الطويل .

★

---

(١) تسمية جند الحلقة — وهم غير المماليك — وهى تسمية من أيام صلاح الدين المصريين الذين يجندون فى جيشهم، فسموا أولاد الناس أيضا . أنظر . السلوك ، ١/٣ص ٦٩٠ حاشية (٢)؛ زبدة ، ص ١٠٤ ؛ ابن إياس ، ٣ص ١٨ س ٢٤ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl. (art Awlâd al-Nâs) 2ed., t., p. 786.
وقد أصبح معظم جند الحلقة فى أيام المماليك من أهل مصر ؛ كما يقول المقريزى بالنص . إن معظم جند الحلقة من أصحاب حرف وصناعات . الخطط ، ٣ ص ٣٥٥ (آخر سطر).

(٢) عبد الرحمن زكى ، السيف فى العالم الإسلامى ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٢ .

(٣) ابن اياس ، ٣ ص ١٣١ س ٢٣ .

هذا النصر الكبير لم يقض على الخطر المغولي على الشام نهائياً؛ فهو لاجو بعد أن بلغه نبأ الهزيمة في عين جالوت ، أسرع بإرسال جيش مغولي آخر نحو الشام ؛ وإن كان هو نفسه قد عاد كما ذكرنا إلى موطنه في منغوليا قبل ذلك؛ بسبب النزاع مع أخوته على تولية الحكم في منغوليا ذاتها، فبعد موت منجوخان في ٦٥٨/١٢٥٩(١)، أي في العام الذي حدثت فيه موقعة جالوت ، قام مقامه في قره قورم أخوه الأصغر؛ إلا أن أخاه الأكبر قوبيلاي تمكن من عزله ، وجعل من نفسه الخان الكبير ، حيث ناصره هولاجو(٢) . ومع ذلك ؛ فإن قوبيلاي لام هولاجو على قتل خليفة المسلمين ؛ وهزيمته المنكرة على يد المماليك ؛ مما جعل هولاجو يتنكد بقية حياته ؛ إلى أن توفي في ربيع الثاني عام ٦٦٣/٨ فبراير ١٢٦٥ .

أما الجيش الذي أرسله هولاجو من منغوليا نحو الشام؛ فإنه أخذ يحرق الأرض واليابس ؛ فاستولى على بلاد الكرد في بلاد الجزيرة ؛ حيث كانوا يقيمون في هذه النواحي بأعداد كبيرة(٣) ؛ إلا أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم ؛ مما جعلهم إدائمي التفرقة. ولما وصل جيشه إلى بلدة الموصل على نهر دجلة ، التي أصبحت تحت النفوذ المصري ، بعد هزيمة المغول الأولى؛ فقد تمكن هؤلاء من الاستيلاء عليها ، ودخول الشام من الشمال بعد عبور الفرات ، ووصلوا فيه إلى حمص ؛ حيث يوجد قبر خالد ابن الوليد(٤) ، بطل فتوح الشام الإسلامية الأولى .

ولكن الملك الظاهر بيبرس ، الذي كان قد تولى بعد قطز، هزم الجيش المغولي الجديد ، هزيمة منكرة عند حمص ، شبهت بهزيمة المغول في موقعة عين جالوت، التي كان هو نفسه قائد جيش المصريين فيها ؛ فأسرع المغول بالتقهقر إلى خلف الفرات ، إلا أن بيبرس طاولهم بتسع حملات متتالية ، ومد نفوذه إلى الأقاليم التي استولوا

---

(١) جامع التواريخ ، الترجمة العربية ، ص ٣٥٩ .
(٢) مفضل بن أبي الفضائل (P.O.) ، ص ٤٤٣ .
(٣) المصالح الشريف ، ص ٣٧ .
(٤) نفسه ، ص ، ٤١٢ .

عليها فى داخل بلاد الجزيرة عند حوران ، وفى آسيا الصغرى ، التى وقعت فيها موقعة كبيرة سمتها مراسيم البشائر[1] التى أرسلت إلى الممالك الإسلامية ، بوقعة الملك الظاهر مع التتار يوم الأبلستين ، اشترك فيها بيبرس بنفسه ، ومعه ما أطلق عليه العسكر[2] ؛ مما يدل على أنهم كانوا من رماة المدافع والبندق المصريين والسوادنيين . كذلك عمد بيبرس إلى إعادة بناء كل قلعة دمرها المغول من حمص إلى حوران ، وزودها بما تحتاجه من مؤن وذخيرة ، وربط بين مواقعه فى بلاد الجزيرة والشام ومصر ، بمطارات للحمام الزاجل ؛ بحيث كان الخبر ينقـل من دمشق إلى القاهرة فى يوم واحد فقط .

وعلى العـكس ؛ فإن بيبرس سعى إلى التقرب من مملـكة المغول الغربية ، التى اشتهرت باسم القبيلة الذهبية Horde d'or ، وكانت تضم الأقاليم الجبلية الواقعة بين البحرين الأسود وقزوين على ضفاف الفولجا — إتل — واتخذت صراى — سراى — عاصمة لها[3] ؛ ثم تحولت إلى الإسلام منذ عهد مبكر ؛ فقد كان جوشى الذى أقام بها فى هذه النواحى ؛ قد سعى إلى معرفة الإسلام ، وربى أبناءه عن طريق المربيات المسلمات[4] . وفى عهد باتوخان ، الابن الثانى لجوشى ، كان يحمى المغول المسلمين[5] ، وفى عهد الملك بركة خان ، الابن الثالث لجوشى ، تحولت مملـكة القبيلة الذهبية إلى الإسلام نهائيا ؛ إذ أسلم ملـكها بركة خان نفسه على يد شيخ اسمه ألبا خرازرى[6] ، وأسلم

---

(١) هى من قلم محيى الدين بن عبد الظاهر . أنظر . مخطوط رقم ٤٤٤٠ (B.N. فى باريس ، ورقة ٣١ .

(٢) أنظر . نفسه .

(٣) صبح ، ٤ ص ٤٠٧ ، هى قرب ستالينجراد الحالية .

(٤) الجوزجانى ، طبقات ناصرى ، ترجمة Paverty ، London ١٨٧٢ـ١٨٨١ فى مجموعة Biblioteca Indica ؛ ص ١١٠٣ـ١١٠٤ .

(٥) نفسه ، ١١٠٣ ، ١١٧١ـ١١٧٢ . Jean Richard : La conversion, de Berke et le début de l'Islamisation de la Horde d'Or, R.E. I, 1967, p. 193 sqq.

Ency. of Isl. (art Berke) 2ed., t. I, p. 1187 sqq.

(٦) نسبة إلى إقليم باخرز فى خراسان بين هراة ونيسابور ، أنظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٢٨ ؛ Ency. of Isl. (art Bâkharz) 2ed., t. I, p. 952.

بقية أخوته ، وتسلم التفويض بالحكم من خليفة مصر العباسى(١) .

كذلك سعى بركة خان المسلم ، من ناحيته ، إلى التنسيق مع بيبرس فى حربه لهولاجو ، بحكم أنه كافر(٢) ؛ وذلك بتبادل الرسل والمراسلات معه ؛ فيقول لبيبرس فى إحداها(٣) : « فليعلم السلطان ، أنى حاربت هولاجو ، الذى هو من لحمى ودمى ، لإعلاء كلمة الله ؛ متعصبا لدين الإسلام » ؛ إذ هولاجو هو ابن عمه ، وفى رسالة أخرى ، يقول : « أنت تعلم أنى محب لهذا الدين ، وأن هذا العدو – يقصد هولاجو – كافر ، قد تعدى على قتل المسلمين ، واستولى على بلادهم ؛ وقد رأيت أن تقصده أنت من جهتك ، وأقصده أنا من جهتى ، ونصدمه بيد واحدة ، ونزيحه عن البلاد ، وأنا أعطيك ما فى يده من بلاد الإسلام » . ولكى يشجعه بيبرس على حرب هولاجو ، خطب له على منابر مصر والشام والحرمين(٤) ، وتزوج ابنته ، التى أنجبت له ابنا سماه على اسمه : بركة خان الذى تولى السلطنة فى مصر بعد موت بيبرس ، بل أرسل إليه جنداً عرفت باسم الوافدية(٥) ، وكان يكتب رسائله إليه الكاتب المعروف محيى الدين بن عبد الظاهر(٦) .

وبعد موت هولاجو ، أصبح ابنه أبغا أو آباقا(٧) ، وهو المؤسس الحقيقى للدولة الإيلخانية(٨) ، نسبة إلى الخان أو القان الكبير فى منغوليا ؛ مما يعنى أنها خاضعة

---

(١) اليونينى ، ذيل مرآة الزمان ، ط . الهند ، الجزء الثانى . أنظر . بدوى ، الخلفاء العباسيون فى ظل دولة المماليك ، ص ١٩٣ وهامش .

(٢) المصطلح الشريف ، ص ٤٧ .

(٣) السلوك (Quat.) ، ١/١ ص ١٨٠ ؛ العينى ، عقد الجمان ، ٢٠/٣ ورقات ٤٩٤ – ٤٩٥ ؛

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٠٩ س ١٧ .

(٥) السلوك (Quat.) ١/١ ص ١٨٠ ، ٢٢١ – ٢٢٢ ، ٢٤١ ؛

Beitrage sur, : Zetterstien
Geschichte mamluken Sulane, p. 29.

(٦) انظر كتابه الروض الظاهر ، فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر الخويطر ، الرياض ، ص ٨٨ – ٨٩ .

(٧) عنه : المنهل ، ١ ص ١٨٥ – ١٨٧ ؛ انظر .
Ency. of Isl. (art Ilkhâns) 2ed., t. 3, p. 1120 sqq.

(٨) ابن حبيب ، درة ، ١ ورقة ١٩ ب ؛ انظر . Middle, p. 430. : Minorsky

له ؛ فشملت بلاد ماوراء النهر وخراسان وإيران والعراق ، واتخذت عاصمتها[١] أولا فى المراغة من بلاد الأرمن ، ثم نقلتها إلى تبريز[٢] ؛ بجوار بحيرة أرمية ، من بلاد أذربيجان ؛ إذ كره المغول أن يجعلوا بغداد عاصمة لهم ؛ وإن كان آباقا أقام ببغداد بعض الوقت ؛ حيث كان حاكمها فى أيامه هو عطا ملك الجوينى ، المؤرخ الفارسى المشهور ، وإن نقلت فيما بعد إلى مكان آخر هو السلطانية .

وقد أراد آباقا أن يفعل مثل أبيه هولاجو بالعودة إلى تدبير محاربة بيبرس ؛ حتى تعود الهيبة التى فقدت بهزيمة المغول على يد المماليك ، من دون حكام الأرض كلها ، وعلى يد بيبرس بالذات ، الذى كان هو وحده سبب هزيمة المغول فى كل مرة . ومثل هولاجو ، أرسل تهديده ، مكتوبا إلى بيبرس ؛ قبل إرسال حملته الجديدة ، قال فيها[٣] : إن الملك أبغا إذا حارب ؛ ملك جميع العالم ، ومن خالفه هلك وقتل ، وأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ، ماتخلصت منا ؛ فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا » ولكن بيبرس لم يكن يهمه تهديد أبغا أو آباقا ، مثلما لم يكن يهمه من قبل تهديد هولاجو ؛ حتى أنه كان يقول :[٤] « إنى وراءه بالمطالبة ، ولا أزال انتزع من يده جميع البلاد ، التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة ، وسائر أقطار الأرض » . فلما دفع أبغا بجيش للمغول ، وعبر الفرات فى ٦٧٠ / ١٢٧١ ؛ فإن بيبرس رد المغول على أعقابهم ، وقتل منهم مالا يحصى ، ولاسيما أن بركة خان ملك القبيلة الذهبية المسلم ، كان يحارب آباقا بعد هولاجو .

وكما أن القبيلة الذهبية المغولية ، قد تحولت إلى الإسلام ؛ فإن الدولة الإيلخانية فى عهد آباقا ، قد أظهرت قبولا للنصرانية ، مع أنه هو بقى بوذيا ، مثل أبيه هولاجو ،

---

(١) السلوك ، ١/٢ ص ٥٧٤ .
(٢) معجم البلدان ، ٢ ص ٣٦٢ — ٣٦٣ .
(٣) العينى ، عقد ، الجمان ، ٢٠/٣ ورقة ٥١٩ ؛ انظر . عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٤٣ .
(٤) ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤٠٥ وما بعدها ؛ المنهل ، ص ١٨٥ .

وكان مثله متزوجاً من نصرانية ، وهى ماريا Maria ،[١] ابنة ملك الروم ، ميشيل باليولوجوس Michael Palalogos ؛ فكون جيشاً كبيراً من رعاياه النصارى ، ومن الأرمن ، كما اتصل بالبابا فى روما كلمنت الرابع Clement IV[٢] فى ١٢٦٧ / ٦٦٥ – ٦ ﻫ ، وملك أرغون بأسبانيا جيمس الأول James I فى ١٢٦٩ /٦٦٧ – ٦٦٨ ﻫ ، وغيرهما ؛ وربما سعى أيضا إلى الاتفاق مع الحبشة [٣]، لما عرف أنها مملكة نصرانية .

وقد انتهز آباقا وفاة بيبرس ، وأن قلاوون قد خلفه فى السلطنة ؛ فتجدد هجوم المغول على حلب ، بقيادة منكوتمر[٤] ؛ أخى آباقا ، حيث قتلوا ونهبوا وأسروا ، وأشعلوا النيران فى المدارس ، والمساجد ؛ إلا أن قلاوون لم يكن يقل حماساً عن بيبرس فى قتالهم ، ويحتذى مثله فى كل شىء ؛ فهزم جيش المغول هزيمة منكرة ، وقتل منهم مائة ألف ؛ فى معركة حاسمة قرب حمص[٥]، فى يوم الثلاثاء ٣ أكتوبر ١٢٨١ / ٦٨٠ ﻫ ؛ حيث توفى آباقا بعدها[٦] ؛ مما جعل المغول يترددون فى القيام بعدها بهجوم كبير .

*

ومع أن الإسلام قد بدأ يجد طريقه بعد آباقا إلى مغول المملكة الإيلخانية ؛

---

(١) أنظر : Minorsky : Middle, p. 434-5.

(٢) أنظر : Pelliot : Les Mongols et la Papauté, Revue de l'Orient Chrétien 23/1912-3; 24/1924; 28/1931/1932.

(٣) أنظر : De La Roncière : La découverte de l'Afrique, t. 1, p. 52-58.

Setton : The Later Crusades, p. 722.

ربما كانت بالنسبة للحبشة مجرد أفكار ؛ لأنه لا يوجد ذكرها فى مصدر عربى . أنظر .

(٤) النهل ، س ١٨٦ .

(٥) مورد اللطافة ، ص ٤٢–٤٣ ، ابن حبيب ، درة ، ورقة ١٠٨ وما بعدها ؛ انظر . Ency. of Isl. (art. Kâlâwûn) 2ed, t. 4, p. 84.

(٦) أنظر : Quat. Hist., p. 51.

حتى أن المؤرخ رشيد الدين ، قد سمى الواحد منهم بملك الإسلام[1] ، وتحولت المملكة الإيلخانية إلى الإسلام، مثل القبيلة الذهبية ؛ إلا أن مملكة الإيلخانات كانت على عكسها قد استمرت فى عدائها الشديد لدولة سلاطين المماليك ، ولاسيما أنها لم تكن قد قبلت الإسلام نهائياً ، وأصبحت تتأرجح بينه وبين النصرانية فى أول الأمر ؛ بسبب جهود المسيحيين فى أوروبا، الذين كانوا يرسلون نحوهم مبشريهم، ويتقربون إليهم ، ومع ذلك ؛ فإن الإسلام هو الذى حاز قصب السبق ؛ فى آخر الأمر ؛ بسبب وجود المغول فى بيئة إسلامية .

ولاشك أن سلاطين المماليك من ناحيتهم ،قد رحبوا بتحول إيلخانات المغول إلى الإسلام ؛ بحيث أصبحت مملكتهم تعرف لهم بمملكة إيران ، أو جهة بلاد الشرق[2]،أو البلاد الشرقية، وكان أهم معها مكاتبات منتظمة فى ديوان الإنشاء بالقاهرة[3] ؛ تكتب لهم فيها الصيغ الإسلامية ،مثلما توجد فى مكاتبات بقية ملوك الإسلام . فتبدأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويكتب بعدها ، بقوة الله تعالى ؛ إلا أن سلاطين المماليك لم يكونوا يتراخون فى رد عدوانهم على الشام ، ومعاملتهم كأعداء لدولتهم ، مثلما كان الحال قبل أن يسلموا ، وكان فقهاء مصر والشام يفتون لهم بقتالهم ، كما يقاتل الخوارج ، لأنهم فى رأيهم ، تركوا كثيراً من عاداتهم الوثنية . ولم تصف نيتهم نحو دولة المماليك بعد .

وبعد أباقا ، خلفه أخوه أحمد تكودار فى ١٢٨٣/٦٨١[4] ، المسمى للأوربيين نقولا Nickola أيضاً ، وهو من بنى هولاجو من زوجته النصرانية ؛ إلا أنه أول من أسلم منهم بعد توليته الحكم ، وتسمى بالسلطان أحمد ، صاحب مملكة

---

(١) أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة عربية ، القاهرة ١٩٤٧ ؛ حسن إبراهيم ، انتشار الإسلام بين المغول ، القاهرة ١٩٣٣ . ؛ رجب، انتشار الإسلام بين المغول ، القاهرة ١٩٨٦ .

(٢) صبح ، ٨ ص ٥٦، ٥٧

(٣) نفسه ، ٨ ص ٦٤ .

(٤) أنظر . Minorsky : Middle, p. 435,

إيران[١]؛ وأصدر منشوراً بدأه[٢]: « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وأنا جلست على كرسي الملك ، ونحن مسلمون .. إلخ ». وتبدو حسن نية السلطان أحمد – تكودار – نحو سلاطين المماليك في مصر، فيما كتبه بخط يده في رسالة طويلة إلى قلاوون في جمادى الأولى سنة ٦٨١ / أغسطس ١٢٨٢ ؛ إذ يقول له فيه[٣] : « فقد وجب عليه – أي سلطان مصر – التمسك بالعروة الوثقى، وسلوك الطريقة المثلى، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد »؛ ويذكر له إصلاحه المساجد، والمشاهد ، والمدارس، وتعظيمه لأمر الحج ، وبذل الإخلاص : « بحيث تعمر تلك الممالك والبلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ؛ وتغمد السيوف الباترة » . ومع ذلك ؛ فيوجد نص مخطوط غير معروف[٤] يذكر أن السلطان أحمد بن هولاجو قد أظهر إسلامه ختلا ومخادعة .

أما قلاوون ، فمن ناحية ، رحب في رده عليه بإسلامه ؛ في رمضان سنه ٦٨١/ ديسمبر ١٢٨٢ ، ووافقه على فكرة الإتحاد بين عامة المسلمين ، واعتبره نبأ عظيما ؛ فقال له[٥] : إلى السلطان أحمد ؛ أما بعد ؛ حمداً لله ؛ الذي أوضح بمناولتنا للحق منهاجاً ؛ وجاءبنا ؛ فجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ؛ والصلاة على سيدنا ونبينا محمد ؛ الذي فضله الله على كل نبي ؛ نجى به أمته ؛ فقد وصل الكتاب الكريم ؛ المتلقى بالتكريم ، المشتمل على النبأ العظيم ، من دخوله الدين » :

ومهما تكن حقيقة نيات الإيلخان أحمد – تكودار – بالنسبة لاعتناقـــه الإسلام ؛ فهو قد قتل لاعتناقه له ، على يد ابن أخيه أرغون خان[٦] ، الذي كان

---

(١) صبح ، ٨ ص ٦٥ .

(٢) مخطوط بالمكتبة الأهلية .B.N ، برقم ١٧٠٤ ، ورقة ٥ ب، ٦ ب ، ١٠ ، تتعلق بموت أباقا أيضا .

(٣) صبح ، ٨ ص ٦٥ – ٦٨ .

(٤) أورده جواد علي في مقالته « تواريخ مصرية ، إغفال وتعريف بمؤلفيها ، المجمع العلمي ببغداد ، ١٩٥٢ ، ص ١٢١ . يعتمد على مخطوط ، من تأليف ناصر الدين بن علي بن عباس (ت ٧٣٠ / ١٣٣٠) ، وهو سيرة السلطان الملك المنصور .

(٥) صبح ، ٧ ص ٢٣٧ – ٢٤٢ ، مخطوط بالمكتبة الأهلية .B.N برقم ١٢٠٤ ، ورقة ١٩ وما بعدها ؛ الجزري ، السلوك ، مخطوط برقم ٦٧٣٩ ورقة ١٠٤ – ١٥٤
أنظر ؛ Minorsky : Middle, p. 435,

(٦) أنظر . Minorsky : Middle, p. 435 ؛
وجب انتشار الإسلام ، ص ١٨٠ وما بعدها .

بوذي العقيدة ؛ وإن كانت أمه هو الآخر مسيحية ؛ حتى أنه اتصل بالبابانيةولا الرابع Nicholas IV [1] . وملكي فرنسا وانجلترا فيليب الرابع Philip IV وادوارد الأول Edward I ؛ كما كان له وزير يهودي ؛ وهو سعد الدولة[2]. وربما هو الذي سم أحمد ؛ وكانت سياسته المالية سبباً في أن كرهه شعبه ؛ مما أدى إلى قتله في ١٢٩١/٦٩١ .

فتولى بعده الإيلخان جيخاتو[3] — كيخاتوا — وكان هو الآخر على عقيدة البوذية ، وكرهه شعبه أيضا ؛ لأنه بناء على نصيحة صاحب الديوان — وزيره — صدر الدين أحمد — أو صدر الدنيا — وقف التعامل بالعملة الذهبية والفضية ، ليستعاض عنها بالتعامل بأوراق مالية اسمها « جاوا Gao » ؛ تشبها بأهل الصين ، حتى كره الناس تلك العملة الورقية ؛ مما أسخط عليه شعبه ؛ وشنقوه في جمادى الأولى ٦٩٤/مارس ١٢٩٥ ، أما وزيره فقد هرب إلى بيزنطة ، وإن عاد بعد ذلك إلى إيران.

فتولى بعده الإيلخان بايدوخان[4] ، في ١٢٩٥/٦٩٤ ، وهو حفيد هولاجو ، وكان مسيحيا أو أنه أسلم ؛ وفي عهده وصل إلى الشام حوالى عشرة آلاف مغولي ، طالبين الدخول في الإسلام . وقد خرج لهم عسكر دمشق والناس ؛ لاستقبالهم أحسن إستقبال[5] ؛ مما يبين أن الإسلام قد بدأ يجد له طريقا بين عامة المغول . ولم يبق بايدو في الحكم غير أشهر ، ولعله قتل بسبب النزاع الذي ساد في وقته بين أفراد الأسرة الإيلخانية ، وإنضمام الوزير صدر الدين لخصمه الأمير غازان ، وتوفي في رجب ٦٩٩/إبريل ١٣٠٠ .

---

(١) أنظر . Setton Op. Cit., p. 722.

(٢) هو سعد الدولة بن صفي الدين الأبهري ، وكان عارفاً بكل اللغات . خواندمير ، دستور الوزراء ، تحقيق حربي ، ص ٣٠٩ وما بعدها .

(٣) الجزري ، السلوك ، مخطوط رقم ٦٧٣٠٩ ، رقة ١٠٤ (١٥٤) ؛ خواندمير ، دستور ، ص ٣٦٦ وما بعدها ؛ انظر .
Ency. of Isl., (art Gaykhatu) 2ed., p. 982; (art Ilkhans) 2ed., Spuler : Die Mongolan. Berlin, 1955, 88-9; 541. t. 3, p. 1122;
فيه مصادر متعددة .

(٤) بتفصيل :
Ency. of Isl. (art Baydu) 2ed., t. I, p. 1129-1130.
Die Mongolen, cf : Spuler

(٥) الجزري ، جواهر السلوك ، مخطوط في B.N. برقم ٦٧٣٩ ، ورقات ٣٤٤ — ٣٤٥ .

فخلفة الإيلخان محمود غازان أو قازان ، فى ٦٩٤/١٢٩٥ [١] ، وهو الابن الأكبر لأرغون ، تحول هو وجيشه إلى الإسلام ؛ مع أنه كان تربى ليصبح بوذياً ؛ حيث يقال إن تحوله هو وجيشه إلى الإسلام ، كان بناء على تحريض من أحد قواده ؛ واسمه نوروز [٢] ؛ فلما دخل العاصمة تبريز ، أمر بهدم البيع اليهودية ، والكنائس النصرانية ، وتحطيم المعابد البوذية ، وبيوت النار المجوسية [٣] ، وأمر بلبس العمائم مثل العرب . وقد اتخذ غازان وزيراً مسلما هو رشيد الدين فضل الله ، الذى بناء على توجيه منه ألف كتابه المشهور : جامع التواريخ ؛ بحيث أتاح له هذا المنصب ؛ كتابة تاريخ هذه الحقبة بدقة متناهية ؛ كما كتب له : تاريخ مبارك غازانى [٤] . ومنذ غازان ؛ فقد أصبحت دولة الإيلخانات فى إيران ؛ دولة إسلامية ؛ منفصلة عن دولة المغول فى قراقورم ؛ وإن استقلت عنها حتى قبله .

ومع ذلك ؛ فإن هذا الإيلخان المغولى المسلم أراد أن يغزو الشام ، كما فعل أسلافه من إيلخانات المغول الوثنيين أو المسيحيين ؛ بل إن غازان ، وجد أن غزو المغول للشام فى هذه المرة ، سوف يكلل بالنصر ، بسبب إسلامه ؛ وإسلام عامة المغول الوثنيين أو المسيحيين . ، وكان يطمع فى أن يحكم بلاد الإسلام جميعها من القاهرة ، وشجعه على ذلك ، هروب بعض كبار أمراء المماليك إليه ، مثل نائب السلطنة فى الشام قراسنقر ، الذى خاف على حياته من الملك

---

(١) مورد اللطافة ، ص ٥١ ؛ أنظر . الصياد ، السلطان محمود غازان خان ، القاهرة ١٩٧٩ ؛ .

Ency. of Isl. (art Ghazàn) 2ed. t. II, p. 1043.

(٢) ميرخند ، روضة الصفا ، ٥ ص ١٢٨ ، خواندمير ، حبيب السير ، ١ ص ٨٢ — ٨٣ (طبع حجر) ، ابن الوردى ، تاريخ ، ١٢٨٥ ، ص ٢٤٠ . وذلك فى اليوم الرابع من شعبان ٦٩٤/ ١٩ يونية ١٢٩٥ ؛ حيث أعلن التشهد فى حضرة الخواتين ، وكثير من المسلمين .

(٣) أنظر . Minorsky : Middle, p. 436

(٤) ط London ، ١٩٤٠ ؛ وقبله .

الناصر ؛ وإن لم يكن على مايبدو وقد حرض غازان على الغزو ؛ حتى أنه أرسل حريمه إلى الناصر؛ ليخبرنه بأنه ماهرب إلى غازان ؛ إلا خوفاً على حياته .

فهاجم غازان فى الشام، بعد أن عبر الفرات فى ربيع الأول ٦٩٩/ديسمبر ١٢٩٩ ؛ مدعيا أن جنود مصر دخلت بلاده[١] ، وأن سلاطين مصر المماليك غادرون ، ويتباهى بحسن إسلامه ؛ فلم تستطع الحاميات المملوكية فيها أن تقف أمامه ؛ حتى وصلت جيوش غازان إلى بيت المقدس . وعلى مايبدو ، لم يكن الإسلام قد استقر فى قلوب المغول ، فأخذوا يذبحون وينهبون ويسترقون فى مسلمى الشام ؛ كما كان يفعل المغول قبل إسلامهم ؛ بحيث أخذ أهل الشام يهاجرون إلى مصر ، بمن فيهم فقهاء الشام ، مثل الفقيه المشهور ابن تيمية ، الذى سعى إلى السلطان الناصر ، يحضه على قتالهم ، ويبين له حقيقة أغراضهم .

وفى الوقت ذاته ، أرسل غازان رسله إلى الناصر ؛ لمعرفة أحوال جيش مصر ، وكتب إليه يتهدده ، فيقول[٢] : « ولقد أعذر من أنذر ، وأنصف من حذر ، والسلام على من اتبع الهدى » . ومع ذلك ؛ فإن الناصر استقبل رسل غازان ، مع أنه كان يعرف حقيقة نواياه ، وكتب إليه ، يعلن رغبته فى الصلح معه ، ويستحلفه بالتوقف عن القتال ، وأن إسلامه لن يكون صحيحا ؛ بسبب مافعله جنده بأهل دمشق[٣] .

ومع أن غازان ؛ قد اضطر إلى ترك الشام ، والعودة إلى إيران ربما خدعة ؛ إلا أنه ترك فيه جيشه بقيادة قطلوشاه ، وعين نوابه فيه ، ومنهم أمراء المماليك ، الذين

---

(١) صبح ، ٨ س ٦٨ وما بعدها .

(٢) النويرى ، نهاية ، ٢٩ ورقة ٣٢٩ (أ) ؛ انظر ، عاشور ، المماليك ، ص ٤٧ .

(٣) المفضل (P.O.) ، ٢٠ ص ٧٠ ؛ بيبرس الدوادار ، ٩ ورقة ٢٢٦ أ — ٢٣٠ أ

التجأوا إليه[١] ؛ إلا أن هؤلاء مالبثوا أن غدروا بغازان ، واندلعت الثورة فى الشام فى كل مكان ؛ بحيث استطاع المماليك استعادة الشام .

وكان الناصر قد أعلن التعبئة العامة بين المصريين ، وجعل الفقهاء ، وعلى رأسهم الفقيه المشهور ابن تيمية (ت. ذى القعدة ٧٢٨/ سبتمبر ١٣٢٨[٢]) ، يتكلمون فى فضائل الجهاد ، وتداول أحاديث نبوية عنه ، منها : « الإسلام عموده الصلاة ؛ وذروة سنامه الجهاد » ؛ بحيث أتاه المصريون من جميع الأماكن فى مصر. فجمع منهم أعداداً كبيرة ، زادت على مائتى ألف فارس ، وفتح خزائن الأموال والسلاح ، وسار على رأسهم ، متجها إلى الشام ، ومعه الخليفة ، والقضاة الأربعة والقراء ، يرتلون القرآن .

ومن خلال الوثائق ، يتبين أنه قد حدث أكثر من تقابل جديد بين جيش المغول وجيش المماليك . ففى إحداها بتاريخ رجب سنة ٦٩٩/٢٧ مارس ١٣٠٠[٣] ، وقع صدام ، لعله فى مرج الصفر ، بقرب حمص ، قتل فيه من المغول عشرون ألف فارس ، ولم يقتل من جيش المماليك غير مائة فارس ؛ مما يدل على أنه قد يكون استخدم البارود . وفى وثيقة ثانية[٤] ؛ بتاريخ ٤ من رمضان سنة

---

(١) مورد اللطافة ، ص ٥١ .

(٢) بتفصيل ، انظر .
Ency. of Isl. (art Ibn Taymiyya) 2ed., t. 3, p. 951.

(٣) هى وثيقة نقلت من كتاب : مجموعة الوثائق السياسية العربية بمخطوطات مملكة أرغون Aragon ، برقم ١٤٦ .
أنظر . عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٨١ ، ص ١٤٠ ، ١٤٥ ؛ وهى رسالة موجهة من الناصر محمد إلى الملك ألفونسو ملك قشتالة ؛ وإن كانت الوثيقة لا تذكر اسم المعركة؛ وإنما مضمونها .

(٤) هى رسالة من غازان إلى البابا بونيفاس الثامن فى ١٢ أبريل ١٣٠٢ ؛ بقصد تحريض النصارى الأوربيين ضد المماليك . أنظر : Mostaer and Cleaves
Trois documents mongols des archives secrètes vaticanes, in H J A S, xv/3-4, 419-506 (467-478).

التفاصيل من مصادر أخرى وردت فى مقالة دائرة المعارف الإسلامية . أنظر .
. Ency. of Isl., (art Ghazan) 2ed., t. 2, p. 1043.

٢٢/٧٠٢ أبريل ١٣٠٢ ؛ ذكر وقوع صدام جديد فى شقحب بطرف مرج الصفر ، قرب دمشق ؛ فقد المغول فيه معظم جيشهم ، ولم ينج منهم غير قائد الجيش المغولى قطلوشاه ، وقليل من جنده ؛ ليعبر بهم الفرات ، وبعدها لم يحاول غازان العودة إلى الغزو فى الشام ؛ وإن كان قد حاول أيضا أن يثير أوربا ضد المماليك ، بتحريضه البابا بونيفاس الثامن Bonifas VIII (١٢٩٤-١٣٠٣م) ؛ وذلك بخطاب منه إليه ؛ مؤرخ فى ١٢ أبريل ١٣٠٢م؛ ١١[١]/ شعبان سنة ٧٠٠ هـ .

بعد هذا النصر المؤزر على المغول المسلمين ، عاد الناصر محمد إلى مصر ؛ فاستعدت البلاد لإستقباله فى القاهرة استقبال الأبطال المنتصرين ؛ فكانت الناس تدفع أجوراً عالية للأماكن المطلة على طريق مرور موكب النصر ، مثل ٢ و ٤ دينار ، وفرشت الأرض بالحرير ؛ فدخل الناصر القاهرة يحيط به حرسه ؛ ووراءه أسرى المغول مكبلين بالسلاسل والأغلال ، ويتدلى من رقبـــة كل منهم رأس مغولى مقتول .

وماليث أن مات غازان بالرى ، حزنا على هزيمة جيشه على يد المصريين فى ٧٠٣/١٣٠٤ ؛ فخلفه أولجايتو محمد خدابنده ـ أى عبد الله ـ مع أنه كان قد عمد فى أثناء طفولته على أنه نصرانى ؛ ولـكنه اختار الإسلام ، وتمذهب بالمذهب الجعفرى ـ الأثنى عشرى ـ الشيعى ، وسك العملة باسم الأئمة الأثنى عشرية ؛ بقصد أن يثير شيعة إيران ، ضد المماليك حماة الخلافة السنية ، استمراراً للعداء . فـكان هذا الاتجاه الشيعى فى إيران سبباً فى أن ينشط فقهاء دولة سلاطين المماليك فى تأييد المذهب السنى[٢] .

---

(١) أنظر The Cambridge History of Islam; vol. I A, p. 218 .

(٢) مثل ابن تيمية الحنبلى المذهب ، الذى ألف كتابه : منهاج السنة النبوية ، نشر القاهرة ١٣٢١/١٩٠٤ .

ولما التجأ إليه بعض المماليك الفارين من مصر ، شجعه ذلك على الهجوم على حدود مصر ؛ ولـكن الناصر فعل معه مثلما فعل من قبل ؛ فعاود الاتصال بمملكة القبيلة الذهبيـة ؛ التى كانت على عكس مملكة الإيلخانات سنية المذهب ؛ حيث راسل الناصر خانها أزبـك خان ، ولقبه فى مراسلاته بأخيه ؛ كما أن أزبـك خان من ناحيته زوج الناصر بنتـا من الذرية الجنكيزية ؛ اسمها الخاتون طلبناى (أو طلوبية أو دلبية) ، وأرسلت من بلدها فى مركب إلى الإسكندرية ، ومنها وصلت إلى القلعة بالقاهرة فى ٧٢٠/١٣٢٠ .

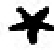
كذلك تحالف الناصر ، مع السلطان المتولى فى دهلى بالهند محمد بن طغلق[١] ؛ الذى أسلم فى عام ٧٢١/١٣٢٠ ؛ حيث اعتنقه على مذهب أبى حنيفة السنى ؛ وكان يحيط نفسه بفقهاء منهم ؛ فسعى إلى طلب التقليد بالحكم من الخليفة العباسى فى مصر ؛ ولقب نفسه نائبا له فى بلاده ؛ واعتبر نفسه ظل الله فى الأرض .

ولما توفى أولجايتو محمد خدابنده فى ٧١٦/١٣١٦ ، خلفه ولده السلطان بهادرخان ؛ الذى اسمه أول اسم إسلامى لإيلخاناتهم ؛ اعتنق المذهب السنى ؛ وأرسل إلى الناصر محمد طالبا الصلح ؛ وجعل الفرات حداً بينهما ، وعقد معه اتفاقية صداقة فى ٧٣٤ / ١٣٣٣ . وبعد موته بلا عقب فى ٧٣٦/١٣٣٥ ؛ تسلم المملكة الأمراء والوزراء ، وبدأت فى التفكك والسقوط ؛ حتى

---

(١) ابن أيبك الصفدى ، الواف بالوفيات ؛ انظر .
S. Khan : An indiscovered arabic source of the History of Sultân Muhammad Bir Tughlaq.
، نصلة ص ١٨٧ وما بعدها ؛ احتوت على نص عربى وترجمة انجليزية خاصاً بهذا السلطان ، الذى توفى فى ٢١ محرم ٧٥٢/٢٩ مارس ١٣٥١ .
وانظر أيضا : Agâ Mahdi Husain : The Rise and Fall of Muhammad bin Tughluq. London 1938;
: Tüghluq Dynasty. Calcutta, 1963.

أن الشيخ حسن بزوج فى العراق ، أعلن اسم الناصر محمد ، سلطان مصر ، فى الخطبة فى بغداد ، عام ١٣٤١/٧٤٢ [١] .



ومع ذلك ؛ فلم تهدأ مصر بالسلام مع المغول ، على الرغم من إسلامهم ، إذ مالبث أن ظهر لهم زعيم كبير ، فى مستوى جنجيزخان ، ولعله من سلالته ، هو السلطان تيمور لنك (٧٧١ — ٨٠٨/١٣٧٠ — ١٤٠٥) [٢] وتيمور لنك — ويقال الملك فقط — المعروف للأوربيين باسم : Tamerlan ؛ لفظة تركية بمعنى الأعرج الحديدى ؛ حيث لدينا صورته ، التى رسمها له الفرس ؛ يبدو فيها طويل القامة ، ضخم الرأس ، يكسوها شعر أبيض منذ صغره ؛ فكان تيمور يحلم بتكوين إمبراطورية مغولية مترامية الأطراف ، مثل أمبراطورية جنجيزخان ، وأصبح اسمه هو الآخر يثير الرعب مثله ، ولا سيما أنه اشتهر بقدرته على القتال؛ وإن كان على عكس جنجيزخان الوثنى مسلماً متعصبا ؛ فاتخذ الجهاد الإسلامى شعاراً له ؛ فلا يذهب إلى ساحة القتال إلا محاطا برجال الدين المسلمين ، ولاسيما من الصوفية النقشبندية ، وحتى بالموسيقيين والفنانين ، وكأنه ذاهب إلى حفلة دينية أو ترفيهية . ومع ذلك كان يقتل من المسلمين ، أكثر مما يقتل من غيرهم ، ولدينا وصف خيمته فى ساحة القتال ؛ فهى مصنوعة من الحرير ، وله فيها سرير من الذهب .

حقاً أن امبراطورية المغول ، التى كان أسسها جنجيزخان ؛ قد تفككت جزءاً جزءاً ؛ بما فيها الصين ، أول فتوحاتهم ؛ إلا أن تيموراً قد بدأ بالمنطقة التى نشأ

---

(١) أنظر Lane-Poole : Egypt, p. 307.

(٢) ابن حجر ، إنباء ، ٣ ص ٢٣٠ أ. بتفصيل ؛ انظر .
Ency. de l'Isl. (art Timur Lang) 1ed., t. 4, p. 818 sqq.

فيها، وهى بلاد ماوراء النهر، حيث ولد بقرب مدينة كش(١)، فى عام ١٣٣٦/٧٣٦؛ فاستطاع أن ينتصر على جميع أمراء الإقليم، من مغول وغيرهم، ويؤسس مملكة اتخذت سمرقند(٢)، عاصمة لها .

بعدها توجه غربا إلى بلاد القفجاق المجاورة فى ١٣٧٥/٧٧٧، وهى البلاد الواقعة بين بحرى قزوين والأسود، وتوجد فيها مملكة القبيلة الذهبية المغولية، التى تحولت إلى الإسلام منذ نشأتها، ومالبثت أن انفصلت عن أمبراطورية المغول الوثنية؛ فهدم عاصمتها سراى(٣)، ثم زحف إلى خليج أزوف على البحر الأسود، وأزال نفوذ المدن الإيطاليـــة التجارية، وواصل زحفه شمالا فى سهوب بلاد الروس(٤)؛ فأحرق موسكو Moscova فى ١٣٨٠/٧٨٢ — ٨١؛ وإن عاد إليها مرة أخرى، واحتلها تماما فى ١٣٩٥/٧٩٧، ولم يوقف زحفه فى هذا الاتجاه إلا الغابات؛ التى كانت لاتجعله يعرف طريقه فيها .

ثم عمد تيمور إلى عبور نهر جيجون للزحف فى إيران فى ١٣٨٠/٧٨٢ — ٨١؛ فقضى على بقايا المملكة الإيلخانية، واستولى على خراسان وجرجان ومازندران وسجستان وهراة وأصفهان، التى قتل فيها ٧٠ ألفاً . ثم وجه جيوشه نحو العراق، التى كان قد ظهرت فيها الدولة الجلائرية منذ عام ١٣٣٥/٧٣٦؛ نسبة إلى مؤسسها الشيخ حسن الجلائرى(٤)، من أسرة الإيلخانات ـ هولاجو ـ واعتمد فى حكمه لها على جماعة عرفت باسم أهل الحق؛ لأنهم كانوا على المذهب الشيعى؛ حيث كان الشيخ حسن الجلائرى، والياً عليها من قبل الإيلخان بو سعيد، ولما توفى

---

(١) عنها : معجم البلدان، ٧ ص ٢٥٤ .

(٢) عنها : نفسه ٥ ص ١٢١ وما بعدها؛ انظر .
Ency. de l'Isl., (art Samarkand) 1éd. t. 4, p. 1345.

(٣) المنهل، ص ٢٣٢ وما بعدها؛ انظر .
Ency. de l'Isl. (art Saraî) 1éd., t. 4, p. 163-4.

(٤) بعد عودته عنها؛ عاد الروس إلى استقلالهم؛ واستطاعوا أن يقيموا دولة متحدة لهم، وهى التى مازالت فى أوجها حتى وقتنا الحاضر .

الشيخ حسن خلفه ابنه السلطان أويس، ومن بعده ابنه أحمد[١] ، الذي قاوم جيش تيمور ؛ إلا أنه لما قتل أحد أبناء تيمور في القتال ، فإن تيموراً استولى على بغداد في ٢١ من شوال ٧٩٥ / ٣٠ أغسطس ١٣٩٣[٢]؛ ففر أحمد الجلائري إلى حلب، التي كانت من أملاك دولة سلاطين المماليك ؛ فخرج إليه نائبها واستقبله ، كما أرسل برقوق سلطان مصر إلى أحمد يستقدمه . ولما وصل أحمد إلى القاهرة ؛ خرج برقوق والأمراء لاستقباله في يوم الثلاثاء ١٧ من ربيع الأول سنة ٧٩٦/٢٠ يناير ١٣٩٤[٣] . فأرسل تيمور رسله إلى مصر مطالبا بتسليم أحمـــد ، ولكن برقوقا يقتل رسل تيمور ؛ فهاجم تيمور حينئذ الرها في بلاد الجزيرة ، ليواصل الزحف على مصر .

ولكن تيموراً عاد إلى موطنه الأصلي ، ليغزو من هناك في بلاد الهند ؛ لحاجته إلى الأموال ؛ فدخل دلهي ودمرها في ٧ من ربيع الآخر سنة[٤] ٨٠٠/١٧ ديسمبر ١٣٩٨ ، وقتل من أهلها ثمانين ألفا ، وقضى على سلطنتها الحاكمة فيها.

إلا أن تيموراً عاد من جديد إلى العراق ؛ بسبب أن أحمد الجلائري ، كان قد استرد بغداد بمؤازرة العسكر المصري . ولدينا وصف وداع برقوق لأحمد ابن أويس في القاهرة ؛ مما يبين تجاوب أحمد مع برقوق ، أكثر مما هو مع تيمور لنك المغولي مثله ؛ فقد هوى أحمد لتقبيل الأرض أمام برقوق ؛ إلا أن برقوقا لم يمكنه من ذلك ، ومنحه تقليداً بنيابة السلطنة عنه في العراق[٥] . فلما دخل أحمد

---

(١) خواندمير، حبيب السير ، ٣ ص ١٣٥ .
(٢) المنهل ، ص ٢٣٢ وما بعدها ؛ السلوك ، ٣ / ٢ ص ٧٨٨ (سنة ٧٩٥ / ١٣٩٣) .
(٣) الضوء ، ١ص ٢٤٤ — ٢٤٥ ؛ السلوك ، ٣/٢ ص ٧٩٩ وما بعدها (سنة ٧٩٦) .
(٤) ابن حجر ، إنباء ، ٢ ص ٩ (سنة ٨٠٠).
(٥) المنهل ، ص ٢٣٧ .

بغداد سكت فيها العملة باسم برقوق ، سلطان مصر ، ولكنه لما علم بقدوم تيمور إلى العراق ، فر من جديد من بغداد ، وفى هذه المرة إلى بلاد التركمان ، ففاجأ تيمور بغداد فى ٢٧ من ذى القعدة سنة ٨٠٣/١٠ يوليو ١٤٠١ ، ووضع السيف فى أهلها وبنى من جماجمهم مائة وعشرين مئذنة[١] .

وبعدها توجه تيمور إلى محاربة القبائل التركمانية ، من طوائف الأوغز وغيرهم ، التى اعتبرت من أسرع الأجناس ثورة على الإيلخانية لما ضعفت ، حيث تكونت منها دولتان : إحداهما قبيلة القراقيونلو[٢] ، أو الشاة السوداء ، التى عرفت بهذا الاسم ، ربما على لون رايتها ، أو أنه اسم لأصولها القديمة ، ونشأت فى أذربيجان ، حول بحيرة أرمية ، واتخذت تبريز عاصمة الإيلخانية بعد سقوطها عاصمة لهـا ، وأصبحت تحكم فى معظم إيران وبلاد الجزيرة . وكان السلطان أحمد بن أويس ، قد هرب إلى زعيمها قرا يوسف التركمانى ، وهو قريب ابن أويس لتزوجه من أخته[٣] ، والذى كان على علاقة طيبة مع برقوق ، ولدينا رسالة منه[٤] إلى برقوق ، يجعل الفرات حداً بينه وبين سلطنة المماليك ؛ إلا أنه دب نزاع بين أحمد بن أويس وقرا يوسف ، الذى قتل أحمد[٥] ، واستولى على العراق فى فى ١٤٠٣/٨٠٥ . ولما هاجم عسكر تيمور هذه القبيلة التركمانية ، هرب قرا يوسف بدوره إلى مصر[٦] . أما القبيلة التركمانية الأخرى ، فهى آق قيونلو[٧] أو

---

(١) شذرات ، ٧ ص ٦٥ .

(٢) بتفصيل .

Ency. of Isl., (art Kara Koyunlu) 2ed., t. 4, p. 584.

(٣) ابن حجر ، إنباء ، ٣ ص ٢٣٠ .

(٤) مخطوطة ٤٤٤٠ (B.N.) ، ورقة ١٠٣ وما بعدها .

(٥) المنهل ، ص ٢٤٠ ؛ إنباء ، ٣ ص ٢٣٠ .

(٦) نفسه ؛ نفسه ؛ انظر :

La Perse au Moyen Age, p. 4 sqq. : Minorsky

(٧) بتفصيل :

Ency. of Isl., (art Ak Koyunlu), 2ed., t. I, p. 311-312.

الشاة البيضاء ، التي اتخذت ديار بكر مجالا لها في شمال الجزيرة ، وقامت بتشجيع من تيمور ، فإنها أعلنت ولاءها له[١] .

وبعدها عزم تيمور أيضاً على أن تكون حملته هذه المرة في آسيا الصغرى ، فأسرع ملك بيزنطة جان الثامن باليولوجوس Jean VIII Paléologos (١٣٩٠ - ١٤٤٨م) إلى إعلان خضوعه ، وهو الذي أصبحت تقتصر مملكته على القسطنطينية وما حولها ؛ بعد أن شاركه العثمانيون في آسيا الصغرى ، منذ أن هاجروا من موطنهم الأصلي ؛ ليتوسعوا فيها على حساب الروم السلاجقة ، الذين كانوا سبقوهم بالهجرة إليها أيضاً ، وكانوا اتخذوا أنقرة قرب اسطنبول عاصمة لهم . فقرروا مقاومة تيمور ؛ فيتمكن تيمور من هزيمة بايزيد[٢] ، سلطان العثمانيين قرب أنقرة في يوم الجمعة ١٩ من ذي الحجة عام ٨٠٤/٢٠ يوليو ١٤٠٢ ؛ وجاءوا له ببايزيد أسيراً مكبلا في الحديد . ففك تيمور قيده ، وسمح له بالجلوس بجواره ، وعاتبه ، وهدأه ، وطمأنه ، فاعترف بايزيد بخطيئة في حربه ، وأعلن له أنه عبده ؛ إلا أن بايزيد لما فكر في الهروب ، وضعه تيمور في قفص من حديد ، وكان يأخذه معه في روحاته وغدواته ، وتوفي بايزيد في أسره في ١٤ من شعبان عام ٨٠٥/٨ مارس ١٤٣٠ . ولكن تيمورا عاد إلى موطنه بعد ذلك ؛ مما جعل العثمانيين يراسلون برقوقاً ؛ طالبين أن يكونوا معه يداً واحدة ضد تيمور ، ووافق برقوق على ذلك .

ولهذا التحدي المستمر من جانب برقوق ، سلطان المماليك في مصر ، قرر تيمور أن يغزو بلاد المصريين ، فأرسل إلى برقوق رسالة طويلة جاء فيها[٣] :

---

(١) أنظر : Minorsky : Middle, p. 440

(٢) أنظر . Ency. de l'Isl. (art Bayazîd) 2éd., t. I, p. 115.

(٣) السلوك ، ٣/٢ ص ٨٠٣ — ٨٠٥ ؛ ابن عربشاه ، عجائب المقدور في أخبار تيمور ، مصر ١٢٨٥ هـ ، ص ٠٧٠

« اعلموا أنا جند الله ، مخلوقون من سخطه ... قد نزع الله الرحمة من قلوبنا... فقد خربنا البلاد ، وأيتمنا الأولاد... وجيوشنا كعدد الرمال .. فمن سالمنا سلم..».
فرد عليه برقوق برسالة طويلة أيضاً ، جاء فيها [1] : « حصل الوقوف على ألفاظكم ... ونزعاتكم الشيطانية ..» . وعلى العكس لدينا مصدر فارسي[2] ؛ يذكر أن تيموراً أرسل إلى برقوق رسالة يعرض عليه فيها صداقته ، وتبادل الرسل والتجارة .

ولما هاجم تيمور[3] حلب في ربيع الأول سنة ٨٠٣/أكتوبر ١٤٠٠ ، دافع عنها نائبها المملوكي بالمدافع أو المكاحل ، وحدثت موقعة رهيبة ، ولكن عسكر تيمور هاجمتها بجماعات كثيرة ، كأمواج البحر المتلاطم ؛ مما جعلت نائبها يسعى إلى التسليم ، والخروج إلى تيمور ، وفي رقبته منديل أبيض ، عنوان التسليم . ولما دخل تيمور حلب ؛ فعل فيها جنوده كل شنيع ،من قتل وانتهاك للحرمات ،وتخريب بهدم البيوت ، وحتى قطع الأشجار ؛ بحيث أنه من كثرة القتلى ، صارت الأرجل لا تقع إلا على الجثث . وزيادة في الإرهاب ، بنى تيمور من رءوس القتلى مآذن في كل مكان ، وصار المسجد الجامع في حلب أشبه بمجزر آدمي من كثرة الدماء التي سالت فيه ، ثم حاصر القلعة ، وردم خندقها[4] ، واستولى عليها ، وتعجب من كثرة ذخائرها وأموالها ؛ حتى قال ما كنت أظن أن في الدنيا قلعة فيها هذه الذخائر .

بعد ذلك زحف تيمور على حماة وحمص وبعلبك وفعل بها مافعل بحلب ،

---

(١) نفسه ، ٢/٣ ص ٨٠٥ — ٨٠٧ ؛ نفسه ، ص ٧٠ — ٧١ .
(٢) شرف الدين ، ظفر نامه ، ١ ص ٦٤٣ ، أنظر .
The Cambridge, vol. I A, p. 220
(٣) ابن حجر ، انباء ، ٢ ص ١٣٥ (٨٠٣) .

ثم صار على دمشق وحاصرها ، ولما سمع أهلها بما جرى في حلب وغيرها ، أسرع علماؤها بطلب الأمان ، وأرسلوا إليه المؤرخ المعروف ابن خلدون(١) ، الذى كان يوجد فيها وقتذاك ، فأنزل من السور عن طريق حبل ؛ حيث وجد نفسه بين جنود تيمور ، وكان ابن خلدون قد عرف بتأليفه لمقدمته المشهورة ، التى اعتبرت اكتشافاً للناحية الإنسانية فى التاريخ ، وكان عمره وقتذاك ٧٢ عاماً . ولما قابله تيمور وعمره ٧٥ عاماً ؛ حاوره ، وبهره منه مظهره وفصاحته ، وجعله يجلس بجواره ، فطلب منه كتابة قائمة بسائر البلاد والصحارى والقبائل فى بلاد المغرب ، فقدمها له مباشرة ، مكتوبة باللغة الفارسية . ولما طلب منه أن يكتب له تاريخ المغرب أيضاً ؛ أعلمه بأنه قد كتب تاريخاً فورياً للمشرق والمغرب ، تكلم فيه عن الملوك ، وفيهم تيمور ؛ فسأله كيف حصل عليه ، فرد عليه أنه جمعه من أفواه التجار ، وأهل الثقة . وقد أراد تيمور أن يستبقى ابن خلدون عنده ، أو يرسله إلى موطنه فى بلاد ما وراء النهر ، ولكن ابن خلدون ، وهو مغربى الأصل ، كان قد استقر بمصر ؛ قال له إنه فى حاجة إلى العودة إلى مصر ، ليأتى بكتبه ، وبعد ذلك يلحق به ، فسمح له تيمور بالعودة إلى دمشق ، بعد أن منح أهلها الأمان؛ فخرج منها ابن خلدون مباشرة إلى مصر .

ولكن عندما فتحت دمشق أبوابها لتيمور ، لم يتردد فى إظهار طبيعته الأسيوية ؛ فأمر بحرقها ، وجمع حوالى عشرة آلاف طفل من أهلها ، دهستهم سنابك الخيل ؛ ثم أخذ يقتل ويفعل كل شنيع ؛ بحيث أن الناس كانت تخرج من دمشق ، وتجرى نحو مصر ، كما استولى على قلعتها ، وكان يرى نفسه على حسب عبارته(٢) : « أنا غضب الله فى أرضه ، يسلطنى على من يشاء من خلقه » .

معنى هذا أنه لم يبق أمام تيمور ؛ إلا السير إلى مصر ، وكان برقوق قد توفى ،

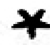
---

(١) أورد تفاصيلها ابن عربشاه ، ص ١٠٧ — ١٠٨ ، وغيره ؛ انظر De Slane : Notices et extraits des Manuscrits, de la B.N. 1862 sqq, p. XIXI; Fischel, Ibn Khaldun and Tamerlane : LXXXVII Berkely and Los Angeles, 1952.

(٢) ملاحظة طرخان ، المماليك ونجرا كسة ، ص ٨٧ .

وخلفه ابنه فرج ، الذى أخافته فتوحات تيمور الكثيرة ، ووصوله إلى الشام ، وما فعله بسلطان العثمانيين من قبل ؛ فتردد فرج فى أن يخرج لقتاله ، مع أنه كان قد أعلن النفير العام فى مصر ، وهو إجراء يلجأ إليه حكام مصر دائماً كلما ادلهمت الأمور ؛ فجاءه المصريون من كل أرجاء مصر ؛ لصد الخطر المغولى ، مثلما فعلوا ذلك أكثر من مرة ، فى حروبهم السابقة للمغول . ولكن سلطان مصر الخائف أدمن شرب الخمر ، وأسرع بإرسال خطاب إلى تيمور يعلن له فيه خضوعه له[1]، وإطلاقه سراح الأسرى المغول ؛ وأرسل له هدية ؛ هى زرافة من الحبشة ؛ فكان تصرف فرج المستسلم وضعفه أمام تيمور ؛ سبباً فى غضب المماليك عليه ؛ وعزله ، ثم قتله .

وعلى كل حال ؛ فإنه لحسن حظ مماليك مصر ، فإن تيموراً فجأة لم يعد يستهويه فتح مصر ، بقدر رغبته فى العودة إلى فتح الصين ، وكان متزوجاً من أميرتين صينيتين إحداهما الملكة الكبرى والأخرى الملكة الصغرى ، فرحل عن الشام فى ١٤٠٣/٨٠٦ ، ومات فى الطريق إلى موطنه فى ٤ من رمضان سنة ١٩/٨٠٨ يناير ١٤٠٥ .



انقسمت مملكة تيمور بعد وفاته بين أبنائه وأحفاده ؛ فتكونت منهم الدولة التيمورية[2] ، التى قامت بعد موت تيمـــور فى ١٤٠٥/٨٠٨ ؛ فى شمال إيران فى خراسان ، ثم امتدت إلى مازندران فى ١٤٠٦/٨٠٩ ، وسجستان ، ثم بلاد ماوراء النهر فى ١٤٠٩/٨١١ ، وفارس فى ١٤١٤/٨١٧ ، وكرمان فى ١٤١٦/٨١٩–١٧ ؛ حيث أن شاه رخ – الملك صاحب القلمة – ابن تيمور ؛ الملقب معين الدولة ، ملك

---

(١) ابن إياس ، ١ ص ٣٣٦.
(٢) أنظر .
Ency. de l'Isl., (art Timûrides) 1éd., t. 4, p. 820 sqq.
وقد بقيت هذه الدولة إلى أن استولى الروس عليها فى ١٨٧٣/١٢٩٠ .

معظم ماملكه أبوه فيا عدا سورية ، واتخذ هراة[١] ، فى شمال إيران عاصمة له ؛ بحيث أصبحت فى عهده وعهد خلفه[٢] ؛ عاصمة للأدب والفن ، التى أنجبت شخصيات كبيرة فى التاريخ مثل : ميرخند خواندمير ، وفى الرسم بهزاد وشاه مظفر ؛ وفى الشعر جامى .

وعلى عكس أبيه ، لم يكن يحب الحروب ، وعمل على مصالحة دولة سلاطين المماليك فى مصر ؛ فاتصل ببرسباى السلطان المملوكى وراسله ، وطلب منه أن يسمح له بإرسال كسوة الكعبة ؛ إذ كان يريد تحقيق نذر له ، له فيه قسم ؛ ولكن برسباى سلطان مصر وقتذاك ، لم يوافقه على أساس أنه قد جرى التقليد على أن ترسل الكسوة من مصر وحدها ، وأن سلاطين المماليك وحدهم هم حماة الأماكن المقدسة[٣] ؛ ولقبهم : خادم الحرمين ؛ مما أغضب شاه رخ على سلطان المماليك ، وحتى على علماء مصر ، ووصفهم بأنهم مطايا السلطان[٤] ، لأنهم لم يرسلوا له ماطلبه من كتب المقريزى وابن حجــر وغيرهما ؛ إذ كان يهتم بالتراث الإسلامى . ولما خلف جقمق برسباى ؛ فإنه سمح لشاه رخ بإرسال كسوة الكعبة ، على أن تعــرض لمدة يوم واحد ، وتكون تحت كسوة السلطان فى ١٤٤٣/٨٤٧[٥] . ولدينا رسالة[٦] من جقمق إلى شاه رخ ؛ يخبره فيها بأن الحجاج آمنون وأن طرقات الحج آمنة ،

---

(١) أنظر . Minorsky : La Perse au Moyen Age, p. 4 sqq.

(٢) أنظر . Quatremère : Mémoire, historique sur le règne du Sultan Schah-rokh. J.A., 1838.

(٣) مخطوطة ٤٤٤٠ (B.N.) ، ورقة ٤٨ .

(٤) أنظر . Darrag L'Egypte sous le règne, de Barsbay. Thèse, vol. I, pp. 322-323.

Bouvat : Essai sur la civilisation, timouride J.A. CCVIII, 1926, p. 193-299.

أورد المصادر .

(٥) التبر المسبوك ؛ ص ٩٦ ، ٩٨ .

(٦) مخطوط ٤٤٤٠ (B.N.) ، ورقة ٤٤ ومابعدها .

ويدعوه إلى أن تكون سياستهما واحدة، وأن المملكتين روحان فى جسد واحد. ولكن لما وصلت أرملة تيمور إلى مصر، فى طريقها إلى الحج فى ٨٤٨/١٤٤٤[1]؛ فإن المصريين رموها بالطوب؛ لأن القتلى الذين قتلوا فى حروب مصر مع تيمور كانوا كثيرين، وكادت العلاقات تسوء من جديد بين مملكة شاه رخ ومصر، لولا اعتذار جقمق. ولكن بعد موت شاه رخ فى ٢٥ من ذى الحجة عام ٨٥٠/١٢ مارس ١٤٤٧؛ فإنه ربما حدث سوء تفاهم آخر بين المملكتين؛ حتى أن جقمق أمر بنزع كسوة الكعبة المنولية فى ٨٥٦/١٤٥٢[2].

ومن باب الاحتياط تعاون المماليك مع العثمانيين فى آسيا الصغرى، بعد أن عادت دولتهم موحدة من جديد، على يد أحد أبناء بايزيد الذى كان أسره تيمور، فمات فى أسره كما ذكرنا، وهو ابنه سليمان؛ فكان من هذا التحالف بين المماليك والعثمانيين، أن خاف شاه رخ، ودعاه إلى تقوية صلاته بالمماليك؛ فكان يراسل سلطان مصر، ويخبره بنزاع قد حدث بينه وبين مملكة الشاة السوداء «قره قيونولو[3]» التركمانية الشيعية، التى كانت نشأت فى أذربيجان واتخذت تبريز عاصمة لها فى أيام تيمور، ربما بتشجيع منه، وتزعمها قرايوسف، وأنه لم يطلب منه إلا حسن الجوار[4]؛ مع مملكته.

كذلك قوى المماليك صلاتهم مع قبيلة الشاة البيضاء «آق قيونلو[5]»

---

(١) التبر المسبوك، ص ٣٩١؛ انظر. طرخان، الجراكسة، ص ٩٤.
(٢) نفسه، أنظر؛ نفسه.
(٣) أنظر قبله؛ وزامباور، الجزء الثانى، ص ٣٨٤ — ٣٨٥.
(٤) مخطوط ٤٤٠ (B.N.)، ورقة ١٣٤ أ وما بعدها.
(٥) بتفصيل: ابن الفرات، تاريخ الدول، نشر زريق، بيروت ١٩٣٦، ص ٣٣٦ — ٣٣٩؛ انظر.
Ency. of Isl., (art Ak Koyunlu) 2ed., t. I, p. 311-312.
؛ وقبله.

التركمانية السنية ، وكانت ظهرت فى منطقة الفرات ؛ فى ديار بكر من بلاد الجزيرة ، وشجع تيمور على قيامها أيضا ، إلا أنها قاومت خلفه بعد موته ؛ وذلك حينما ظهر لها زعيم قوى ، هو أوزون حسن [٨٧١ – ٨٨٣/١٤٤٦ – ١٤٧٨] ، أو حسن الطويل ، الذى سمى هكذا لطول قامته ؛ بحيث توسعت أملاكه فى نواحى البحر الأسود[1] فى أرمينية وكردستان .

ثم حارب أوزون حسن قبيلة الشاة السوداء «قراقيونلو[2]» التركمانية الشيعية ؛ التى نشأت فى أذربيجان كما ذكرنا ، وأخذت تتوسع على حساب الدولة الشيبانية[3] ، التى قامت فى خوارزم ونواحيها على نهر سيحون ؛ بجوار القبيلة الذهبية ، منذ أيام جنكيزخان ، على يد أحد أحفاده الملقب شيبان ؛ وإن امتدت شرقا فى بلاد ماوراء النهر على حساب المملكة التيمورية . فكان محاربة أوزون حسن لقبيلة الشاة السوداء الشيعية يثلج صدر إينال سلطان مصر ؛ حتى أن أوزون حسن أرسل إليه برأس زعيمها جهان شاه ، بعد أن قتله فى معركة بينهما ، فى عام ٨٧٢/١٤٦٧[4] .

وبعد ذلك حارب أوزون حسن ، بقايا المملكة التيمورية ، التى كانت نشأت فى خراسان ، وشملت كل ما كان فتحه تيمور فيما عدا سورية كما ذكرنا ، وامتدت بسيطرتها إلى الهند[5] ؛ إلا أن مغولها مالبثوا أن استقلوا عن مملكته ، وكونوا على يد[6] بابر – بير – (١٥٠٠ – ١٥٣٠) ، من نسل تيمور دولة المغول الكبرى ؛ والتى استمرت إلى القرن

---

(١) أنظر : Minorsky Middle, p. 442 sqq.

(٢) بتفصيل : Ency. of Isl., (art Kara Koyunlu) 1ed., t. 4, p. 584. ؛ وقبله

(٣) بتفصيل : Ency. de l'Isl., (art Shaïbanides) 1ed., t. 4, p. 283- sqq.

(٤) ابن إياس ، ٢ ص ٣٦ — ٩ .

(٥) النجوم ، ٧ ص ١٠٤ .

(٦) أنظر : Minorsky Middle, p. 442-43

الثامن عشر؛ وذلك على الرغم من أن تيموراً كان أخضع الهند لسيطرته، فأسر أوزن حسن قائد المملكة التيمورية فى وقته، وهو بوسعيد[1] (٨٥٥–٨٧٢/١٤٥٢–١٤٦٧)؛ حيث كان بو سعيد يراسل سلاطين مصر[2] على أساس العلاقات الودية، التى قامت بين المملكة التيمورية وسلاطين مصر، منذ شاه رخ.

كذلك دخل أوزن حسن فى نزاع مع السلطنة العثمانية، فى آسيا الصغرى، وكانت قوى أوربا، عا فيها البابوية، تسعى إلى التقرب منه، وتشجعه على معارضة العثمانيين. فأرسلت إليه جمهورية البندقية[3] سفيراً، هو كاليرنو زيرو Calerino Zero[4]، إلى تبريز عاصمة أوزن حسن، وأمدوه بأسلحة منها ٦٠٠ طبنجة، و٢٠٠ بندقية. ومع ذلك؛ فإن أوزن حسن لم يكن يرغب فى تحالف أوربا معه فى نزاعه مع العثمانيين، وعلى العكس؛ فإن أوزن حسن كان يعلن انتصاراته على العثمانيين إلى سلاطين مصر، وإن كانت البندقية بموت أوزن حسن تحالفت مع العثمانيين[5].

ومع امتداد أملاك أوزن حسن إلى بلاد عديدة، شملت إيران والعراق والجزيرة وأرمينية؛ إلا أنه بعد موت ابنه يعقوب بن أوزن (٨٨٣– ٨٩٦/١٤٧٨ — ١٤٩٠)، الذى كان نشيطاً مثله؛ فإن أملاك أوزن حسن تبددت بين أبنائه وأحفاده، وتحولت إلى إمارات صغيرة متناثرة[6]؛ بعضها أصبح يقع تحت نفوذ سلاطين المماليك على حدود الشام والجزيرة.

---

(١) أنظر. حسن إبراهيم، الدولة التيمورية فى الهند، مستخرج من كلية آداب القاهرة، ١٩٤٤؛ أنظر. Minorsky: Middle, p. 442-3.

(٢) مخطوطة ٤٤٤٠ (B.N.)، ورقة ١٨٤ أ و ب وما بعدها.

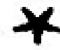
(٣) أنظر. Minorsky: La Perse au XVème siècle, entre la, Turquie et Venise. Publ. de la Société des Etudes iraniennes no. 7, Paris, 1933, p. 17.

(٤) أنظر. Minorsky: Middle, p. 442-3.

(٥) أنظر. Minorsky: Ibid., p. 447-8.

(٦) أنظر. Mino: The Aqqoyunlu, p. 458. Ency. de l'Isl., 2éd., t. I, p. 311.

والمتحصل مما سبق ؛ أن مصر قد صمدت فى الشام ضد المغول الوثنيين ؛ ثم المغول المسلمين فى إيران ؛ وحتى للدول التى كانت تدور فى دائرة نفوذهم ؛ مما يدل على وضوح ثابت فى سياسة سلاطين مماليك مصر فى الشام ؛ على أساس أن الشام منطقة الأمان لدولتهم فى مصر .



مرحلة أخرى هامة فى نضال المماليك فى الشام ؛ وهى محاربة بقايا خطر كان لايزال رابضاً فيها ؛ قبل ظهور دولة سلاطين المماليك والخطر المغولى ؛ وهو الخطر الصليبى . وعلى الرغم من الهزائم الساحقة ؛ التى ألحقت بالصليبيين ؛ منذ أيام عمـــاد الدين زنـكى (ت ٥٤١ / ١١٤٦) ؛ الذى أزال إمارة الرها ، وصلاح الدين (ت ٥٨٩ / ١١٩٣) ، الذى استرد بيت المقـــدس ، ومدناً أخرى كثيرة ؛ وأجبر ملوك أوربا ؛ وعلى رأسهم ريتشارد قلب الأسد Richard Lion Heart ، ملك انجلترا ؛ على عقد هدنة عـكا ؛ إلا أن هذا الخطر الصليبى كان لايزال باقياً فى الشام ، متمثلا فى إمارتين قويتين ، هما : أنطاكية وطرابلس ، وبعض مدن ساحلية وداخلية ، ولا سيما مدينـــة عكا ، إحدى معاقلهم الهامة .

وقد شجع دولة المماليك على محاربة الصليبيين ، أن الامارتين الصليبيتين الباقيتين ، والمدن الصليبية الأخرى ، لم تـكن متحدة فيما بينها ، فضلا عن تنافس ملوك وحكام أوربا عليها ؛ كما كان لفشل الحملات الصليبية الـكبرى ، التى وجهت نحو مصر ؛ بقصد استرداد بيت المقدس بعد ذلك ؛ أن أوجدت لدى الصليبيين فى الشام فترة ركود ويأس ، وأيقنوا الا فائدة ترجى من قتال المسلمين ، وإنما بالأولى قبول الأمر الواقع بالمعايشة بينهم .

ومع ذلك ؛ فإن الفرنجة عموماً من جانبهم ، كانوا يأملون فى التعاون مع المغول ضد المسلمين ؛ فأرسلوا نحوهم مبشريهم من الرهبان الفرنشيسكان ؛ بقصد

تحويلهم إلى المسيحية ؛ إذ كان المغول — كما ذكرنا — معظمهم من الوثنيين ، يكرهون المسلمين ، ويحاربونهم بضراوة ؛ فقد أرسل البابا أنوسنت الرابع Innocent IV (بابا من ١٢٤٣ - ١٢٥٤ م) ؛ الأب الفرنشيسكانى بيان دى كاربينو Pian de Carpino ، إلى الخان الكبير لهذا القصد ؛ كما أرسل إليه سفارة أخرى[(١)] .

كذلك لويس التاسع Saint Louis - Louis IX ، ملك فرنسا من ١٢٢٦ إلى ١٢٧٠ م ، وكان قد استقر بعكا ، بعد أن أطلق المصريون سراحه بعد هزيمته فى المنصورة — قبل أن يعود إلى بلاده ، سعى إلى التعاون مع المغول الذين يغزون فى بلاد المسلمين ؛ فأرسل هو الآخر إلى الخان الكبير ، رسوله وليم روبرك William Rubroek (Ruysbroek) فى ١٢٥٣ م ، وطلب منه مساعدته فى الاستيلاء على بيت المقدس ، وأهداه خيمة على شكل كنيسة[(٢)] ؛ إلا أن رسل الخان وصلوا إليه بعد أن كان قد ارتحل من عكا إلى جزيرة قبرص.

وللحقيقة ؛ فإن أغلب الصليبيين فى الشام ، فيما عدا إمارة أنطاكية ؛ لم يتعاونوا مع المغول تعاوناً مباشراً فى أى وقت ، وعلى العكس حافظوا على الود مع المماليك ، حتى أنهم سمحوا لهم بحرب المغول فى بلادهم ؛ إذا ما اقتضى الحال ذلك ، ربما لأنهم بحكم الإقامة فى الشرق منذ قرون أصبحوا يرون أنهم جزء منه ؛ وأن المغول يشكلون عليهم خطراً داهماً مثلما هو على المسلمين ، ولعلهم قرروا هزيمة المغول ، وأن النظر إلى البعيد يكون أفيد ؛ هذا فضلا عن الضربات القاصمة التى كيلت لهم من قبل ؛ مما جعلهم يفكرون قبل أن يقدموا على التعاون مع المغول ؛ كما أنه كانت توجد لهم مع المسلمين هدنات سابقة ومصالح تجارية متبادلة تمنعهم من التعاون مع أعداء المسلمين .

*

(١) أنظر : Minorsky Middle East, p. 433-4.

(٢) أنظر : Joinville : Hist. de Saint Louis. cf.

وقد بدأ المماليك مناجزة الصليبيين منذ بيبرس ، بعد الانتصار على المغول فى عين جالوت؛ حيث شبه بيبرس بصلاح الدين الأيوبى ، فى جولاته مع الصليبيين(١)، وكان يذهب إلى حربهم فى كل سنة تقريباً ، ابتداء من عام ٦٦٣ / ١٢٦٥ ، إلى عام ٦٧٠/١٢٧١ ، وبلغت حملاته فى الشام ثمان وثلاثين حملة(٢) ؛ بعضها كان ضد المغول المهاجمين فى الشام ، فكان يستولى على مدن الصليبيين الواحدة بعد الأخرى ، مثل(٣) : قيسارية ، وحيفا ، وأرسوف ، وصور ، وصفد ، وطبرية ، والرملة ، ويافا ، والشقيف ، وبغراس ، وكرك ، وحصن الأكراد ؛ كما حاصر عكا ، التى تحارب عليها الجنويون والبنادقة ، وحدثت بينهما معارك هائلة فى عام ٦٥٨/١٢٥٩ ؛ وإن بقيت تحت سيطرة ملكها هنرى الثالث Henri III ، من أسرة جى لوسنيان GuiLusignan ، وهى من الأسر الصليبية الإقطاعية . وإن رفع عنها الحصار GuiLusignan .

وأكثر من ذلك ، فإن بيبرس تمكن من دخول انطاكية — Antio-Cheia (٤) ، فى شمال سوريا ، وتقع على نهر العاصى ؛ فى أثناء غيبة حاكمها التورمانى ؛ المسمى بوهمند السادس Bohemond VI - بيموند — الذى كان فى زيارة عند أمير طرابلس الصليبى ، وليسعى إلى تكوين حلف ضد المماليك ؛ وكان اشترك مع المغول والأرمن فى غزو حلب ؛ حيث كان يتميز دون بقية الأمراء

---

(١) أنظر. Enc. of Isl., (art Sirat Baybars I), 2ed., t. I, p. 1125-7.
(٢) أنظر . : Wiet; Ibid., I, p. 1126.
Grandeur, p. 258.
(٣) عن هذه المدن ، انظر المعاجم الجغرافية .
(٤) ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٣٠٧ وما بعدها ؛ مفضل .(P.O.) ١٢ ، ص ٤٩٠ ، ٥٠٣ — ٤ ؛ العينى ، عقد ، ٢٠/٣ ورقات ٥٢٨ — ٣٩٠ ؛ انظر .
Ency of Isl., (art Antâkiya) 2ed., t. I, p. 516-17.
: Cahen La Syric du Nord à l'époque, des Croisades. Paris, 1940.

الصليبيين بلقب السيد "Dominus" . فلما دخـل بيبرس أنطاكية فى ٤ من رمضان[١] ٦٦٦/١٩ مايو ١٢٦٨ ، دمرها عن آخرها ، وأرسل إلى أميرها الغائب عنها رسالة تهكم وتشف ورد فيها[٢] : «وها نحن ، نعلمك بما تم ، وبالبلاء الذى عليكم عم» . فكان أخذ بيبرس لأنطاكية داعياً إلى جعل إمارة طرابلس الصليبية ، تسعى إلى عقد هدنة معه فى عام ٦٦٧/١٢٧٠ ؛ بل إن ملكة بيروت إزابيلا "Isabella" ، التى أطلقت عليها المصادر العربية : «الدبونة» ؛ نسبة إلى اسرتها "Ibellin" . ؛ عقدت هى الأخرى مع بيبرس فى شهور العام ذاته هدنة[٣] ؛ حيث لدينا نص وثيقتها الهامة ، وغيرها من وثائق[٤] الهدنات الأخرى .

كذلك احتذى قلاوون مثل بيبرس فى محاربة الصليبيين ؛ وكان له يد هو الآخر فى دعم السلطنة المملوكية ؛ فوافق فى أول الأمر على بقاء الهدنات القائمة معهم ؛ وعقد هدنة جديدة مع مدينة عكا لعشر سنين ؛ وعشرة أشهر ، وعشرة

---

(١) السلوك ، ١/٢ ص ٥٦٧ — ٥٦٨ ، انظر جمال سرور ، بيبرس ، ص ٨٦ — ٨٧ ؛ King :

The Khnights Hospitallers in Holy Land, p. 263.
Ency. de l'Isl., (art Babyars 1er) 2éd., t. I, p. 1159.
(art Antakiya) 2ed., t. I, p. 517.
Enc. Brit. Babyars I, p. 773.

(٢) نهاية الأرب ، ٢٨/٢ ورقات ٨ ٣ — ٣١٠ ؛ المنهل ، ورقات ١٦٧ — ١٧١ ؛ مفضل (P.O.) ١٢ ص ٥٠٨ وما بعدها ؛ انظر فى كتاب جمال سرور ، بيبرس ، ص ٨٧ — ٨٨ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢٨٣ وما بعدها ؛ صبح ، ١٤ ص ٣٩ — ٤٢ ؛ ابن الفرات ، تحقيق زريق ، ٧ ص ٣٥ . من ألقابها فى ديوان الانشاء المملوكى : الملكة ، الجليلة ، المصونة ، الفاخرة .

(٤) مثل هدنة مع مدينة المرقب . صبح ، ١٤ ص ٤٤ ــ ٤٥ . بعض هذه المعاهدات نشرت بالعربية ، ولها ترجمة فرنسية من Quatremère لكتاب السلوك ، للمقريزى ، ٢/١ ص ١٦٦ وما بعدها .

أيام ، وعشر ساعات ؛ في سنة ٦٨٢/١٢٨٣[١] ؛ كما اتصل بملوك المسيحية[٢] ؛ في القسطنطينية وفرنسا وقشتالة وصقلية وألمانيا وجمهورية جنوى ليتفرغ لحرب المغول .

بعد ذلك ،وجه قلاوون حملاته إلى استئصال إمارة طرابلس المتبقية للصليبيين؛ فحاصرها أربعة وثلاثين يوماً،واستولى عليها في يوم الثلاثاء ٤ من ربيع الآخر سنة ٦٨٨/٢٦ أبريل ١٢٨٩[٣] ؛ ومع مقاومتها مقاومة شديدة ، استولى عليها من حاكمها بيمند السابع Boemond VII ؛ وذبح معظم أهلها ، وخصوصاً أنه كان وقتــذاك حزيناً لموت ابنه الأكبر ، علاء الدين ؛ولما حاول بعض سكانها الفرار إلى المراكب ، غرقت بهم المراكب ؛ وقد أرسل قلاوون البشائر بالنصر إلى ملوك وحكام المسلمين .

ثم يأتي السلطان الملك الأشرف خليـــل بن قلاوون ، ليستولي على آخر معاقل الصليبيين ؛ وهي عكا[٤] Acre ،التي ترجع أهميتها للصليبيين على الخصوص من تعظيمهم لها ؛ بسبب أن أصول السيد المسيح وأمه منها ؛ ولذلك كانوا يعتبرونها في مكانة القدس[٥] ؛ فكانت هي وجهتهم منذ أيام صلاح الدين بعد استيلائه عليها ؛ عقب انتصاره عليهم في موقعة قرن حطين الحاسمة ؛ ليصلوا منها إلى القدس ، وذلك من دون أي ميناء ساحلي آخر في الشام ، وتمسكوا بها تمسكهم بالقـــدس ، حيث حدث في أيام صلاح الدين حصار عكا المشهور أيضاً ؛ الذي استمر سنتين ؛

---

(١) صبح ، ١٤ ص ٥١ — ٦٣ .

(٢) أنظر . Lane-Poole : Egypt. p. 281.

(٣) السلوك ، ١٣/ ٣ ص ٧٤٧ — ٧٤٨ ؛ ابن حبيب ، درة ، ١ ورقة ١٥١ وما بعدها؛ الجزري ،مخطوط B.N. ،برقم٦٧٣٩؛ ورقة ٢٥ (١٥ أ).

(٤) ابن الجزري ، مخطوط برقم ٦٧٣٩ ، ورقة ٤٨ ، انظر . Ency. of Isl. (art Akka) 2ed, t. I, p. 341

(٥) ابن حبيب ، درة ، و ورقة ١٦٣ .

وقتل فيها عدد كبير من المصريين ؛ بما فيهم بعض القبط ، ولم يتمكن الصليبيون من الاستيلاء عليها ؛ إلا بعد وصول ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد Richard Lion Heart ، وملك فرنسا فيليب أغسطس Philippe Auguste في ٦٢٦/١٢٢٩ ؛ ومن يومئذ عرفت باسم Saint Jean d'Acre ؛ نسبة إلى كنيسة بنيت على اسم أحد قديسيهم يوحنا بالقدس .

وفي سبيل أن يستولي عليها الملك الأشرف ؛ نودي على غزوها بالنفير العام ـ التعبئة العامة ـ فجاءته أعداد كبيرة من المتطوعة من مصر ؛ ومن أهل دمشق ؛ بحيث كان المتطوعة أكثر من الجيش النظامي . ولقد أخذ غزوها طابعا دينياً منذ بدايته ؛ فشارك فيها كثير من رجال الدين ، منهم القراء والشيوخ والفقهاء والمدرسون والعلماء . وقبل أن يتحرك جيش السلطان الذي سار على رأسه ، ممتطيا صهوة جواده زار ضريح أبيه . ولما وصل إلى عكا في ٣ من ربيع الآخر سنة ٦٩٠/ ٥ أبريل ١٢٩١ ؛ حاصرها ونصب عليها المجانيق ، التي أخذت تقصفها على أنغام الكوسات الكبيرة ـ وهي الطبل ـ وهتافات الله أكبر . ومع وصول أعداد كثيرة من أوربا ، عن طريق البحر ، ولا سيما من قبرص المجاورة ؛ والتي كانت تكتظ بالصليبيين الذين خرجوا من الشام ؛ حتى أن المحاصرين في عكا أشعلوا ناراً عظيما ابتهاجا بوصولهم ؛ إلا أن الأشرف استولى عليها في يوم الجمعة ١٧ من جمادى الأولى سنة ١٨/٦٩٠ مايو ١٢٩١[1] ؛ بعد أن بقيت مائة سنة وشهوراً في أيدي الصليبيين ؛ وذلك مثلما كان صلاح الدين من قبل ، حينما

---

(١) مورد اللطافة ، ص ٤٥ ؛ انظر . Reinaud :
Bibliothèque des Croissades, p. 370-372.

ولدينا وصف مقدم الإسبتارية ـ وهو صليبي ـ لسقوطها . أنظر :
A Letter of John de Villiers; Master of Hospital; describing the fall of Acre

وذلك في كتاب King : The knights Hospitallers in the Holy Land. London, 1930, p. 301-302.

اســـتولى عليها فى يوم جمعة أيضا ، بحيث أن الفقيه البوصيرى ناظم البردة المشهورة(١) فى مدح النبى ، قال فى هذه المناسبة :

أخذ المسلمون عكا واشبعوا الكافرين صكا

وأقسم الترك منذ سارت لن يتركوا للفرنج ملكا .

وبالفعل أخلى بقايا الصليبيين فى شمال الشام المدن، التى كانوا يحتفظون بها ، مثل : صيدا ، وبيروت ، وانطرطوس ؛ وإن صمدوا فى صـــور وقتا ؛ إلا أن الأشرف عاد إلى الشام، واستولى عليها ؛ وبذلك استولى على الساحل الشامى كله، وخرج الصليبيون من الشام نهائيا .

ومن ناحية أخرى ؛ فإن دول أوربا لم تعمل على استنقاذ عكا أو غيرها من المدن الصليبية فى الشام ، من السقوط فى أيدى سلاطين المماليك ؛ بسبب انشغال ملوك أوربا بمسائلهم الداخلية . فكانت انجلترا تقاتل فى اسكتلندا ، وفرنسا فى الأراضى الواطئة ، والتيتون يحاربون شعب لتوانيا الوثنى ؛ وإيطاليا منقسمة إلى دويلات متعادية بعضها مدن مفردة ، وحتى البابوية هى الأخرى ، انقسمت على نفسها ، وشجع فيليب الرابع الجميل Philippe IV le Bel (١٢٨٥ — ١٣١٤م)، ملك فرنسا على ذلك ؛ بحيث وجد بابا فى أفينون Avignon بفرنسا ،

---

(١) اسمها بالكامل : الكواكب الدرية فى مدح خير البرية ، وإن اشتهرت بالبردة فقط ؛ حيث تعتبر بداية لظهور فن من فنون الشعر ، يعرف بالبديعيات ؛ وهى قصائد من بحر البسيط ، فى مدح النبى ؛ يشتمل كل بيت منها على نوع بديعى ؛ وقد ترجمت إلى لغات متعددة منها : الفارسية ، والتركية ، والألمانية .

أنظر .

Ency. of Isl., (art Burda) 2ed., t. I, p. 1314-15

؛ زكى مبارك ، المدائح النبوية ، القاهرة ١٩٣٥ ؛ نجيب المصرى، فى الأدب الإسلامى ، ص١٥٩ .

منذ ١٣٠٩ م ، بجانب البابا ، الذى يوجد فى الفاتيكان ؛ حتى أن الشاعر المعروف دانتى الليجييرى Dante Alighieri (١٢٦٥ – ١٣٢١ م) ، ذكر ذلك فى فى مطهره ؛ فلما دعا بابا الفاتيكان بونيفاس الثامن Bonifas VIII (١٢٩٤ — ١٣٠٣ م) إلى استنقاذ عكا فى ١٢٩٥/٦٩٩ ؛ لم يستمع إليه أحد . بل إن ملوك أوربا من قبل ، لم يلبوا نداء أرغون ؛ إيلخان المغول ، الذى دعا فى رسالة سلمها لفيليب الجميل ليأتى ومعه البارونات إلى الشام ؛ ليتعاونوا معه فى قتال المماليك ، ذكر له فيها أنه سوف يسلم له بيت المقدس ؛ حيث توجد هذه الوثيقة فى الأرشيف الوطنى لفرنسا Archives Nationale de France (١) .

وبعد ذلك ؛ فإن نشاط الفرنجة ضد المسلمين ، أصبح يتلخص فى استعطاف المماليك لمعاملة النصارى معاملة حسنة . ويبدو أن المماليك قد استجابوا إلى ذلك ؛ مراعاة للسياسة التى اقتضاها حال مهادنة ملوك الفرنج ؛ إذ لم يعد يوجد ما يبرر عداءهم بعد زوال ملكهم من الشرق الأوسط . فقد كان السلطان خليل ابن قلاوون(٢) ، ينزل الأسرى من الفرنج من البلاد الشامية السجن ؛ ثم يبطل السجن ؛ ويبقى هؤلاء بأهاليهم وأولادهم أحراراً فى القاهرة . ولكن خلفه نقلوهم إلى أماكن متطرفة ، فى كيان مصر بالفساط . كذلك البابا يوحنا الثانى والعشرين Jean XXII (١٣١٦ – ١٣٣٤ م) ، الذى كان يقيم فى أفينون ، يرسل إلى الناصر كتاباً فى ١٣٢٦/٧٢٧ ؛ يطلب فيه معاملة النصارى فى الشرق معاملة حسنة(٣) .

والخلاصة أن المماليك نجحوا فى اقتلاع الصليبيين من الشام نهائيا ، وهو مالم يستطع الأيوبيون قبلهم إنجازه ؛ حيث قال المؤرخ جيبون Gibbon : ساد

---

(١) أنظر . : Minorsky Middle, p. 435.
لدينا الوثيقة بالنص السريانى ، وقد ترجمت إلى الإنجليزية من Montogmery فى ١٩٢٧ ؛ والفرنسية من Chabot فى ١٨٩٥ ، والروسية من Pigulenskaia فى ١٩٥٨ .

(٢) الخطط ، ٢ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٣) أنظر . : Lane-Poole Egypt, p. 310.

السكون الحزن على الساحل الذى كان زمنا طويلا ؛ ميدانا تسمع فيه قعقعة سيوف هذا النضال [١]



فى الوقت ذاته سعى المماليك إلى غزو أرمينية[٢] ـ أو إرمينية ـ فى عقر دارهم؛ التى أصبحت المملكة المسيحية الوحيدة المتبقية على حدود دولتهم، فى أثناء مناجزة إمارات الصليبيين فى الشام؛ مما جعل مملكة أرمينية ، تحتل المكانة الأولى فى الدفاع عن المسيحية فى الشرق . ولا شك أن الأرمن فى معظم مراحل تاريخهم ؛ كانوا يسعون إلى تحقيق قيام وطن قومى دائم لهم ؛ وإن لم يكن من السهل دائما تحديد حدود بلادهم جغرافيا[٣] ، فى كل مرة .

ففى وقت ظهور الإسلام ، كانت مملكتهم عبارة عن صقع عظيم ، فى جبال قبق[٤] ، وهو إقليم القوقاز ؛ ممتدة إلى حدود آسيا الصغرى ، وبلاد الجزيرة . وقد خضع الأرمن للمسلمين فى أيام الراشدين والأمويين والعباسيين ؛ حيث اعتبر هؤلاء بلادهم من بلاد الثغور والعواصم[٥] ، التى بأيدى المسلمين ؛ ومنح الخليفة المقتدر العباسى ملكهم أشد (أشوط) الثانى Ashod II (٩١٥ — ٩٢٩ م)؛ عام ٣١٠/٩٢٢ ، لقب شاهنشاه ؛ فكان المسلمون يسمونه شاه الأرمن[٦] .

---

(١) أنظر .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٦ ؛ انظر .
Ency. of Isl. (art Armîniya) 2ed., t. I, p. 654.

(٣) صبح ، ٨ ص ١٩. فى الفقرة الأخيرة .

(٤) معجم البلدان ، ٧ ص ٢٧ — ٢٨ .

(٥) صبح ، ٨ ص ٣٠ ، عن ولاة الأرمن العباسيين ؛
انظر . Vasmer :
Chronology of the governors of Armenia under the first 'Abbasids; in Memoirs of the College of Orientalists. Leningrad, 1925, I, 38 ffs
(بالروسية) .

(٦) انظر . Ency. de l'Isl., (art Arménie) 1éd., t. I, p. 445.

ولما ضعف العباسيون ، خضع الأرمن للروم أو للبيزنطيين في عهد الأسرة المقدونية القوية ؛ كنوع للحماية لهم من المسلمين ؛ وإن اقتصرت بلادهم وقتذاك على قلاع وأغوار وجبال من ناحية آسيا الصغرى ؛ ممتدة من جهة البحر الأبيض إلى الفرات؛ في حدود المسلمين؛ بحيث أصبح ملك الأرمن يعرف لدى المسلمين بكاتب الروم[١]؛ فلأن مملكته تقع على حدود المسلمين أو لخضوعه للروم ؛ أو حتى تعرف باسم بلاد لاوون ، التي هي تحريف لاسم ليون أو ليو الأول ، أول ملك لهم ؛ حتى صار كل ملك من ملوكهم يعرف لهم بابن لاوون .

ولما أخفق الروم أمام الترك السلاجقة ؛ وما ترتب على هزيمتهم في الموقعة المشهورة ملازكرد[٢] (أو منازكرد) في ٤٦٣/١٠٧١ ؛ فإن السلاجقة قضوا على مملكة الأرمن ، لما حاول زعيم لهم اسمه فيلارتوس[٣] « Philaretes » مقاومتهم ؛ كما توسع السلاجقة في آسيا الصغرى على حساب دولة الروم أيضا ، ثم جاءت هجرات ترك آخرين؛ منهم العثمانيون[٤]، ليقيموا في بلاد الأرمن .

ولما قامت الحروب الصليبية ؛ وجاء الفرنجة إلى الشرق ؛ تجددت آمال الأرمن في وطن قومي ؛ حيث شجع على قيامه البابا سلستان الثالث Célestin III (١١٩١ — ١١٩٨م) . فظهر لهم كيان مستقل في إقليم قليقية[٥]

---

(١) أنظر . المصادر العربية .

(٢) بتفصيل :

Ency. de l'Isl., (art Malâzgerd) 1ed., t. 2, p. 214.

توجد في المصادر مثل : عماد الدين ، آل سلجوق ، مصر ١٣١٨ .

(٣) أنظر . أسد رستم ، الروم ، ١ ص١١٦ .

(٤) أنظر . بعده .

(٥) ابن الشحنة ، الدر المنتخب ، ص١٨٠ ؛ انظر .

Ency. of Isl., (art Cilicia) 2ed., t. 2, p. 34 sqq.

Cilicia ، الذى تحيط به جبال طوروس Taurus ، وجبل اللكام Amanus . وقد أصبح ليون الثانى الكبير لاون — Leo أو Leon — من أسرة روبين Rhupen أو Ruben (١) ؛ ملكاً على الأرمن فى ٥٩٤/١١٩٧ . وقد شجع ملوك أوربا على قيام هذه المملكة الارمنية ؛ فراسله هنرى السادس Henri VI (٢) (١١٦٥ - ١١٩٧م) ملكهم ؛ كما أن لويس التاسع Louis IX ؛ ملك فرنسا ، عضد هذه المملكة الأرمنية ؛ لتقف أمام المسلمين ؛ بعد هزيمته على يد المصريين ؛ وذهابه إلى قبرس . فعرفت مملكته لمسلمين بمملكة الأرمن ؛ وبلاده ببلاد سيس على اسم العاصمة سيس أو سيسية ؛ الواقعة على حافة جبل من جبال طوروس ، وهى تسمية لاتينية الأصل ، من Sis أو Sisia (٣) ، التى تقع قرب عين زربى (٤) — أدنة — أو حق باسم أرمينية الصغرى (٥) ؛ أما ملكها فعرف متملكاً ؛ بمعنى أنه امتلك البلاد قهراً من أصحاب السيادة الشرعية ؛ وهم المسلمون ؛ وإن سمى التكفور (٦) أيضا ؛ ربما إشارة إلى كفره فى رأيهم .

ومع أن الأرمن ؛ منذ ظهور الإسلام ، كانوا يعتبرون دائما أصدقاء المسلمين ؛ إلا أنه بمجىء الصليبيين ، تغير موقفهم . ومع أن مملكتهم — فى واقع الأمر — كانت موزعة بين ملوك متعددين ، لاانتظام لكلمتهم ؛ ولا اجتماع لهم ؛ بملاحظة مؤرخى المسلمين (٧) ؛ إلا أنهم كانوا جميعا سنداً للصليبيين على المسلمين ؛ ربما بسبب أن عقيدة الأرمن الدينية ، لا تختلف عن عقيدة بيزنطة . فكان ملوك بيت المقدس اللاتيني ، يشجعون المملكة الأرمنية ، ويمنحون أمراء الأرمن الألقاب ، مثل

(١) أنظر . Ibid (art Arminya) 1ed, t. I, p. 639.
(٢) أنظر . R. H. C. Doc Armen, p. 422.
(٣) أنظر . Ency. de l'Isl., (art Sîs) 1éd., t. 4, p. 473-5.
(٤) معجم البلدان ، ٦ ص ٢٠٤ — ٢٠٦
(٥) أنظر . R. H. C. Doc. Armén, p. 634 sqq.
(٦) صبح ، ٨ ص ٣١ س ١ — ٢ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٣٢٧ .
(٧) المصطلح الشريف ، ص ٤٠ .

لقب بارون Baron ؛ كما كانت مملكة أرمينية تشارك إمارة أنطاكية الصليبية الإغارة على بلاد المسلمين فى الشام وبلاد الجزيرة ، وحق إمارات الروم السلاجقة فى آسيا الصغرى؛ حتى أن قلج أرسلان ، أمير السلاجقة ، طلب معاونة صلاح الدين الأيوبى ضدهم ؛ بحيث حاربهم صلاح الدين أيضاً واستولى على خلاط[١] من بلادهم ومدنا أخرى، وقبلوا إطاعته ، والتزموا بنقل أخبار الصليبيين[٢] وعرف ملك أرمينية بأنه أخبث عدو للإسلام[٣] .

ولما جاء المغول إلى الشرق ؛ فإن الأرمن شاركوا معهم أيضا فى الهجوم على بلاد المسلمين ، ولا سيما أن المغول كانوا يستخدمون الأقليات المسيحية فى بلاد المسلمين ضد المسلمين ، وكان الأرمن من ناحيتهم متحمسين للاتصال بالمغول ؛ بحيث أن ملكهم هيثوم الأول Hetoum I ؛ أرسل أخاه سمباد Sempad إلى منغوليا فى ٦٤٥/١٢٤٧[٤] ؛ وما لبث أن رحل بنفسه إلى قراقورم عاصمة المغول فى ٦٥١/١٢٥٣ ، واستقبل فيها استقبالا كبيراً ، وعقد اتفاقية معهم ضد المسلمين ؛ وعاد إلى بلاده فى ٦٥٤ / ١٢٥٦ . وكان منجوخان ، أمبراطور المغول ، يدبر غزو بلاد الإسلام. فكانت مشاركة الأرمن للمغول فى حروبهم ضد المسلمين؛ سببا فى استيلائهم على بلاد الجزيرة وحلب ، من بلاد الأيوبيين ، وأنهم كانوا مع المغول فى الاستيلاء على دمشق ، ورفعوا فيها الصليب . ويقول المؤرخ القلقشندى[٥]

---

(١) خلاط هى قصبة أرمينية الوسطى . ياقوت ، معجم ، ٣ ص ٤٥٣ ؛ انظر السلوك ، ١ ص ٧٠ — ٧١ ، ٨٩ — ٩٠ .

(٢) ابن شداد ، النوادر ، ص ١٢٤ — ١٢٦ .

(٣) المصطلح الشريف ، ص ٥٦ .

(٤) أنظر .

The Cambridge History of Islam. vol. I A, p. 211.

A History of the Crusades, p. 652-3. Setton ؛

(٥) صبح ، ٨ ص ٣٠ .

إن الأرمن لو تمكنوا وحدهم من دمشق، لمحوا آثارها؛ كما كان أسرى المسلمين يباعون فى أسواق الرقيق[١] فى أرمينية .

ولما انتصر المسلمون على المغول فى موقعة عين جالوت؛ فإن بيبرس قرر غزو أرمينية ؛ وإن كان ذلك لم يتم إلا بعد القضاء على إمارة أنطاكية ، التى كانت حليفة لهم؛ بحيث أصبح المسلمون يحيطون بأرمينيـــة من كل جانب ، ولا سيما التركمان المسلمون فى آسيا الصغرى . فحارب بيبرس الأرمن عن طريق واليه فى حلب[٢] ؛ فهاجم معظم مدنهم،وجلب منها من الغنائم مالا يعد ولا يحصى،وسيطر على كل حصون جبل اللـكام[٣] Amanus . كذلك تمـكن المماليك من أسر الملك نفسه[٤] ؛ واسمه ليفون بن هيثوم الأول Levon — ليون الثالث Leon III — حيث كان هيثوم قد انقطع للرهبنة ؛وترك ابنه فى الحـكم، ولم يفك أسره إلا بعد التنازل عن قلاع كثيرة ، فعادت إلى الأسماع أسماء الحصون الثغرية فى هـــذه النواحى ، التى كانت تتردد أسماؤها فى أيام الأمويين والعباسيين . ولدينا وثائق فتح هذه المدن الثغرية ، مثل : ملطية[٥] ، طريق الصوائف أيام فتوحات الإسلام الأولى ،والمصيصة قاعدة الشواتى والصوائف، وطرسوس[٦] مدينة قديمة ، وقلعـــة الروم على نهر مرزبان ، مع حصانتها ؛ بحيث أخذ

---

(١) أنظر . D'Hosson : Histoire des Mongols, III, pp. 319-320

(٢) السلوك ، ١/٢ ص ٤٧٦ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض ، تحقيق الخويطر ، ص ١٩١ ومابعدها .

(٣) أنظر . Setton : Op. Cit., p. 654.

(٤) الروض ، ص ٢٩٦ — ٢٧٠ ، ص ٣٢٧ — ٣٢٨ ؛ ابن العميد ، تاريخ العرب ، ١ ص ١٥٢ وما بعدها .

(٥) مفضل (فى P.O.) ٢٠ ص ١٤٥ ؛ الروض ، ص ٣٤ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

(٦) لدينا نص خطاب أرسل إلى قاضى القضاة شهاب الدين بفتح القلعـة . مخطوط ٦٧٣٩ ، ورقة ١٠٩ ومابعدها .

صاحبها أسيراً، وغيرها ؛ كما أحرقت سيس، ونبشت قبور ملوكها في ٦٦٥/١٢٧٦، وفي ٦٧٥/١٢٧٦[١] ولعله بسبب ذلك أصبحت بلاد الأرمن تسمى أيضا بلاد الدروب[٢]، وأصبح لحلب قيمة كبرى وقتذاك، على أساس أنه تخرج منها الحملات إلى نواحي أرمينية، واعتبرت سيس عاصمة الأرمن من توابعها[٣] في ٦٧٥/١٢٧٦ .

وبعد بيبرس جاء رسل هيثوم الثاني إلى قلاوون يسألون مراحمه[٤]، بعد استيلائه على إمارة طرابلس في ٦٨٨/١٢٨٩، وقبلوا دفع جزية مقدارها مليون درهم[٥] سنويا ، وهي التي أصبحت تعرف باسم الحمل[٦] ، أي أنها تحمل إلى مصر، فكان للأرمن ميناء هام للتجارة اسمه لاجازو[٧] Lajazzo ؛ على البحر الأبيض ، تأتيه المراكب من المدن الإيطالية وغيرها[٨] ؛ وأصبح محطة للتجارة الدولية بين الشرق والغرب .

كذلك لما تولى الأشرف خليل بن قلاوون، وهو الذي اقتلع جذور الصليبيين نهائيا من الشام ؛ فإن مملكة الأرمن أسرعت من جديد بإرسال الرسل ، وأعلنت أنه مهما طلب منهم الأشرف القلاع والمال أعطوه ؛ فاتفق معهم على أن يتسلم ثلاث قلاع ، منها مرعش[٩] وهي أحسن بلادهم ، فعين الأشرف فيها النواب .

---

(١) ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢٧٠ — ٢٧١ ، ٤٢٢ — ٤٣٥ .

(٢) المصطلح الشريف ، ص ٤٠ .

(٣) زبدة ، ص ٢٠ ؛ انظر . Ency. of Isl., (art Baybars) 2ed, t. I, p. 1125 ; Ency. de l'Isl., (art Bahriyya) 2ed. t. I, p. 974.

(٤) السلوك ، ١ ص ٧٤٨ .

(٥) أنظر . Lane-Poole : Egypt, p. 281.

(٦) النجوم ، ٨ ص ١٥٤ .

(٧) أنظر . Les villes marchandes, p. 67.

(٨) أنظر . R. H. C. Doc. Armén. Préface, p. XI.

(٩) مخطوط ٦٧٣٩ ، ورقة ١٧٠ (٨٧) . عنها: ياقوت ، معجم البلدان ، أنظر .

ولا شك أن أرمينية مع خضوعها للنفوذ المملوكى؛ فإنها كانت تثير اضطرابات للمماليك ؛ بسبب ضعف السلطة المركزية فى مصر ؛ لتنافس أمراء المماليك على الحكم من ناحية، وتشجيع المملكة الإيلخانية لهم فى إيران من ناحية أخرى وحتى بعد إسلام المغول ؛ لم يتردد ملك أرمينية هيثوم الثانى Hetoum II ؛ من التقرب من الإيلخان غازان (٦٩٤ - ٧٠٤/١٢٩٥-١٣٠٤) ضد المماليك، وكان مظهر خروجه على طاعة المماليك ؛ هو منع الحمل[1] ؛ وهى الجزية . ويبدو أن غازان أقتنع بمعاضدة هيثوم الثانى له فى غزواته فى الشام ؛ حيث ينسب إلى الأرمن إحراق المساجد والمدارس فى الشام ، انتقاما لما كان يفعله المماليك ببلادهم ، بل كان قصد هيثوم الثانى خراب دمشق أيضا[2] .

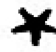
وكان نتيجة ذلك ، أن الملك الناصر لما انتصر على غازان ؛ فإنه هاجم فى أرمينية ؛ حيث كان الفقيه ابن تيمية[3] ، هو لسان الجهاد معه ضد الأرمن؛ ولاسيما أن إسلام المغول جعلهم لاينتظرون أى معاونة منهم . كذلك عاود المماليك غزو الأرمن من وقت لآخر فى ٧٦١ / ١٣٥٩ وفى ٧٧١ / ١٣٦٩؛ ولا سيما فى سنة ٦٧٦ / ١٣٧٤[4] ؛ فحوصرت العاصمة سيس ؛ وأخذ ملكها ليون السادس Leon VI أسيراً فى مصر ، وأصبحت أرمينية من يومها تابعة لمصر المملوكية ، يعين عليها نائب اسمه نائب سيس ، وهو فى رتبة مساوية لرتبة نائب طرابلس[5] ؛ ثم أضيفت لنيابة حلب من نيابات الشام . وبذلك تكون

---

(١) النجوم ، ٨ س ١٥٤ .
(٢) المصطلح الشريف ، ص ٥٦ .
(٣) عن دوره :
Ency. of Isl. (art Ibn Taiymiya) 2ed., t. 3, p. 951.
(٤) النجوم ، ١١ ص ٦٦ س ٣
(٥) صبح، ٨ ص ٣٣ .

دولة أرمينية قد انقرضت على حسب ملاحظة أبى المحاسن[١] .

ومنذ ذاك ، أصبحت بلاد الأرمن مجالا لهجرات التركمان من قبائل الشاة البيضاء وغيرها المجاورة لهم . ومن الملاحظ أن زعيم الأرمن فى سيس — ولعله قد أصبح البطريق ، وهو كبير رجال الدين — أصبحت له السيطرة على الأرمن فى آسيا الصغرى ؛ وإن كان يقال له هو الآخر التكفور[٢] ؛ مثلما كان يسمى ملوكها من قبل ، إشارة إلى كفره ، حينما كان المماليك يحاربون الأرمن ، كما يقال له أيضا فى المكاتبات الرسمية فى ديوان الإنشاء : متملك سيس ، دون لقب مالك سيس[٣] .



إلا أن بقايا الصليبيين ، الذين خرجوا من الشام ، كانوا قد التجأوا إلى جزائر البحر الأبيض ، وأصبح يراودهم الأمل الكبير فى العودة إليها ، وبدأ يظهر خطرهم فى القيام بالقرصنة المستمرة على مراكب المسلمين ، وقطع خطوط التجارة مع دولة سلاطين المماليك ، ومهاجمة السواحل الشامية والمصرية ؛ فأصبحت هذه الجزائر ملتقى المتحاربين من الفرنج ، من جميع أنحاء أوربا .

فكانت قبرس[٤] — أو قبرص — Kupros-Kubros — Cyprus : أهم مواقعهم ، وهى تحتل ركنا متميزاً فى الزاوية الشمالية الشرقية من البحر الأبيض ؛ وتعتبر أقرب الجزائر لكل من مصر والشام[٥] ، وهى الجزيرة التى غزاها

---

(١) النجوم ، ١٧ ص ٦٦ س ٤ — ٥ .

(٢) أنظر حسن الباشا ، الألقاب ، ص ٢٣٣ ؛ وقبله .

(٣) صبح ، ٨ ص ٣٣ .

(٤) بتفصيل :

Ency. de l'Isl. (art Cypre) 1ed., t. I, p. 905-90.

(٥) أنظر . Semple :

The Geography of Mediterranean Region, p. 201.

العرب فى أيام ولاية معاوية للشام؛ فقد غزاها بنفسه، فى حملة بحرية؛ واستردتها بيزنطة — الروم — عدة مرات فى أيام الأمويين والعباسيين؛ كانت آخرها على يد نقفور فوقاس Nickephoros Phokas، من الأسرة المقدونية القوية فى بيزنطة؛ فقد استردها مع غيرها من جزائر البحر الأبيض وفى أثناء الحملة الصليبية الثالثة، استولى عليها ريتشارد قلب الأسد Richard Lion Heart، ملك انجلترا؛ من حاكمها اليونانى إسحق Isaac، الذى كان قد استقل بها وبعد استيلاء ريتشارد على عكا؛ باعها بالتوالى إلى فرسان المعبد Milita Templi (Templiers)[1]؛ الديوية الذين نشأ نظامهم الإقطاعى فى فلسطين؛ وكان زيهم أبيض، مع صليب أحمر، ثم إلى جى لوسينان Gui Lusignan (١١٢٩ — ١٩١٤ م)؛ من أسرة لوسينان الفرنسية الإقطاعية فى الشرق الإسلامى، التى توارثت لقب ملك بيت القدس، بعد سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين. ولما سقطت عكا فى يد المماليك[2]، انتقل هنرى Henri من أسرة لوسينان Lusignan إلى قبرس؛ بحيث أصبح من ألقابه لقب ملك بيت المقدس، ومن يومها كان للجزيرة طابع لاتيني؛ بعد أن كان طابعها من قبل يونانيا. ولذلك لما قام الملك الفرنسى لويس التاسع Louis IX[3]، بحملته الصليبية؛ فإنه شتى فيها، قبل أن يغزو مصر فى أواخر أيام الحكم الأيوبى؛ كما انتقل إليها فرسان كثيرون كانوا يدافعون عنها.

ومع ذلك؛ فإن معظم هجوم الصليبيين كان من هذه الجزيرة على سفن المسلمين،

---

(١) سموا هكذا؛ لإقامتهم فى معبد سليمان بالقدس؛ ويسميهم العرب الديوية. ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٣٢٥.

(٢) النجوم، ٨ ص ٦؛ وقبله.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢، ص ٢٥٦.

وعلى سواحل دولة المماليك ؛ بحيث أن السلطان الظاهر بيبرس ، بدأ يغزوها فى ٦٦٩/١٢٧٠ [١] ، فى عهد ملكها هيو الثالث Hugh III (١٢٦٧ – ١٢٨٤م) ؛ فأرسل إليها مراكبه بقيادة الرئيس مكى بن حسون ، وهو الذى رسم عليها الصلبان ، للتمويه ؛ على أساس أن الحرب خدعة ؛ إلا أن المراكب بعد وصولها إلى الميناء القبرسى ليماسول Limassol – أطلق عليه المسلمون اللمسون – هبت عليها عاصفة حطمتها ، وأسر من فيها ؛ وإن نجا بعضهم ممن فيهم رئيس الأسطول ؛ بحيث كتب بيبرس إلى ملكها ؛ يقول له : إنه كان من الممكن أن ينتصر عليه ؛ إذا كان قد قابله فى البر : « وأنتم خيولكم المراكب ، ونحن مراكبنا الخيل [٢] » . وقد اعتبر بيبرس هزيمة مراكبه فى قبرس إصابة عين ؛ لانتصاراته البرية الكثيرة السابقة ، ولا سيما فى موقعة عين جالوت على المغول ، وعلى الصليبيين فى الشام ، كما يرجع الهزيمة إلى أن من أرسلهم إلى قبرس كانوا من الفلاحين والعوام [٣] ؛ فتوجد قائمة بالأسرى ؛ لا يوجد بينهم مماليك .

ويبدو أنه لم يكن يوجد للمماليك وقتذاك أسطول دائم ؛ وإنما كان يبنى فى المناسبات فقط ؛ إلا أن بيبرس لم يتوان بعد هذه الهزيمة عن إعداد أسطول بحرى ؛ فمنع الناس من التصرف فى أعواد الخشب ، وأمر بانشاء شوانى [٣] ، وهى مراكب

---

(١) السلوك ، ١/٢ ص ٥٩٤ وملاحظة (٣) ؛ نهاية الأرب ، ٢٨ ورقات ٥٥ — ٥٦ ؛ انظر .

R.H.C. Or II, p. 240

Ency of Isl., (art Bahriyya) 2ed,

t. I, p. 94 sqq.

(٢) السلوك ، ١/٢ ص ٥٩٤ وملاحظة (٢) ؛ النهج السديد (فى P.O. ١٢ ص ٥٤٢ .

(٣) الخطط ، ط (بولاق) ٢ ص ١٩٤ ؛ انظر ، سالم والعبادى ، تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ص ٢٢٠ .

كبار فى ٦٧٠/١٢٧١، ولازم الإشراف عليها بنفسه ؛ بالركوب كل يوم لمدة أشهر إلى دار الصناعة ؛ إلى أن تم إنشاء هذا الأسطول فى عام واحد ؛ فلعبت الشوانى بين يديه ؛ فكان يوما مشهودا[١] ؛ وربما كان انشاء هذا الأسطول المملوكى ؛ بقصد الانتقام لما حدث لمراكبه ؛ وإن كان لم يفعل شيئا . إلا أن قبرص استمرت فى قرصنتها على مراكب المسلمين ، وأصبحت أحلافها مركزة على سواحلهم ، وأخذ ملكها بطرس الأول لوسينيان Petrus I Lusignan (١٣٥٠ — ١٣٦٩م)، لمدة أربع سنوات ؛ يستعد لغزوة كبرى ؛ يشنها على الإسكندرية العظمى ، أهم موانىء مصر . فرحل لزيارة البابا[٢] إربان الخامس Urban V (١٣٦٢ — ١٣٧٠ م) ، وملوك النصارى ، وطلب مساعدة أساطيل البنادقة ، وجنوة وفرسان رودس[٣] . ومع ذلك ؛ فلم يتنبه المماليك فى مصر إلى مقاصده الصليبية ؛ بحيث أن يلبغا الخاصكى ، الوصى على السلطان شعبان بن حسن (٧٦٤ — ٧٧٨ / ١٣٦٣ — ١٣٧٧) ، كان يقول : [٥]« إن القبرسى أقل وأذل من أن يأتى إلى الإسكندرية » . وقد غزا بطرس المدينة ، بأسطول كبير ، يزيد على سبعين مركبا[٣] ؛ فظهرت مراكبه ، أمامها فى يوم الأربعاء من المحرم سنة ٧٦٧ / ١٣٦٥[٦] ؛ ورست فى ناحية بحر السلسلة[٧] .

---

(١) ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٩٢ . وذلك فى يوم الأحد الثامن عشر من شهر رجب سنة ٦٥٩/١٢٦١ .

(٢) السلوك ، ٣/١ ص ٤١٣ .

(٣) يقال إنهم اشتركوا بـ ١١٥ مركبا . أنظر .
Commemoriali LVII fo 55, 71, 73, 92, 94, 108, 111, 114, 115.

(٤) السلوك ، ٣/١ ص ١٤ .

(٥) نفسه ، ٣/١ ص ٤٣٠ (الفقرة الاخيرة) .

(٦) ابن قاسم النويرى ، الإلمام ، مخطوط بدار الكتب برقم ٣٩٤٢ و ٤١٩٣ تاريخ . أنظر أيضا : وثائق أرشيف البندقية فى مقالة : توفيق اسكندر ، تاريخ مصر فى مخطوطات البندقية ، ص ١٩٨ ، وانظر كذلك وثيقة :
Semato Misti XXXI fo, III; XXXIII, fo 6, 8 ;
XXXIII, fo 77.

(٧) السلوك ، ٣/١ ص ٤١٦ . (اخر السطر) .

وفى أول الأمر ؛ ظن أهل الإسكندرية أنهم تجار من مدينة البنادقة ، الذين كانوا ينتظرونهم فى كل سنة ؛ إلا أنهم لما لم يدخلوا المدينة، بات الناس فى خوف شديد . فهاجم بطرس المدينة ، ولم تستطع الحامية الموجودة فيها أن تقاومه ؛ بسبب أن واليها الأمير ابن عرام ، كان فى الحج ؛ وحتى لما فرقعت حاميتها بمدفع فيه نار ؛ إلا أن النار انطفأت[١]. ومع ذلك؛ خرج رجال الإسكندرية لقتالهم ، منهم من معه فخ أو سيف أو خنجر أو نبل ، فظهرت بطولات ، وأخذ الرجال يستشهدون ، فأحدهم اسمه الفقيه محمد؛ قاتل بسيفه إلى أن قتل ؛ حيث كانت الإسكندرية مملوءة بالأربطة ؛ فكان الزهاد يقاتلون ويقتلون، وهم سعداء[٢]. ولكن بطرس تمكن من الوصول إلى وسط المدينة عند باب السدرة، والعطارين[٣]، ونهبوا أسواقها[٤]، وأتوا على كل ما فيها من صامت وناطق[٥]؛ يحملونه إلى مراكبهم على الإبل والخيل والحمير . ثم خرج من المدينة ، وقد حمل معه من أسراه خمسة آلاف أسير منهم المسلم والمسلمة ، واليهودى واليهودية ، والنصرانى والنصرانية[٦] . فلما سمع بوصول طلائع جيش المماليك ؛ بقيادة يلبغا الخاصكى ، عاد بدراجه إلى قبرس .

ولدينا وصف كامل لغزوته فى مخطوط من تأليف ابن القاسم النويرى الإسكندرى[٧] (ت ٧٧٥/١٣٧٣) المعاصر لها ؛ بعنوان : الإلمام بالإعلام، فيما جرت به الأحكام ، والأمور المقضية ، فى واقعة الإسكندرية . فيذكر من شناعتهم أنهم أحرقوا القياسر والخانات والحوانيت والفنادق ، ودنسوا الجوامع والمساجد

---

(١) نفسه ، ٣/١ ص ٤٢٠ س ١٩ .
(٢) نفسه ، ٣/١ ص ٤٢٢ س ٥ .
(٣) نفسه ، ٣/١ ص ٤٢٦ س ١٥ ، ٤٢٨ س ١٣ .
(٤) ابن إياس ، ١ ص ٢١٤ .
(٥) أنظر . ماشور ، قبرس ، ص٧٤ .
(٦) ابن القاسم النويرى ، الإلمام ، ١ ورقة ٣٦٦ .
(٧) مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقمى ٣٩٤٢و٤١٩٣ تاريخ .

والمزارات ، وعلقوا عليها أعلام الصلبان ، وأفسدوا النسوان والبنات ، وقتلوا كل شيخ عاجز ، وحق المجانين ، وأن همهم كان النهب . وبسبب ذلك ؛ وصف فمل بطرس فى الإسكندرية ، بأنه دخل لصاً[١] ، وخرج لصاً ؛ إذ غزوته للاسكندرية ؛ لم تأخذ طابعاً دينياً ؛ مثل الحملات الصليبية السابقة ؛ التى وجهت إلى الشرق من قبل. بل فى سنة ٧٩٦/١٣٩٣ ؛ جاءت حملة أخرى من قبرص ، بالاشتراك مع رودس ؛ فى مائة مركب ، إلى طرابلس بساحل الشام ، وأخذوا المدينة ونهبوها[٢] .

وقد كان رد الفعل كبيراً لهذه الغزوة فى مصر والعالم الإسلامى . ففى الإسكندرية هاجر معظم سكانها منها ، وحق تجار الفرنجة وقناصلهم فيها ؛ وجهوا إلى دمنهور حق لاعتقالهم العامة[٣] ؛ كما انتقم السلطان شعبان للحدث فى الإسكندرية ؛ بأن أخذ أموال من يوجد من النصارى بالقدس وغيرها ؛ وإن لم يلق ذلك تأييداً من فقهاء الدولة[٤] . أما فى العالم الإسلامى ؛ فإن غزوة الإسكندرية ، كان لها صدى بعيد ؛ حق أن بنى الأحمر من ملوك الطوائف ، فى غرناطة بالأندلس ؛ كانوا يستحثون

---

(١) ابن القاسم النويرى ، الإلمام ، ١ ورقة ٦ ؛ انظر

The Crausade in the later Middle Ages, : Atiya
p. 345-78.

La Prise d'Alexandrie, ou Chronique : Guillaume de Machaut
du roi Pierrė Ier Lusignan. Genève, 1877.

Die Katastrophe des Mittelaterlichen : Kahle
Alexandria. Mélange Maspéro, t. LXVII, III, l'Orient Islamique, 1940, pp. 137-154.

Le texte d'alnwairi sur l'attaque d'Alexandrie : Combe
par Pierre I de Lusignan. B.F.A., III, Alexandria, 1947.

(٢) ابن إياس ، ١ ص ٢٢٢ .

(٣) السلوك ، ٣/١ ص ١٢٤ س ١٥ .

(٤) ابن كثير ، البداية ، ١ ص ٢٥٩ .

جنودهم المقاتلين ضد النصارى ، وينادون بشعار : ثارات أهل الإسكندرية[١] ، كذلك آل عثمان فى آسيا الصغرى أرسلوا إلى سلطان مصر ؛ يبدون استعدادهم لإرسال حملة مشتركة لغزو قبرس[٢] .

ومن ناحية أخرى ؛ فإنه قد بدأ الاستعداد فى مصر للانتقام من القبرسيين ؛ بعد غزو الإسكندرية مباشرة . فبدأ الاهتمام بالإسكندرية ذاتها ؛ بتحويلها من ولاية إلى نيابة[٣] ؛ مما يدل على الاهتمام بها أكثر من ذى قبل ، كما أن يلبغا الخاصكى ، المسيطر على السلطان شعبان ، جمع كثيرا من الأخشاب والحديد والآلات فى جزيرة أروى بالجيزة ؛ وعهد بانشاء أسطول بحرى لشاد العمل الأمير طيبغا[٤] ؛ فعمل مائة مركب مابين شينى[٥] ، وغراب[٦] ، وطريدة[٧] . وجمع من أبناء مصر النجارة ، والنفاطة ، ومن يريد الجهاد من المتطوعة ، الذين كان منهم صمايدة ؛ وإن ذكر المقريزى أن المماليك كانوا غالبا مايبزلون فى هـــذه المراكب من رأوا إنزاله قسرا[٨] : إلا أن النزاع الداخـلى فى مصر ؛ بين قادة

---

(١) أنظر . قبله .

(٢) أنظر . Ency. de l'Isl., (art Bahriyya) 2ed, t. I p. 974.

(٣) صبح ، ٤ ص ١٤ ، ٢٤ ، ٦٤ ؛ انظر . سالم ، تخطيط مدينة الاسكندرية ، ص ٨٦ .

(٤) ابن اياس ، أنظر .

(٥) جمع شينى أو شونه أو شينيه ؛ كانت تجذف بثلاثة وأربعين ومائة مجـداف ، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، وتحتوى على مخازن « أهراء » لخزن القمح ، وصهاريج لخزن الماء العذب .

انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٩١ — ١٩٢ وهامش ؛ Dozy : Suppl. I, p. 717 ؛ عبادة ، سفن الأسطول الإسلامى ، القاهرة ١٩١٣ ، ص ٢ — ٥ وغيرها .

(٦) والأغربة ، جمع غراب ، وهى من المراكب الحربيـة الشديدة البأس ، بعضها كبار ، وبعضها صغار ؛ ولعلها سميت بهذا الاسم ؛ بسبب شكل مقدمة هيكلها ؛ على شكل رأس غراب ، وسيرها بالقلع ، أو بالمجاذيف ، التى يبلغ عددها مائة وثمانين أو أقل . وقد بلغ عددها فى عهد السلطان شعبان مائة قطعة (ابن اياس ، ٣ ص ٩٤ ؛ حتى كونت معظم قطع الأسطول ، وكان انشاؤها يأخذ حوالى سنة « أبو المحاسن ، مورد اللطافة ، ص ٨٧ ؛ أنظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٩٢ ؛ Suppl., 2, p. 204-5.

(٧) الطرائد ، جمع طريدة ، كانت تستخدم فى نقل الخيل . ماجـد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٩٣ ؛ Dozy, 2, p. 34 ؛ عبادة ، ص ٥ ، وغيرها .

(٨) السلوك ، ٣/١ ص ١٢٩ .

المماليك ، آخر إرسال هذا الأسطول؛ حيث كان يلبغا القوى يريد السلطنة لنفسه؛ وكانت دولة سلاطين المماليك البحرية فى آخر رمق .

ومع ذلك ؛ تأخر الانتقام لما فعلته قبرس بالإسكندرية إلى عهد دولة سلاطين المماليك الجراكسة ، على يد السلطان برسباى ؛ وربما بسبب زيادة نشاط قراصنتها ، حتى أنهم استولوا على مراكب كانت عليها هدايا لبرسباى ، أرسلها إلى العثمانيين بآسيا الصغرى . وقبل أن يشرع فى غزوها ؛ فإنه أغرى البندقية القوية بالحياد ؛ بأن أكد امتيازاتها فى التجارة فى مصر فى عام ١٤٢٢/٨٢٦ ؛ للدوق تومان موكنيشو Thoman Moccenigo ؛ حيث يظهر ذلك من مداولات مجلس للسناتو البندقى Senato Veneti [١].

فأرسل برسباى أولى حملاته فى عام ١٤٢٤/٨٢٧ [٢] ، وهى عبارة عن أسطول[٣] ، من أربعة مراكب ، هاجم ليماسول Limassol ، التى سميت للعرب

(١) أنظر . Diplom II, vol. IV (174).

(٢) بتفصيل : Commemoriali LVII. fo. 55, 56, 71, 73, 92, 94, 108, 111, 114, 115. ;
Senato Misti. LV fo 59; LVI. fo. 76.

وأنظر .
Ency. of Isl., (art Barsbay) 2ed., t. I, p. 1053-4;
Darrag L'Egypte sous le règne de Barsbay, thèse inédite, Paris.

؛ مصطفى زيادة ، المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة قبرس ، ترجمة الشيال . فى مجلة الجيش ، ١٩٤٦ .

(٣) وهى كلمة أصلها غير عربى ؛ لعلها يونانى « Stolos » ؛ تطلق على مجموعة السفن الحربية ، أو على السفينة الواحدة . أنظر . الشاذلى ، الأسطول فى اللغة والأدب والتاريخ ، مجلة الثريا ، السنة الثانية ، العدد ٣ ، مارس ١٩٤٠ ، ص ٣٥ .

اللمسون[١] ـ وهى تقع على البحر ؛ فأحرق فيها ثلاثة مراكب قبرسية ؛ كانت تستعد للقرصنة ، ثم نزل الجند المصريون إلى المدينة ، واستولوا على بعضها ؛ إلا أن مقاومة قلعتها ، وهى فى داخلها ؛ جعلت الحملة تعود إدراجها ، مكتفية بما أحدثته من خسائر فى المدينة ، وبالغنيمة الكبيرة منها .

عندئذ حاول ملك قبرس — جانوس الثانى[٢] Janos II ـ جينوس ـ الذى تولى بعد بطرس Petrus I ؛ الانتقام ؛ لمـا فعله المماليك فى قبرس ؛ فأرسل إلى سواحل لبنان قراصنة دخلوه عن طريق نهر الكلب ؛ إلا أن عيون المماليك كانت وراءهم ، فأعدوا لهم كميناً ، وقتلوهم[٣] .

وفى الوقت ذاته ، تجمعت فى طرابلس ، فى الشام ، مراكب للمماليك ؛ لشن حملة ثانية بقيادة جرباش ، منها : خمس قراقير[٤] ، وهى من السفن العظيمة التى تنقل المؤن للأسطول ، تستطيع أن تسير بثلاثة قلوع فى الريح العاصف ، وتسع عشرة غرابا[٥] ، وهى مراكب حربية شديدة البأس ، وست حمالات[٦] لحمل الذخيرة .

---

(١) زبدة ، ص ١٣٨ .

(٢) يقول ابن حجر : هو جينوس بن جاك بن نيرو بن أنطون بن جينوس ملكها من سنة ٨٠٠/١٣٩٧ — ١٣٩٨ . أنظر . إنباء ، ٣ ص ٣٦٦ .

(٣) زبدة ، ص ١٣٩ ؛ ابن حجر ، إنباء ، ٣ص ٣٤٦ .

(٤) أنظر . ماجـد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٩٣ وهامش؛ Dozy : Suppl., 2, p. 335. ؛ عبادة ، ص ٥ .

(٥) أنظر . قبله .

(٦) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٨٣ س ١٥ ، ٣ ص ١٩٣ س ١٣ ؛ أنظر . Dozy : Suppl., I, p. 327

وإن كانت الحملة قد تأخر تحركها ؛ فبسبب وصول رسول من قبل ملك قبرس؛ يطلب السلام . ومع ذلك ؛ فقد خرجت الحملة إلى قبرس فى رجب ٨٢٨ / مايو ١٤٢٥[١] ، وظهرت على الساحل الشرقى للجزيرة ؛ أمام فاما جوستا Famagousta — سماها العرب الماغوصة — وإن كانوا حاربوا القبارسة فى سالينس Salines — الملاحة — وهى بحيرة تجف فى الصيف ؛ قريبة من لارنكا Larnaka (Larnaca)[٢] ؛ — سماها العرب لرنقة — ثم واصلوا الزحف إلى ليماسول Limassol — اللمسون — ودمروا قلعتها فى وسطها ، فقتلوا خمسة آلاف قبرسى؛ ولم يقتل من أفراد الحملة ؛ غير ثلاثة عشر نفساً ، ورجعت الحملة ومعها ألف أسير .

ولما علم برسباى ؛ بأن جانوس ، قد أرسل إلى ملوك الفرنجة لمناصرته ؛ وقرر السير إلى سواحل مصر والشام ، أخذ البادرة وأعد حملة ثالثة[٢] ؛ لغزو قبرس ؛ شملت أنواعاً من المراكب ، عددها مائة وثمانون قطعة ؛ وهى الحملة التى سماها المؤرخ المصرى ابن حجر غزوة قبرس الكبرى[٣] . فشحنها بعدد كبير من فرسان المماليك ؛ عددهم ٢٣ ألف فارس ، وعدد كبير من المتطوعة المصريين؛ على رأسهم أميران ، أحدهما اسمه تغرى بردى للبر ، والآخر ينال للبحر . فاستولت الحملة على ليماسول Limassol — اللمسون — مع أن الفرنجة كانوا قد تحصنوا فى القلعة ، وأوقدوا قدور الزفت ، تغلى ناراً ؛ ليصبوها على المهاجمين . ولما تقهقر الملك جانوس إلى الساحل ، اشتبكوا معه فى معركة حامية[٤] ؛ بين ليماسول Limassol —

---

(١) ابن حجر ، إنباء ، ٣ ص ٣٤٨ (سنة ٨٢٨ هـ) .

(٢) زبدة ، ص ١٤٢ وما بعدها .

(٣) ابن حجر ، إنباء ، ٣ ص ٣٦٦ وما بعدها (سنة ٨٢٩ هـ) .

(٤) أنظر .. Ency. de l'Isl., (art Cypre) 1éd., t. I, p. 906

: Lane-Poole Egyp., p. 337.

اللمسون — وساليناس Salines — الملاحة — أبدى فيها القاتلة المسلمون شجاعة كبيرة ، وتنادوا بشمار[١] : ياوجوه العرب ، ويا آل جركس ، إن أبواب الجنان فتحت ، وإن متم كنتم شهداء ، بيضوا وجوهكم ، وأخلصوا « العمل لله » . فرددوا التكبير ؛ بحيث استظهروا على القبارسة ، ولما هم فرسان المماليك بقتل الملك ، صاح قائلا : « أنا الملك » ؛ فأسروه وقيدوه في مكان بين ليماسول Limassol والملاحة Salines ، اسمه شيروكيتوم Choirokoitia — Cheirocitium — وبعدها تسلقوا جبل الصليب Stavrowuno ، واستولوا على العاصمة نيقوسية Nikosia أو Leukosia (Nicosia) — سماها العرب أفقوسية أو حق الأفقسية — وهي في داخل البلاد ، في يوم الأحد من مستهل رمضان ٨٢٩/ ٧ يوليو ١٤٢٦ ؛ حيث دارت معركة حامية ، اشترك فيها صليبيون من أسبانيا ؛ وإن تمكن المماليك أن يقتلوا ما يزيد على ستة آلاف قبرسي ، ولما طلبوا الأمان أمنوهم[٢] . وقد أعلن انتصار المماليك في قبرس على منبر مدرسة السلطان برسباى[٣] ؛ وفي بقية الجوامع الأخرى في الفسطاط والقاهرة ، وضجت الناس بالتهليل والتكبير .

فكان لوصول الأسرى ، ودخولهم القاهرة يوم مشهود ؛ بحيث أصبحت القاهرة وأهلها في عيد en fête ، ولم يبق فيها أو في مصر وهي من ضواحيها أحد إلا حضر الفرجة ؛ حتى سدوا الأفق من كثرتهم . ففي يوم الاثنين ٨ شوال من سنة ٨٢٩[٤]/ ١٤ أغسطس ١٤٢٦ ، سار موكب من الأسرى ، عدده ٣٧٠٠ أسير[٥] ؛ وقد أركب الملك جانوس على بغلة مقيداً ، وأمامه أمراؤه

---

(١) إنباء ، ٣ ص ٣٦٨ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٣٦٧ (سنة ٨٢٩ هـ) .

(٣) العيني ، عقد الجمان ، ٥ ورقة ٥٧٦ .

(٤) ابن حجر ، إنباء ، ٣ ص ٣٦٩

(٥) نفسه .

ووزراؤه ، وراياته منكسة ، وحملت الغنائم على ثلاثة آلاف من البغال ، غير ما تحمله الجمال وقد وردت إلى ديوان الإنشاء المملوكى مكاتبات التهنئة من جميع ربوع العالم الإسلامى وملوكه إلى برسباى ؛ مثل مراد بك بن عثمان[١] ؛ حيث شبه الفتح القبرسى بالفتح القدسى فى أيام صلاح الدين .

وقد وضع جانوس فى القلعة ، ثم أحضر أمام السلطان برسباى ، الذى كان محاطاً برسل من دول الإسلام ، اعتبر حضورهم من المستغرب[٢] ، مثل: شريف مكة ، ورسل من آل عثمان ، ورسل ملك تونس ، ورسل أمير التركمان آق قيونلو ، وقصادمن أمراء الشام . فأجبر جانوس ، وهوعارى الرأس؛على أن يقبل الأرض أمام السلطان ، ثم تكلم باليونانية ، وترجم عنه يهودى يعرف العربية ؛ فقال[٣] : إنه لا يملك غير حياته ، التى يستطيع السلطان أن يفعل بها ما يشاء ؛ ثم أغمى عليه .

وكان لابد من محادثات كثيرة بين ملوك أوربا وبرسباى ؛ ليطلق سراح جانوس الثانى ، الذى فررت عليه فدية كبيرة بالعملة الذهبية الفلورية — وهى عملة فلورنسا ؛ من دويلات إيطاليا — قدرها مائتا ألف دينار[٤]؛يحمل منها وهوبمصر النصف ، ويرسل النصف الآخر بعد رجوعه إلى قبرس ؛ حيث يذكر الرحالة الأوربى طافور ، أن عديداً من الفرسان أرسلوا لجمعها من ملوك أوربا. كذلك التزم جانوس ؛ بدفع جزية سنوية[٥] ؛ تبلغ ثمانية آلاف دوكات "Ducat" ؛وهى

---

(١) مخطوطة ٤٤٤٠ (B.N.) ، ورقة ٤٧ ب .

(٢) ابن حجر ، إنباء ، ٣ ص ٣٧٠ .

(٣) طافور ، ترجمة حبشى ، ص ٥٧ .

(٤) ابن حجر ، إنباء ، ٣ ص ٣٧٠ ؛

أنظر . Lane-Poole. Egy., p. 332

(٥) طافور ، ص ٥٦ — ٥٧ . قيل ألزم بحمل عشرين ألف دينار كل سنة . ابن حجر ، إنباء ، ٣ص ٣٧٠ .

عملة البندقية الذهبية ، التى كان يعترف بها دولياً ؛ كما قرر عليه أن يقدم ألفى ثوب صوف ملون[١] . ويقال إن السلطان المملوكى ؛ قد عفا عنه ؛ بسبب شعر رقيق قاله ، وعربه الترجمان عنه ، منه :

يامالكا مالك الورى بحسامه ؛ أنظر إلى برحمة وتعطف .

وأرحم عزيزاً ، ذل، وامنن بالذى؛ أعطاك هذا الملك ، والنصر الوفى .

إن لم تؤمنى وترحم عبرتى ؛ فبمن ألوذ ومن سواكم لى بقى .

وقد طلب جانوس الثانى ؛ أن يكون متولياً لقبرس وما يتبعها ، نائباً عن السلطان فيها ، أو ما عبر عنه بالجزائر القبرسية[٢] . وقد بقى جانوس الثانى فى الإسكندرية ثمانية أيام ، أولها يوم الخميس ٢١ من المحرم سنة ٨٣٠هـ / ١٤٢٦ ، وسافر يوم الخميس ٢٨ منه . ويبدو أن برسباى كان يرسل مماليكه إلى جانوس الثانى كل سنة لتسلم الجزية ؛ إلا أن جانوس الثانى أرسل إلى برسباى الرحالة طافور؛ ليتوسط له ، على أنه سوف يرسل الجزية من نفسه ، وأنه لا داعى لإرسال مماليكه ؛ لأنهم كانوا يكلفون الملك تكاليف باهظة ، بسبب إقامتهم فى قبرس[٣] .

وقد استمر المصريون يحكمون قبرس فى عهد جانوس عن طريقه؛ ويتدخلون فى شئون الحكم فيها ؛ فكان من ألقاب السلطان جقمق ، خلف برسباى: صاحب الديار المصرية والجزائر القبرسية[٤] ، أما ملك قبرس ؛ فأصبح يطلق عليه فى المكاتبات الرسمية : متملك قبرس[٥] ، ولا يطلق عليه : ملك قبرس .

ولما توفى جانوس الثانى فى أغسطس ١٤٣٤ / ذى القعدة ٨٣٥) ، تولى بعده

---

(١) ابن حجر ، إنباء ، ٣ ص ٣٧٠ (٨٢٩ هـ) .
(٢) زبدة ، ص ١٤٥ .
(٣) طافور ، ترجمة ، ص ٦٩ .
(٤) زبدة ، ص ٦٧ .
(٥) صبح ، ٨ ص ٥١ (آخر فقرة) .

ولده جوان[1] John II — هذا الثانى — الذى التزم ما كان التزم به أبوه .
وقد كان السلطان الأشرف برسباى جهز إلى جوان رسولا ؛ فقابله جوان بالإكرام، وقبل الأرض أمام الكتاب ، وأجاب بالطاعة ، وأنه نائب عن السلطان فى قبرس، وجهز المال الذى تأخر على والده ، وجهز سبعمائة ثوب صوف ملونة ، وسأل السلطان أن يكون عنده نائباً له من جهته ؛ فأرسل إليه أميراً ومعه أربعون مملوكاً .

وبعد وفاة جوان الثانى فى ٨٦٣/١٤٥٨ ، تولى عرش قبرس ابن غير شرعى له ؛ وهو جاك الثانى Jacopo II — جيمس James — إلا أنه نازعته أخته شارلوت Charlotte ، الوريثة الشرعية ، وزوجها الدوق لوى دي سافوى Louis de Savoie — الذى كان حاكما لدوقية سافوى Savoie فى جبال الألب ؛ بحيث لجأ جاك الثانى إلى مصر . فاستعد السلطان المملوكى إينال لغزو قبرس من جديد ؛ لإعادة جاك إليها ، وبرفقته أسطول يتكون من ٨٤ قطعة[2] .
فوصل إلى فاما جوستا Famagousta — الماغوصة — فى ٨٦٥ / ١٤٦٠ . وقد تزوج جاك الثانى شريفة من البندقية اسمها كاترين كورنارو Catherine Cornaro ، واستخدم فى بلاطه عدداً من البنادقة ، وتوجد وثيقة فى أرشيف البندقية بحمايتها له ، بتاريخ ٨٧٤/١٤٦٩[4] ؛ فكانت البندقية تتدخل فى شئون قبرس من وقت لآخر[5] .

---

(١) ابن حجر ، إنباء ، ٣ ص ٤٨١ (٨٣٥ هـ) .
(٢) أنظر . Mas Latrie : Documents, t. II, p. 892.
؛ نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص ٢٣ .
(٣) أنظر .
Mas Latrie : Documents, t. II, p. 96 — 98; p. 104-105
(٤) أنظر . Commemoriali, Anno XV fo 125, (179)
(٥) أنظر . Ibid, Anno XV fo 147.

وبعد موت جاك الثانى فى ١٤٧٣/٨٧٨ ؛ فإن أرملته كاترين حكمت الجزيرة بإشراف البنادقة ؛ فكانت ترسل الجزية سنويا إلى مصر ، وكان البنادقة يريدون إبعاد نفوذ مصر عن قبرس؛ فلجأوا إلى الدسائس؛ بحيث لما أرسل السلطان سفارة من بعض مناهضى المملكة ؛ قام البنادقة باغتيالهم[1] . ولعل البندقية أخيراً أجبرت كاترين على ترك الجزيرة ؛ فانسحبت إلى ردوس وتوفيت بها فى ١٥٠١ (٩٠٧هـ)؛ وإن أظهروها بمظهر أنها باعت الجزيرة لهم بتاريخ ٢٦ فبراير ١٤٨٩ (٨٩٥ هـ)؛ فرفعت عليها أعلامها ؛ دون إذن من السلطان المصرى ، ولاسيما حين علمت أن ابن ملك نابلى Napoli — إحدى دويلات إيطاليا الأخرى مثل البندقية — قد وصل إلى القاهرة ؛ طالباً مساعدة السلطان قايتباى فى زواجه من ملكة قبرس الأرملة[2] ، وانشغال المماليك بحرب العثمانيين ؛ بحيث أصبحت الجزيرة فى سلطة القبطان البندقى فرانشسكو Francesco .

وفى الوقت ذاته ، أرسلت البندقيـــة سفيرها الخاص بيرو ديبـــدو Pierro Diedo — [3] Piero — يصحبـــه ممثلها فى قبرس ، وهو ماركو

---

(١) أنظر.
Archivio Veneto Serie V, nos. 9, 10, 11, 12; Anno IX
f. 129, p. 78-133.

(٢) أنظر رحلة فيلكس فابرى بالقاهرة فى ٨٨٥ — ٨٨٨/١٤٨٠ — ١٤٨٣ فى :
Thenaud : Voyage d'outre mer, p. XXXI sqq.

(٣) أنظر . Archivio Veneto Serie V, nos : 9; 10; 12;
Anno LIX, 19, 2, 9, pp. 78-133.
Senato Secreta XXXIV; fo 30, 30; XVII; fo 122, 124
Commemoriali XVI, fo, 124.

؛ توفيق اسكندر ، سفارة بيرو دييدو ، ومعاهدة تنازل مصر عن قبرس ١٤٩٠ م . القاهرة ١٩٥٦ ، ص١ ومابعدها .

Mas Latrie: Documents t. II, pp. 472-478; 481-487

؛ نعيم ، الطرق التجارية ، ص ٢٩ .

ماليبرو Marco Malipiro ، ومعه تعليمات بالشفرة وهدايا ، من دوج Doge البندقية ؛ برباديجو Parpadigo ؛ لعقد اتفاق مع السلطان المملوكى قايتباى ؛ يتنازل فيه السلطان عن جزيرة قبرس ؛ لقاء جزية سنوية ، قدرها ١٦ ألف دوكات[1] ؛ إلا أن السفير البندقى توفى بمصر ، فقام كاتب سره بورجى Borghi — Giovanni — بتجديد الاتفاق . فعقد قايتباى معه اتفاقية التنازل؛ عملت على حسب المراسيم الواجبة ؛ ووقع عليها القاضى والشهود ؛ وألحقت بها ترجمة باللغة الإيطالية الدارجة Vulgare ، وهى الاتفاقية التى توجد بنصها البندقى فى أرشيف البندقية Archivio Veneto ، محررة فى ١٧ من ربيع الآخر سنة ٨٩٥/٩ مارس ١٤٩٠[2] .

أما المماليك من ناحيتهم ؛ فإنه قد أصبح همهم ، فى آخر أيام حكمهم ، طلب امدادات من البندقية من الأسلحة وغيرها ؛ لاستخدامها فى حربهم مع العثمانيين، التى لم تكن قد بدأت بعد ؛ وذلك كما يظهر من وثائق أرشيف البندقية[3]؛ حتى أنه فى آخر أيام السلطان الغورى ، أرسل إلى البندقية الترجمان تغرى بردى ولدينا فى هذا الأرشيف مناقشات السناتو Senato البندقى ، بهذا الخصوص فى عام ١٥٠٦ م (٩١٢ هـ) ؛ كما أن البندقية أرسلت بدورها مندوباً لها هو دومنيكو تريفرانى Domenico Trevirani ، فى ٣١ ديسمبر ١٥١١م (٩١٧ هـ) ؛ لعقد اتفاق تجارى مع الغورى ، رغبا لهذا القصد ؛ بحيث رست مركبه فى ميناء أبى قير، وقدم خطاب اعتماده إلى نائب السلطان فى الإسكندرية ، ثم سافر إلى القاهرة فى

---

(١) أنظر . Comm. VI Libro XIX (141).
(٢) أنظر . Ibid, VI, Libro 16 (171).
(٣) أنظر . نص الوثائق [Senato Secrêta Reg. XLIV F 92 V].
فى كتاب نعيم ، الطرق التجارية ، ص ٨٤ وما بعدها ؛ وملحق ٨ ص ٢٩٩ وما بعدها ؛ وبعده .

موكب فخم ، ومعه هدايا للسلطان ؛ وإن كان السفير بدوره ؛ قد حكى للسلطان عداء فرنسا للبندقية ، ومحاولاتها الإستيلاء على بعض من أملاكها .

وقد ظلت البندقية تؤدى الجزية للسلطان المملوكى ، بصورة غير منتظمة أحياناً ؛ حتى سنة ١٥١٧/٩٢٣ ، ولدينا وثيقة بدفع الجزية لمصر وقدرها ٨٠٠٠ من الدوكات فى ١٤٩٠/٨٩٨ ، عن طريق بورغى Borghi (١) ، ووثيقة أخرى بالجزية فى ١٥٠٣/٩٠٩ (٢) . ولما جاء الاحتلال العثمانى لمصر ؛ فإن البندقية حولت الجزية إلى السلطان العثمانى (٣) ؛ حيث يوجد فيها رقم بالعربية ؛ مما يدل على تقارب الأرقام العربية بالأرقام الأوربية .

وفى أثناء ذلك ؛ أصبحت دوقية جنوة ، وهى من دويلات إيطاليا تنافس البندقية على السيطرة على قبرص ؛ وتمكنت من الاستيلاء عليها . وقد خلد هذه الحقبة الشاعر الإنجليزى المعروف شكسبير Shakespere ، فى قصته الخالدة أوتللو Ottelo ؛ وإن كان سلطان العثمانيين بدوره تدخل فى شئون البندقية ، واستولى العثمانيون على قبرص فى ١٥٧٢/٩٨٠ ؛ وظلت فى أيديهم إلى العصر الحديث ؛ بحيث سكنها الأتراك ؛ على الخصوص فى المنطقة الشرقية الشمالية منها .

والخلاصة أن الصليبيين لجأوا إلى جزيرة قبرص بعد انسحابهم من الشام ، وغزوا منها مدينة الإسكندرية العظمى ؛ مما جر إلى غزوة المماليك لقبرص ، وإخضاعها لهم .



---

(١) أنظر . Commem. Libro 17 (173)

(٢) أنظر . Ibid., VI; Libro XIX (14).

(٣) أنظر . Documenti Turchi con. 3, passi; 12; 16.
وخاصة عام ١٥٢٢ م .

كذلك كانت جزيرة رودس « Rhodes » الكبيرة، التي تقابل سواحل آسيا الصغرى ، واعتبرت عند الجغرافيين العرب أول بلاد أفرنجة[1]، بها موضع لرباط النصارى ، الذين كانوا خلعوا زيهم الديني ، ولبسوا الزي العسكري ، وظهر منهم التعصب الشديد ضد المسلمين، وحب سفك دمائهم ؛ فكان يأتيها النصارى من أقاصي بلادهم[2] ، وتوقف الممالك المسيحية على فرسانها الأموال الكثيرة؛ لكي يتمكنوا من شن غاراتهم على المسلمين .

فكانت تصنع فيها مراكب الغزو الكبار ، حتى عرفت بدار صناعة الفرنج[3] ، وتقوم بالقرصنة ضد مراكب المسلمين وسواحلهم ؛ وأصبح قراصنتها شديدي الأذى على المسلمين ؛ فكانوا إذا ظفروا بالمسلم أخذوا ماله وباعوه أو استخدموه ، وأحيانا إذا ظفروا بافرنجي أخذوا ماله وقتلوه أيضاً ؛ ولذلك اعتبر أهل رودس ؛ بتعبير المؤرخ القلقشندي في البحر حرامية[4] ، أي قراصنة ، فهم تعاونوا مع فرسان قبرس في القرصنة ، واشتركوا في غزو الإسكندرية معهم ، ونهبوها وقتلوا وسبوا في أهلها ؛ بشكل لم يعرف من قبل في تاريخها .

فهذه الجزيرة التي استولى المسلمون عليها من البيزنطيين — الروم — في العصر الإسلامي الأول، واستردها البيزنطيون في عصر الدولة المقدونية القوية ؛ إلا أنه لما غزا الصليبيون في الشرق، اتخذوها قاعدة هامة لعملياتهم ضد المسلمين . أما بعد سقوط عكا في أيدي دولة المماليك ؛ فإنها أصبحت وكراً لجماعة الفرسان

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ص ٣٠٠ أنظر أيضا.
Ency. de l'Isl. (art Rhodes) 1cd., t 3, p. 1225-1227

(٢) الأهواني ، سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة ، في القرن التاسع الهجري ٨٤٤ م) ، مجلة كلية الآداب ، المجلد ١٦ ، ١ مايو ١٩٥٤ ، ص ٩٨ .

(٣) السلوك ، ٣/١ ص ٤١٣ س ١٠ . كانت تسمى دار صناعة الروم أيضا . الروم معجم البلدان ، ٤ ص ٣٠٠

(٤) صبح ، ٤ ، ص ٥٠ .

الاسبتارية [1] Hospitaliers ، وهى فى الأصـــل جماعة دينية نشأت فى الشرق ؛ وإن أصبحت فى رودس تعرف باسم فرسان القـديس يوحنا Saint Jean de Jerusalem (Johanites) ؛ الذين كانوا يتزيون بالسواد مع صليب أبيض ؛ حيث استولوا عليها من الملك البيزنطى اندريتـكوس الثانى باليولو جوس Andronicos II Paleologos (١٢٥٨ — ١٣٣٢ م) .

وقد كان برقوق ، من سلاطين المماليك البرجية ، هادنهم فى ٨٠٦/١٤٠٣ [2] ؛ ويبدو أن الهدنة معهم استمرت إلى عهد برسباى ؛ إلا أنه بعد غزو برسباى لقبرس ، وإخضاعها له ، خافوا من أن يؤخذوا بدورهم ؛ فزادوا من أعمال القرصنة ؛ كما أنهم أيدوا شارلوت Charlotte ؛ ضد أخيها جاك الثانى [2] Jacopo II — جيمس الثانى — الذى أيده المماليك .

ويذكر رسول غرناطى جاء إلى القاهرة ؛ بأن جقمق سلطان مصر ؛ جهز فى دمياط أسطولا مكوناً من ست عشرة قطعة من الأغربة [3] الـكبار ، والأجفان [4] الصغار فى سنة ٨٤٤/١٤٤٠ [5] ، بقيادة تنرى برمش ويونس المحمودى ، وعدد

---

(١) عنهم . Delaville :
Cartulaire générale des Hospitaliers 1110-1310, Paris, 1894
Les Hospitaliers àl Rhodes, Paris, 1913 : Baron de Delabre;
Rhodes of the Knights, Oxford, 1909. : King

(٢) النجوم (ط Popper) ٦ ص ١٠١ ؛ أنظر . نعيم ، طارق التجارة ، ص ٥١ .

(٣) أنظر . قبله ؛ وطرخان ، دولة المماليك الجراكسة ، ص ١٠٧ .

(٤) الأجفان ، أو أجفان المراكب ، جمع جفن ، وهى توصف بأنها مراكب صغار ، وتشحن بالرجال والميرة . سفارة ، ص ٩٩ ؛
أنظر ؛ Dozy : Suppl., I, 201 ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٩٣ .

(٥) سفارة ، ص ٩٥ وما بعدها ؛ انظر . مختار العبادى ، البحرية ، ص ٣٢٧ وما بعدها .
Ency. de l'Isl. (art Gakmak) 2ed., t. I, p. 846.

كبير من المتطوعة المصريين ، وبقليل من فرسان المماليك؛ حيث رست في طريقها إلى رودس ، في قبرس التي كان يحكمها نائب السلطان هذا الثاني جون ؛ للتزود فيها بالمؤن . ولكن صاحب رودس عمر لها أربعة عشر جفناً؛ من أهل البلد وسحقها؛ ومع ذلك ؛ فقد أشار هذا الرسول، الذي شاهد بنفسه المعركة البحرية إلى مركبين إسلاميين؛ أظهرا إقداماً فائقاً ، وأذاقا المشركين — في رأيه — الموت الأحمر .

ومع ذلك ، فقد غزاها جقمق ثانية بأسطول جديد ، بقيادة إينال العلائى ، خرج من دمياط فى ١٤٤٣/٨٤٧ ؛ فهاجم فى طريقه بعض الجزر المحيطة برودس، ثم غزاها ثالثة من طرابلس بالشام فى ١٤٤٤/٨٤٨[1] ، بقيادة إينال ومعه تمرباى؛ فاتجهت الحملة مباشرة إلى رودس تحمل ١٨ ألف متطوع ، وربما انضم البنادقة إلى المماليك فى غزوها ، لصالحهم الخاصة مع المماليك؛ حتى أنهم كانوا يبيعون لهم من يأسرونه من الفرنجة[2] . فحاصر المماليك مدينة رودس ذاتها أربعين يوماً؛ وأثاروا الرعب فى جميع الأماكن المحيطة بها . ولكن فرسان رودس تمكنوا من كسر الحصار؛ بسبب حصانة المدينة ؛ مما اضطر المماليك إلى الانسحاب، وعلى العكس ، هاجم فرسان رودس الاسكندرية ودمياط والشام[3] للانتقام .

ولعل فرسان رودس ، قد أجبروا فى آخر أيام المماليك على مهادنتهم ؛ عن طريق وساطة أحد التجار الفرنسيين ، وهو الأمير جاك كير Jacques Coeur ، الذى كان يتعامل تجارياً مع المماليك ؛ وبسبب أن هؤلاء كانوا قد دخلوا فى صراع مرير مع العثمانيين ، الذين أصبحوا يهددون الجزيرة أكثر من المماليك ؛ بحكم أن رودس قريبة من موطنهم فى آسيا الصغرى ، وكانوا يقدمون لهم

---

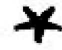
(١) أنظر . Ency. of Isl. (art Rhodes) cf.

(٢) ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور ، ٣ ص ٤٨٨ .

(٣) السخاوى ، التبر ، نشر أحمد زكى ، ص ٣٢٣ ، ٣٥٠ .

أسلحة متطورة لاستخدامها ضد العثمانيين ؛ وإن كان هؤلاء بدورهم استولوا عليها فى عهـد السلطان سليمان الفاتح فى ٩٢٩ / ١٥٢٢ ، مثلما استولوا على قبرس .

وبذلك تمـكن المماليك من إسكات صوت الصليبيين فى جميع مواقعهم، وإنهاء مرحلة كانت تعتبر من أخطر مراحـــل التهديد للمسلمين ؛ استمرت قروناً ؛ وظن أنه لا يمـكن التخلص منهم ، بعد أن استقرت دولتهم فى المدن الإسلامية فى الشرق الأوسط .



كذلك كان للمماليك اهتمام كبير بالقارة الأفريقية ، وخاصة بالإقليم السافانى ، الواقع شمال خط الاستواء ، الذى عرف بالاسم الشامل السودان(١)، أو بلاد السودان؛ ليعنى فى عرف الجغرافيين العرب البلاد الواسعة ، التى يسكنها السود « أساود » ، الواقعة فى جنوب الصحراء الـكبرى ، الممتدة من جنوب مصر ، إلى خط وسط الارض — الاستواء — ومن البحر الأحمر ، حتى المحيط الأطلسى ، ويشقها نهر النيل ، الذى أصبح اسماً لـكل نهر فى أفريقيا ؛ إذ لم يكن يتصور وجود غيره، وأن روافده تمتـد إلى كل ناحية فيها ؛ حتى أن الرحالة ابن بطوطة ، سمى النيجر نيل مصر(٢) .

وقد ظهرت تسمية السودان لأول مرة فى لقب خليفة مصر الفاطمى ، الذى عرف بصاحب السودان(٣)، مثلما كان يعرف بخليفة مصر ؛ وذلك لـكثرة عناصر

---

(١) بتفصيل ، أنظر .
Ency. de l'Isl. (art Sudân) 1éd., t, 4, p. 518 sqq.
(٢) أنظر . رحلة
(٣) على الأخص المصادر الصليبية ؛ أنظر .
وقد بقيت حتى وقت المماليك ، أنظر .

السود فى جيشه ، الذين كانوا يعرفون بعبيد الشرى أو الشراء[١] ؛ مما يدل على أن تسمية السودان ؛ ليس لها مدلول جغرافى فقط ، وإنما بالأولى مدلول ترابط أيضاً . ففى واقع الأمر ، فإنه يرجع إلى المماليك الفضل فى الربط بين مصر وأفريقيا ؛ مثلما كان الحال فى الأزمنة القديمة ؛ مع أنه قبل المماليك ، لم يظهر السودان فى سياسة حكام مصر إلا قليلا ؛ على أنه جزء منفصل عن مصر .

فقد لوحظ أن مصر قد ارتبطت بجنوب الوادى طوال العصر الإسلامى ؛ بما فيه العصر المملوكى ؛ بالاتفاقية المسماة : « بقط[٢] » ، التى عقدها عبد الله ابن سعد بن أبى سرح ، عامل عثمان بن عفان فى مصر ، مع قليدوروث ملك النوبة فى دمقله أو دمقلا أو دنقله[٣] ، فى عام ٣١/٦٥١ ، التى كانت على مايظهر عاصمة لمملكتين معا ، فى مملكة واحدة باسم مملكة النوبة ، وهما : النوباط والمقرة ، وذلك كما يظهر من لقب[٤] قليدوروث نفسه ؛ ممتدة إلى حدود علوة[٥] فى أسفلها ، التى تمتد حدودها هى الأخرى إلى الحبشة ، وعاصمتها « سوبا » على النيل الأزرق ؛ وإن كان لايعرف لهذه الممالك أو لغيرها فى جنوب الوادى حدود محددة على

= Schefer : La relation de l'ambassade de Domenico Trevison auprès du Soudan d'Egypte en 1512. Paris, 1884.

(١) سفر نامه ، ص ٥٣ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٣٧ — ٢٣٨ ؛ ابن عبد الحكم ، مصر ، ص ١٨٨ ؛ الخطط ، ١ ص ٣٢٢ وما بعدها ؛ حميد الله ، مجموعة الوثائق ، ص ٢٧٨ — ٢٧٩ ؛ انظر . Ency. of Isl. (art Bakt) 2ed., t. I, p. 966.

أصل التسمية « بقط » غير واضح ، وإما من العربية بمعنى البقل والعشب . الخطط ، ١ ص ٣٢٢ . أو من اللاتينية Pactum ، أى اتفاق : أنظر . Trimingham, p. 62 (1). أو من الكلمة المصرية « باك » بمعنى عبد . بتفصيل : ماجد ، الدولة العربية ، ط ٧ ، ١ ص ٢٣٠ .

(٣) مدينة كبيرة على شاطىء النيل : معجم البلدان ، ٤ ص ٨٢ ، ٨ ص ٣٢٣

(٤) الخطط ، ١ ص ٣٠٩ ؛ أنظر .

(٥) نفسه ، ١ ص ٣٢٣ س ١٥ وما بعدها

امتداد التاريخ ؛ منذ أقدم العصور ؛ ومع ذلك؛ فإن هذه الممالك كانت تختلف فى لهجاتها بعضها عن بعض ؛ وإن كانت الاتفاقية « بقط » ذاتها لم تشمل علاوة ، وعلى العكس ؛ فإن هذه الاتفاقية شملت فى عهد المأمون العباسى البجة أو البجاة أيضا[١] ، وهى عناصر زنجية بدوية سكنت الصحراء الشرقية ، بين النيل والبحر الأحمر ، من أسوان حتى الحبشة . فجملت هذه الاتفاقية أهل النوبة مصالحين[٢] ، وهو ما عرفه الفقهاء أيضاً : باسم أهل العهد[٣] ؛ وبلادهم باسم : « دار صلح أو العهد » ؛ مما يبين أن العرب؛ لم يكن فى نيتهم ضم بلاد النوبة ، وأنهم وافقوا على قيامها على حدودهم . كذلك « البقط » ، اشتمل على علاقات اقتصادية أيضاً ؛ منها أن تحمل النوبة إلى مصر عدداً من الأرقاء[٤] ؛ إذ كان الرقيق من وسائل التعامل التجارى وقتذاك ، وأن مصر تحمل القمح والشعير والقماش إلى النوبة ، أو دخول التجار المسلمين إلى بلادهم[٥] ؛ فكانت هذه الناحية الاقتصادية فى الاتفاقية ؛ تعدل من وقت لآخر ؛ أميزها زيادة عدد الأرقاء الموسلين من النوبة إلى مصر .

وقد أتاحت إتفاقية البقط منذ قيامها ؛ ازدياد نفوذ الكنيسة المصرية فى النوبة ؛ على أساس أن المسيحية انتشرت فيها ، مثلما انتشرت فى مصر؛ وكان أهل

---

(١) نفسه ، ١ ص٣١٦؛ انظر.
Ency. de l'Isl. (art Bedja) 1ed., t. I, p. 705.

(٢) الخطط ، ١ ص ٣٢٤ س ٢٦

(٣) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٢٣ ؛ انظر. Les, : Cheïra
Statuts des pays des 'Ahd aux 7ème et 8ème siècles. Ann. of the fac of Arts. Ibrahim Univ. vol. I, 1951, 43 sqq.
Shorter Encyclopaedia of Islam. New York, (art al-Sulh) p. 69 sqq.

(٤) عدد ٣٦٠ رأساً.

(٥) الخطط ، ١ ص ٣١٦ س ٢٤ .

النوبة قبل ذلك مثل المصريين يعبـــدون الآلهــة المصرية . فانتشرت العقيدة الأرثوذكسية المصرية ، أو اليعقوبية بدلا من الملـكانية — الملـكية — البيزنطية أكثر من ذى قبل ؛ بحيث أن رجال الدين المسيحيين فيها ؛ أصبحوا يعينون من قبل البطريرك المصرى ، ولم يكن تصح ولاية أى ملك للنوبة إلا بموافقة بطريرك الإسكندرية فى رأى القلقشندى[١] ؛ حتى أعتبر بطاركة مصر ملوك النصرانية فى أفريقيا ؛ بل أطلقت يد الـكنيسة المصرية فى جنوب النوبة ؛ بحيث امتد نفوذها إلى علوة[٢] ، التى قيل إنه كان فيها وحدها اربعمائة كنيسة[٣] .

وعلى الرغم من انتشار الإسلام على نطاق واسع فى مصر؛ إلا أنه لم ينتشر فى جنوب الوادى ، إلا رويداً رويداً ؛ وذلك على نطاق ضيق ، وكان قد نص فى الإتفاقية — « البقط » — على الإبقاء على جامع دنقلة ، الذى أقامه عبد الله بن أبى سرح . وعلى العكس ؛ لما استقرت قبائل عربية مثل جهينة ثم ربيعة مع البجة ؛ فإن هذه قد تحولت إلى الإسلام منذ عهد مبكر ؛ لأنها لم تـكن مسيحية فى أغلبها؛ وإنما وثنية تعبد الأصنام . فأسلم منهم الحدارب والزنافجة[٤] ، منذ أيام المأمون، ومن سلالتهم فى أيامنا البشارية والعبابدة والهدندوة وبنو عامر فى مصر .

كذلك كان الـكنوز أو بنو كنز أو أولاد الـكنز؛ ولعلهم من قبيلة ربيعة؛ السبب فى نشر الإسلام فى النوبة ، فى أيام الفاطميين ؛ حتى أصبحت النوبة تسمى باسمهم بلاد

---

(١) صبح ، ٥ ص ٣٠٨ .

(٢) أنظر . شقير ، جغرافية وتاريخ السودان ، ٢ ص ٣٦٤ .

(٣) أبو صالح الأرمنى، الـكنائس، ص ١٢٠ .

(٤) أنظر . Ency. de l'Isl. (art Bedja) 1ed., t. I, p. 705; 2éd. t. I, p. 1157-1158.

الكنوز[١] . ولعل الكنوز أسرة ، أصلها من المصريين الصعايدة[٢] ، صاهرت ملوك النوبة[٣] ؛ فكان أميرها يلقب بكنز الدولة ، منذ أيام الفاطميين ؛ حيث بقوا فى النوبة إلى وقت المماليك كذلك فى عهد الأيوبيين ، وصلت جنود جيوشهم[٤] إلى أراض فيها لم يصلها المسلمون من قبل ، ولكنها محاولات مالبثت أن توقفت بسبب العدوان الصليبي ؛ فلم يستكمل غزوها[٥] إلى أن تولى السلطنة المماليك ؛ مما أوقف نشر الإسلام فيها .

إلا أنه فى وقت المماليك ، وضعت أسس جديدة لربط جنوب الوادى بمصر ؛ فتوالت من جانبهم الخطوات واحدة بعد واحدة ؛ مما جعل نفوذ المماليك يمتد عميقا فى النوبة . ولعل بيبرس ، هو أول من سعى إلى ذلك ؛ حينما وجه والى قوص علاء الدين لمهاجمة سواكن [٦] ، عاصمة البجة أو البجاة[٧] . التى تقع على شاطىء بحر القلزم ، وتسيطر على حوض النيل الأوسط ؛ وذلك بسبب أن صاحبها ، أو ما كان يطلق عليه سلطان البجاة[٨] ، واسمه علم الدين ؛ يتعرض للتجار

---

(١) ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٣.

(٢) العبر ، ٥ ص ٢٨٨ ؛ انظر . عطية ، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٦٨ . . قال ابن شداد : إن الكنز إنسان مقدم من المصريين . أنظر . النوادر السلطانية ، ط . بولاق ١٢٨٧ هـ ، ص ٥٣٧ . وأيضا : النجوم ، ٦ ص ٥٤ ؛ أبوشامة ، الروضتين ، القاهرة ١٢٨٨ هـ ، ١ ص ٢٣٥ .

(٣) السلوك ، ٣/١ ص ١٠٩ س ٤ (سنة ٧٦٧ هـ).

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢ ص ٩٨ — ١٠٠ .

(٥) أنظر . خضر بن أبى بكر ، المناقب المعزية ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٤٧٥ الخزانة التركية — خ ؛ ألف للسلطان عز الدين أيبك ، أول سلاطين المماليك بمصر ؛ يظهر فيه أن الدولة الأيوبية لم تستكمل فتح النوبة أو نشر الإسلام .

(٦) صبح ، ٥ ص ٢٤٧ .

(٧) نفسه .

(٨) ابن جبير ، رحلة ، ص ٤٨ .

المصريين فهاجمه علاء الدين براً وبحراً من ناحية ميناء عيذاب[١]، التي أصبحت أهم موانىء مصر على البحر الأحمر، وهزم علم الدين ، ولما حاول العودة رد على أعقابه؛ بحيث عرف فتحها لأهميته ، بفتوح سواكن[٢] في ٦٦٤/١٢٦٥ .

ثم جاءت ظروف أخرى هيأت لبيبرس مهاجمة النوبة ذاتها ؛ حينما امتنع داوود ملك النوبة عن دفع البقط ، الذي كان يعني تسليم الأرقاء النوبيين ، وهاجم ثغر أسوان في أقاصي الصعيد ، ولعله كان مدفوعاً بروح صليبية ؛ حيث كان بيبرس يهاجم الصليبيين والأرمن في الشام وفي بلاد الجزيرة . ولعل الذي شجع بيبرس على اتخاذ موقف خاص من ملك النوبة ، أنه وصل إلى مصر شكندة متظلما من عمه ، الذي تولى الملك من دونه ؛ فأرسل بيبرس حملة إلى النوبة في ٦٧٤/١٢٧٥[٣] ؛ هزمت داوود وعزلته ، وولت شكندة مكانه ، واشترط على هذا الأخير ؛ أن يسلم بعض القلاع القريبة من أسوان، ووصل المصريون إلى الجندل الرابع ، وأن تكون النوبة الشمالية جزءا من أرض السلطان ، وعين بيبرس نائباً له في دمقلة ، عاصمة النوباط ومقرة ، كذلك تأكد البقط ؛ ولدينا نص الاتفاقية المعدلة[٤]، وتغيره لصالح مصر ؛ فتقررت فيه بعض الواجبات الجديدة ، وأن يدفع كل بالغ نوبي مسيحي ديناراً، كما ترسل النوبة إلى مصر كل سنة : ثلاثة من الفيلة ، وثلاثا من الزرافات، ومن إناث الفهود خمسا ، ومن الجياد مائة ، ومن الأبقار أربعمائة .

كذلك قلاوون — بعد بيبرس — أرسل حملتين متتاليتين في عامي ٦٨٦ /

---

(١) بتفصيل: دراج، عيذاب ، ص٥٧ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢٤٨ .

(٣) نفسه ، ص ٤١٦ ؛ صبح ، ٥ ص ٢٧٦ — ٢٧٧ ؛ الخطط ، ١ ص ٣٢٦ ؛ السلوك ، ١/٢ ص ٦٢١ — ٦٢٢ ؛ ابن حبيب ، درة ، ١ ورقة ٨١ ب ؛ نهاية الأرب، ٢٨ ورقة ٢٥٩ ب .

(٤) النويري ، نهاية ، ٢٨ ورقات ٢٥٩ — ٢٦٠ ، ابن الفرات ، تحقيق قسطنطين بيروت ١٩٣٨ ، ٧ ص ٤٧ — ٤٨ ؛ النهج السديد ، ط . Paris ص ٢٣٤ — ٢٣٩ .

١٢٨٧ و ٦٨٩ / ١٢٩٠[1] ؛ بسبب أن سلامون خلف شكندة ، كان قد رفض هو الآخر دفع البقط المتفق عليه ، وتمدى على آدر وهو ملك مجاور له ، كان قد تقرب من قلاوون ؛ مما أدى إلى إضعاف مملكة النوبة من جديد ؛ بحيث جعلت سلامون يطلب عطف قلاوون ، فعدل من جديد فى اتفاقية البقط . فنص على أن تكون دمقلة مناصفة بين المماليك وملوك هذه البلاد ، وعرف ملك النوبة باسم صاحب مدينة دمقلة ، واعتبر من رعايا سلطان مصر[2] ، وأن يخطب للسلطان والخليفة ببلاده ؛ مما يدل على أن الإسلام قد أخذ ينتشر فى النوبة ، كما نص على أن يتربى أمراء النوبة فى بلاط المماليك[3] ؛ مثلما كان يفعل فى أيام الفراعنة .

وقد أصبح ملك النوبة يأتى إلى مصر فى كل سنة إلى القاهرة ، وينزل دار الضيافة فيها ، وكان أحيانا ، يزيد من نفسه ، فى الأتاوة المنصوص عليها فى البقط ؛ بحيث أنه فى أيام السلطان الناصر محمد فى عام ٧١٢/١٣١٢ جاء ملك النوبة كرمبيز أو كرنبس ، ومعه ألف رأس من الرقيق ، وخمسمائة جمل ، وخمسمائة بقرة[4] ، كما طلب فى عام ٧١٦/١٣١٧[5] ، جيشاً من مصر ؛ لكى يحارب به منافساً له ؛ فجهزه الناصر بعسكر ، وخرجت الحملة المصرية ، من عيذاب إلى سواكن ، ووصلت إلى علوة — عند كسلا حالياً — فى ستة أو ثمانية أشهر ، وأسرت منافسه ؛ إلا أن كرنبس لما تأخر فى دفع البقط ، أرسل إليه الناصر جيشاً حاربه وأسره ، وولى مكانه عبد الله بن سبنو[6] ؛ الذى كان تربى فى بلاط مصر ، واعتنق الإسلام

---

(١) ابن حبيب ، درة ، ١ ورقة ١٥٧ ب ؛ النويرى ، نهاية ، ٢٩ ورقات ٢٧٢ — ٢٧٣ ؛ السلوك ، ١/٣ ص ٧٣٦ — ٧٣٧ ، ٧٥٣ .

(٢) المصطلح الشريف ، ص ٢٩ ؛ صبح ، ٨ ص ٦ .

(٣) ابن إياس ، ١ ص ١٤٧ .

(٤) نفسه ، ١ ص ١٥٧ ؛ النهج السديد ، ورقات ٢٣٦ — ٢٣٨ .

(٥) العبر ، ٥ ص ٤٢٩ ؛ النويرى ، نهاية ، ٣٠ ورقات ٩٦ — ٩٨ .

(٦) النويرى ، نهاية ، ٣٠ ورقة ٩٥ .

وهو ابن أخت كرنبس، وتلقب بسيف الدين ؛ وهو الذى حول كنيسة دمقلة إلى جامع ، وتوجد لوحة إلى الآن تحمل اسمه .

وبسبب هذا التدخل المملوكى المستمر فى النوبة ، وخضوعها تدريجياً للحكم المصرى ؛ أصبح لصاحب دنقله بروتوكول خاص به فى المكاتبات الرسمية ، يعكس دبلوماسية مصرية مرنة ، تبين أن النوبة قد أصبحت وكأنها جزء من دولة سلاطين المماليك؛ فإذا كان مسلما ، كتب له[1] : الجليل ، الكبير ، الغازى ، المجاهد ، المؤيد؛ الأوحد ، العضد ، مجد الإسلام ، زين الأنام ، فخر المجاهدين ، عمدة الملوك والسلاطين ؛ أما إذا لم يكن مسلماً ، فإن له مكاتبة أخرى[2] هى : النائب ، الجليل ، المبجل ، الموقر ، الأسد ، الباسل ، فلان ، مجد الملكة المسيحية ، كبير الطائفة الصليبية ، غرس الملوك والسلاطين . وبسبب امتداد ملك مصر فى النوبة ؛ أنشأ سلطان مصر ديواناً[3] خاصا للنوبة ، لمراجعة جمع الجزية والخراج .

ولا شك أن التدخل المملوكى فى النوبة ؛ قد أتاح لقبائل عربية كثيرة فى الصعيد، وعلى حدود النوبة ، أن تدخلها بدون عائق ؛ ولاسيما أن العرب فى أيام المماليك؛ كان قد كثر عددهم فى مصر ، وأصبحوا يمثلون معظم شجرة النسب العربى[4] ، فى الوجهين البحرى والقبلى ، ولهم حب فى الترحال[5] ، جعل بعضهم يصل فى ترحاله غرباً إلى القيروان ، وبعضهم فى الجنوب يغزون فى السودان ، فزحفت القبائل العربية فى مصر إلى كل مكان جنوباً ؛ فوصلت إلى علوة فى جنوب النوبة واسقطتها ، ولا سيما حينما اتجهت إليها قبيلة من عرب جهينة ، عرفت

---

(١) صبح ، ٨ ص ٦

(٢) نفسه ، ٨ ص ٤٢ .

(٣) مسالك الأمصار ، ص ١٢٦ .

(٤) صبح ، ٤ ص ٦٧ — ٧٢.

(٥) الخطط ، بولاق ، ١ ص ٣٠٩ .

بالعبدلاب(١) ، نسبة إلى عبد الله ، فقضت على هذه المملكة المسيحية ، وأقامت لنفسها مشيخة عربية فيها . ومن علوة ، اتجهت شرقا قبائل عربية أخرى من جذام إلى زغاوة أو أهل دارفور ؛ حيث كانت من قبائلها قبيلة تاجرة(٢) ، فسيطرت عليها .

كذلك اتجهت غارات عربية أخرى إلى مجالات أمم السودان في أعماق القارة ؛ دون الانتشار فيها ، لوجود الغابات التي تمنع انتشار البدو ، ولوجود موجات من الزنوج الوثنيين عرفت باسم الفونج ، وبلادهم باسم بلاد الزنج أو سفالة(٣) ؛ فانتشرت إلى السكانم(٤) ، وهي بلاد منخفضة على بحيرة تشاد ، متصلة بفزان ؛ ولها حدود شمالية ، مشتركة مع مصر ، وعاصمتها نجيمي أو جيمي(٥) — لعلها جامينا الحالية — سكنها شعب البلالة ؛ إلا أنه وجد فيها عرب كثيرون ؛ بسبب هجرات عربية قديمة من أهل اليمن(٦) ؛ حيث كان ملكها من نسل بيت يمني قديم ، هو بيت سيف بن ذي يزن ، من بني حمير ؛ ولذلك كان تحولها إلى الإسلام منذ حركة الفتوحات الأولى ؛ بل كان فرار بقايا الأمويين إليها ، أن جعل المسلمين في السكانم يعتبرون انتقال الخلافة كان إليهم ، وكانت للسكانم مدرسة مالكية في القاهرة ، منذ عام ٦٤٠ / ١٢٤٢(٧) ؛ مما يدل على ارتباط السكانم المباشر بمصر . كذلك وصلت غارات قبائل العرب ، حتى البرنو أو

---

(١) أنظر ، بتفصيل ؛ محمد أمين ، العبدلاب وسقوط مملكة علوة ، مجلة الدراسات الأفريقية ، ٢ ؛ ١٩٧٣ ، ص ١٩١ ومابعدها .

(٢) أنظر ، ماجد واليتا ، الأطلس التاريخي ، خريطة ١١٣ .

(٣) نفسه .

(٤) معجم البلدان ، ٧ ص ٢١٠ ؛ صبح ، ٥ ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٥) صبح ، ٨ ص ٨ ؛ انظر ، حسين مؤنس ، فزان ودورها في انتشار الإسلام في أفريقية ، مجلة كلية الآداب ، العدد ٣ ، ١٩٦٩ ص ٦٩ وما بعدها .

(٦) المصطلح الشريف ، ص ٢٩ .

(٧) الخطط ، ١ ص ٣١٢ — ٣١٣ .

برنو[١] في جنوبها ، التي تقع على نهر كوكو ، وعاصمتها كاكا ، وكانت جزءاً من إمبراطورية الكانم ؛ حتى أن ابن خلدون يذكر من ألقاب ملك الكانم أنه سيد البرنو أيضا . ولكن هذه الأخيرة تحولت إلى مملكة ؛ أصبحت الكانم ولاية فيها ، وامتدت غربا إلى الحوصا[٢] أو الهوصا — شمال نيجريا حاليـــا — وحتى بلاد التكرور ، وجنوبا إلى بلاد صوصو[٣] ؛ وبلاد الهمج .

وقد اشتكى ملك البرنو في أيام برقوق في ٧٩٤ / ١٣٩٤[٤] — وأمله هو الآخر من نسل بني الحسن ، من أعراب جاءوا من السودان الجنوبي — وهي وثيقة أورد نصها القلقشندي — ولاسيما من عرب جذام[٥] ؛ الذين كانوا يمارسون تجارة الرقيق ؛ فكانوا يتخطفونهم . وعلى العكس ، لدينا وثيقة أخرى[٦] ، هي رسالة شكر ، يشكر فيها ملك البرنو برقوقا ، على مابذله فقهاء مصر وعلماؤها ، الذين كانوا يدرسون القرآن والعلوم الدينية في البرنو .

وفي أول الأمر — كما يظهر من مكاتبات ديوان الانشاء المملوكي في القاهرة — كان يوجد تمييز بين العرب وأهل جنوب الوادي ؛ فكان يمين من العرب وحدهم أمراء ومشايخ ، ولهم مكاتبات خاصة ؛ إلا أنه بطبيعة الحال ؛ بسبب هجرة العرب ، وجد اختلاط بين العرب والسود ، وظهر جيـــل من المولدين . وفي الواقع أنه منذ أواخر العصر الفرعوني ، فإن التكوين الجنسي لجنوب الوادي كان قد تغير ،

---

(١) صبح ، ٥ ص ٢٧٩ . بتفصيل :
Ency. of Isl. (art Bornu) 2ed., t. I, p. 125 sqq.
؛ ماجد والبناء ، أطلس الإسلام التاريخي ، خريطة رقم ٩٣ .

(٢) مخطوط ٤٤٣٩ ورقة ٢٧٤ أ وما بعدها ؛ انظر . حسن محمود ، الإسلام والثقافة العربية في أفريقية ، ص ٥٨ .

(٣) صبح ، ٥ ص ٢٨٣ .

(٤) نفسه ، ٨ ص ١١٦ — ١١٨ .

(٥) هم أول من سكن مصر من العرب ؛ جاءوا في الفتح مع عمرو بن العاص ، عنهم ، انظر . القلقشندي ، نهاية الأرب ، ط ٢ ، ص ٢٠٥ :

(٦) صبح ، ٨ ص ٦ .

بسبب زحف موجات زنجية من وسط القارة ، شيئاً فشيئاً ، حتى وصلت إلى حدود مصر ، وهى التى عرفت باسم البرابرة أو النوبة[١] ، وإن عرفوا للعرب بالاسم: الأساود[٢]؛ إلا أن الزحف العربى فى جنوب الوادى فى عهد المماليك قد غير من التكوين الجنسى لسكان السودان ، تغييراً جذرياً ، مثلما حدث بالنسبة للمغرب؛ حينما أنطلق إليها من مصر أيضاً عرب الصعيد ، وغيروا من جنس أهل المغرب؛ بحيث أصبح يتكون من عرب وبربر ومولدين .

وقد ترتب على هجرة القبائل العربية فى جنوب الوادى؛ انتشار الإسلام؛ حيث كانت حياة غالبية الناس فيها بدائية ، منذ أن تركه المصريون فى أيام الفراعنة ؛ يحكمهم رؤساء جاهلون، ولذلك لم يلق الإسلام رمز الحضارة أى عائق لانتشاره . يضاف إلى ذلك ، أن المسيحية فى النوبة أو فى مقرة أو حتى فى علوة ؛ كانت تقتصر على الملوك ورجال الدين ؛ لأن الإنجيل كان مكتوباً بالقبطية ؛ وهى لغة أصبحت بعد مجيء موجات النوبة أو البرابرة غير معروفة ؛ إلا لعدد قليل . ثم إن اللغة القبطية ذاتها ، منذ تحولت غالبية المصريين إلى الإسلام ، قد وقف تطورها ، وأن الأنجيل فى مصر أصبح يقرأ بالعربية . ومع ذلك ؛ فقد اتخذ الإسلام فى جنوب الوادى ؛ صفة خاصة ، تتفق مع التقاليد الأفريقية ؛ فى تقديس الآباء والأجداد ، يتجلى ذلك فى حب أهل السودان للأولياء الصالحين . وقد ترتب على إسلام السودان أن افتقلت إليه بالضرورة اللغة العربية ، التى لازمت الإسلام ومع ذلك ؛ فإن بعض سكان جنوب الوادى؛ الذين تحفظوا فى اختلاطهم بالعرب ، ولا سيما فى شمال السودان الحالى ، لا تزال محتفظة بلغتها النوبية ، وهى لسان أفريقى لا يكتب ، ويعتمد على العربية فى الكتابة بحكم إسلامها ؛ بحيث تستعمل فى كل شيء وبذلك عاد تيار الحضارة يصل إلى السودان من مراكز فى مصر ؛ ولا سيما من الأزهر الشريف ، الذى كان قد أعيد إفتتاحه فى أيام المماليك ؛ بعد أن كان قد أغلق فى أيام الأيوبيين .

---

(١) معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢ .

(٢) نف ٩٠ ، ٤ ص ٨٢ س ٩ .

أما بالنسبة للحبشة[١] ، وهى البلاد الواقعة فى شرق أفريقيا؛ فإنها هى الأخرى كانت تدين بولائها الدينى للكنيسة المصرية ، منذ الفتح العربى، وحتى قبل ذلك؛ فكان رجال دينها يعينون أيضاً ، من قبل البطريرك المصرى وحده - أبونا - مثل رجال كنيسة جنوب الوادى، بل إن مطران الحبشة المصرى؛ كان هو الذى يقوم بتتويج الملك الحبشى[٢] ، وإذا أتى كتاب البطريرك المصرى له ، حمل على رأس علم[٣] ؛ بسبب أن لأوامر البطريرك المصرى عنده قداسة ، ويقرأ الكتاب فى الكنيسة والملك واقف .

ومع ذلك ؛ فقد كان الإسلام هو الآخر قد إنتشر فى الحبشة ، منذ وقت مبكر ؛ حينما التجأ إليها مهاجرون من المسلمين فى أيام النبى، ونتيجة لهجرات عربية منذ أيام الأمويين إلى سواحل الصومال ودهلك ومقدشو وغيرها ، وإسلام الحبش أنفسهم ، ولا سيما العناصر الوثنية منهم . فكان نتيجة لذلك أن وجدت فى هضبة الحبشة دويلات إسلامية صغيرة Petty States ، لعلها أصلا من هجرات عربية من داخل الجزيرة العربية ؛ يعبر عنها القلقشندى باسم[٤] : الطراز الإسلامى ، لأنها تمتد على جانب البحر الأحمر من الساحل الأفريقى كالطراز ، من داخل الهضبة الحبشية ، مقابلة لليمن . فيذكر هو وغيره من المؤرخين سبع دويلات ؛ وإن اختلف فى أسماء بعضها[٥] ؛ وإن كانت جميعها تخضع لملك الحبشة؛ بسبب أنه لم يكن بينها اتحاد أو حتى حدود مشتركة ، وهى : هدية - هديا - وشرحا ، وبالى ، ودارة ، ودوارو - دوارة - وأرابيتى ، وإيفات أو أوفات ،

---

(١) بتفصيل : انظر .
Ency. of Isl. (art Habasha) 2ed., t. 3, p. 2 sqq; (art Abyssinie) Ied. t., p. 121-123.

(٢) أبو صالح الأرمنى ، كنائس وأديرة ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .

(٣) المصطلح ، ص ٣٠ ؛ صبح ، ٨ ص ٤١ س ١٣ .

(٤) صبح ، ٥ ص ٣٢٤ — ٣٣٠ ؛ يوسف أحمد ، الإسلام فى الحبشة ، ص ٢٤ .

(٥) صبح ، ٨ ص ١١ ؛ انظر . زاهر رياض ، الإسلام فى أثيوبيا فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٢ .

أو الزيلع التي كانت جزءاً منها ؛ فكانت إيفات أو الزيلع وموقعها في الجنوب الشرقي من الهضبة الحبشية تعتبر أقوى هذه الإمارات وفارس الجهاد ضد الحبشة ، وتحاربها في السهول والجبال ، وعرف ملكها بالإمام بسبب ذلك .

وكانت العلاقات بين سلاطين المماليك وملوك الحبشة ودية في الغالب ، وهو الذي عرف في مكاتبات ديوان الإنشاء المملوكي بالقاهرة ، بلقب[1]: نجاشي ، أو حطي ، أو صاحب أمحرا ، أو ملك ملوك الحبشة ، وعاصمة ملكه على حسب قول بعض الرحالين المسلمين تسمى : جرمي أو كمبر ؛ فهو يحكم على تسعة وتسعين ملكاً ، منهم سبعة مسلمون[2] كما ذكرنا . وإذا حضر رسل من ملك الحبشة ، أو حتى من ملك النوبة أو غيرها ؛ أمر السلطان المملوكي البطريرك القبطي ، بمكاتبتهما[3] بما للنصارى القبط في مصر من الجلالة والإكرام في بلاده ، ويدعوهما بالمقابل إلى أن يستوصيا بالمسلمين تحت رعايتهما . إلا أن العلاقات كانت تسوء أحيانا ، بين المماليك والحبش ؛ بسبب محاربة الحبش للمسلمين في الساحل ، أو لسوء معاملة بعض السلاطين المتعصبين للقبط في مصر .

كذلك أصبح سلطان مصر المملوكي يسهل[4] حج الحبش النصارى إلى بيت المقدس ، ويمنع العامة من التعرض لهم في طريقهم إليه ، حين مرورهم في مصر ، بل أعفى رهبان الحبش من رسوم الزيارات المقررة ؛ كما كانت توجد سفارات حبشية إلى القاهرة في هذه المناسبات . ولدينا وصف[5] لاستقبال رسمي حافل لقصاد ملك الحبشة ، في طريقهم لزيارة بيت المقدس . فقد كان عددهم ستمائة

( ) صبح ، ٨ ص ٣٩ — ٤٠ ؛ انظر : حسن الباشا ، الألقاب ، ص ٢٦٤ .
(٢) صبح ، ٨ ص ٣٩ س ١ .
(٣) نفسه ، ٥ ص ٣٣٣ .
(٤) ابن إياس ، ٣ ص ٧ — ٨ .
(٥) نفسه ، ٣ ص ٨ س ٣ .

إنسان ، بعضهم عرايا مكشوفى الرأس ، فى أذن كل منهم حلق من ذهب ، وفى أيديهم أساور ذهب ؛ ورئيسهم عليه الحرير الملون ، ويلبس على رأسه خوذة من من المخمل الحمراء ، منها صفائح ذهب ، ثبتت فيها درة كبيرة مثمنة ، وكانت معهم طبول يضربونها ، على الجمال ، وأعيانهم تركب الخيل ، والبقية مشاة ، كما يحملون كراسى حديد للجلوس عليها بحضرة السلطان ؛ إلا أن المشرفين فى القاعة بالقلعة التى استقبلوا فيها ، لم يمكنوهم من ذلك .

ومن مظاهر العلاقات بين المماليك والحبشة ؛ حينما اعتلى عرش الحبشة يكونو أملاك فى ٦٧٣/١٢٧٤ ؛ فأرسل إلى بيبرس سفارة يطلب فيها تعيين مطران مصرى لكنيسة الحبشة ، ويصف نفسه مبالغة بأنه أقل المماليك[1] ؛ يقبل الأرض .

وقد تحسنت العلاقات أكثر فى عهد قلاوون ؛ وأرسل ملك الحبشة له هدايا ، وأعلن أنه يحفظ المسلمين فى مملكته ؛ ولا سيما أنه كان يحاربه رجـــل مسلم فى الحبشة ، يدعى أبو عبد الله محمد منذ ٦٩٩/١٢٩٩ ؛ جمع نحو المائتى ألف رجل ؛ حاربه بهم حروباً كثيرة[2] .

ولكن ساءت العلاقات، لما حارب ملك الحبشة «أماداسيون»(١٣١٤-١٣٤٤م/ ٧١٤-٧٤٥هـ)، وهزم وهدم دولة إيفات المسلمين، وحول بعض مسلميها إلى النصرانية، وبنى الكنائس والأديرة فيهما. ولما سار على مدينة زيلع فى إيفات ربما يكون قد قتل فى حربها؛ وقد اعتبر أمادا سيون عند رعاياه ؛ بسبب حروبه مع المسلمين ، من القديسين .

كما أن سيف نويا كريستوس بعده (١٣٤٤ - ١٣٧٢ م / ٧٤٥-٧٧٤هـ)؛ انتقم من تجار مصر فى الحبشة ، وحارب مسلمى زيلع ، لما رفضوا دفع الجزية فى

---

(١) السلوك ، ١/٢ ص ٦١٥ — ٦١٦ ؛ صبح ، ٨ ص ١١٩ — ١٢٠ ؛ نهاية الأرب ٢٨ ورقات ٤٥ — ٤٦ ؛ انظر . عاشور ، بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ، المجلة التاريخية المصرية ، ١٤ ، ١٩٦٨ ص ١ ومابعدها .

(٢) السلوك ، ٣/١ ص ٩١٦ .

١٣٥٢/٧٥٣ م ؛ إلا أن التدخل المملوكى فى النوبة أخافه ، وطلب من السلطان الناصر إرسال رجال الدين القبط إلى الحبشة ، مثلما كان الحال من قبل . فقد ورد فى رسالته[١] : إنه يقبل الأرض ، ويطلب منه أن يرسل له مطراناً ؛ لا يحب ذهباً ولا فضة ، ويعلن له أنه فى عسكره مائة ألف فارس من المسلمين ؛ وأن المسلمين والنصارى فى بلاده ، هم غلمان الناصر ، وتحت أوامره ؛ فكتب إليه السلطان الناصر؛ يعده بإرسال المطران ، ويفخمه بألقاب ، منها: صديق الملوك والسلاطين

كذلك ابنـــه داود الأول (١٣٨٢ — ١٤١١م/٧٨٤ - ٨١٤ هـ) ؛ صالح المصريين ، وتبادل الهدايا مع برقوق ، وجاءه رسل القبط من مصر .

أما خلفه،وهو ابنه مفرق إسحق - يسحق - بن داود[٢](١٤١٤ــ ١٤٣٠م / ٨١٧ــ ٨٣٤ هـ)، الذى صادف وقت حكمه وجود أحد أمراء المماليك فى الحبشة، واسمه الطنبغا ، الذى رتب له أمور مملكته ، وحسن زيه ؛ إذ كان أبو الملك يركب مهر عريان ، كبقية ملوك الحبشة ؛ فجعــله يلبس الملابس الفاخرة ، وحمل شعار الملك فى المواكب ، وكان الطنبغا يعرف أنواع السلاح والفروسية ؛ فعلم جند الملك الحرب ، وكانوا لايعرفون القتال إلا بالحراب . كذلك حظى عنده كاتب قبطى ، يقال له فخـــر الدولة ، كان فر من مصر ، ودخل الحبشة بكتاب البطريرك ؛ فرتب له أمور مملكته .

ويبدو أنه بعد موت إسحق هذا ؛ قوى المسلمون فى الحبشة ، حق أن الأمير جمال الدين[٣] ، الذى سماه المؤرخ ابن حجر ملك الحبشة لقوته ، وكان انضم له أمير

---

(١) بتفصيل (ف .P.O) ، ٤/ص ٢٨٣ وما بعدها .
(٢) ابن حجر ، إنباء ، ٣ ص ٤٣٥ (٨٣٣ هـ).
(٣) نفسه ، ٣ ص ٤٨٧ — ٤٨٨ (٨٣٥ هـ).

حبشى نصرانى هوجوب جوشن وأسلم ، كما أسلم على يده خلق كبير من الحبش ؛ إلا أن هذا الأمير المسلم القوى قتله أبناء عمه فى جمادى الآخرة سنة ٨٣٥/فبراير ١٤٣٢ ؛ فقام من بعده أخوه شهاب الدين أحمد ، الذى لقب « بدلاى » ؛ فلم يكن أقل ضراوة منه فى الجهاد مع ملوك الحبشة .

كذلك فى عهد الملك زرء يعقوب (١٤٣٤ - ٨٣٨/١٤٦٨ - ٨٧٣ هـ) ؛ لما ساءت العلاقات مع المماليك ؛ فإنه عمد إلى الاتصال بألفونسو الخامس الكبير « Alfonso V » ، ملك أراغونة Aragon (١٣٩٦هـ — ١٤٥٨ م) ، وكان قد غزا صقلية ، واستولى عليها ، للاتفاق على محاربة دولة المماليك . ولدينا رسالة منه إلى السلطان الظاهر جقمق فى رجب ٨٤٧ / نوفمبر ١٤٤٣[١] ، فيها يهدد بمنع الزيادة فى النيل ، التى تروى أرض مصر . ويبدو أن مصر ، بسبب موقفه العدائى ، قد حرضت المسلمين المحيطين بالحبشة . ولعل أشهر من حارب ملوك الحبشه ، أحمد بن إبراهيم ، وهو صومالى الأصل ، عرف بصاحب الفتح أو الغازى أو الإمام ، وكان سلطاناً على عدل ؛ إحدى إمارات الطراز القوية وقتذاك ؛ ومع ذلك ، فقد تمكن رزء يعقوب من قتله .

ولكن عادت العلاقات طيبة ؛ بتولية بيد مريام (١٤٦٨ - ٨٧٣/١٤٧٨ - ٨٨٣ هـ) ، وإرساله هدية إلى قايتباى فى ٨٨٠/١٤٧٥[١] ، ومن بعده إلى الغورى[٣] ؛ بحيث سهل هذا الأخير حج الحبش النصارى إلى بيت المقدس ، ومنع العامة من التعرض لهم ، وإعفاء رهبان الحبش من رسوم الزيارة .

ولكن فى عهد الملك لبناد ، اى لبان العذراء (١٥٠٨ - ١٥٤٠/٩١٤ -

---

(١) السخاوى ، التبر المسبوك ، بولاق ١٨٩٦ ، ص ٦٧ — ٧١ ؛ نظر . طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ١٥٥ - ١٥٧ ؛ انظر : حسن حبشى ، رسالة دكتوراه فى B.O.A.S. ؛ بجامعة لندن .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٧ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٧ — ٨ .

٩٤٧ هـ) ، الذى توصت عليه أمه الملكة هيلانة ؛ فإنها حرضت فرنجة أوربا ضد المماليك؛ بحيث أوصلت إلى ملوك البرتغال تبدى استعدادها فى المشاركة فى حصار المماليك[١] ؛ وأخذ مكانهم فى تجارة التوابل .

كذلك ارتبطت دولة سلاطين المماليك بالسودان الغربى ارتباطاً قوياً ؛ ليس عن طريق الغزو أو الاستعمار ، وإنما بالأولى عن طريق السلام والحضارة ؛ فهذا الدور لمصر تبلور منذ أيام الفراعنة ؛ بحيث أصبحت هذه رسالة مصر الخالدة أبداً فى القارة الأفريقية ، وبسببها استحقت مصر أن تلقب : بأم أفريقيا .

وقد ترتب على انتشار الإسلام فى السودان الغربى ، عن طريق مصر على الخصوص ، ظهور ممالك وأمبراطوريات للسود فى أفريقيا . فلأول مرة شهدت السهول الفسيحة فى حوض السنغال والنيجر أنظمة سياسية ذات طابع إسلامى ؛ مثل: غانة التى لعلها اسم لعاهل مسلم ، من نسل الحسن[٢]، حكم هو وسلالته شعوب السارافوليين والسوننكة ، التى امتدت سيطرتها فى حوض السنغال شمالا ، وحتى النيجر جنوباً ؛ وعاصمتها كومبى — كبير— صالح[٣] ؛ بحيث قال ابن خلدون عنها : « لم يكن يوجد أعظم من ملوك غانة ». ومملكة مالى — ملى — أو التكرور[٤]، التى كان حكامها من شعبى الفلانى والمندنجو ، وهذا الأخير من أوائل الشعوب التى اعتنقت الإسلام[٥]، فى غرب أفريقيا ، وامتدت سيطرة ملكها من السنغال

---

(١) أنظر : Kammerer : La Mer Rouge, t. 2, p. 255

(٢) نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، ط ٢ ؛ القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٣١١ ؛ العبر ، ٦ ص٤١٢ .

(٣) البكرى ، المسالك، تحقيق De Slane ، ١٨٧٥ ، ص ٢٤. لعلها على اسم بنى صالح ؛ وهى قبيله عربية عدنانية فى بلاد غانة . نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، ص ٣١١ . وهى شمال مدينة باماكو الحالية .

(٤) صبح ، ٨ ص ٩ ؛ المصطلح الشريف ، ص ٢٧ . التكرور مدينة فى السنغال ، ومالى اسم الإقليم .

(٥) المصطلح الشريف ، ص٢٩ .

على المحيط إلى نواحي دارفور فى السودان الحالى ؛ وعاصمتها نيانى[1] ، واعتبر من أعظم ملوك السودان . ومملكة سنغى أو سنغاى ، التى تأسست من شعوب السوركو والجابيى ، فى القرن السابع الميلادى ، وامتد نفوذها على الأقاليم السابقة ؛ التى كانت ضمن مملكة مالى أو التكرور ، حتى بلاد الحوصا أو الحوصة أو الهوسا — شمال نيجيريا حالياً — فى وسط القارة ، وعاصمتها جاو[2] على نهر النيجر ، واستمرت إلى القرن السادس عشر الميلادى ، فى العصر الحديث .

وليس أدل على ارتباط دولة المماليك بهذه الرقعة الإسلامية الكبيرة فى غرب أفريقيا ، من سعى ملوكها أن يقلدوا سلطتهم الشرعية من قبل خليفة مصر العباسى ، الذى انتقلت خلافته إلى مصر — كما ذكرنا — بعد سقوط بغداد فى أيدى المغول ؛ إذ كان المبدأ المتبع فى حكم المسلمين وقتذاك ، أن لا سيادة بدون تفويض من خليفة المسلمين . فكان الخلفاء العباسيون فى مصر ، يصبغون الشرعية على حكم ملوك السود المسلمين فى السودان الغربى ، مثلما يفعلون بالنسبة للسلاطين فى مصر ، أو الحكام المسلمين فى جميع أرجاء بلاد الإسلام الأخرى . فكان ملوك السودان الغربى يجدون فى هذا التقليد الشرعى من خليفة مصر لهم نوعاً من التبرك ، يكسبهم الهيبة والجلال بين رعاياهم ؛ حتى أن أحدهم مثل ملك مالى كان يتلقب بألقاب[3] منها : ظهير الإمامة ، عضد أمير المؤمنين ؛ مما يبين الارتباط الوثيق بخليفة مصر فى أيام دولة المماليك .

وقد ترتب على قيام العلاقات الودية بين المماليك وبينهم ؛ زيارات ملوك السود المسلمين فى غرب أفريقيا لمصر باستمرار ؛ ولا سيما وهم فى طريقهم إلى الحج . ولدينا

---

(١) أشير إليها أحياناً باسم : مالى أو ماندى ، وتقع على شاطىء نهر السانكارانى ؛ أحد روافد نهر النيجر ؛ فى غينيا الحالية .

(٢) أنظر . كعت ، تاريخ الفتاش تحقيق Houdas ، ص ٢٦١ .

(٣) صبح ، ٨ ص ١٠ .

رسالة[١] من بيبرس أرسلت إلى ملك مالى أو التكرور ؛ للترحيب به ، وهو فى طريقه للحج ؛ ليشاركوا فى موكب الحج العام إلى الحجاز ، الذى كانت تحتفل به مصر ؛ بسبب أنها كانت ترسل الكسوة إلى الكعبة ، التى اشتهرت باسم : المحمل الشريف[٢] ؛ حيث كانت تصنع من القماش المصرى ، الذى سمى[٣] : القباطى ، نسبة لنوعه . فكان ملوك السود حينما يصلون ينزلون فى دار الضيافة فى القاهرة ، المسماة : الدار السلطانية . فكانوا فى أثناء إقامتهم فى مصر ، يستقبلون استقبالا رسمياً حافلا ، من قبل سلطان المماليك ، الذى يجلس على تخت الملك ، وكان على هيئة منبر الجامع ، فى القاعة ذات الأعمدة « الإيوان[٤] » ، فى القلعة بالقاهرة ، وقد اصطف الأمراء المماليك ورجال الدولة من أرباب الأقلام ، ورجال الدين ، وعلى رأسهم الخليفة والقضاة ؛ كما يوجد التراجمة ليترجموا عند اللزوم ؛ حيث عرف استقبال مصر لضيوفها الكبار فى رسوم القصر الملوكى ، باسم : موكب الإيوان[٥] .

ولعل أشهر من زار مصر من ملوك السودان المسلمين فى أيام المماليك ، اثنان ! أحدهما ملك مالى أو التكرور ، المسمى : كنكان أو كونجومنسا ـ بمعنى السلطان ـ موسى[٥] ؛ وإن عرف المصريين باسم : ملك التكرور ، التى هى مدينة كبيرة فى امبراطوريته ، فى عام ٧٢٤/١٣٢٤[٦] ، والآخر هو الأسقيا ـ بمعنى القائد ـ محمد الاول

(١) ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص٨٧ — ٨٨ ؛ ومخطوط ٤٤٤٠ ، ورقة ٢٠٢ .

(٢) بتفصيل : ماجد ، نظم المماليك ورسومهم ، ٢ ص ١٤٣ وما بعدها .

(٣) القباطى قماش ينسب إلى القبط فى مصر . انظر .
Dozy : Suppl., 2, p. 302

(٤) عن هذا الديوان وغيره ، نظم المماليك . ٢ ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٥) صبح ، ٥ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

(٦) الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص ١١١ — ١١٣ ؛ محمود كعت ، تاريخ الفتاش ، تحقيق Houdas وغيره ، ط Paris ، ١٩١٣ — ١٩١٤ ص ٣٢ — ٣٨ .

الـكبير، أو محادو (محمد) تورى ، ملك سنغى أو سنغاى فى عام ١٤٩٥/٨٩٩[١]، وذلك حينما حضر الأول ومعه زوجته إنرى، وجاريته المفضلة فريا، وأ كثر من ستين ألف شخص ، بينهم فقط اثنتا عشرة ألف وصيفة[٢] ، بينما الثانى حضر ومعه اثنا عشر ألف شخص فقط. وقد ذكر فى حج كنكان منساموسى ، أنه قصد الحج بسبب أنه أراد أن يكفر عن جرم ارتكبه نتيجة خطأ منه ، ترتب عليه قتل أمه نانا ، وأن رحلته دامت سبعة أشهر ، وكان معه حمولة أربعين بغلة ذهباً[٣] . ولـكن قابلت منسا موسى بالذات ، فى زيارته لمصر ، مشكلة تقبيل الأرض[٤] ، أمام سلطان المماليك ، محمد بن قلاوون ؛ فقد كان من رسوم القصر المملوكى ، أن يقبل الضيف الأرض أمام سلطان مصر من بعيد ، عند أوائل البساط ، الممتـــد إلى تخت الملك ، وأن يعود إلى تقبيل الأرض مرة ثانية ، وثالثة ، كلما اقترب من السلطان . وفى أول الأمر تردد منسا موسى فى أن يقبل الأرض ، على أساس أنه مسلم لايسجد إلا لله . ولـكن تحت تحريض أحد الموجودين فى الإيوان ؛ فإنه قال فى نفسه : إن سجوده لله ، وليس لشخص ما ، ثم قبل الأرض . وما لبث السلطان أن قدر منزلة ضيفه السودانى الـكبير ، فقام له بعض القيام ، وأجلسه إلى جانبه ، وتحدث معه طويلا، وكان يزوره فى قصر الضيافة ، طوال مدة إقامته فى مصر، قبل ذهابه إلى الحج ، وحتى بعد عودته منه ، كما أوصى به أمير الحاج ، وأمير مكة .

---

(١) ابن إياس ، ص ١٦٣ . (٢) أختلف فى الأعداد ؛ فقيل للاول ١٤ ألف جارية . الذهب، ص ١١٢ . وقيل ٥٠٠ امرأة فقط ؛ وجاء ومعه ٨ آلاف رجل . تاريخ الفتاش، ص ٣٢ — ٣٨ . بينما الثانى حضر ومعه ٨٠٠ رجل فقط .

(٣) وقيل مائة جمل ؛ يحمل كل منها ثلاثة قناطير من الذهب . العبر ، ٦ ص ٤١٥ . ومن كثرة ما انفق ؛ حينما عاد كانت ثروته قــد أتت إلى نهايتها ؛ فساعــده تاجر من الاسكندرية ، ثم ذهب معه إلى بلاده ؛ ليسترد ما أقرضه ، ويؤكد القلقشندى أنه استدان من تجار مصر ، كما قيل إن كنكان موسى انفق ثلاثين ألف اطمة ذهب ، بينما الأسقيا الـكبير صرف ثلاثمائة ألف اطمة من الذهب . بتفصيل ؛ ومصادر : Monteil
Les Empires de Mali. Paris, 1968, p. 39.

(٤) صبح ، ٥ ص ٢٩٥ ؛ ابن كثير ، البداية ، ١٤ ص ١١٢ . يقول المقريزى إن السلطان أعفاه من ذلك . أنظر الذهب المسبوك ، ص ١١٢ .

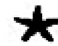
ومن الطريف ، أن نذكر أنه كان من مراسيم استقبال الضيوف عموماً ، أن يصرف لهم الخيل والجرايات والمرتبات ، وأحياناً ترسل لهم الجوارى الأبكار ، وعلى الخصوص الملابس المسماة : « تشريفة » ، أو « خلعة » ، لتعق ملابس رسمية ، لأنها تحمل بالضرورة اسم السلطان المملوكى ، وحتى اسم خليفة مصر. فقد أرسلت إلى منسا موسى المذكور ، « خلعة[1] » تتكون من رداء من القماش الحرير ، الذى عليه رسم وحوش « طرد وحش » ، على يقصب كثير ، وبشمر «سنجاب» ، وفرو «مقندس» ، ليلبسه فوق ثوب آخر مشقوق « مفرج » من الحرير أيضاً ؛ مصنوع فى الإسكندرية ، « اسكندرى » ، كما أرسلت له طقيـة « كاوتة » ، مطرزة « زركشى » ، لها زوائد « كلاليب » ، من ذهب ، يلف حول عمامة ، «شاش» من الحرير ، موصول طرفيها بحرير أبيض مزخرف « رقم » ، عليها بارزاً اسم خليفة مصر العباسى « خليفتى » ، وكأنها تاج على رأسه من مصر ، وحول وسطه حزام «منطقة» ، من ذهب مرصع ، وسيف محلى .

وقد ساعدت هذه الروابط الحضارية بين مصر والسودان الغربى على تثبيت الإيمان فى قلوب شعوبها ، وليس أدل على ذلك ؛ من أنه قد نشأت فى بلاد أفريقيا المسلمة مراكز إسلامية ، لاتقل عن مثيلتها فى بلاد الشرق الإسلامى ؛ من حيث الإشعاع الإسلامى ، والثقافة العربية . فقد أصبحت مدن ، مثل : غانة ، وكومبى صالح ، وتمبكتو أو تمبكت ، وجاو ـ أو جاجـ وكوكو ، والتكرور ، وجنى ، من أهم مدن السودان الغربى الإسلامية ، التى اجتذبت إليها الفقهاء[2] والمفسرين ، والقراء المصريين. فمثلا المؤرخ والفقيه المشهور جلال الدين السيوطى ، كان قد ارتحل إلى مالى أو التكرور[3] ؛ لما سمع أن ملوك مالى أو التكرور قد تجاوزا الحدود فى الأحكام التى

(١) صبح ، ٥ ص ٢٩٥ .
(٢) نفسه ، ٥ ص ٢٩٧ س ٤ .
(٣) الضوء اللامع ، ٤ ص ٦٩ .

يصدرونها فى الدين،وكان قدبعث إليهم وهو فى مصر برسالة يحاول ردهم إلى حظيرة الرشد[١] ؛ فهو يعظهم ويزجرهم . كذلك ذاعت فى هذه البلاد كتب المالكية والشافعية ، التى وردت مع غيرها من الكتب الدينية الأخرى ، من مصر .

ومن ناحية أخرى؛ فإن ذكرى هذه الصلات الحضارية والروابط الإيمانية ، مع ممالك السودان الغربى؛ لاتزال باقية فى مصر، فى وجود حى من أحياء القاهرة الحالية ، اسمه بولاق الدكرور ؛ فبولاق عند العرب تعنى الأرض الفسيحة ، التى يكسوها الخضار؛أما الدكرور ، فهى نسبة إلى أحد الصالحين ، الذى وفد إلى مصر من بلاد التكرور ، وهى مالى ، دلالة على وفاء المصريين للصالحين من عباد الله ، دون تمييز للجنس أو اللون،وعلى الروابط الإيمانية الوثيقة ؛ بين مصر وأفريقيا .



والمتحصل أن سياسة مصر الحربية فى عهد المماليك ، هى استمرار لسياسة مصر الإسلامية القوية .

---

(١) نفس الرسالة موجود ضمن رسائله الأخرى بدار الكتب ، برقم ٤١٦ .

الفصل الخامس

الأحوال الداخلية

طبقة الحكام المماليك — الإدارة المصرية — نظر المظالم — الإقطاع والموارد الماليه — الاهتمام بتجارة التوابل — الصلات التجارية مع دول البحر الأبيض — الصلات التجارية مع ممالك أفريقيا — انتعاش القاهرة والفسطاط ومدن مصر الأخرى — رخاء الدولة والناس — ازدهار الثقافة العربية .

كانت دولة سلاطين المماليك فى مصر ، دولة عسكرية متعسفة ؛ يحكمها أرباب السيوف ، الذين استحوذوا على السلطة ؛ بشكل لم يعرف إطلاقاً من قبل ، فى تاريخ مصر القديم أو الحديث ، أو حتى فى خارج مصر . حقاً ؛ إن معظم حكام مصر ، على مدى تاريخها الطويل ، وفى حقبها المختلفة ؛ قد وسموا بالطغيان ؛ إلا أن طغيانهم فى الغالب كان فردياً أو أسرياً . ولكن بمجىء دوله سلاطين المماليك فى مصر ؛ فإن طغيان السلاطين منهم انبثق أساساً من طغيان طبقة ، جمعها رباط الرق ؛ تميزت بنوعيتها وغرابتها عن شعب مصر ، وعاشت معـــه كطبقة أرستقراطية بالضرورة ، على الرغم من طابعها الرقى ؛ بسبب أنها فى مصر قد ربت فى ماء النعيم والسلطان وظله — كما[1] يقول المؤرخ ابن خلدون المعاصر لدولتهم — حيث يظهر ذلك من طريقة تربيتهم وتعليمهم فى الطباق والقصور .

ومن الملاحظ أن هذه الطبقة المملوكية قد انخرطت فيها جنسيات متعددة ؛

---

(١) أنظر . المقدمة لابن خلدون مثلا ؛ وقبله .

تكونت أساساً عن طريق الشراء ؛ حتى أنه وجد إلى آخر عهد الدولة المملوكية تاجر المماليك[١] ، لدعم كيانها ؛ وإن كان أفرادها غالباً ما كانوا يذوبون فى عصابة واحدة متماسكة. كذلك غلب على هذه الطبقة فى مصر العنصر التركى ؛ من دون بقية الأجناس الأخرى ؛ إذ أصبح هو العنصر المسيطر فى أغلب دول الإسلام ؛ منذ أن انقرضت دولة العرب ، بسقوط الخلافة الأموية .

ومع ذلك ؛ فإن المؤرخ ابن خلدون الذى خص ورقات عديدة فى مقدمته المشهورة[٢] ؛ للبحث عن عوامل قيام الدول فى الإسلام ؛ فإنه لايرى أن قيام دولة سلاطين المماليك فى مصر ، يتناقض مع مبدأ الأمة ، الذى نص عليه فى القرآن الكريم ؛ بسبب أن وجودها فى وقتها ، كان ضرورياً للإسلام[٣]. كذلك ؛ كان يرى أن قيام دولتهم ؛ يتفق مع قيام الدول الإسلاميـــة الأخرى ؛ لتوفر العصبية[٤] فيها ؛ حتى وإن لم تكن مثل العصبية التى كانت عند العرب الأوائل ، تقوم على أساس صلة الدم ، من النسب والحسب ، وإنما عصبيتها من ذاتها ، بتكوينها الخاص ، ومن تشابه صفاتها ؛ بحكم أنه قد مس أفرادها جميعاً الرق ؛ مما أفضى بهم إلى الرياسة والملك والسلطان[٥] ، أو كما سماهم المقريزى[٦] ، وهو مؤرخ آخر.

---

(١) ابن إياس ، ١ ص ٧٣ (آخر السطر) .
(٢) أنظر . المقدمة ، ص ١٠٤ وما بعدها .
(٣) نفسه ، ص ١٢٢ . هكذا يفهم من كلامه العام .
(٤) أنظر بفصل أيضا :
Ency. of Isl. (art 'Asabiyya) 2ed.,
Il concetto della, : Gabrieli ' t. I, p. 681
Asabiyya Nel pensiero storia di Ibn Haldûn.
Atti della R. Accad della scienze di Torino IXVI, 1930, p. 473-512.
(٥) المقدمة ، ص ١١٠ — ١١١ ؛ انظر . قاسم عبده ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٦—١٧ .
(٦) إغاثة ، ص ٧٢ — ٧٣ .

معاصر لدولتهم : أهل الدولة من الحكام المماليك ؛ فقامت دولتهم بسبب ذلك على دعائم قوية . ومع ذلك ؛ فإن المماليك الجراكسة الذين تولوا السلطة بعد المماليك التركمان ، نسبوا أنفسهم إلى جملة العرب(١) ، في موطنهم الأول ؛ حيث أن العرب كانوا أجازوا الموالاة بالاصطناع والحلف(٢) . ولا شك أن الإسلام قد أوجد روابط غير روابط صلة الدم ؛ منها أن تكون الروابط بالحلال والصفات(٣) .

يضاف إلى ذلك أن قيام حكم طبقة المماليك في مصر ، من الأرقاء والغرباء ، قد ترتب عليه أن أقامت هذه الطبقة لنفسها وظائف متنوعة كبرى وصغرى ثابتة(٤) ؛ وإن تغيرت أحياناً في اختصاصاتها ؛ إلا أنه من خلالها تمكنت من السيطرة التامة على الحكم ، ليس فقط في مصر ، وإنما في امبراطورية مترامية الأطراف ، امتدت من برقة إلى الفرات ، ومن قبرص إلى مجاهل أفريقيا والجزيرة العربية . وعلى الرغم من تغيير السلاطين المستمر ؛ بسبب طبيعة المماليك أنفسهم ، في عدم قبول الحكم الوراثي ؛ فإن هذه الوظائف الثابتة قد استمرت حكراً لهم إلى آخر حكم دولتهم . كذلك كان كل سلطان جديد يعزل من كانوا يشغلونها قبله ، ويشغلها بأعوانه ؛ وإن كان قد يكفل بعضها مضطراً إلى من كانوا فيها ، إذا كانوا من الأقوياء .

---

(١) انظر . قبله . وحتى في عهد البحرية ، كان قلاوون يميل إلى العرب ، ويتزيا بزيهم .

(٢) المقدمة ، ص ١٠٧ .

(٣) نفسه ، ص ١٠٦ .

(٤) عن هذه الوظائف واختصاصاتها بتفصيل ، انظر . ابن شاهين ، زبدة ، ص ١١٤ — ١١٥ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٣ وما بعدها ؛ ونظام دولة سلاطين المماليك ، في جزءين ، طبعة ثانية . نذكر منها : من مقدمي الألوف : نائب السلطنة ، أمير سلاح ، أمير مجلس ، أمير دوادار الكبير ، أمير آخور الكبير ، أمير رأس نوبة النواب ، أمير الحجاب ، أمير خازندار الكبير ، أمير الحاج الشريف ، الجاشنكير ، المهمندار .

وقد لاحظ المؤرخ السيوطي[1] ؛ أن واضع أسس الوظائف المملوكية في مصر ، هو السلطان بيبرس ، المؤسس الحقيقي لدولتهم ؛ حيث أراد أن يسلك في ترتيب مملكته مملكة جنجيزخان ـ جنكيزخان ـ وهي مملكة المغول المعاصرة لدولة سلاطين المماليك، ولا سيما أن الترك ، وهم العنصر الأساسي في دولة سلاطين المماليك ، كان مجاوراً في موطنهم للمغول ؛ وإن كانت وظائف الطبقة المملوكية قد تطورت في خلال دولتيهما التركمانية والجركسية في مصر .

فكانت الوظائف المملوكية الكبيرة في دولتهم تكفل أساساً إلى أمرائهم ، وهم كبار المماليك منهم ، يتمايزون بعضهم عن بعض بعدد المماليك ، الذين يقتنونهم ؛ بحيث قيل إن مقام الأمراء بمماليكهم[2] ؛ حتى وصل عدد من يملكه بعضهم الآلاف[3]،أو يتمايزون بعدد الجند الذين تحت أمرتهم في ميدان القتال ، وهؤلاء ليسوا من المماليك ، وإنما من محترفي الجندية ، الذين عرفوا بجند الحلقة[4]، أي السلاح ، أو حتى بأولاد الناس[5] ؛ فكان معظمهم على حسب ملاحظة المؤرخ

= وظائف الطبلخانات : شاد الشربخاناه ، الدودار الثاني ، وأمير آخور الثاني ، ورأس نوبة الثاني ، والحاجب الثاني ، والخازندار الثاني ، ونائب القلعة ، والزردكاش ، وأمير شكار ، وأمير جندار .

وظائف العشرينات والعشروات : أمير آخور الثالث ، والدودار الثالث، ورأس نوبة الثالث ، والحاجب الثالث ، واستادار الصحبة ، وسبعة حجاب ، وعشرة رؤوس نوب ، وأمير طبر ، وأمير علم ، وكاشف الطير ، وسواق الخاص ، وأمراء جندارية عشرة ، وشاد القصر وشاد الحوش ، وشاد الدواوين ، وشاد الخاص ، وشاد الشون ، وشاد المستخرج .

(١) حسن المحاضرة ، ٢ص ٨٥ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، مخطوطة ، ٢/٤ ورقة ٤٢٤ . أوردها علي ابراهيم ، المماليك البحرية ، ص ٣٠٠ .

(٣) قد يصل إلى ثمانية آلاف . زبدة ، ص ١٠٤ .

(٤) عن هذه اللفظة ، انظر ، DoZy : Suppl., I, p. 317

(٥) عن هذه التسمية ، انظر . زبدة ؛ ص ١٠٤ ، ابن إياس ، ٣ ص ١٨ س ٢٤ ؛ أنظر . Ency. de l'Isl. (art Awlâd al-Nâs) 2ed., t. I, p. 788.

؛ السلوك ، ١/٣ ص ٦٩٠ وحاشية (٢) .

المقريزى ، من المصريين ، فقال(١) : إن أ كثر جنـــد الحلقة أصحاب حرف وصناعات . فـكان المقربون للسلطان من هؤلاء الأمراء ، يسمون الأ كابر ، ويتولون الوظائف الـكبرى فى الدولة المملوكية وفى البلاط وفى الجيش ، وحينئذ يسمون(٢) ؛ الأمراء المقدمين أو باب الوظائف ، وقيل إن عدد هؤلاء كان أربعة وعشرين ، وإن نقص إلى الثمانية عشر أو العشرين ، بعد ذلك .

فـكان لأرباب الوظائف المملوكية الـكبرى ، بما فيهم السلطان نفسه شارات خاصة بهم؛ تدل على مناصبهم ؛ عرفت باسم الرنوك ، جمع رنك ، وهى كلمة فارسية الأصل « رنـگ(٣) » ، بمعنى اللون ، حرفت فى العربية ، ولعل منها الـكلمة الأوربية "Rang" ؛ بمعنى رتبة أو درجة ، أو حق باسم الاشعرة ، جمع شعار ، التى منها : الهناب ، وهو الـكأس(٤) ، والأسد ، والنمر ، والصقر ، والمائدة « الخونجا » (٥) ، والبقجة(٦) ، و حق رموز هيروغليفية مثل رمزى الوجهين القبلى والبحرى فى أيام الفراعنة ، والزهور ، والبوق ، والدواة ، وغير ذلك .

ومع ذلك ؛ فلا يجب أن نبالغ فى مدى الطابع الأجنبى لدولة ســـلاطين المماليك ؛ فالدولة فى وقت المماليك ، لم يكن لها معناها فى وقتنا ،وإنما هى مجموعة من الناس ، تحركها الشريعة الإسلامية ،التى يحافظ عليها الحـكام المسلمون. كذلك

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٥٥ (آخر السطر) .

(٢) صبح ، ٤ ص ١٤ ؛ ابن إياس ، ٢ ص ٢٥ س ١١ ، ٣ ص ٢ .

(٣) صبح ، ٤ ص ٦١ — ٦٢ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٠ ؛ ابن إياس، ١ ص ١١٠ س ٤ ؛ المنهل ، س ٥ ؛ انظر . Artin: Contribution, à l'étude du Blason en Orient. Londres, 102; Dozy: Suppl. 2, p. 561 ، ماجد ، نظم ، ٢ ص ٢ ٤ .

(٤) أنظر . Dozy: Suppl. 2, p. 561 ؛ نظم ، ٢ ص ٤٣ وما بعدها.

(٥) خونجة من خوان الفارسية . أنظر . Dozy: Suppl. I, p. 412.

(٦) أو بقشة ، والجمع بقش أو بقج ، من أصل تركى . أنظر . Dozy: Suppl. I, p. 102.

معنى المواطن فى ذلك الوقت ؛ إن جاز استعمال هذا اللفظ على الإطلاق ؛ بالنسبة للمسلمين فى العصور الوسطى ؛ هو الإنتساب قبل كل شيء للعالم الإسلامى . حقاً وإن كان الناس فى مصر فى أول الأمر ، قد صعب عليهم الانقياد لحكم طبقة من الرقيق ؛ إلا أنهم لما تآلفوها – كما يقول ابن خلدون[١] – سرعان ما نسوا أولوياتها ؛ مادامت طاعتها لكتاب الله .

كذلك ، لا يجب أن نبالغ فى طابع دولة سلاطين المماليك الإستبدادى ؛ فالسلطان نفسه لم يكن غالباً يستقل برأيه فى الأمور ، بل إنه كان يمثل روح الإسلام الأولى ، فله جماعة من كبار الأمراء سموا : الأمراء أرباب المشورة[٢] ، أو أمراء المشورة ، ومجلسهم سمى المشور ، أو مجلس السلطنة ، ووجدت وظيفة محددة لها سميت : الإشارة الشريفة[٣] ، جعلت فى المرتبة الثالثة بعد السلطنة والوزارة ؛ لتعنى الإشارة بالرأى للسلطان . فكان السلطان فى كل مناسبة يضرب مشوراً مع أمراء الحل والعقد ، ولا سيما فى الأمور السياسية ، أو حتى يجمع الفقهاء من القضاة لاستشارتهم فى أحوال الرعية ، ويأخذ خطهم فى كل مايقرره[٤] . كذلك وكان من المفروض أن لا يلى الإمارة ، التى تهيىء لشغل الوظائف الكبرى فى الدولة المملوكية ؛ إلا من كان قد تدرج من رتبة إلى أخرى[٥] ؛ فلا يليها إلا وقد

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٢٢ س ١٠ .

(٢) صبح ، ٤ ص ٤٥ س ١٦ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٣ س ١٩ ، ٢١ ؛ مؤلف مجهول ، تاريخ سلاطين المماليك ، نشر Zettrestéen ، London ، ١٩١٩ ؛ ص ١٣٦ س ٢ ؛ ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة ، تحقيق Carlyle ، ط . Cantabrigiae . ١٧٩٢ ، ص ٧٢ . يذكر ابن شاهين الشير كعضو للاستشارة ، وهو الذى يناقش من يستعيرهم السلطان من الأمراء . زبدة ، ص ١٠٦ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ٣١ هامش ؛ Tyran : Institution du droit, Public Musulman, t. II, p. 171-8.

(٣) صبح ، ١١ ص ١٥٣ – ١٥٦ ؛ انظر . Lewis : Mesveret. Istanbul, 1982. Ext., p: 778.

(٤) زبدة ، ص ١٠٦ .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٤٧ س ١٢ ؛ بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥ / ١٣٣٥) ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، الجزء التاسع ، مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٨ =

تهذبت أخلاقه ، وكثرت آدابه، وامتزج بروح الإسلام ، وبرع فى الفنون الحربية؛ بحيث كان كل منهم من يصير من كثرة علمه فى مرتبة فقيه أو أديب أو حاسب . لذلك كانوا سادة يدبرون الممالك، وقادة يجاهدون فى سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل، ويردعون من جار أو تعدى؛ بملاحظة مؤرخى عصرهم .



ومع ذلك ؛ فهم وإن جعلوا الدواوين ، وهى المصالح الحكومية ، فى القلعة بالقاهرة ، مقر حكمهم، تحت إشرافهم المباشر ؛ بحيث عرفت بالدواوين السلطانية[1] ؛ إلا أنهم أبقوها فى أيدى المصريين المسلمين والقبط من أهل البلاد ، كما كان الحال من قبل، منذ أن فتحت مصر على يد العرب ؛ لأن المصريين ولا ريب كانوا أعلم بشئون إدارة بلدهم من غيرهم . ومع ذلك ؛ فإنه من الملاحظ ، أن القبط قد قل عددهم فى الدواوين عن ذى قبل ؛ بسبب تحول معظم المصريين للإسلام فى وقتهم . ومما يؤكد الطابع الإسلامى المتزايد فى عهد المماليك لموظفى الدواوين ؛ هو أنهم كانوا لايذهبون إلى الدواوين فى يوم الجمعة[2] ؛ إلا إذا كانوا من القبط ، كما أن بعض متعصبى المصريين المسلمين ، كانوا يطالبون أحياناً السلاطين المماليك بعزل الكتاب النصارى فى الدواوين ، لقسوتهم عليهم[3] ؛ ولدينا أمثلة تشير إلى الاستغناء عن بعضهم فى مختلف دواوين السلطنة . ومع ذلك؛ فإنه لم يكن من الممكن

= ورقات ٧٥ — ٧٦ . فمثلا كتبغا الملقب بالعادل، الذى توفى سنة ٦٩٤/١٢٩٥ ، كان أصله من سبايا التتر ، ثم مملوكا ، وتنقل فى مرتبة الإمارة من أمير عشرة ، ثم مقدم ألف ، ثم نائب السلطنة ، ثم السلطان . ابن إياس ، ١ ص ١٣٣ . عن السلطان المؤيد شيخ . أنظر أيضا : ابن إياس ، ٢ ص ٣ . بتفصيل ، انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٨ وهامش (٤) .

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٦٣ س ٢٥ . بتفصيل ، انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ٥٠ .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٦٨ س ٢٤ .

(٣) السلوك ، ١/٢ ص ٢٢٥ س ١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

الاستغناء عن الكتاب القبط نهائياً ؛ بسبب درايتهم بشئون الإدارة أكثر من غيرهم ، ولا سيما المالية منها[١] ؛ حتى أن السلطان المملوكي لم يكن يرضى أحياناً عن ثورة المسلمين المتعصبين ضد القبط ، وحارب العامة منهم؛ بسبب ذلك ، وصلب جماعة منهم ، وقطع أيدي بعضهم .

كذلك جعل السلاطين المماليك رتبة الوزير على رأس الدواوين- مثلما كان الحال دائماً - ويختار عادة من المصريين ؛ ليكون له الإشراف على الجهاز الإداري ؛ إلا أنه في عهد المماليك ، أصبح بالضرورة من المسلمين ؛ على عكس ما كان في عهود سابقة، فكان من الممكن أن يكون الوزير من القبط أو اليهود. ولكن بسبب براعة أهل الذمة في الأعمال الديوانية ؛ فإن الوزير كان يختار منهم؛وإن اشترط عليه أن يعتنق الدين الإسلامي، سواء منهم من أسر دينه وادعى الإسلام ، أو جهر به ، حتى أن الواحد منهم قد يعطي لنفسه اسماً إسلامياً ، ويبقى أصله القبطي ، مثل : بهاء الدين بن حنا ، أو عبد الله بن القسيس ، أو علم الدين يحيي المعروف بأبو كم[٢] ، ولذا عرفت الوزارة في عهد المماليك بوزارة الأقباط[٤] ؛ ولكن قد يختار للوزارة أحياناً أهل الشوكة من رجال الترك[٣] المماليك أنفسهم . ثم إنه بسبب وجود وظيفة نائب السلطنة، الذي يوصف بأنه سلطان مختصر ؛ فإن الوزير أصبح في المرتبة الثالثة[٥] ، ويقتصر عمله على الشئون المالية وحدها .

---

(١) ابن إياس ، ٢ ص٢٢ س ١٤ .

(٢) نفسه ، ١ ص ٩٩ س ٩ ، ٢٦٨ س ٨ — ٩ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٢٨ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك، ١ص ٤٧ .

(٣) حسن المحاضرة ، ٢ ص١٢٤ س ٤ ؛ المقدمة لابن خلدون ، ص ١٩٢ س ١ . لدينا إحصاء لـ ٣٦ وزيراً ، من أصل قبطي . أنظر .
Le vizirat et les vizirs d'Egypte au, : Râziq
temps des Mamluks. Islamologiques, 1980, t. XVI, p. 233.

(٤) المقدمة لابن خلدون ، ص١٩٢ س٢.

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٦٢ س ٢٢ — ٢٣ . ويسمى أيضا بالكفيل أو نائب كفيل أو بالكافل أو كافل المملكة (أو الممالك) الشريفة الإسلامية ، أو حتى نائب الحضرة =

ويجب أن نقرر أنه نظراً لاستبداد السلاطين وتغييرهم — بسبب طبيعتهم ، وعدم أخذهم بالمبدأ الوراثي — فإن الوزارة في مصر في أيامهم كانت هي الأخرى منصباً غير مستقر . فكان الوزراء يغيرون بسرعة مذهلة ، ولا سيما في عهد المماليك البرجية ؛ حتى أن ذاكرة المؤرخين لم تعد تعي أسماءهم، وأوقات حكمهم . فبعضهم قد عكث في الوزارة سنوات ؛ ولكن أغلبهم قد عكث أشهراً أو شهراً أو أياماً أو حتى يوماً . وقد ترتب على كثرة تولية الوزراء وصرفهم أن أصبحت الوزارة مهنة ، يعود إليها من صرف عنها ؛ ليتولاها عدة مرات[1] ؛ لفترات تقصر أو تطول، وقد تبذل البراطيل[2] في سبيلها . كذلك أصبح بعض الوزراء مطعوناً في كفاءتهم ، ولا تحمد طريقتهم ؛ كما أن النصارى قد اتخذوا الإسلام وسيلة للوصول إلى الوزارة . ويبدى المقريزي ملاحظة أن الوزارة أصبحت في وقته تطلق على موظف يشترى حاجيات السلطان[3] .

★

فكان عدم استقرار الوزارة أن أوجد بالتالي حالة من الفوضى في شئون مصر الإدارية ؛ مما جعل السلاطين الجادين يهتمون اهتماماً خاصاً بتثبيت نظام قضائي يتبع السلطة المملوكية العليا مباشرة ، هو نظر المظالم[4] ، الذى يعنى بحقوق الناس من تعـــدي الدولة وموظفيها ؛ فضلا عن وضع حـــد للفساد من أي وجه . فكان السلطان المملوكي يشرف عليه بنفسه[5] ، واعتبر من رسوم

= ٤٨ ، انظر . نفسه ٣ ص ٣٤٨ — ٣٥٠ ؛ صبح ، ٤ ص ١٦ — ١٧ ، ٥ ص ٤٥٣ — ٤ ، ١٠ ص ١٤٨ ، ١١ ص ١٣٥ ؛ انظر . ماجد ، نظم ، ١ ص ٤٣ وهامش .

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٤٤ س ٨ . تولاها أحدهم في عهد الغوري أربع مرات .

(٢) أنظر . أحمد عبد الرازق ، البراطيل ص ٧١ ومابعدها .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٦٢ س ١٣ ؛ انظر . ماجد ، نظم ، ١ ص ٤٨ .

(٤) لفظة « مظالم » مفردها « مظلمة » ، أو « ظلامة » من ظلم ؛ بمعنى انتهاك حق شخص . بتفصيل ، أنظر . ماجد ، نظم ، ١ ص ١٠٦ وما بعدها .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

الدولة(١) أو يفوض فيه كبار الأمراء المماليك ، مثل : نائبه (٢) ، أو حاجب الحجاب(٣)، وهو موظف كبير آخر، في إطار الوظائف المملوكية . فكان إذا رأس السلطان بنفسه مجلس نظر المظالم، مثلث فيه جميع عناصر الدولة وموظفيها الكبار ، الذين يقل عددهم أو يزيد على حسب الحاجة ؛ ولا سيما من موظفي الدواوين، وهي المصالح الحكومية ؛ وعلى رأسهم الوزير .

فكان هذا النوع من القضاء يعقد بالضرورة في القلعة بالعاصمة ، مقر السلطان ؛ حيث أنشيء له مكان خاص ، عرف : « بدار العدل »(٤)، لتمني المكان الذي تنظر فيه المظالم . ومع ذلك، فكان ينظر في أماكن أخرى في القلعة(٥) ، في مكان ذي أعمدة عرف : « بالإيوان(٦) » الكبير ، وحتى في الميدان(٧) ، الذي تحت القلعة ، وأحياناً في أثناء موكب السلطان في شوارع القاهرة(٨) .

فكان أغلب المتظلمين لمجلس المظالم من عامة المصريين في المدن ، من

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٣٣٨ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٣٤٩ س ٤ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٣٥٦ — ٣٥٧ ؛ المقدمة ، ص ١٩١ ؛ زبدة ، ص ١١٤—١١٥؛ أنظر . Ency. de l'Isl. (art Hâdjib) t. 2, p. 319. خرجت عن متطوتها الذي عرف من قبل ؛ بمعنى الذي يحجب السلطان عن الرعية ؛ في وقتهم . ماجد، نظم، ١ص ١٠٨ .

(٤) أنشأها بيبرس في عام ٦٦١/١٢٦٣ . الخطط ، ٣ ص ٣٣٣ ، ٣٣٩ . وكانت تعني مكان نظر المظالم .

(٥) مثل قاعة : الأسطبل السلطاني ، وقاعة الدكة ، ودار النيابة . أنظر . نظم ، ١ ص ١٠٨ — ١٠٩ ؛ والمصادر .

(٦) أنشأه الناصر محمد بن قلاوون في ٧٢٢/١٣٢٢ .

الخطط ، ٣ ص ٢٣٩ . عرفت أيضا بدار العدل ، ولتمييز السابقة ، سميت دار العدل القديم . أنظر .

Jorgen Nélson.
Mazalim and Dar al-'Adl under the early Mamluks. The Muslim World. Vol. LXVI, No. 2, April, 1976, p. 114 sqq.

(٧) ابن إياس ، ١ ص ٢٩٢ .

(٧) صبح ، ٥ ص ٤٥٠ .

المساكين[١] ، ومن الفلاحين ، الذين قد يأتون من النواحي البعيدة ، خارج القاهرة ومصر . وكانت شكواهم غالباً ضد الاشتطاط في جمع الضرائب من غير وجه حق ، أو اغتصاب الأموال بالقوة ، أو قسوة الجباة ، كذلك كانت شكواهم من عسف الولاة والموظفين ، أو حق من عدم كفاءتهم[٢] ، وعلى الأخص من قبل الموظفين القبط ، الذين كانوا يبالغون في التحكم في المسلمين . كما أن معظم الشكاوى أتت أيضاً من فوضى أمراء المماليك وأجنادهم[٣] ، واستطالتهم على حقوق الأهلين ؛ حيث كثرت المظالم منهم . وقد وجدت شكوى أيضاً من الأسعار والتسعير[٤] ؛ حتى أن بعض تجار العجم تظلموا لمجلس نظر المظالم ، نتيجة لاستبداد التجار المصريين بهم[٥] . وكان مجلس المظالم رحيماً بالأحرى ، برعايا الدولة من أهل الذمة ، عطوفاً عليهم ، وعلى الأخص عند التصريح ببناء الكنائس . ولكن لما كثرت الشكاوى ، وحتى لاتفه الأسباب ؛ فإن السلطان أمر بألا ترفع إليه الشكاوى ؛ إلا بعد أن تبت فيها الجهات المسئولة ؛ فإذا لم يتخذ فيها قرار ، تتقدم إليه[٦] شخصياً ؛ حرصاً منه على إزالة أسبابها .

ومع ذلك ؛ فإن مجلس المظالم لم يكن يتخذ دائماً في هذه الشكاوى قراراً حاسماً ؛ وإن كان لقرار مجلس المظالم أن ينسخ الأحكام التي صدرت من قبل ؛ حتى من القضاة[٧] ، ويوجد لها أحكاماً جديدة . وقد كان كل ما يصدر من

---

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٣ س ٩ .
(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٣٤ .
(٣) السلوك ، ٢ ص ١٠٣ .
(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٣٤ س ٢ — ٣ .
(٥) نفسه ، ٣ ص ٣٦٠ .
(٦) وذلك في عام ٨٧٦/١٤٧١ ، في عهد السلطان قايتباي . ابن إياس ، ٢ ص ١٢٩ .
(٧) الخطط ، ٣ ص ٣٠٧ س ٦ .

حكم في هذه الشكاوى يسمى : « الحكم »[١] . ولعل المماليك بسبب أنهم من الترك ، كانوا بالاضافة إلى تطبيق الشرع ؛ يعملون على تطبيق ما سمى بالياسة أو اليزق[٢] ، وهو الأعراف التى كانت توجد فى موطنهم فى آسيا ؛ وإن سموه السياسة الشرعية ؛ لكى يجعلوه يتصل بالشرع الإسلامى .

*

ولقد كان المماليك منذ قيام دولتهم فى مصر ، يستحوذون على أراضيها المزروعة ، بقصد استغلالها ؛ بحيث أصبحت أشبه بملكية خاصة لطبقتهم ، على حسب درجاتهم ، من السلطان إلى أصغر مملوك . فكان جعل الأرض المصرية فى ملكية الدولة له جذور فى الإسلام من أيام الحكم الأموى والعباسى ، وحتى فى مصر من أيام الفراعنة . وقد سمى استيلاء المماليك على أرض مصر فى عهدهم : « بالإقطاع »[٣] ، أو « بإقطاع الاستغلال » ؛ كما أطلقت عليه أسماء أخرى ، مثل[٤] : « عبرة » ؛ بمعنى دخل سنوى ، و« خبز » جمعها « أخباز » ، التى لها معنى التعيش ، وذلك على أساس أنه مقرر لهم كرزق ، لقاء دفاعهم عن أرض الإسلام ؛ حيث لم يكن الفقهاء فى عصرهم يرون فيه شيئاً مذموماً[٥] ، ولم يطالبوا بإلغائه ؛ فكانت الأرض تقسم بينهم إلى اربعة وعشرين جزءاً ، منها[٦] : أربعة للسلطان ، وعشرة للأمراء ، وعشرة للجنود . وقد لجأوا إلى حصر أرض مصر

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٧٥ .

(٢) الخطط ، ط . بولاق ، ٢ ص ٢١٩ ؛ ابن تغرى بردى ، حوادث ، تحقيق Popper ، ص ١٢٩ .

(٣) الخطط ، ١ ص ١٤١ وما بعدها ؛ صبح ، ٣ ص ٤٥٧ — ٤٥٨ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Ikta') 1éd., t. 2, p. 489-491 ؛ الباز ، الإقطاع الحربى بعصر زمن سلاطين المماليك ، مصر ١٩٥٦ ؛ طرخان ، الإقطاع الإسلامى ، مصر ١٩٥٧ ؛ انظر . ماجد نظم المماليك ، ١ ص ٦٩ وما بعدها . الإقطاعات تسمى أيضا الأقاطع . حوادث ، ص ٣٣٥ .

(٤) الخطط ، ١ ص ١٤٢ س ٨ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٥) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٣٢٧/١٩٠٩ ، ص ١٧١ وما بعدها .

(٦) الخطط ، ١ ص ١٤١ .

عن طريق ماعرف بالروك[١] ، أي قياس الأرض ؛ حيث كان وسيلة لإعادة توزيع الأرض المقطعة . وقد ظهر من الروك الذى تم فى عام ٧٢٤ — ١٣٢٤/٧٢٥ — ١٣٢٥ ، أن مساحة الأرض المزروعة بلغت ثلاثين مليون فدان (أى حوالى ١٩١٠٠٠٠ كيلو متراً مربعاً) .

وبعدئذ ؛ فإن أرض مصر لم تكن كلها إقطاعاً للمماليك وحدهم بملاحظة المقريزى ؛ فقد وجد فى وقت دولة المماليك فلاحون مصريون أثرياء[٢] — من العامة — ، كما أن أوراق الجنيزة ، الخاصة بأهل الذمة تذكر الملك الحر لهم ، بل ظهر فى وقتهم نظام المقايضة أو التنازل ، بأن يبيع المقطع إقطاعه بالمال « النزول[٤] » ، إذ كان أعيان المصريين يشترون الأراضى من المماليك[٥] ، ويتوارثونها . ولكن الدولة المملوكية من ناحيتها ، عملت على إنشاء « ديوان البدل[٦] » ؛ لينظم هذه المسألة ، ولتأخذ الدولة الإقطاع فى يدها ، وتدفع للمملوك المال ، حتى لا يكون بين أيدى أهل البلاد .

---

(١) الروك كلمة مصرية قديمة . هذا الروك اشتهر بالروك الناصرى ؛ السلوك ، ٢ ص ٨٠٣ ؛ الخطط ، ١ ص ١٤١ ؛ النجوم ٩ ص ٤٣ . ومن قبل وجد الروك الحسامى فى عهد السلطان لاجين (سـ ٦٩٨/١٢٩٨) . زبدة الفكرة ، مخطوطة ٢٤٠٢٨ . هذا الاحصاء جاء بناء على بحث استمد أرقامه من أسماء الأقاليم المصرية ومدنها وقراها ، فى حوالى اربعمائة مكان ؛ مأخوذة من سجلات الاقطاع ، التى أوردها المؤرخون العرب . أنظر . نقد للبحث ، وهو من
: Halm, Heinz
Egypt in the Mamluk Registers of Fiefs I. Upper Egypt and Fayyum,
Tübinagen (وهو بالألمانية) ؛
أنظر . Jürgen Brinks فى Mundus .
العدد ١٩ ، ١٩٨٣ ، ص ١٧ — ١٨

(٢) المقريزى ، إغاثة ، ط ٢ ، ص ٧٤ — ٧٥ ؛ الخطط ، ٣ ص ٢٥٦ س ١٢ .

(٣) مثلا Gottheil فى مقالاته ، وكذا القوصى فى بحثه

(٤) الخطط ، ٤ ص ١٢٦ س ٣ ؛ ابن حجر ، الدرر ، حيدر آباد ، ١٣٥٠ ، ٤ ص ٣٦١ . انظر . محمد أمين ، فهرست وثائق القاهرة ، ١٩٨١ المعهد الفرنسى ص ص ٣٦٥ — ٣٨٣ . وهى عقود بيع وشراء ووراثة وهبة ؛ اشتريت من بيت المال .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٥٦ س ١٢ ، ٤ ص ١٢٦ س ٤ ؛ ابن حجر ، الدرر ، ٤ ص ٣٦١ .

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٥٦ س ٧ — ٨ .

وقد ترتب على قيام نظام الإقطاع فى مصر، أن عمدت الدولة على إجبار فلاحى مصر ، على استغلال[1] الأرض لحساب طبقة المماليك بجميع فئاتهم[2] ؛ على أساس أن هؤلاء طبقة حربية ، لا تقوم بزرع الأرض؛ مما جعل الفلاحين أجراء ، لايستطيعون مغادرة الأرض . كذلك ظهرت هيئة كبيرة من الموظفين[3] ، مثل : القياسين ، والمساحين[4] ، وقضاة العمل ، والشهود ، والشاد الذى يجبى الضريبة ، والكتاب ، والكيالين ، والشيالين ، والجنود ، والنواتية ، وعلى رأسهم « الكشاف[5] »الذين أصبحوا لهم سلطة الولاة فى قرى مصر وكفورها. فقد كانت الدولة تفرض على الأرض ضريبة سميت : « الخراج » ، تؤخذ مالا وعيناً، لتوزع على طبقة المماليك من السلطان إلى أصغر مملوك . ومع ذلك ؛ فإن الدولة المملوكية كانت تأخذ جزءاً من الخراج ، لإقامة الجسور[6] ، وحفر القنوات[7] ، وإقامة القناطر ، وغير ذلك من المعائر المفيدة ؛ حتى أن السلطان المملوكى بنفسه وأولاده والأشراف والجنود والجيوش تذهب إلى البحيرة — وهى أحد أقاليم مصر — لحفر أحد ترعها[8] . ولكن المؤرخ المقريزى[9] يبدى ملاحظة فى أن المقطع ؛ كان من الممكن أن يستغل إقطاعه بنفسه ، أحسن مما تستغله الدولة .

يضاف إلى ذلك أن الدولة المملوكية كانت تفرض ضرائب أخرى للصرف على

---

(١) إغاثة ، ط ٢ ، ص ٤٦

(٢) حددت الدولة فئة مالية لكل إقطاع . النجوم أ ، ٦ ص ٤٣٨ س ٦ .

(٣) الخطط ، ١ ص ١٤٢ س ٢١ ، ١٤٣ س ٦،٩ .

(٤) صبح ، ٥ ص ٤٦٦ .

(٥) زبدة ، ص ١٢٩ — ١٣٠ ؛ صبح ، ٤ ص ٢٥ — ٦٥ . عن معنى كلمة الكشف يعنى الاهتمام بالأرض وإنتاجها . انظر . Dozy : Suppl., 8, p. 471.

(٦) صبح ، ٣ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ ؛ ابن إياس ، ١ ص ١١١ — ١١٢ ، ٢٥٤ — ٢٥٦ .

(٧) يوجد موظف اسمه : شاد القنوات . زبدة ، ص ١١٥ .

(٨) مخطوطة برقم ١٧٠٤ ورقة ٤٨ وما بعدها .

(٩) الخطط ، ١ ص ١٥٦ (السطور الأخيرة) .

أمور الدولة فى كل أنحاء البلاد ، سميت : « الحقوق السلطانية[1] » ، أو « المعاملات الديوانية » ، أو « الموجب » ، وأهمها ضريبة المكس[2] » ، التى كانت تفرض على كل شىء عند وروده إلى المدن ، وسميت « هلالى[3] » أيضاً ؛ لأنها تستأدى على حكم الشهور الهلالية ؛ بعكس الخراج ، الذى كان يجبى على حسب السنة الشمسية أو القبطية . فقد كانت ضريبة المكس فى عهدهم تمتد إلى أمور لم تكن موجودة قبلهم ؛ شملت كل شىء إلا الهواء ، واعتبرت من ظلم المماليك ؛ حتى أنها فرضت على هدايا الفلاحين ، والأفران ، والفواكه ، والحيوانات ، وكسح الأوساخ . فكان المكس يجمعه عرفاء ؛ وهم خبراء فى الأسواق فى المهن والتجارات .

كذلك كانت الدولة تفرض ضرائب على التجارات الواردة على الثغور[4] ، مثل : الإسكندرية ورشيد ودمياط وتنيس وعيذاب وأسوان فى مصر . ولا ريب أن وقوع مصر فى مفترق الطرق التجارية ؛ جعل حصيلة الدولة من ضريبة التجارة الدولية كبيرة . فقد كانت الدولة تفرض ضريبة « العشر[5] » ؛ على بضائع تجار المسلمين ، أما بضائع التجار الأجانب ، فيفرض عليها « الخمس[6] » ؛ وحينما تصل مركب إلى ميناء مصر ؛ سواء أكانت للمسلمين أم للأجانب ؛ فإن خبر وصولها يصل إلى السلطان فى القاهرة ، عن طريق الحمام الزاجل[7] ، الذى يرسله

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١٤٦ س ٩ ؛ ابن إياس ، ٣ ص ١٠ س ١٠ . تدخل فيها ضريبة الأملاك التى تفرض على كل غرفة « قاعة » ، وعلى كل طبقة . الخطط ، ٤ ص ١٢٦ س ١٦ .

(٢) السلوك ، ٢/١ ص ٣٨٤ س ١ ؛ الخطط ، ١ ص ١٧٠ س ١٠ . مكس ، جمعها مكوس ، أو أمكاس ؛ وهى ضريبة قديمة ؛ قد عرفت فى العصر الجاهلى . عن : أنظر . Dozy : Suppl, 2, p. 606.

(٣) الخطط ، ١ ص ١٦٦ وما بعدها .

(٤) نفسه ، ١ ص ١٧٦ س ١ — ٢ .

(٥) نفسه ، ١ ص ١٦٧ س ١ .

(٦) صبح ، ٣ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

(٧) أنظر . Pernoud : Les villes Marchandes, p. 48.

الوالى ، وحينما ترسو المركب فى مكانها المخصص ؛ فإن يصعد عليها رجل من قبل السلطان ، يسجل جنسيتها ، ونوع الحمولة ، ثم يسحب الشراع والدفة ، ولا يردا إلا بعد دفع الضريبة .

أما ضريبة الرءوس ، التى كانت تفرض على أهل الذمة من القبط واليهود ؛ فإنها عرفت فى عهدهم : « بالجوالى[1] » ، وهى تسمية ظهرت منذ عهد الفاطميين ؛ بسبب أن معظم أهل الذمة فى مصر ، كانوا قد تحولوا إلى الإسلام ؛ وإن أطلق عليها أحياناً « جزية[2] » ؛ مما يدل على التمسك بالطابع الإسلامى الأولى لهذه الضريبة ؛ حيث يذكر القلقشندى[3] انتشار ديوان الجـــوالى فى طول البلاد وعرضها ؛ مما يبين انتشار الإسلام فى مصر فى كل مكان أيضاً . فـكانت هذه الضريبة تقدر على حسب غنى الفرد ؛ ففى عام ١٤١٢/٨١٥ ؛ أصبحت على الغنى منهم ٤ دنانير ، وعلى الوسط دينارين ، والفقير ديناراً واحداً . وعلى العـكس ، كان المسلمون يدفعون الزكاة للدولة ؛ ووجد بها موظف كبير اسمه : ناظر الزكاة[4] ، فسميت لذلك : « زكاة الدولة[5] » .

ومع أنه فى عصر الفاطميين ؛ كان من المبادىء المـــالية فى الدولة تقديم الميزانية[*] كتابة ؛ لإحصاء قدر الارتفاع والنفقات ؛ إلا أنه فى عصر المماليك ؛ لانسمع عن تقديم الميزانية كتابة ؛ وإن ذكر المقريزى أوراقاً تشتمل على الرواتب وغيرها ، من مصروف الدولة ؛ اطلق عليها الاستيمار[6] . فـكانت أشهر فئات

---

(١) الخطط ، ١ ص ١٧٣ س ٥ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٦٢ — ٤٦٣ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl. (art Dyizya) t. I, p. 1083.
؛انظر . نظم الفاطميين ، ١ ص ١٢٥ .

(٢) ابن حجر ، الدرر ، ٣ ص ٥١٨ .

(٣) نسمع عن ناظر الجوالى فى دمياط .صبح ، ١٠ ص ٤٠٢ .

(٤) الخطط ، ١ ص ١٧١ س ١٥ وما بعدها .

(*) نفسه ، ١ ص ١٣٣ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٢٥ .

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٦٤ س ١١ ، ٤ ص ١٢٤ س ٢٣ ؛ انظر . على إبراهيم ، المماليك البحرية ، ص ٣٢٦ وهامش (١١) ؛ انظر . نظم المماليك ، ١ ص ٨١ .

العملة عند المماليك ، هو الدينار الجيشى[1] ؛ بسبب أن المماليك طبقة عسكرية ، وهو من ذهب والدرهم المصرى[2] ، وهو من فضة ، والدرهم الأسود ، الذى لانعرف سبب تسميته هكذا، والدرهم المدور الذى يقال له الكاملى ، وجعل فيه النحاس قدر الثلث،ومن الفضة الثلثين[3] ، وغير ذلك من الأسماء . كذلك كثرت فى عهدهم الفلوس [4] البرنزية ، التى تخلط فيها الفضة بقطع الحـــديد والنحاس والرصاص ، وصارت المعاملة بها وفى أول عهددولتهم : فكان ينقش فى العملة اسم الخليفة مع اسم السلطان ؛ إلا أن بيبرس ما لبث أن ألغى نقش اسم الخليفة[5] ، فصارت تسك من وقتذاك باسم السلطان وحده ، الذى كان يطبع رنكه[6] ـ أى علامته ـ أيضاً ؛ حيث لدينا عملات[7] عديدة بأسماء السلاطين ؛ كانت تسك فى القاهرة والإسكندرية وقوص والشام كذلك تميزت العملة المملوكية بعلامة خاصة مربعة الشكل ؛ وهو ما عرف فى عهدهم باسم : « بقجة[8] » ؛ لتدل على جودتها ؛ إلا

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٥٠ (آخر السطر) ؛ صبح ، ٣ ص ٤٤٣ ؛ انظر . Mayer : Some problems of Mamlûk Coinage. London, 1936, p. 439 sqq.

(٢) الخطط ، ١ ص ١٧٠ س ٢٥ . ويوجد الدرهم الكبير ، والدرهم الصغير .

(٣) نفسه ، بولاق، ١ ص ١١٠

(٤) أصل كلمة فلوس جمع فلس، يونانى أو لاتينى : الخطط، ١ ص١٧٧ .

(٥) ذكر اسم الخليفة المستعصم بالله فى عهد أيبك ، ولم يذكر اسم خليفة فى عهد قطز ؛ لأن المغول كانوا قد قتلوا الخليفة ، ثم ذكر اسم الخليفة المستنصر بالله ، الذى أقامه بيبرس فى مصر .

انظر . Lavoix t. 3, p. 274 (700) ; 275 (701) ; 278 (206) ; 281 (712) ; (713, 282. (715)

(٦) المقريزى ، رسالة النقود الإسلامية ، ط . قسطنطينية ١٢٨٢ ، ص ١٥ ؛ أنظر . Artin Pacha : Etude du Blason en, Orient, p. 67.

(٧) انظر . Lavoix : Catalogue, t. 3. cf.

(٨) السلوك ، ٢/١ ص ٢٠٦ س ٤ . ومع ذلك ؛ لم تظهر على العملة التى بين أيدينا .

أنه فى عهدهم كثر فى عملتهم الزغل(١) ، أو البهرج ، أو غير الخالص ، أى العملة المزيفة ؛ مما كان يجر إلى شكوى الناس وتذمرهم(٢) ، وسب رجال الدولة .

*

وكانت الدولة المملوكية تستهدف الاهتمام بالناحية الاقتصادية ، وكان مجهودها فى هذا المجال كبيراً ؛ مما يدل على فهم واسع لمسائل الاقتصاد فى عصرها . فقد كانت مصر تقوم بنقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وهو النشاط التجارى الذى بدأ منذ أيام الفاطميين(٣) ؛ وإن عمل المماليك على دعمه ؛ كما يظهر من مكاتبات صدرت عن دولتهم بتشجيعها وتنظيمها(٤) ، مثل ذلك المنشور ، الذى أصدره السلطان قلاوون إلى التجار الذين يفدون على مصر من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم ... يرحب فيه بهم ، ويصف لهم محاسن مصر ، ويغريهم على القدوم إليها بمتاجرهم ؛ فيقول : « ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن قام أو تردد ... فليعزم ؛ عزم من قدر له فى ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ذخيرة ؛ لأنها فى الدنيا جنة عدن لمن قطن ؛ ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ... »

فقد كانت مصر تنقل إلى أوربا توابل الهند والصين ، التى هى بالنسبة لأهل العصور الوسطى ، مثل : الشاى والقهوة فى عصرنا ، فتأخذ أوربا الجنزبيل والقرفة

---

(١) السلوك ، ٢/١ ص ٢٠٥ س ١٠ ؛ النويرى ، نهاية ، مخطوط دار الكتب ، ٣١ ، ورقة ١٢١ ؛ حوادث ص ٢٩٥ س ٧ ، ٩ .

(٢) حوادث ، ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

(٣) أنظر : Lewis : The Fatimids and route, to India. R.S.E. de l'Univ. Is, VI, 1947-1950, p. 53.

(٤) المقريزى ، السلوك ، ٣/١ ص ٧٤٢ ؛ ترجمة Quat. ، ٢ ص ٩٧ — ٩٨ ؛ صبح ، ١٣ ص ٣٣٩ — ٣٤٢ ؛ انظر Les Marchands d'épices, p. 90-99.

(٥) صبح ، ١٣ ص ٣٤٠ — ٣٤١ .

والشاى والبهار والشب والعود والسكر والعاج والمنسوجات ؛ ولا سيما الفلفل ، إلى غير ذلك . أما مصر ؛ فإنها كانت تستورد ما تحتاجه من أخشاب ومنسوجات ، ولاسيما من رقيق قوقازى من جركس وأرمن وخطائية وأبخاز وكرد[1] ، ومن عناصر أوربية من بلاد اليونان .

وقد ترتب على انتماش التجارة مع أوربا عن طريق مصر ، أن ظهرت طائفة من التجار تخصصت بتجارات الشرق الأقصى مع الهند والصين ، ولا سيما تجارة التوابل؛ حتى أنه كان أطلق على دعاة الفاطميين فى هذه النواحى اسم : بوهرا[2] ؛ أى تاجر البهار؛ أما فى مصر نفسها ؛ فكان يطلق عليهم عموماً اسم[3] : الكارم أو الكارمى أو الكارمية — جمع كارمى — فكانوا أشبه بنقابة تجارية ؛ لهم رئيس اسمه : رئيس الكارمية ، أو وكيل التجار ، أو حق شهبندر التجار ؛ حيث كانت هذه الرياسة فى أسر معينة . ولعل اللفظ « كارم[4] » ؛ قد أتى من اسم « كانم » للواقعة فى جنوب السودان ؛ بسبب أن تجاراً من هذا البلد عاشوا فى مصر ، وتمصروا على مر الأجيال ، وتخصصوا بهذه التجارة ؛ فكانوا يبيعونها للتجار الأجانب ، كما لعل هؤلاء التجار أول ماجاءوا من نواحى المحيط الهندى من عدن ؛ إلا أنهم منذ الأيوبيين عاشوا فى مصر ، وانتقل عملهم إلى البحر الأبيض ؛ وإن أصبحت « الكارم » تطلق على أى تاجر يشتغل بتجارة التوابل ، بما فيهم النصارى واليهود[5] ، ممن عاشوا فى مصر ؛ حيث لدينا وثائق الجنيزة

---

(١) رحلة طافور ، ص ١٣٤ .

(٢) أنظر . Lewis : Op. Cit., p. 53 .

(٣) صبح ، ٣ ص ٤٦٨ — ٤٦٩ ، ٤ ص ٢٣ ، ٥ ص ٢٧٠ — ٢٧١ ؛ انظر . Heyd. : Hist. du commerce, 2, p. 59. Wiet : Op. Cit., p. 83 sqq,

(٤) أنظر . Dozy : Suppl., 2, p. 400.

(٥) يذكر الرحالة طافور وجود نصارى يتاجرون فيها رحلة ، ص ٧٨ ؛ انظر . عطية القوصى ، أضواء جديدة على تجارة الكارم ، من واقع وثائق الجنيزة ، المجلة التاريخية المصرية ، ٢٢ ، ١٩٧٥ ، ص ١٧ وما بعدها ؛ صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة =

الخاصة باليهود ، التي تشتمل على أسماء عائلات يهودية مغربية عاشت في مصر ، واشتغلت بهذه التجارة .

وفي أول الأمر ، فرض المماليك الضرائب الباهظة على هذه التجارة ؛ فكان الموظف الذي يشرف على جبايتها في مصر يسمى : ناظر تجار الكارمي[١] ، أو مستوفي البهار والكارم ؛ بل ولأهمية هذه التجارة ، قد تضاف إلى تخصصات الوزير[٢] ، الذي هو على رأس الإدارة ، بما فيها شئون المال . كذلك عمد بعض السلاطين إلى احتكار هذه التجارة ، عن طريق هؤلاء التجار[٣] ، أو عن طريق متخصصين ؛ يقيمون في موانيء مصر الكبرى مثل : الإسكندرية العظمى ، ودمياط والبرلس ورشيد وعيذاب[٤] ؛ وهذه الأخيرة ، كانت أعظم موانيء ساحل البحر الأحمر ؛ بسبب أن مراكب الهند تحط فيها البضائع .

أما في خارج مصر ، في الامبراطورية المملوكية ؛ فقد كانت عدن[٥] ؛ هي المرسى العظيمة من بلاد اليمن لهذه التجارة ، ووجد فيها موظف مملوكي كبير اسمه : شاد الكارمي[٦] . ولقد وصف المؤرخ ابن فضل الله العمري[٧] ؛ حركتها التجارية ؛ حيث كان يأتيها التجار من الصين والهند والسند والعراق والبحرين ومصر والزنج والحبشة ، فيحمل منها حمل الفلفل ، الذي يساوي خمسين ديناراً في

= مصر في العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، ٤/٢ ، مايو ١٩٥٢ ، ص ١٢ — ١٤ .

(١) صبح ، ٤ ص ٣٢ .

(٢) نفسه .

(٣) المقريزي ، السلوك ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٣٣٢٧ ، ورقة ٥٩٢ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٢٥ .

(٤) الخطط ، ١ ص ٣٢٧ .

(٥) صبح ، ٥ ص ١٠ — ١١ ؛ انظر .
Marchand : Op. Cité. p. 93

(٦) صبح ، ١١ص ٣٢٠ .

(٧) مسالك الأبصار ، ص ٥٢ .

الخاصة باليهود ، التي تشتمل على أسماء عائلات يهودية مغربية عاشت في مصر ، واشتغلت بهذه التجارة .

وفي أول الأمر ، فرض المماليك الضرائب الباهظة على هذه التجارة ؛ فكان الموظف الذي يشرف على جبايتها في مصر يسمى : ناظر تجار الكارمي[١] ، أو مستوفي البهار والكارم ؛ بل ولأهمية هذه التجارة ، قد تضاف إلى تخصصات الوزير[٢] ، الذي هو على رأس الإدارة ، بما فيها شئون المال . كذلك عمد بعض السلاطين إلى احتكار هذه التجارة ، عن طريق هؤلاء التجار[٣] ، أو عن طريق متخصصين ؛ يقيمون في موانيء مصر الكبرى مثل : الإسكندرية العظمى ، ودمياط والبرلس ورشيد وعيذاب[٤] ؛ وهذه الأخيرة ، كانت أعظم موانيء ساحل البحر الأحمر ؛ بسبب أن مراكب الهند تحط فيها البضائع .

أما في خارج مصر ، في الأمبراطورية المملوكية ؛ فقد كانت عدن[٥] ؛ هي المرسى العظيمة من بلاد اليمن لهذه التجارة ، ووجد فيها موظف مملوكي كبير اسمه : شاد الكارمي[٦] . ولقد وصف المؤرخ ابن فضل الله العمري[٧] ؛ حركتها التجارية ؛ حيث كان يأتيها التجار من الصين والهند والسند والعراق والبحرين ومصر والزنج والحبشة ، فيحمل منها حمل الفلفل ، الذي يساوي خمسين ديناراً في

= مصر في العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، ٤/٢ ، مايو ١٩٥٢ ، ص ١٢ — ١٤ .

(١) صبح ، ٤ ص ٣٢ .

(٢) نفسه .

(٣) المقريزي ، السلوك ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٣٣٢٧ ، ورقة ٥٩٢ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٢٥ .

(٤) الخطط ، ١ ص ٢٢٧ .

(٥) صبح ، ٥ ص ١٠ — ١١ ؛ انظر .

Marchand : Op. Cité. p. 93

(٦) صبح ، ١١ ص ٣٢٠ .

(٧) مسالك الأبصار ، ص ٥٢ .

القاهرة ، ويباع فى الإسكندرية بثلاثين ومائة دينار[1]. فقد كان سلاطين المماليك يحكمون اليمن بطريق مباشر؛ إذ كان همهم الأول أن يسيطروا على باب المندب[2]، وساعد على ذلك أن طبيعة بلاد اليمن ، قسمتها بين حكام محليين متعددين ؛ فكانوا يرسلون أسطولهم إلى إلى زبيد ، وفى إحدى موانى اليمن التجارية الهامة، للمرابطة فيها . ولكن ظهر لحكام اليمن المحليين ميل للاستقلال عن سلطة المماليك ؛ بحيث أصبحوا يكاتبون ملوك الصين[3] ، ويتاجرون فى الفلفل لحسابهم[4] . ومع ذلك ؛ فللديناى رسالة بتاريخ ٦٨٢/١٢٨٣ من أمير سيلان — السيلان — إلى قلاوون ؛ يبين فيها أنه رفض أن يتاجر مع أمير من اليمن ؛ ليحجز كل تجارته لسلطان مصر[5]، ويطلب منه إرسال التجار المصريين وحدهم .

وعلى كل حال ؛ لما انحسر تدريجياً نفوذ دولة سلاطين المماليك فى اليمن ؛ فإن برسباى جعل ميناء جدة[6] ، يحل محل عدن ، وأصبحت أعظم مراسى الدنيا

---

(١) أنظر . Lane-Poole : Egypt, p. 340.

(٢) صبح ، ٨ ص ٧٦ — ٧٧ ؛ انظر . Marchand Op. Cité., p. 88-9.

(٣) حكمها دولة بنى رسول ، الذين ينتهى نسبهم إلى الغساسنة ، من ٦٢٦ — ٨٥٨ / ١٢٢٩ — ١٤٥٤ ؛ فهم الذين خلفوا الأيوبيين ، وأعلنوا أنهم يحكمونها نيابة عن الخليفة . الخزرجى ، العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، مصر ١٩١٩ . كذلك ناصب بنو طاهر من بعدهم (٨٥٨ — ١٤٥٤/٩٣٣ — ١٥٢٦) الجراكسة العداء ؛ حتى أن برسباى أرسل حملة إلى اليمن فشلت (السلوك ، ٢ ص ٧١٥ ؛ النجوم ، ١٤ ص ٢٨٤ — ٢٨٥) ؛ كما أرسل الغورى الأمير حسن الكردى ، الذى استولى على زبيد، وترك بها حامية هاجمت صنعاء ، وقتلت السلطان اليمنى عامر بن عبد الوهاب (٨٩٤ — ١٤٨٩/٩٢٣ — ١٥١٧) . يحيى بن الحسين ، غاية الامانى فى أخبار القطر اليمانى ، الجزء الثانى ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٤٢ — ٦٤٣ ؛ انظر . قاسم عبده ، الجراكسة فى البحر الأحمر ، ص ١٣٥ .

(٤) ابن حجر ، ٣ ص ٥٢١.

(٥) صبح ، ٨ ص ٧٦ — ٧٧ .

(٦) الخطط ، ٦ ص ٣٢٧ س ٢٥ .

فى تجارة البهار ، ووجدت فيها حامية مملوكية عسكرية ، وناظر وشاد[١] لهذه التجارة ، وأصبح متوليها يعرف بنائب جدة ، ولقبه : نائب السلطنة الشريفة بالأقطار الحجازية[٢] ؛ يقيم فى مكان اسمه : دار النيابة ، أو فرضة السلطان[٣] ؛ فكانت له سلطة مكاتبة[٤] ملوك الهند وغيرهم .

وقد أصبح لتجار الكارم — البهار — أسطول من المراكب ؛ يسير فى جميع البحار والمحيطات ؛ فوجد ما عرف بمراكب[٥] الكارم ، التى كانت تتردد على أكثر من عشرين ميناء على ساحل الهند وحده ؛ فكانت بضائع إحدى سفنهم تقدر بمليون ونصف دينار[٦] ، الأمر الذى كان يظهر منه عظم ثروات تجار الكارم ولما احتكرت دولة المماليك هذه التجارة أصبح لها أيضاً أسطول كبير يقوم بنقلها ؛ حتى أن الرحالة ابن بطوطة[٧] قد ذكر أنه كان لسلطان مصر ٣٦ ألف مركب تسير وحدها على النيل ، أما ابن شاهين[٨] ؛ فيقول : إنه كان يوجد على ساحل مصر القديمة ماينيف عن ألف وثمانمائة مركب[٩] ؛ حيث تشرف عليها هيئة خاصة من الموظفين ، على رأسهم شاد المراكب[١٠] . وتخوفاً على الكارم ،

---

(١) النجوم ، ١٤ ص ٣٦٧ — ٣٦٩ .

(٢) يستدل على ذلك من نقش على جامع جانى بك الذى تولاها فى الفترة من ٨٤٦ — ١٤٤٢/٨٤٩ — ١٥٤٥ . أنظر .
CIA Egypte Nos. 283-285, p. 411-421.

(٣) فاتق بكر ومصطفى رمضان ، أهمية ثغر جدة ، ص ٢٦١ وما بعدها (سمنار قسم التاريخ — البحر الأحمر) .

(٤) النجوم ، ٧ ص ٧٧٥ — ٧٨١ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ؛ ٣ص ٥٧ — ٩٠ ؛ منتخبات من حوادث ، ص ٥٦٦ — ٥٦١

(٥) أنظر . عطية القوصى ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٦) أنظر . Fischel : The Spice, Trade in Mamluk Egypt. J.E.S.H.O., VI, 1958, p. 168.

(٧) أنظر . Ashtor : The Karimi, Merchants. J.R.A.S. April, 1956, p. 53-54.

(٨) زبدة ، ص ٢٧ .

(٩) نفسه ، ص ٢٧ .

كانت تخصص لحمايته بعض المراكب[1]، حتى أنه فى أيام الفاطميين قد خصصت بعض المراكب بعيذاب[2] وسواكن وما حولهما؛ أما فى أيام المماليك؛ فقد كانت بعض قوافل الكارم تقطع الطريق براً، وخصصت لها الجند الخيالة لحمايتها.

*

ولا شك أن ازدهار التجارة العالميـــة عن طريق مصر سببه هو سياسة المماليك السلمية بملوك وحكام أوربا، بعد انتهاء الحروب الصليبية؛ وذلك على الرغم من أنه بعد سقوط عكا، منع البابا نيقولا الرابع Nicolas IV (١٢٨٨ — ١٢٩٢) م، التجارة معهم[3] بل وجد من المفكرين الأوربيين مثل ريموندس لوللس Raymondus Lullus[4] (١٢٣٥ — ١٣١٥ م)؛ الذى حض الناس على الامتناع عن شراء توابل من مصر، لمدة ستة أشهر؛ فهذا فى رأيه كفيل بتدميرها. فالحرب الفعلية بين الأوربيين والمماليك قد انتقلت إلى حرب اقتصادية، يغذيها البابوية والمفكرين؛ ومع ذلك؛ فقد استمرت التجارة، وأصبح هم ملوك الدول الأوربية التوصية بتجارهم[5]؛ بحيث كثر الرسل إلى مصر يحملون الهدايا. وحق البابا جريجورى الحادى عشر Grégoire X (١٣٧٠ — ١٣٧٨ م)؛ سمح لكريت — أقريطش — بأن تتردد سفنها على الإسكندرية، فى عام ١٣٧٢/٧٧٤[6]؛ حيث كان حاكمها الذى لم يكن ملكاً،

---

(١) نفسه، ص ١١٥.

(٢) أنظر. دارج، عيذاب، مجلة نهضة أفريقيا، أغسطس ١٩٥٨.

(٣) من من بابوات أفينون Avignon. بتفصيل: نعيم، الطارق ص ١٩٤. ومثل البابا Clement V (من ١٣٠٥ — ١٣١٤)، الذى أصدر أمراً بحرمان كل من يتعامل مع الشرقيين. انظر Diplom, vol. V Strie Primo, p. 74-5.

(٤) بتفصيل؛ انظر. Heyd : Hist. du commerce du Levant, t. 2, p. 439.

(٥) صبح، ٨ ص ١٢٣ — ١٢٤. أنظر رسالة ميخائيل Michael، دوق البندقية، بتاريخ ٨٩٤/١٤١١ وغيره.

(٦) أنظر. فهرست وثائق البندقية : Diplom, II, Vol. IX (99)

وربما كان له لقب الدوج — كما يظهر فى مخطوطة[1] عربية — كانت له دار ضرب سابقة بالإسكندرية ، فى أيام السلطان المملوكى الناصر بن قلاوون ؛ لأن تجار أقريطش كانوا على الخصوص تجار ذهب وفضة ؛ يحضرونها من معادن بلادهم . وما لبثت أن أطلقت حرية التعامل التجارى للدول المسيحية جميعاً مع المماليك من قبل البابا ، إلى وقت سقوط دولتهم ؛ ولا سيما أن التجارة مع هذه الدول المسيحية ، لم تكن بين تجار وتجار فقط ، وإنما على الخصوص بين دولة المماليك ودولهم ؛ بحيث كانت مراكب الأوربيين عديدة فى موانىء مصر .

فتوجد رسائل عديدة متبادلة بين سلاطين المماليك وملوك وحكام أوربا عن هـــذا النشاط التجارى ، فى أرشيفات الدول الأوربية ، بعضها بالعربية . بل أصبحت لهم مكاتبات[2] ترد إلى الديوان المملوكى من الفرنج ؛ وهى مختومة بشمع أحمر ؛ فيفك الختم؛ ويترجم بترجمة الترجمان بالأبواب السلطانية ؛ ويكتب تعريبه فى ورقة مفردة ؛ ألصقت بعد كتابة الجواب من التعريب ؛ فكان يوصف الواحد من ملوك وحكام أوربا بأنه : صديق الملوك والسلاطين .

ولعل دويلات المدن الإيطالية كانت أنشط مافى أوربا فى التجارة مع المماليك ؛ بسبب أنها كانت تملك الأساطيل . فتذكر مراسلات بالعربيـــة مع فلورنسا ، التى سمى صاحبها — وهم من آل مديتشى Midici — بصاحب إفرنتيه ، وكانت قد استولت على بيزة ؛ امتيازات[3] منحت له ، أصبحت نموذجاً

---

(١) مخطوطة فى .B.N ، لمؤلف مجهول، ورقات ٤٢ — ٤٣/سنة ٧٠٤ هـ.

(٢) صبح ، ٨ ص ٣٥ ، ٣٦ ، ١٢٣ .

(٣) نفسه ، ٨ ص ٤٥٧ — ٤٦٩ ؛ ٤٧١ — ٤٧٣ . ولا سيما تلك المجددة بتاريخ ٨ ذى القعدة ٩١١ / ١٢ أبريل ١٥٠٦ . أنظر . نعيم زكى ، الطرق ، ملحق ٢٥ وأيضا : Amari : Diplomi Arabi XLV-LII, 84
ذهب إليها مبعوث السلطان ، وهو خواجه محمد بن محفوظ عدة مرات ، منها مرة فى ذى الحجة ٨٨٣ / فبراير ١٤٧٩ . أنظر : Amari
= Op. Cit., p. 361

المعاملات التجارية مع حكام وملوك أوروبا . أما جنوى، التي كانت تحكمها مؤسسة عسكرية تسمى ماهون Mahone ؛ فإنها كانت تؤجر سفنها إلى تجار المسلمين، أو تنقل الرقيق على سفنها[1] ، ولا سيا أنه كانت لها مستعمرة كافا Caffa على البحر الأسود ، حتى ان البابوية اتهمت هذه الدويلة بسوء النية بسبب تجارتها، وأصدرت مرسوماً يخول التجار النصارى شراء الرقيق النصرانى من المسلمين أو الاحتفاظ بهم ؛ منعاً لوقوعه فى أيدى المسلمين ؛ حتى لايحولوا عن دينهم[2] .

أما البندقية ، التى كانت هى الأخرى مؤسسة عسكرية ، يحكمها الدوق Doge — الدوك — عن طريق مجلس الشيوخ Signoria de Venise ؛ فإنها كانت أنشطها فى التجارة مع المماليك ، ولا سيا القافل[4]؛ فكان تجارها يأتون بانتظام لمصر ، فتصل إلى الإسكندرية كل عام خمس سفن موسمية ، على عكس تجار آخرين لايأتون بانتظام ؛ فكانوا إذا وصلوا إلى مقر السلطان المملوكى ؛ يحضرون على عادة رسل الفرنجة بالبوقات الفضة والطبول والزمور ، وتقرر لهم الضيافة . وقد بلغت المودة بين ملوكها وسلاطين المماليك حداً إلى أن الدوج كان ينهى مراسلاته إليه ، بقوله: إنه يقبل الأرض بين يدى السلطان ، ويبدى

= كذلك أورد نعيم زكى ؛ فى ملاحق ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ ؛ مراسلات بالعربية فى أرشيف فلورنسا . أنظر أيضا

Amari : Op. Cit. 210-213; 214-217.

(١) طافور ، رحلة، ص ١٣٤ .

(٢) قريبة من بحر أزوف . نفسه ص ١٣٣ .

(٣) طافور ، رحلة ص ١٣٠ ومابعدها .

(٤) عن ذلك بتفصيل : Reinaud: Traité des commerce, entre la République de Venise et les derniers Sultans Mamloucs d'Egypte. J.A. 2ème série, t. 4, Paris, 829.

؛ توفيق اسكندرية، نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية ؛ مجلة الجمعية التاريخية ١٩٥٧ ؛ ماجد ، نظم المماليك، ١ ص ١٢٤ .

له الشوق والمحبة[١] . ولدينا أطول مراسلة[٢] في حوالي سبعة أمتار ؛ بتاريخ ١٠ من شعبان سنة ٨/٨٧٧ يناير ١٤١٣ ، متبادلة بين السلطان قايتباي والدوج نيقولا مارسيللو Doge Nicola Marcello ؛ توجد في أرشيف البندقية ، تتناول تجارة الفلفل . أما صاحبة نابل[٣]، وهي امرأة ؛ فكان يقال لها أيضاً في المراسلات صديقة الملوك والسلاطين ؛ مما يبين العلاقات الودية جداً مع سائر ملوك وحكام إيطاليا .

كذلك وجدت صلات تجارية مع بقية دول البحر الأبيض الأخرى ، مثلما كان مع دولة الروم ، التي انكمشت بعد موقعة منازكرد مع السلاجقة ؛ بحيث لم تتعد القسطنطينية ؛ فكان ملكها يسمى متملك اصطنبول[٤] ؛ فكان موردا للرقيق لدولة المماليك ؛ إذ كانت له مدينة اسمها أطرابزندة[٥] على البحر الأسود . أما دول الفرنجة بالأندلس ؛ فإنه على الرغم من الحرب المستمرة بينهم وبين دول المسلمين فيها ؛ فإن الصلات التجارية لم تنقطع مع أرغون[٦]؛ أو صاحب طليطلة[٧]؛ حتى أن عدد اليهود الوافدين من أسبانيا ؛ بسبب استيلاء فرديناند Ferdinand على غرناطة ، بلغ ١٥٫٠٠٠ ؛ كلهم من التجار اليهود[٨]. بل أن

---

(١) صبح ، ٨ ص ١٢٤ .

(٢) في مجموعة Regesti Bombaci ، في أرشيف البندقية ، برقم : 2 (X2)

(٣) صبح ، ٨ ص ٥٣ .

(٤) السلوك ، ٣/٢ ص ٥٣٥ . وجد له نص بثغر الإسكندرية في ٧٨٧/١٣٨٥

(٥) معجم البلدان ، ١ ص ٢٨٣ .

(٦) أنظر . Suryal : Egypt and Aragon. Leipzig, 1938.

أنظر . مراسلات خايمي الثاني Jaime II ، مع الملك الأشرف . صبح ، ١٤ ص ٦٦ .

(٧) صبح ، ٨ ص ٣٥ — ٣٦ ؛ انظر . مجموعة الوثائق السياسية ؛ مخطوطات أرغون ، برقم ٤٦ . نقلا عن عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ؛ الاسكندرية ١٩٨١ ، ص ١٤١ — ١٤٥ .

(٨) أورد ذلك رحالة ألماني اسمه براق نباح ، الذي زار مصر في ٨٩٧ / ديسمبر ١٤٩١ .

هذا الملك أرسل للغوري سفيراً اسمه بيير مارتيردا[1] دانغينا Pierre Martyre D'anghina في ٩٠٦/١٥٠١ ؛ ليبين له أن العرب والبربر في رعايته ، واتفق معه على تبادل التجارة بينهما .

وكان نتيجة لهذه الصلات التجارية الوثيقة مع دول البحر الابيض وأوربا ، أن كثرت العملة الأجنبية في مصر[2] ، مثل عملة البندقية ، المسماة «دوكات»[3] Ducat – نسبة إلى الدوك ، وهو الدوق Doge – وعملة بلاد أفرنجة – عموماً بما فيها أفرنسية وإيطاليا ، وفلورنسا المسماة : «الإفرنتية» جمع إفرنق Florin – وقد عرفت العملة الأجنبية في مصر عموماً باسم : « مشخصة[4] » ؛ بسبب صور القديسين وملوك الفرنجة ، المنقوشة على وجهها .

فكان توافر هذه العملة الأجنبية في مصر ، سبباً في ازدهار نظام الصيرفة فيها ، الذي كان يوجد في مصر حتى قبل عصر المماليك ؛ بحيث نسمع بكلمة حوالة[5] ، التي تصرف من قبل السلطان وتقبض في يوم معين، أو «صك» ، وهو التعبير الاصطلاحي المتداول في جميع أنحاء الدنيا إلى الآن ؛ لتعني شيك الصرف . Chêque

وعلى هذا المنوال في الاهتمام بالتجارة الدولية مع أوربا ؛ فإن دولة سلاطين المماليك كانت قد نشطت في التجارة مع ممالك أفريقيا أيضاً ، عن طريق القوافل ، مثل : مملكة التكرور أو مالي ، وسلطنة برنو ، ومملكة غانة ، ومملكة سنغاي

---

(١) أنظر : Heyd : Depping; Op. Cit., p. 724; 725.
Hist. du commerce entre le levant et l'Europe; depuis les croisades jusqu'à la Fondation des Colonies d'Amérique, pp. 242-244.

(٢) رحلة طافور ، ترجمة وتقديم حبشي ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٢ .

(٣) السلوك ، ٤ ص ٦٤٢ .

(٤) صبح ، ٣ ص ٤٤١ — ٢ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٢٥ .

(٥) السلوك ، ١/٢٢ ص ١٠٤ ص ٤ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ، ص ٨٥ .

الكبرى ، وهذه الأخيرة شملت مناطق واسعة فى حوضى نهر السنغال والنيجر ، ووصل نفوذها إلى الحوصا أو الهوسا فى وسط القارة ؛ فضلا عن ممالك النوبة فى جنوب مصر ؛ حيث كانت منفذاً لتجارتها فى القارة ، قبل فتح المماليك لها .

وقد ساعد على تجارة المماليك فى أفريقيا أن ممالك السودان الغـــربى على الخصوص ، كانت على علاقة قوية معهم ؛ بملاحظة المؤرخ القلقشندى[1] ؛ فكثيراً ما أتى إلى مصر ملوك أفريقيا وتجارها ؛ ولقد عثر الأثاريون فى عصرنا الحالى على العملة المملوكية فى ممالك كثيرة ؛ من ممالك السود فى القارة الأفريقية .

وقد كانت الطرق التى يسلكها تجار مصر للذهاب إلى ممالك أفريقيا ، هى طرق القوافل المعروفة ، مثل : درب الأربعين الذى يمر من أسيوط ودرفور ، ومنه إلى أواسط القارة وغيرها ؛ فقد اصبحت متاجر مصرية كثيرة ، تمر عن هذا الطريق ، كما وجد طريق آخر فى الصحراء الكبرى ، يمر بواحة سيوة ، ويصل مباشرة إلى جاو وتمبكت على نهر النيجر ؛ ووجد طريق قوافل ساحلى ، يصل مصر بممالك شمال أفريقيا .

وقد كانت أهم تجارة المماليك مع ممالك أفريقيا الصناعات[2] الكثيرة التى ازدهرت فى مصر فى وقت المماليك ؛ بشكل لم يعرف من قبل ، مثل : تصفيحهم المعادن والجوهر ، أو ما كان يطلق عليه أيضاً الترميك أو التكفيت[3] ؛ وهى صناعة دقيقة ؛ حتى أصبح للقاهرة أسلوب خاص فى صناعة الأوانى النحاسية كالأباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج ، وكذا صناعة السروج التى كان لها سوق خاصة ، وصناعة

---

(١) صبح ، ٥ ص ٢٨٣ ، ٢٩٣ ومابعدها ؛ انظر ، حسن محمود ، الإسلام فى أفريقية القاهرة ١٩٥٨ ، ١ ص ٢٩١ .

(٢) معجم البلدان ، ٧ ص ١٨٣ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ١٧٠ عن هذه الكلمة ، انظر : Dozy : Suppl. 2, p. 476 ؛ ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

السجاد ، التي بلغت غاية الرقي ، وصناعة الزجاج ؛ وإن كان أشهر الصناعات على الإطلاق صناعة الأقمشة ، التي كانت تصنع في مصانع النسيج الحكومية المسماة « طراز »[1] ، أو المصانع الأهلية[2] ، التي يملكها الأفراد ، وقد كثرت هذه في مصر ، وشملت معظم مدنها ، حتى أن أنواعاً من الأقمشة نسبت إلى مدنها وقراها[3] .

*

وليس أدل على انتعاش الحياة الاقتصادية في أيام المماليك ؛ من وجود كلمات كثيرة تدل على اتساع نشاطها التجاري[4] والصناعي في مصر ، مثل : دكاكين ، وحوانيت ، ومخازن ، وقياسر (أو قيساريات)، وحانات ، ووكالات، وفنادق[5] Fonduc ، وهذه الأخيرة كانت أكثرها ، وتتكون من عدة طوابق ؛ عبارة عن غرف مختلفة ومخازن ، لها فناء داخلي ، يحتوي على البضائع والدواب ؛ يسكنها غالباً التجار الأجانب ، يرأسهم القناصلة[6] ـــ مفردها قنصل — وهم كبار الفرنج . فكانت الفنادق ؛ توجد في كل أنحاء المدن المصرية ، من الإسكندرية إلى مصر ، ومن مصر إلى أسوان[7] . كذلك كانت شون القاهرة[8] ؛ اعتبرت

---

(١) صبح ، ١١ ص ٤٢٦ ، أو حتى دار الطراز . عن طراز :
Ency. de l'Isl. (art Tirâz) 1ed., t. 4, p. 825 sqq.
Dozy : Suppl. 2, p. 55. أصلها من كلمة دوختن؛ بمعنى الخياطة .

(٢) تعرف بطراز العامة ، على عكس الطراز الآخر ، سمي طراز الخاصة . أنظر . Répertoire d'Ep. Chronol... arabe, 16, p. 40, 48, 95; 112.

(٣) بتفصيل ، انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص٦٧ — ٦٨ .

(٤) بتفصيل ، انظر . ماجد ، نفسه ١ ص ١٢٣ — ١٢٤ .

(٥) هي كلمة أصلها يوناني ؛ دخلت الطليانية باسم : Fondachi عن الفنادق ، انظر . الخطط ، ٣ ص ١٤٩ وما بعدها ؛ Dozy : Suppl. 2, p. 284

(٦) زبدة ، ص ٤١ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl. (art Consul) 1éd., t. I, p. 898.

(٧) ابن بطوطة ، رحلة ، ص ١٣١ .

(٨) زبدة ، ص ٢٨ .

من أغرب الغرائب ؛ فهى مخروطية الشكل ؛ أكثر ارتفاعاً من برج أشبيلية بالأندلس . ولا تزال بعض المبانى التجارية المملوكية باقية إلى الآن وبأسمائها ؛ تزينها النقوش العربية ، والرسوم الهندسية ، والقوالب الخشبية ، وحق نشاطها التجارى لايزال مستمراً إلى وقتنا الحاضر ، مثل : خان الخليلى[١] ، وهو سوق ظهر من أيام المماليك .

وقد ترتب على الازدهار الاقتصادى أن القاهرة عاصمة البلاد ؛ وبجوارها الفسطاط[٢] ، اتسعتا اتساعاً كبيراً ؛ بحيث كانت تجمعهما أسوار مشتركة ؛ ولا سيما بعد إنشاء حى القلعة أيضاً ؛ بحيث تخصص للكتابة عن القاهرة مؤرخون كبار ؛ آخرهم فى عصر المماليك آق بغا الخاصكى ، كاتب السلطان قانصوة الغورى ، الذى ألف كتابه[٣] : التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطط القاهرة ، بعد خمسين سنة من كتاب المقريزى المشهور باسم الخطط والآثار[٤] ، الذى لم يعرف قبله كتاب فى قيمته ؛ لما يشتمل عليه من معلومات مفصلة عن تاريخ : حاراتها ، وخططها — أى الأحياء — وأزقتها ، ودروبها ، وخوخها ؛ ورحابها — أى ميدانيها — وأسواقها ، وسويقاتها ، وظواهرها — أى ضواحيها — وأحكارها ، وهذه الأخيرة ، هى الميادين المقفولة .

ولدينا وصف مسهب من قبل الرحالين والجغرافيين للقاهره[٥] ؛ فالرحالة ابن

---

(١) نسبة إلى الأمير جهاركس الخليلى (ت ٧٩١ / ١٣٣٩) ؛ أحد أمراء برقوق : الخطط ، ٣ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٢) انظر : Guest and Richmond : Miesr in the Fifteenth century, J.R.A.S. 1903, p. 79, suiv.

(٣) مخطوط بالمكتبة الأهلية (B.N.) ؛ برقم 2265

(٤) أنظر .

(٥) بتفصيل ، انظر .
Ency. de l'Isl. (art Le Caire) 1éd., t. I, p. 839-841.
René Khoury : Le Caire au Moyen Age. Cahiers d'histoire, série V, Fasc. 5, 6 Déc. 1953, p. 306-307.

بطوطة يرى أن القاهرة كثيرة الحيوية ، بالنسبة لمدن أخرى ؛ فيذكر ثلاثين ألف ركوبة للتأجير ، وأن بها مطاعم كثيرة ، ومن الأقمشة ما هو ليس فقط من صنع مصر والشرق ؛ وإنما « من إيطاليا والسند . كذلك الرحالة طافور يقول إن أروع ما في القاهرة سوقها ، الذي تعرض فيه أكداس هائلة ، وكميات ضخمة ؛ من شتى البضائع الواردة من الهند ، ولا سيما اللآلىء والأحجار الكريمة والتوابل والجرائر والبضائع ، وكل مشموم طيب الرائحة ؛ إذ ليس في القدرة تعداد جميع السلع التي يؤتى بها إلى هنا من الهند ، ثم توزع في أنحاء العالم ، فالقاهرة هي السوق الرئيسي لجميع تلك الأنواع .

ومن المحقق أنه كان يوجد غير القاهرة ومصر — وهي من أكبر المدن التجارية والصناعية — مدن أخرى في طول البلاد وعرضها ؛ تعتبر مراكز اقتصادية ونشيطة . فنذكر الإسكندرية[1] العظمى ودمياط ؛ وقد أصبحتا أكثر موانىء البحر الأبيض حيوية ؛ وكذا البرلس ورشيد ؛ حيث كان يصلها التجار الأجانب أيضاً[2] ، وعيذاب[3] ، أعظم موانىء ساحل البحر الأحمر ؛ بسبب أن مراكب الهند والصين تحط فيها البضائع ، ونذكر في الصعيد قوص[4] ، قرب أسوان ، التي أصبحت

Dopp. : Le Caire vu par les voyageurs du Moyen Age. Bull. = de la Soc. R. de Geog. d'Eg. t. XXIII, Fase. 3-4, 1950, pp. 117. 115; t. XXXIV, pp. 115-165.

؛ لينبول ، سيرة القاهرة ، ترجمة ، ط ٢ ، ص ٢١٨ وما بعدها .

(١) الخطط ، ١ ص ٢٣٢ وما بعدها .

(٢) أنظر .

L'Egypte et l'équilibre du Levant : Zananiri au Moyen Age. Marseille, 1936, p. 63.

(٣) أنظر . دراج ، عيذاب ، مجلة نهضة أفريقيا ، أغسطس ١٩٥٨ .

(٤) زبدة ، ص ٣٣ س ١٢ . انظر الكتاب القيم من Garcin : Un, Centre musulman de la Haute Egypte Mdiévale : Qus. I F.A.O. Le Caire, 1976.

قصبته ، ووصفت على أنها مدينة عظيمة ؛ بسبب ورود تجار(١) أفريقيا إليها ، وأهلها أرباب ثروة واسعة ، وأنها محط التجار القادمين من عدن(٢) ؛ كما نذكر أخميم مدينة هامة فى الصعيد بعد قوص . وقد بلغت عمارة الصعيد ، فى وقت المماليك ، أن من يمر من القاهرة إلى أسوان يجد فى كل بلدة دور الضيافة .

*

هذا المال المتدفق نتيجة للفهم الواعى لمسائل الاقتصاد وتنفذاك ؛ قد مهد للرخاء والبذخ الذى عاشته الطبقة المملوكية بالذات ؛ وعلى رأسها السلطان ؛ حتى أنه من كثرة الأموال كانت له خزانة خاصة ، عرفت بخزانة الخاص(٣) . فقد أصبحت القلعة ، مقر حكمهم ، تتكون من قصور عظيمة ، شبهت بأجنحة تطل على القاهرة(٤) ، بنيت فى عهد سلاطين مختلفين ، نذكر منها : القصر الكبير(٥) ، والقصر الأسود ، والقصر الأبيض ، والقصور الجوانية وعددها ثلاثة(٦) ، والقصر الأبلق(٧) ، الذى به ثلاثة قصور(٨) ، والقصر المعروف بالأشرفية(٩) ؛ كما يوجد فيها دور خاصة

---

(١) زبدة ، ص ٣٢ س ١٢ .

(٢) معجم البلدان ، ٧ ص ١٨٣ .

(٣) ابن حبيب ، درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، مخطوط فى (B.N.) ، برقم ٤٨٦٠ ، ١ ورقة ٩٠ ب .

(٤) عنها ، انظر : Casanova : Histoire et Description de la Citadelle du Caire (Mém. de la Miss Arch. Franc au Caire, Vol. VI.

Ency. de l'Isl. (art Le Caire). 1ed., t. I, p. 483;

Relation del S. Pietro : Martire milanese Venezio, 1564, p. 277.

(٥) ابن إياس ، ٢ ص ٢٤ .

(٦) الخطط ، ٣ ص ١٣٣ (آخر سطر) ؛ ٣٤١ س ١٣ .

(٧) بنى فى ٧١٢/١٣١٣ ، وانتهى من بنائه فى ٧١٤/١٣١٤ . نفسه ، ٣ ص ٣٣٢ س ١٨ ، ٣٤٠ — ٣٤١ .

(٨) زبدة ، ص ٢٦ .

(٩) الخطط ، ٣ ص ٣٤٣ . بناه الأشرف خليل فى عام ٦٩٢/١٢٩٣ .

بالحريم ، سميت أدر الحريم[1] ، ومساكن المماليك السلطانية وأمرائهم بنسائهم وأولادهم ، ولعلها كانت فى أبراجها ، التى سميت بأسماء منها البرج الأحمر[2] .

كذلك وجدت فى القلعة أبنية متعددة لخزن ما يحتاج إليه سكانها وأبهة السلاطين؛ ففيها خزائن واسعة أوخانات[3]؛ استخدمت فى خزن البضائع أو فى صنع الأشياء ؛ وقد تأكد ثراؤها من وصف المؤرخين المسهب لمحتوياتها الثمينة ، التى جلبت من جميع بقاع الدنيا أو صنعت فى مصر ، وفيها حوانيت ، وأسواق ، وميادين ، وملاعب ، وأحواش ، واصطبلات، وساحات للحيوانات البديعة ، والأبقار، والأغنام ، والطيور ، والدواجن؛ وكل مايوجد فى كل مدينة إسلامية من مساجد ومصليات،وحمامات ومدارس ، وحتى سجون .

ثم هذه المنشآت الضخمة الكثيرة،التى تركها معظم السلاطين ؛ من : جوامع، وزوايا، ومدارس، وسبل، وبيمارستانات، وحمامات، وقلاع ، وتحف؛ مازالت ، تحتل الصدارة بين مخلفات مصر الإسلامية ، بحيث أصبحت القاهرة درة فى جبين الشرق ؛ فهى المدينة ؛ ذات الألف مئذنة . فكان لهذه المبانى موظف خاص يشرف عليها اسمه : شاد العمائر[4] ، ومعظمها تحمل علامات « رنك » [5] السلاطين؛ أو من بنوها من أمراء المماليك .

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٣٣١ س ٣ ؛ صبح، ٣ ص ٣٦٨؛ زبدة ، ص ١٢١ .
(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٣٢ س ٢ .
(٣) جمع خاناه ، وهو اسم فارسى غلب عليها . نفسه ، ٣ ص ٣٣٣ س ٦ — ٧ ؛ صبح ، ٤ ص ٩ ؛ انظر : Johnson
Dict. Persian Arabic and English. London, 1852, p. 506.
وبتفصيل ، انظر . نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، ٢ ص ١٥ وما بعدها . مثل ؛ الشراب خاناه ، والطشت خاناه ، والسلاح خاناه ، والطبلخاناه ، والشكار خاناه ، والحوائج خاناه .
(٤) مخطوط برقم ٤٤٢٩ و ٤٤٠ ، ١٢٩ أ .
(٥) انظر . Mayer : Saracenic Heraldry. Oxford 1933, p. 301 sqq.

وبالتالي ظهرت في حياة القصور المملوكية الباذخة رسوم وحفلات ؛ طبعت بطابع الأناقة والبذخ ؛ مما لم يسبق له مثيل من قبل ، في بلاط مصر ؛ بحيث قيل إنهم ختموا هذه الرسوم الباهرة في مصر في العصور الوسطى ؛ فيذكر المؤرخون أنه بعد زوال دولتهم علي يد العثمانيين ؛ لم تعد لحفلات الدولة العثمانية بهجة[1] ؛ وهي الدولة التي قضت على دولتهم ؛ كما أن أحد الشعراء يتعذب[2] عند ذكر حفلات المماليك .

فقد كان المماليك يحتفلون بأعياد مصرية خالصة ؛ مأخوذة من التقاليد المصرية القديمة ، في موسم فيض النيل ، ولدينا وثيقة[3] رسمية في بشارة النيل ؛ كتبها أحد كبار كتاب ديوان الإنشاء . فكان وفاء النيل مناسبة تقليدية لظهور شعر مستقل بذاته ؛ على حد قول المؤرخ ابن تغرى بردى في ذلك العصر . وبهذا الخصوص يقول الرحالة الأوربي طافور Tafur[4] إن ماء النيل أحلى ماء في الدنيا ، وكأنه شراب من الجنة ، وأنه لم يشرب سوى هذا الماء .

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١٢٩ ؛ انظر . ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ، ٢ ص ٦١ — ٦٢ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ١٢٧ (آخر السطر) .

(٣) مخطوط بالمكتبة الأهلية (B.N.) ، برقم 4440 ورقة ١٧ وما بعدها . ومع ذلك ؛ فقد حدثت زمن دولة سلاطين المماليك مجاعات متعددة طوال حكمها ؛ كان سببها الأساسي نقص فيض النيل أو طغيانه ؛ مما يترتب عليه توقف الزراعة ، وانتشار الأوبئة ؛ بما فيها الطاعون على الخصوص .

نذكر منها في ٦٦١/١٢٦٣ — و٦٦٢/١٢٦٤ ، ٦٧٢/١٢٧٣ — ١٢٧٤ ، ٦٩٣ـ٦٩٥ / ١٢٩٤ — ١٢٩٦ ، و ٧٠٤/١٣٠٤ — ١٣٠٥ ، و ٧٠٩/١٣٠٩ ، و ٧١٧/١٣١٧ ، و ٧٢٩/١٣٣٨ — ١٣٣٩ ، و٧٤٠/١٣٣٩ — ١٣٤٠ ، و ٧٠١ / ١٣٠٠ ، ٧٠٤/١٣٠٣ ، و٧٦٤/١٣٦٣ ، و٧٧٥ -- ٧٧٧/١٣٧٣ — ١٣٧٥ ، و ٧٨٣/١٣٨١ ، ٨٠٦ — ٨٠٩/١٤٠٣ — ١٢٠٧ ، و ٨١٨ — ٨١٩/١٤١٥ — ١٤١٦ و ٨٢٢ — ٨٢٣/١٤١٩ — ١٤٢٠ ، و ٨٣٠/١٤٢٧ ، و٨٣٢/١٤٢٩ ، و ٨٣٣/١٤٢٩ ، و٨٤٢ — ٨٤٢/١٤٣٧ — ١٤٣٨ ، و٨٤٩/١٤٤٥ ، و٨٥٣/١٤٤٩ ، و٨٥٦/١٤٥٢ ، و ٨٦٣/١٤٥٩ ، و ٨٧٣/١٤٦٨ — ١٤٦٩ ، و ٨٨١/١٤٧٦ ، و ٨٩٢ / ١٤٨٧ .

عنها ، انظر المصادر المملوكية .

(٤) رحلة ، ص ١٦٢ .

كذلك كانوا يحتفلون بالأعياد الإسلامية المتعددة ؛ فتقام لها احتفالات دينية شائقة ؛ ولا سيما من قبل رجال الصوفية ، الذين انتشرت طرقهم فى مصر فى عهد المماليك فيذكر الرحالون فى وقتهم[1] ؛ أنهم كانوا يظهرون وقد حلق بعضهم رءوسهم ولحاهم وحواجبهم وأهدابهم ، وبعضهم يمشون وقد لبسوا القرون. فكان من أهم أعيادهم موكب الحج أو المحمل ؛ الذى اشتهر بموكب دوران المحمل[2] ؛ حيث كان المحمل يحمل الكسوة إلى الكعبة ، التى كانت ترسل من مصر منذ العصر العباسى الأول ، ومعها صدقة الحج من الغلال والمال وغيرها ؛ فقد كانت الكسوة الشريفة السلطانية تصنع فى دار للطراز فى الإسكندرية[3] ، واستمر ذلك إلى العصر الحديث. فكان السلطان بيبرس هو الذى وضع رسوم هذا الموكب ؛ لأنه هو الذى أعاد منصب الخلافة للمسلمين ، وجعل مقر الخلافة فى مصر ؛ بعد أن أزاله المغول من بغداد ، فذهب بيبرس وأدى فريضة الحج ، وغسل الكعبة بماء الورد ؛ وعلق الكسوة بيديه[4] . وقد كان موكب الحج المصرى ، مناسبة لأن يكون موكباً إسلامياً ؛ ولا سيما من قبل حجاج المغرب ، الذين أرسلوا فى موكبهم[5] فى إحدى المرات ختمة هائلة ، رصعت بالجواهر الثمنة ، وجعل بها فص ياقوت أحمر ، أحيط باللؤلؤ لتوقف بالمدينة النبوية . كذلك كان المماليك يشاركون فى الاحتفال بأعياد قبطية[6] ؛ فضلا عن رسوم كثيرة ظهرت لهم[7] ؛ أتوا بها من موطنهم الأصلى فى آسيا ، لم تعرف من قبل فى بلاط مصر. كذلك رسوم

---

(١) طافور ، ص٦٣ — ٦٤.

(٢) بتفصيل ، انظر . نظام المماليك ، ٢ ص ١٤٣ وما بعدها .

(٣) أنظر . وثيقة : صبح ، ١١ ص ٤٢٥ — ٤٢٦ .

(٤) المقريزى ، الذهب ، ص٩١

(٥) ورد ذلك فى مخطوطة بالمكتبة الأهلية (B.N.) لمؤلف مجهول ، ورقات ١ و ٢ .

(٦) بتفصيل : نظم المماليك ، ٢ ص ٣٦٨ وما بعدها . مثل : عيد رأس السنة القبطية أو النوروز أو النيروز ، وعيد الشهداء .

(٧) نفسه ، ٢ ص ١٦٣ وما بعدها .

الجلوسات[١]؛ وبسبب كثرة قصاد الملوك الضخام والرسل لدى سلطان مصر؛ لصلات مصر الدولية الكثيرة؛ فإنه كان يوجد بالضرورة المترجم[٢]، وكان من التقاليد أمام سلطان مصر؛ أنه لابد من تقبيل الأرض قبل الاقتراب منه ؛ حتى ولو كانوا من الملوك.

أما الأسمطة السلطانية[٣] ؛ وهى الولائم، التى تعتبر من رسوم القصر الملوكى؛ فإنها كانت تقام يومياً لسلطان القلعة، وتبلغ خمسة فى اليوم الواحد ؛ كما تقام أسمطة عظيمة، مثل سماط عيد الفطر وهو أكبرها ؛ حيث يجلس فيه السلطان على رأس المائدة « خوان » ؛ هذا غير ما كان الأمراء المماليك أنفسهم يقيمونه من أسمطة هائلة؛ إذ اعتبر كل منهم سلطاناً مصغراً . وقد وصفت آلات المطابخ[٤]، التى تمد فيها الأطعمة بأنها عجيبة؛ عبارة عن أوان من ذهب وفضة[٥]، وأنواع من الصينى الفاخر، ووجدت شوكات وملاعق[٦] ؛ وإن كان الأكل عادة يكون بالأصابع؛ التى تغسل دائماً فى أباريق وطاسات وصحون واسعة؛ معدة لذلك، توجد بقاياها فى المتحف الإسلامى.

ولم يقف هذا الغنى عند السلاطين وفئات طبقة المماليك، بل تعداهم إلى سائر الناس؛ فيذكر الرحالة طافور Tafur بيوت الأثرياء المصريين الفخمة على نهر

---

(١) بتفصيل : انظر . نفسه ، ص ١٤٩ وما بعدها . مثل الجلوس اليومى ، والجلوس الشهرى ، والجلوس لتوزيع الإقطاع ، والجلوس للقصاد من الملوك الضخام والرسل ، وجلوس قضاء المظالم، وجلوس المولد النبوى .

(٢) طافور ، ص ٦٨ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٤١ — ٣٤٢ ؛ النويرى ، نهاية ، ٨ ص ٢٢٩ ؛ صبح ، ٤ ص ١٣ ، ٦٠ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ١١٦ وما بعدها .

(٤) زبدة ، ص ١٢٥ .

(٥) نفسه ، ص ١٢٢ س ١١ .

(٦) أنظر . النويرى ، نهاية ، ٨ ص ٢٢١ .

النيل(١) ، وحدائقها الضخمة ؛ فيقول : فى مصر بيوت رائعة ، وحدائق متناثرة ، وتكثر الزروع حتى على الشرفات ، أما الحمامات فهى كثيرة ، وكذا المطاعم التى يوجد فيها سود يقومون بالخدمة فيها (٢) . بل إن الحصير ، الذى هو ضرورى فى جو حار فى مصر ؛ كان يباع فى جميع أرجاء القاهرة .



ولا شك أن عصر دولة سلاطين المماليك ؛ هو عصر الثقافة العربية المزدهرة ، أيضاً ؛ بشكل لم يسبق إليه باعتبار أن عصر المماليك فى مصر امتداد للعصور العربية السابقة عليه . حقاً إن أصول المماليك غير عربية ؛ إلا أنه بسبب إقامتهم فى أرض عربية ، اعتبروا أنفسهم عرباً ، بل حماة للعرب ضد أعدائهم ؛ حتى أنه كانت من ألقاب سلاطينهم : سيد ملوك العرب(٣) ؛ إذ العروبة وقتذاك تعنى بالأولى اتجاهاً جغرافياً ، يمتد من المحيط إلى الخليج إلى أطراف اليمن . هذا بالإضافة إلى أن المماليك ، كانوا قد اكتسبوا الروح المصرية ؛ بحكم إقامتهم الطويلة فى مصر منذ نشأة دولتهم .

كذلك ؛ وإن كانت لغة المماليك هى اللغة التركية — وهى لغة مليئة بالفارسية والعربية — إلا أنهم كانوا يتعلمون الخط العربى والقرآن والشرع فى الطباق ؛ حتى عرفوا بالكتابية أيضاً(٤) . ثم إن كثيراً من كبـــار المماليك ؛ بملاحظة المؤرخين ، قد أتقنوا العربية ؛ حتى أصبح الواحد منهم فصيح اللسان بها ، وله مسائل فى الفقه عويصة ، يرجع له فيها العلماء . ويؤيد ذلك ، أن قانصوة الغورى ، آخر سلاطين المماليك ، قبل طومان باى الثانى ؛ كان يملك ناصية اللغة العربية ، وشديد العناية بالآداب والعلوم ، وله فيها خوض ونظر ؛ كما كان يفهم فى الشعر (٥) ، ومغرماً

---

(١) طافور ، ص ٧١ ، ٧٣ .
(٢) نفسه ، ص ٩٧ .
(٣) صبح ، ٦ ص ٣٥ ، ٥٣ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ٣٠
(٤) زبدة ، ص ١١٦ ، ١٢٥ ؛ ابن إياس ، ٢ ص ٩٠ س ٨ — ٩ .
(٥) ابن إياس ، ٣ ص ٥٩ .

بقراءة السير والتواريخ ، وله مجالس عرفت بمجالس الغـــوری[١] ، عبارة عن مناظرات جرت فی حضرته . بل إن طومان بای الثانی ؛ وهو آخر السلاطين ، كان يقرض الشعر العربی بلهجة مصر[٢] الدارجة . ومع ذلك ؛ فقد كان كثير من موظفی مصر ، عن فهم المصريون[٣]، يعرفون التركية ، لغة المماليك الأصلية ؛ مما زاد فی اتساع الثقافة .

ولعل الذی ساعد علی ازدهار الثقافة فی مصر ، هو أنها بعد هزيمة المغول والصليبيين ، أصبحت تنعم باسترخاء حربی فمن ناحية ؛ أصبحت علاقة المماليك طيبة وودية مع أغلب دول المغول فی الشرق ؛ منذ أن تحولوا إلی الإسلام ؛ ومن ناحية أخری كانت علاقتهم سلميـــة مع جميع ممالك أوربا ، التی كانت هی الأخری ، بعد انتهاء الحروب الصليبية فی الشرق ، قد بدأت تدخل عصر النهضة ؛ أما أفريقيـــا ؛ فإنها استيقظت نتيجة لجهـــود مصر فی نشر الإسلام ؛ وأصبحت فی وفاق مع دولة المماليك، حامية الخلافة العباسية، التی أصبحت تمنح ملوكها المسلمين التقليد الشرعی من القاهرة .

يضاف إلی ذلك أن مصر منـــذ حكم سلاطين المماليك قد أصبحت وحدها حاملة لشعل الثقافة العربية ، بعد أفول مراكزها الكثيرة فی الشرق ، ولا سيما فی بغداد ؛ نتيجة للغزو المغولی ، وفی الأندلس ، مثل قرطبة ؛ نتيجـــة لحركة الريكونكستا ؛ حيث أصبحت مصر مقصد العلماء المسلمين من كل مكان ، يأتونها ليجدوا فی رحابها الانفتاح الثقافی. فكانت القاهرة مركز الإشعاع العلمی والثقافی

---

(١) نشر عبد الوهاب عزام ، القاهرة ١٩٤١ .

(٢) أنظر كتابنا : طومان بای ، آخر سلاطين المماليك ، ص ١٧١ . انظر . ابن زنبل ، ص ٥٢ .

(٣) أنظر . Le caractère colonial de l'Etat : Poliak Mameloük. R.E.I., p. 236-237.

فى العالم الإسلامى كله وقت المماليك ، يفد إليها الطلبة من شرق العالم وغربه إليها ، ونفقت فيها أسواق العلوم وزخرت بحارها[1] .

ثم إن وجود الخلافة فى مصر ، كان سبباً آخر فى ازدهار الثقافة فيها ، فيقول المؤرخ : السيوطى عن ذلك[2] : إن الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة أينما كانت؛ حيث صارت مصر داراً للخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وصارت فيها كل مساكن العلماء ، ومحط الرجال الفضلاء .

ثم كان احتكار المماليك للسياسة ؛ سبباً فى أن جعل العلماء يتفرغون للعلم ؛ بحيث نبغ منهم عدد كثير ، أثروا الثقافة العربية ، ليس فقط فى مصر ، فى وقت المماليك ، وإنما أيضا بالنسبة للعالم الإسلامى كله ، وحتى وقتنا . كذلك تراث ضخم لم يعرف له مثيل ، خلفه علماء ذلك العصر فى مؤلفات كثيرة ، تعتبر أساس البحث العلمى فى علوم مختلفة دينية وعقلية، ولا شك أن الثقافة العربية ؛ كانت قد رسخت فى مصر؛ بعد المشوار الطويل الذى قطعته ؛ بحيث أن علوماً كثيرة ، كانت قد قتلت بحثاً ، ولم يعد من الممكن الزيادة عليها .

ولذلك أصبحت ظروف الثقافة فى مصر فى أيام المماليك ؛ لا يبذل فى نيلها الجهد الشخصى وحده ، وإنما بالأولى بناء على الدراسة المنهجية ، بعضها عرفت بالطريقة المصرية[3] ؛ حيث كثرت المدارس فى عصر المماليك ، وكانت أشبه بالكليات ، لا تقتصر الدراسة فيها فقط على العلوم الدينية وحدها ، وإنما على الدراسات العلمية ؛ كالطب والكيمياء ، وهى ما كان يطلق عليها العلوم العقلية ؛ كما ظهر التخصص الدقيق ؛ فكانت بعض هذه المدارس يتخصص لتدريس

---

(١) ابن الأزرق ، بدائع السلك فى طبائع الملك ، تحقيق سامى النشار ، العراق ١٩٧٨ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ٢ ص ٦٦ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٤٢ .

الحديث وحده ، وآخر لتدريس الفقه لمذهب واحد من المذاهب الأربعة[١] .

فكانت المدارس يبنيها السلاطين والأمراء المماليك والتجار وحتى النساء ؛ ليس فقط فى القاهرة ومصر؛ ولكن فى كل مدينة مصرية ؛ حتى فى أقصى الصعيد فى قوص ، أو فى شمال مصر فى الإسكندرية، التى أصبح جامع المطارين فيها يطاول الأزهر فى القاهرة ، الذى أصبحت له حرمة وقداسة خاصة فى العالم كله ، وأعظم جامعة فى العالم . فكان الصرف على الجوامع والمدارس محقق ؛ فكثرت الأوقاف لها ؛ فيصرف الشيوخ والمدرسون والطلبة مرتباتهم من ريعها . ولا تزال بعض مبانى المدارس المملوكية باقية للآن، متمثلة فى فناء وأروقة ومكتبة[٢]، ومكان لنزول الطلبة ، الذين يتلقون العلم بالمجان .

فكانت تخصص لهذه المدارس هيئة للتدريس ، منها : الشيخ ، والأستاذ ، والمدرس ، والمعيد[٣] ؛ وإن لم يكن يسمح لهذا الأخير بالتدريس إلا بإذن من شيخه[٤] . ويقول المؤرخ القلقشندى[٥] ؛ إن وظيفة التدريس فى عهد المماليك جليلة القدر ؛ حيث يخلع السلطان على صاحبها فى كثير من الأحيان ، ويكتب له التوقيع الذى يصدر عن ديوان الإنشاء ، بل كانت بعض الاحتفالات تستمر أسبوعاً لإجلاس مدرس فى أحد أفرع الدراسة . فكانت الدراسة فى الجوامع والمدارس تقوم على التحلق؛ وهى الطريقة الباقية فى الأزهر الشريف إلى الآن ، فكان من ينجح من الطلبة ينال الإجازة .

---

(١) انظر . أحمد بدوى ، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٤٠ .

(٢) ألحقت باحدى المدارس مكتبة بها مائة ألف مجلد .

الخطط ، ٤ ص ١٩٧ س ٩ .

(٣) صبح ، ٥ ص ٤٦٤

(٤) الضوء ، ١ ص ١٦٢ .

(٥) صبح ، ٥ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

وإذا لم يكن من الممكن أن نحصي أسماء الأعـــداد الـكبيرة ؛ لعلماء الدين المشهورين ، في وقت المماليك ، الذين طبقت شهرتهم الآفاق في العالم الإسلامي ؛ فنذكر على سبيل المثـــال ؛ بعض علماء العلوم العقلية في عصرهم . فنخص بالذكر فقط منهم من نبغوا في علم الطب ، وفي مقدمتهم : ابن أبي حزم، الملقب بابن النفيس المصري[١] (٦٠٧ – ٦٨٧/١٢١٠ – ١٢٧٨) ، الذي اشتهر بمهارته في مارستان السلطان قلاوون، الذي كان أشبه بكلية للطب؛ فألف ابن النفيس المصري موسوعة طبية لا تقل في قيمتها العلمية عما ألفه ابن الرازي ، وابن سينا من قبل ، وذلك في كتابه : « الشامل في الطب » ، الذي اهتدى فيه إلى الدورة الدموية الصغرى . ونذكر من الذين تخصصوا في طب العيون والرمد ابن الأكفاني[٢] (ت ٧٤٩ / ١٣٤٨) وكتابه : كشف الدين في أحوال أمراض العيون ، وصدقة بن إبراهيم المعاصر له ، وكتابه بعنوان : العمدة الكحلية في الأمراض المصرية . وأخيراً نذكر من نبغ في علوم الجراحة من الجراحيين، مثل ابن القف (حوالي ٦٨٥/١٢٨٦)، وكتابه بعنوان : العمدة[٣] في صناعة الجراحة .

ونذكر علماء آخرين في علوم أخرى مختلفة ، مثل أحمد التيفاشي (ت ٦٩٣ / ١٢٩٣) ، الذي نبغ في دراسة المعادن، ولا سيما الأحجار الكريمة ، وله كتاب: أزهار الأفكار في جواهر الأحجار[٤] ، والدميري (ت ٨٠٨ / ١٤٠٥) ، الذي نبغ في معرفة كل ما يتصل بالحيوان ، وله كتاب[٥] : الحيوان الكبرى ، وأيدمر المملوكي الكيائي[٦] ، الذي خلف عشرين مصنفاً في علم الكيمياء ،

---

(١) أنظر . Meyerhof : La découverte de la, circulation pulmonaire par Ibn an-Nafîs. Médecin arabe du Caire, XIIIème siècle, 1931.

Ency. of Isl. (art Ibn an-Nafîs) ; 2éd., t. 3, p. 897-898.

؛ بول غليونجي ، ابن النيفس ، سلسلة كتاب أعلام العرب ، العدد ٥ . أعاد اكتشافها وليم هارفي William Harvey في العصر الحديث .

ويحيى الشهير بابن اللبودى[1] (ت ٦٦٦/١٢٦٧) ، الذى كان رياضياً وفلكياً ، وضع عدة أسطر لايات واحدة منها توجد فى مكتبة ليننجراد بروسيا . هذا غير عدد كبير من كبار العسكريين المماليك ، الذين ألفوا كتباً قيمة بالعربية ، مصحوبة برسومات دقيقة عن صناعة البارود وفن الاستراتيجية ، مثل: الأحدب[2] (ت ٦٩٥/١٢٩٥) ، وابن منكلى[3] (ت ٧٧٨/١٣٧٦) ، وغيرهما .

ثم نضرب مثلا لعلم واحد ازدهر فى أيام المماليك ، هو علم التاريخ؛ الذى أصبح له مفهوم، لم يكن له من قبل؛ فهو لم يعد عبارة عن العلم، الذى يستوعب الحوادث أو يسردها أو المحافظة على نقلها؛ وإنما بالأولى أصبح العلم الذى يفسرها على أساس العلمية ؛ مما أوجد نظريات للتفسير التاريخى أشهـــرها نظرية ابن خلدون فى العمران ؛ وبذلك برز دور المؤرخ أكثر مما كان له من قبـل . ولنذكر أشهر مؤرخى مصر، منهم: المقريزى، والقلقشندى ، وابن فضل الله العمرى ، وابن حجر ، وابن عربشاه ، والعينى ، وأبا المحاسن ، والسخاوى ، والسيوطى ، وميرخند ،

=(٢) مخطوط دار الكتب ؛ برقم ٤٦ طب جيم . انظر . عبد الرحمن زكى ، من تراث مصر العلمى فى العصر المملوكى ؛ محاضرة ألقيت فى ندوة أحمد فكرى . أنظر . الكتاب الذى صدر عن هذه الندوة .

(٣) مثلا ، انظر . Sarton :
Introduction to the History of Science, vol. II, part II, p. 1099.

(٤) ترجم إلى الفرنسية على يد :
Clément Follier.

(٥) طبع القاهرة ١٩٢٤ . هو محمد بن موسى .

(٦) أغلبها مفقود .

---

(١) مخطوط دار الكتب بالقاهرة ، برقم ٣٥ كيما .

(٢) هو نجم الدين حسن الرماح ، وكتابه بعنـــوان : كتاب الفروسية ، بالمكتبة الأهلية B.N. برقم 2825 (بالعربية)؛ وميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، برقم ٢٨ فروسية (بالعربية)؛ وقد ظهر له تحقيق حديث من عيد ضيف العبادى، بغداد ١٩٨٤ . أغلبها مفقود .

(٣) هو أحمد ، من كتبه العديدة : التدبيرات السلطانية فى سياسة الصنائع الحربية ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة ، برقم ٢٦٣٣٧ (بالعربية).

وابن إياس وغيرهم . وقد ظهـــر اهتمام عالمى حالى بأغلبهم ؛ فترجم لهم كبار المستشرقين ؛ مقتبسات عديدة من كتبهم .

***

والخلاصة أن مصر فى عصر المماليك اعتبرت أعظم البلاد قاطبة ، حينما عبر ابن خلدون عن ذلك بقوله : [1] « ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ؛ فهى أم العالم ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع » .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٥٣ .

الفصل السادس

نهاية حكم دولة سلاطين المماليك فى مصر

منافسة دولة البرتغال للمماليك فى تجارة التوابل فى المحيط الهندى والبحر الأحمر – مقاومة المماليك للهيمنة البرتغالية – ظهور الدولة العثمانية – مهاجمة العثمانيين الصفويين بإيران – التحرش العثمانى وموقف المماليك – اعتزاز المماليك بدورهم الإسلامى والطموح العثمانى – حرب سليم ضد المماليك وانتصاره عليهم فى وقعة مرج دابق ومقتل قانصوة الغورى – تولية طومان باى السلطنة المملوكية – انتصار سليم فى وقعة غزة – انتصاره فى وقعة الريدانية ودخوله القاهرة – مقاومة المصريين للعثمانيين فى القاهرة والصعيد – شنق طومان باى – أحوال مصر التعسة بعد سقوط دولة سلاطين المماليك .

هذا الازدهار الاقتصادى فى عصر المماليك ؛ حدثت له نكسة قضت عليه تدريجياً ؛ حينما قامت دول أوربا باستكشافات بحرية ؛ كان قصدها البحث عن طريق بحرى إلى الهند والصين ، غير طريق البحر الأحمر ، الذى يقع فى أملاك السلطنة المملوكية . فخرج من أبناء أوربا مغامرون لاستكشاف البحار ؛ بما فيها المحيطات المجهولة، ولا سيما أنهم عملوا على تطوير بناء المراكب العابرة للمحيطات، على الخصوص ، تلك التى كان العرب يمخرون بها فى عبابها ، ولدينا وصفها[1] ؛ إذ

---

(١) انظر . Marco-Polo I, 18, III, I. ، نقلا عن متز ، ترجمة عربية ، ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

هى كبيرة جداً تتألف غالباً من طبقة واحدة ، وذات صارية « دقل »[1] واحد ، وكان الوصول إلى سطحها يضطر الراكب إلى استعمال السلالم عشرات من الأقدام .

ولعل الأوربيين فى القرن الخامس عشر قد استخدموا مراكب أضخم ، من طراز جديد ، مصنوعة من الحديد[2] ، وليس من الخشب ؛ مثلما كانت قبلا ؛ لها ثلاث صوار ، وموثق حبال مربع للأشرعة ، ثم اشتملت فيما بعد على أشرعة عديدة ، من مقدمها إلى مؤخرها ؛ فمكن هذا التطور فى بناء المركب ؛ البقاء فى عرض البحر شهوراً بلا انقطاع ؛ دون أن تضطر إلى أن ترسو على ميناء . كذلك عرفت معلومات بحرية كثيرة من بحارة العرب ، ولا سيما البوصلة[3] ، والخرائط .

فكان أول من تطلع إلى كشف طريق بحرى جديد للهند ؛ هم الأسبان فى الجزيرة الايبيرية ، الذين كانوا قد تخلصوا من سيطرة العرب فى بلادهم ؛ وذلك بالتوغل فى المحيط الأطلسى ، الذى تطل عليه بلادهم ؛ إذ كانت استدارة الأرض قد ذاعت عن طريق الجغرافيين العرب . فنذكر من مستكشفى الأسبان الكبار كريستوف كولمبو Christophe Colomb (١٤٥٠ — ١٥٠٦ م) ، وهو إيطالى الأصل من جنوة ، التى كان العرب قد فتحوها فى أيام الفاطميين[4] ؛

---

(١) كلمة الدقل تسمية لمراكب بحر الصين ، بدلا من الصـارى . المسعودى ، مروج ، ط مصر ، ١ ص ٧٤ . وربما تكون مأخوذة من « جنك » Junk ، وجمعها جنوك ، وهو الاسم الذى عرفت به المراكب الصينية الضخمة ، التى عرفت طريقها إلى عدن ، وهى مجهزة بأربع عشر قلعاً ، ويخدم فى المركب الواحد ألف رجل . ابن بطوطة ، تحفة النظار ، القاهرة ١٩٣٨ ، ٢ ص ١١٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ — ١٦٢ ؛ انظر ، درويش النخيلى ، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، ط . الإسكندرية ، ١٩٧٤ .

(٢) بتفصيل ، انظر . Moreland : The Ships of the arabian sea, about A.D. 1500 J.R.A.S. 1939, Jan. 62 sqq. April 173 sqq.

(٣) أنظر . Maunz : Les Navigations, p. 41-42

(٤) فتحت فى ٣٣٣/ ٩٤٥ . العبر ، ٤ ص ٢٠٨ ؛ المكتبة الصقلية ، ص ٤٦٢ ؛ ماجد ؛ ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٢٧٨ .

وقد ثبت أنه اطلع على خرائط العرب ، ولا سيما خرائط الجغرافى العربى المشهور الإدريسى ، الذى رسم خرائط عديدة ؛ بما فيها خرائط أوربا والمحيطات . فلما خرج كولب بأسطول كبير للاستكشافات لحساب ملك الأسبان فى المحيط الأطلسى ؛ بقصد استكشاف طريق للهند — على أساس أن الأرض دائرية — ولكنه لم يكتشف الهند واكتشف أمريكا[١] ؛ حيث أتى منها بخيرات كثيرة ، ليس من بينها التوابل .

كذلك بلاد البرتغال[٢] — البرتقال — المجاور للأسبان ، وهى تسمية عربية ؛ وإن عرفت للعرب أيضاً باسم بلاد : لشبونة[٣] Lisboa ؛ نسبة المدينة الهامة فيها ، الواقعة فى مصب نهر دورة Doura ، فى شبه جزيرة أسبانيا ؛ قد بدأ يظهر لها كيان خاص فى الجزيرة الأيبرية ؛ نتيجة لضعف المسلمين فيها ؛ حيث عرف ملكها فى ديوان الإنشاء المملوكى باسم : صاحب بلاد البرتقال . فكان شعب — البرتغال — يحسد الأسبان على كشف كولب Colomb (١٤٥١-١٥٠٦م) لأمريكا ؛ فإنه أرسل هو الآخر أساطيل تدور حول أفريقيا ، لعله يكتشف طريق الهند .

ولعل أشهر مستكشفى دولة البرتغال ، هو فاسكودى جاما[٤] Vasco da Gama (١٤٦٩ — ١٥٢٤ م)، الذى سافر فى ثلاثة مراكب ، هى : سان جبرئيل Saint Gabriel — وهى مركبه — وسان روفائيل

---

(١) أنظر . Ency. Brit.

Dict. des explorations (Larouse), p. 69 sqq.

(٢) هى تسمية عربية للمدينة Cale ، برتغال فسميت . Portus Cale منها ، انظر . Ency. of Isl. (art Burtukal) 2ed., t. 9, p. 1138-9.

(٣) مخطوط برقم ٤٤٢٠ ، ورقة ٥٩ ، رسالة من المسلمين للفاطميين ببلاد اشبونة .

(٤) أنظر : Roncière : Vasco de Gama. Contuorne, l'Afrique 1498. Mém. S.R.G.E., t. 2, Le Caire, 1925, p. 83 sqq.

Saint Raphael ، وسان ميجل Saint Miguel ؛
فاستطاع أن يكتشف طريق رأس الرجاء الصالح ، الذى كان اسمه رأس العواصف ؛
ولكن ملك البرتغال هو الذى أطلق عليه : رأس الرجاء الصالح[1] ، Cap de Bonne Espérance ؛ ويذهب إلى موزمبيق ، وجزيرة مدغشقر ، التى كان العرب يسمونها جزيرة القمر . ولأول مرة فى هذه الأماكن ، شاهد دى جاما مراكب عربية ، ومن هناك اصطحب المعلم Malemo Cama ، واسمه أحمد بن ماجد (٨٣٥ – ٩١٥ / ١٤٣٣ – ١٥١٠) ، الذى علمه طريق الهند فى عام ٩٠٣ / ١٤٩٧[2] .

كذلك أسهم البرتغاليون بمستكشفين مشهورين آخرين للبحث عن طريق الهند ، مثل الأمير هنرى Henri[3] (١٣٩٤ – ١٤٦٠ م) ، الشهير بالملاح ، الذى عرف بكرهه للمسلمين ، وقاتلهم فى مراكش فى ٨٦١ / ١٤٥٦ ،

---

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، ٢ / ٦٣٠ هامش .

(٢) النهروالى ، غزوات الجراكسة والأتراك فى جنوب الجزيرة ، المسمى البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، أشرف على طبعه احمد الجاسر ؛ الرياض ، ص ١٨ — ١٩ ؛
Dict. des Explorations,
(La Rousse), p. 118 sqq.
عن ابن ماجد ؛ أنظر .
Enc. de l'Isl. (art Shihâb al-Dîn Ahmed B. Mâjid) 2ed., t. 4, p. 375 sqq.
Genavieve Bouchon : Malame de Cananor, un adversaire de l'Inde portugaise (15051528). Genève, 1975.
؛ محمد عبد العال ، أضواء جديدة على « ملاح » فاسكو دى جاما ، مستخرج من مجلة الدراسات الأفريقية ، العدد الخامس ١٩٧٦ ، ص١٥٣ وما بعدها . ولعله وجد عددا آخر من الملاحين العرب فى علم البحار ؛ وان كان ابن ماجد هو أظهرهم ، الذى يذكر قسوة البرتغاليين ، فى كتابه المعروف : الفوائد فى أصول البحر .

(٣) أنظر . Dict. des explorations. Larousse, 1966, p. 133 sqq.
؛ السلاوى ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ، ٤ ص ٩٢ ؛
انظر . مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ١٩٦٨ ، ص ٤٠٧ .

وكان يأمل التوصل إلى طريق الهند منذ ٨٢١/١٤١٨ ، بالقيام برحلات إلى سواحل أفريقيا ، وبرتلميوديناز[1] Bartholomeu Dias (١٤٥٠ — ١٥٠٠ م) ، الذى دار حول أفريقيـا مرتين فى ٨٩٣/١٤٨٧ ، وماجـلان Magellan (Fernao de Magalbaes) (١٤٨٠ - ١٥٢١م) ، الذى أرسل للبحث عن جزائر التوابل ، واشترك فى توسيع رقعة البرتقال فى الشرق الأقصى منذ عام ٩١٧/١٥١١ .

وعلى عكس محاولة البرتغال فى السيطرة على تجارة التوابل ؛ فإن بقية دول البحر الأبيض الأوربية الأخرى ، لم يكن لها طموحها ؛ بسبب انشغالها بأمورها الاستعمارية فى أماكن أخرى ؛ فمثلا الأسبان انشغـلوا بحروبهم فى أمريكا الجنوبية ، أما الإيطاليون فقد استمروا يتاجرون مع المماليك فى التوابل ، والوصول إلى سوق السلطان ؛ حتى أن دوق البندقيـة أعلن أنه منع التجار فى بلده من الذهاب إلى لشبونة[3] عاصمة البرتقال . أما السلطان ؛ فإنه نشط من ناحيته فى إرسال مندوبيه إلى بعض دول البحر الأبيض الصديقة ؛ ليمنع اتصالها بالبرتغال[4] . فأرسل السلطان الغورى رسالة إلى فلورنسا مع ترجمانه ابن تغـرى بردى ، ومنحها

---

(١) أنظر . Dict. des Explo., p. 95.

(٢) أنظر . Ibid., p. 168 sqq.

(٣) أنظر . مراسلة فى ٩١٧ / ٣١ ديسمبر ١٥١٦ . أنظر .
Senato Secreta Reg. XLIV. F. 92
نقلها السفير Diminini Traviani

(٤) أنظر . هذه الرسالة مكتوبة بالعربية فى
Amari I. Dipomi Arabi XLIX.
وتوجد فى ملحق برقم ٢١ . أنظر . نعيم ، طرق ، ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .
وتوجد رسالة أخرى بتاريخ ٢٢ جمادى الآخر ٩١٣ / ٢٩ أكتوبر ١٥٠٧ . انظر .
Amari I. Diplomi Arabi XVII, p. 218-219-220.
؛ انظر . نعيم ، طرق ، ص [٤٧٤ — ٤٧٥] ؛ ملحق رقم ٢٢ .

تسهيلات مكتوبة فى ٩١٤/١٥٠٨ ، ورد فيها[1] : «لا أحد يعترض عليكم ، أو يزعجكم ، أو يضايقكم » . ولا شك أن موقف غالبية دول البحر الأبيض من التجارة مع دولة المماليك ؛ سببه يرجع إلى السياسة السلمية التى نهجتها دولة سلاطين المماليك معهم ؛ منذ انتهاء الحروب الصليبية .

وعلى كل حال؛ قدر المماليك فى مصر خطر وصول البرتغاليين إلى الهند ، وتصرفوا بسرعة بهذا الخصوص ؛ حتى أنهم أقنعوا مهراجات فى الهند ، بخطر تواجدهم فى القارة الهندية . فيقول المؤرخون المسلمون بوجود ست إمارات إسلامية ؛ أو أقل؛ يحكمها أعيان ملوك الهند ، ولايتهم من قبل الخلافة العباسية فى مصر[2] ؛ وإن اختلفوا فى أسمائها[3] ؛ أشهرها دهلى[4] ؛ حيث عرف أميرها فى مراسلات مع ديوان الإنشاء المملوكى باسم : صاحب الهند أو صاحب دهلى ، ومالو التى تفرعت من مملكة دهلى بعد غزوة تيموولنك ، وتقع فى جنوبها ،

---

(١) أنظر . Amari I. Diplomi Arabi I, p. 386
؛ انظر . نعيم، طرق ، ص ٩١ وملحق ٢٣.

(٢) منتخبات من حوادث الدهور ، ط . California ، ص ٢٨٥ — ٢٨٨ .

(٣) يذكر ابن تغرى بردى فى سنة ٨٦١/١٤٥٧ : دهلى ، وكنباية ، وبنسكالا ، وكابرجة ، وجانبور ، وبيجانكر . أنظر . منتخبات ، ٢٨٥ — ٢٨٨ . أما الخالدى ، فيذكر : دهلى ، وكنباية ، وبنسكالا ، ومندوة ، ومالوة . أنظر . المقصد الرفيع ، مخطوط B.N. ، برقم ٤٤٣٩ . أما المقريزى فيذكر : دهلى ، وبنجالة ، وكنباية ، وكابربة ، وبزرات ، ومهاتم ، وتانه .
السلوك B.N. ؛ برقم ١٠٧٧ ورقة ب (اقاها دراج) .
أما هذه الممالك فى كتب الهنود ؛ فهى : دهلى ، ومالوه ، والكجرات ، وجونبور وبنغالة ، وخاندش :
History of Medieval India from 647, to : Piasad
the Mongol conquest trad. français. Paris, 1970.

(٤) مخطوط ٤٤٤٠ (فى B.N.) ، ورقات ٣٩ ب وما بعدها ؛ صبح ، ٨ ص ٧٦ .

وعاصمتها مناداوة أو مندوة(١) ، ولها هي الأخرى رسائل متبادلة في أرشيف ديوان الإنشاء ، وحتى مملكة السيلان(٢) في جنوب الهند ؛ حيث أرسل ملكها إلى السلطان المملوكي يطلب إرسال التجار من مصر .

والواقع إن محاولات البرتغاليين لم تكن فقط بقصد منافسة دولة المماليك على تجارة التوابل ؛ ولكن بقصد أغراض استعمارية أخرى في بلاد المسلمين ؛ فقد كانت مراكبهم وهي تمخر عباب البحار ؛ شعارها الصلبان والمدافع(٣) ؛ بحيث انتقلت الحروب بمظهرها الصليبي إلى المحيط الهندي ، وإنشاء قواعد ثابتـــة للأسطول البرتغالي ، وأصبحوا يهاجمون منها المراكب الإسلامية في البحر الأحمر ، وتقيم مراكبهم إقامة دائمة عند مدخله .

ولما سمعوا بأن دولة الحبشة مسيحية في أفريقيا ؛ فكروا في التعاون معها(٤) ، ولقي ذلك قبولا من أمبراطورة الحبشة هيـــلانة ، وملك البرتغال جون الثاني Jean II (١٤٨١ — ١٤٩٥ م) ، الذي أرسل إلى مملكة الحبشة مندوباً عنه اسمه بدرو كافلهك Pedro da Cavalhq ، في ٨٩٨/١٤٩٢ ، اقترح إقامة حلف بين الحبشه والبرتغال . ومع ذلك ؛ فإن الحبشة ما كانت تستطيع أن تنطلق معهم ، في معاداة دولة سلاطين المماليك ؛ بسبب أن الإسلام كان قد انتشر فيها ،

---

(١) الضوء اللامع ، الجزء العاشر ، رقم ٥٩٠ ، ص ١٤٨ — ١٤٩ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Malwa et Mandu) 1ed., t. 3, p.

؛ الساداتي ، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم ، ١ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

؛ دراج ، رسالتان متبادلتان بين سلطان مالوه والاشرف قايت باي ، فصله مجلة معهد المخطوطات العربية ، ٢١ مايو ١٩٥٨ ، ص ٩٧ وما بعدها .

(٢) صبح ، ٨ ص ٧٧ .

(٣) أنظر . الشناوي ، الدولة العثمانية ، ٢ ص ٦٩٧ .

(٤) أنظر Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssiynia during the years 1520-1527, of Father Francisco Alvarey. Translated from the Portugeuse by Lord Aderby.

وأن بعض حكام الصومال الحالي ، المحيطين بها ؛ وهم من أصل قبائل عربيـــة مهاجرة ، كانوا يدينون بالولاء لدولة المماليك بمصر ؛ على أساس أن بها خلافة المسلمين .

**

وفى كل حال ، لم تقف مصر مكتوفة الأيدى أمام الخطر البرتغالى ؛ فعمد أمير البحر المملوكى حسين الكردى إلى إنشاء الحصون والأبراج فى جدة ، وحفر حولها خندقا ، وزود المدينة بالمدافع ؛ كما اتخذ قاعدة له فى جزيرة كمران (1) ، الواقعة قبالة اليمن . كذلك ذهب بنفسه إلى عدن ، ميناء اليمن المعروف ؛ إلا أن خيانة سلطانها للمصريين ؛ إذ كانت مراكب البرتغاليين تدخلها بالاتفاق معه ، ويمنحها التموين (2) ؛ مما جعل الكردى يحارب ســلطان عدن ، الذى منع تموين أسطوله (3) ؛ فاستولى عليها (4) ؛ ونازل الأسطول البرتغالى (5) ، وألحق به الهزيمة فى ١٥٠٨/٩١٤ .

وفى الوقت ذاته ؛ فإن مراكب حربية بنيت فى السويس ، واستعرضها السلطان الغورى ، واحتفل وقت نزولها احتفالا شعبياً فى ٦ من جمادى الآخرة سنة ٩١١/ ٥ أكتوبر ١٥٠٥ ؛ فقد شحنت بعسكر الطبقة الخامسة (6) ، أى من المصريين وسودان مصر ، الذين يستخدمون المدافع والبنادق فى القتال ؛ إلا أن هـــذه المراكب غرقت قرب الشاطىء الغربى للهند . ولعل غرقها جاء على مايبدو نتيجة لمهاجمة

---

(١) عنها ، انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ س ١٠٣ ، قبالة زبيد .
(٢) النهروالى ، البرق اليمانى ، س ٧ .
(٣) نفسه ، س ٢٣ — ٢٤ .
(٤) يحيى بن الحسين ، س ٦٥٨ .
(٥) الشيخ زين الدين ، تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين ، ط . لشبونة ، س ١٩٧ ؛ انظر . Kammerer : La Mer Rouge I, p. 1155.
(٦) ابن إياس ، ٥ س ٢٠٣ . عن هذا التعبير الاصطلاحى . نفسه ، ٣ . س ١٣١ س ٢٣ وقبله .

الأسطول البرتغالى أيضاً ؛ وهو ماعرف فى المصادر الأوربية باسم معركة ديو[١] Diu البحرية ، فى ٩١٥/فبراير ١٥٠٩ ، وهو ميناء فى جزيرة فى المحيط الهندى ؛ حيث لايذكر المؤرخون العرب هذه المعركة؛ وإن احتل البرتغاليون بعض أجزاء من الهند ؛ بعد ذلك .

ولاشك أن الغورى قد اعتبر مافعله البرتغاليون يقع على عاتق المسيحية جميعاً ؛ ولكن خفف منها أن دول البحر الأبيض الأوربية استمرت على علاقة طيبة به ، ولا سيما دولة البندقية[٢] . التى كان يسرها أن يوقف السلطان طموح البرتغال ؛ حتى أنها أرسلت له تبين حرج موقفها ، فى أنها لا تستطيع مساعدته ضد البرتغال .

ومع ذلك ؛ فإن البرتغاليين أخذوا يعيثون فى البحر الأحمر بأسطولهم ؛ فخربوا عدن فى المحرم ٩١٩/مارس ١٥١٣ ؛ وإن كان ملك اليمن سعى إلى الاستنجاد بالغورى فى أول الأمر[٣] ؛ فأرسل إليه هذا الأخير يبين استعداد مصر لمواجهة البرتغاليين[٤] . ولكن البرتغاليين قصفوا عدن[٥] من جديد، ثم انسحبوا، وعمدوا إلى الهجوم على بندر جدة أيضاً فى ٩٢٣/١٥١٧[٦]، الذى يعتبر وقتذاك أهم موانىء التجارة المملوكية فى التوابل ؛ وذلك بقيادة ألفونسو البوكيرك

---

(١) عن ذلك ، انظر .

The commentaries of the Great Alfonso Albuquerque, translated from the Portuguese, edition of 1774, by Walter de Gray Birch. Part I, p. XII-XIII, XLI, 58-9, part II, p. IXVII-IXVIII.

؛ دراج ، المماليك والفرنج ، فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٣٧ وهامش.

(٢) أنظر . Heyd : Op. Cit., p. 537.

؛ نعيم ، الطرق ، ص ٩٢.

(٣) النهروالى ، البرق اليمانى، ص ١٠٩

(٤) ابن إياس ، ٤ ص ٢٠٩ ؛ انظر . Kammerer : La Mer, II, p. 232.

(٥) أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن، ١ ص ١٢ — ١٣ ، ١٦ — ١٧.

(٦) ابن إياس ، ٣ ص ١٦٩ ص ١٥ وما بعدها.

Alfonso Albuquerque ، وخيف أن يملكوه ، سيما لأنه من ناحية مكة ، وإن كان قد أصبح هم البرتغال سد باب المندب ؛ للقضاء على تجارة المماليك ؛ بمنع خروج سفن مصر إلى البحر المحيط .

ولا شك أن انشغال مصر فى أيام الغورى، ومن بعده فى أيام طومان باى بالخطر العثمانى ؛ ثبت أقدام البرتغاليين فى الهند ،وحتى فى أماكن إسلامية أخرى فى الخليج العربى ، مثل : عمان . وكان هذا من شأنه أن يقضى نهائياً على تجارة المماليك فى الشرق، ويقوض دعائم اقتصاديتها ؛ مما مهد لانهيارها ؛ حتى أنه لم تعد توجد أموال فى خزائن الدولة لدفع مرتبات الموظفين فيها .

★★

وبالتالى فقدت مصر مركزها الاقتصادى المتميز ، الذى تمتعت به منذ حكم الفاطميين؛ مما مهد لسقوطها على يد جماعة مسلمة مثلهم ، سكنت فى آسيا الصغرى ، بعد نزوحها من موطنها الأصلى فى وسط آسيا ، عرف أفرادها باسم : ترك بإيمان[1] ؛ بسبب صدق إسلامهم ؛ وإن غلب عليهم اسم العثمانيين ؛ نسبة إلى جدهم الأمير فخر الدين عثمان بن أرطغرل[2] ، الذى كان سلاجقة آسيا الصغرى — وهم ترك أيضاً — قد أقاموا فيها منذ موقعة مانزكرد ، التى انتصروا فيها على بيزنطة أو

---

(١) أنظر : Minorsky : Middle, p. 449.

(٢) هو عثمان بن ارطغرل بن سليمان شاه التركمانى ؛ قائد إحدى قبائل الترك النازحين إلى آسيا الصغرى . ابن إياس ، ٣ ص ٢٢٧ ؛ انظر . محمد فريد ، الدولة العلية ، ط ٢ ص ٣٩ وما بعدها . هم من الترك ، من الغز ، وهى تسمية تطلق على الترك عموما ؛ فهم من قبيلة بوز أوق الغزية ، أو قايى خانلى . أنظر ، صحائف الأخبار ، الجزء الثالث ، له ترجمة تركية بالخزانة التيمورية بدار الكتب ، برقم ٢٠٧٣ تاريخ . أنظر . أحمد تيمور ، التذكرة التيمورية ، معجم الفرائد والنوادر ، دار الكتاب العربى ، ١٩٥٣ ص ٢٤٥ — ٢٥٠ ؛ أحمد السعيد ، تاريخ الدولة الإسلامية، دار المعارف .

الروم ؛ فسمحوا لعثمان وقومــــه بإقامة إمارة له بين إماراتهم ، على حدود بلاد الروم — في جنوب بحر مرمرة — وهي إمارة قره حصار في ١٢٦٩/٦٦٨ ، ولم تكن تتجاوز أربعمائة خيمة ؛ وإن أصبحت مقصد هجرات فئات الترك الأخرى ؛ بحيث أصبحت إمارة ثغرية جهادية . ولـكن هو وخلفه بالتدريج ؛ أخذوا يوطدون أقدامهم ، على حساب جيرانهم السلاجقة ؛ بسبب المنافسة بين إماراتهم المنقسمة ، التي بلغت عشر إمارات ؛ فـكانوا يضمونها واحدة بعد أخرى ؛ حتى أن عثمان هذا سك عملة باسمه ؛ مما يدل على طموحه .

وفي عهد أورخان ، وهو ابن عثمان ؛ استولى العثمانيون على بلاد هامة من الروم أيضاً ، مثل أزنيق أو أزمير ، فسمي أورخان بصاحب برسا[1] ، — اسم أطلق عليها — بحيث لم يبق للروم معهم رمق . وقد ساعد على ذلك أن العثمانيين في عهده كانوا أوجدوا تنظيماً حربياً اعتمدوا عليه في الجهاد ضد الروم ؛ عرف بنظام الإنـكشارية « يكنجاري » — وهي محرفة من يني تشاري Yeni Techeri ؛ بمعنى الجند الجديد — وأصله تنظيم سلجوقي ؛ يعمل في الأصل على تربية الأطفال والشبان من أسرى المسيحيين تربية دينية وحربية ؛ بحيث لا يعرفون ولياً لأمرهم غير الخان العثماني ، وأصبح من ميزتهم أن القدور[2] لا تفارقهم ؛ كناية عن تقديرهم للنعمة من قبله ؛ فـكانوا يشتغلون بالحرب وحدها ، وكأنهم قد خلقوا للجهاد والاستشهاد .

وأكثر من ذلك ، أن مراد ، وهو ابن أورخان ، حصل من الخليفة العباسي في القاهرة على لقب سلطان ؛ مما جعل حكمه شرعياً[3] ؛ بحيث أصبح على صداقة

---

(١) صبح ، ٨ ص ١٥ .
(٢) كانوا إذا أرادوا إظهار عدم الرضا عن رؤسائهم ؛ قلبوا القدور .
(٣) أنظر . محمد حرب ، العثمانيون المفترى عليهم ، مارس ١٩٧٩ ، ص ٤٠ .

مع سلاطين مماليك مصر.فتبادل الرسائل الودية مع برسباى[١] ؛ سلطان المماليك.
كذلك ، نظمت فى عهد مراد فرق الخيالة « سباهى »[٢] ، الذين أعلامهم حمراء ، وهو شعار دولة بنى عثمان،واستولى بهم على بلاد عديدة من الفرنجة أو الأوربيين فى البلقان Balkan ، أو ماعرف بالروملى Roumélie وقتذاك، بعد أن تجاوز خليج البنادق ؛ فاستولى على بلاد الصرب ، وانتصر عليهم فى موقعة كوسوفو Kossovo ، ودخل صوفيا Sofia فى ١٥ يونية ١٣٥٩م/ ٧٦٠هـ[٣]؛ إلا انه استشهد فى هذه البلاد مقتولا من خنجر جندى اسمه مولاش كبيلتش Muloch Kabilitch ، فى ١٥ شعبان[٤] ٧٩١/١٨ أكتوبر ١٣٨٩ .

خلفه ابنه بايزيد الأول[٥] ـ سماه ابن إياس أبا يزيد ـ الذى خضع له التركمان على الحدود[٦] المصرية الشمالية فى الشام ، كما حارب أوربا مجتمعة ؛حينما تنبهت إلى خطر العثمانيين،بحيث جاء الألمان والإنجليز والفرنسيون؛ ليقوموا بحرب صليبية ، فهزمهم بايزيد هزيمة منكرة فى موقعة نيقو بوليس« Nicopolis »ـأى مدينة النصرـ على ضفاف نهر الدانوب ،فى ذى القعدة ٧٩٨/٢٧ سبتمبر ١٣٩٦، وبعدها استولى على هنجاريا. وقد تباهى بأنه لا أحب إليه من محاربة الفرنجة[٧] ، أى أهل أوربا، وأصبح يلقب يلدريم Yildirem ، أى الصاعقة .

---

(١) يظهر ذلك من نسخة جواب مراد بك عثمان ؛ مخطوط ٤٤٤٠ B.N. ورقة ٤٥ وما بعدها .
(٢) أنظر محمد فريد، الدولة العلية ، ورقة ٤٦ .
(٣) صبح ، ٨ ص ١٥.
(٤) أنظر . محمد فريد ، الدولة العلية ، ص٤٨.
(٥) ابن إياس ، ٣ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ ؛ انظر . محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٤٢ ؛
Ency. of Isl. (art Bayzaîd) 2ed., t. I, p. 1117-19.
(٦) صبح ، ٨ ص ١٥.
(٧) أنظر . محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٠.

ولكن نمو العثمانيين توقف وقتاً ؛ بسبب فتوح المغول بزعامة تيمورلنك، التي وصلت إلى آسيا الصغرى ؛ حيث حارب بايزيد الأول وهزمه في موقعة جوبوق أووه ، قرب أنقره ، في يوم الجمعة من ذي الحجة ٢٨/٨٠٤ يوليو ١٤٠٢ ؛ فجاءوا إليه ببايزيد مكبلا أمامه ؛ فأمر تيمور بفك اسره ، وسمح له بالجلوس بجواره ، وعاتبه برقة ، وهدأه وطمأنه ، واعترف له بايزيد بأخطائه نحوه بمحاربته ، وأعلن أن يكون في طاعته دائماً ؛ إلا أنه لما شرع في الهروب ، وضعه تيمور في قفص من الحديد[١] ؛ فابتلع بايزيد فصاً من الماس ، فمات وهو في القفص ، في ١٤ شعبان ٨/٨٠٥ مارس ١٤٠٣ .

وقد ترتب على هزيمة بايزيد أن تمزقت دولة العثمانيين ، وتنازع أولاده من بعده فيما بينهم لمدة عشر سنوات ، وانفصلت كثير من البلاد عن دولتهم ؛ بما فيها البلقان . ولكن بعد رحيل تيمور ، ثم موته ، استطاع العثمانيون إعادة دولتهم موحدة ، يظهر ذلك من سك عملة باسم سلطانهم محمد الأول[٢] ، في ١٤١٣/٨١٦ . كذلك تحرك خلفه مراد الثاني نحو الفتح من جديد ، في البلاد المجاورة ؛ فسار نحو القسطنطينية ، عاصمة الروم . يظهر ذلك من خطاب أرسله إليه السلطان إينال المملوكي ، يعلن فيه سروره من مسيرته على القسطنطينية العظمى ، بعساكره الإسلامية ، وجنوده المحمدية[٣] .

وما لبثت أن عادت الدولة العثمانية قوية من أعظم دول الأرض على يد محمد الثاني ، الذي أجهز على دولة الروم نهائياً ؛ فيقول في رسالته إلى إينال ، سلطان مصر : « وبقيت ــ يقصد القسطنطينية ــ وسط بلاده ، تتباهى بكفرها . . وكأنها

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٤٨ ، ٢٣٦ — ٢٣٧ ؛ انظر ، محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٩ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٢٣٦ ؛ انظر . Khalil Edhhem : Meskûkât, Osmânîye. I. Catalogue des monnaies islamiques de Musée Imp. I no. 92.

(٣) مخطوط ٤٤٤٠ (B.N.) ؛ ورقة ١٥٧ ومابعدها.

كلف على وجه القمر »[١] . فقد حاصرها محمد الثاني من البر والبحر مدة أربعة وخمسين يوماً وليلة ؛ إذ كان جانب منها واقعاً في البر ، وجانب منها في البحر ، بعدد ٢٥٠ ألف جندي من البر ، وبعدد ١٨٠ سفينة من البحر ، ثم لما وضعت السلسلة ؛ فإنه نقل إلى الخليج – بحر مرمرة – سبعين سفينة أيضاً ؛ بأن مهد له طريقاً على البحر ، نصب فوقه ألواحاً من الخشب ، صب عليها كمية من الزيت ؛ لسهولة تزلق المراكب عليها[٢] . وقد شارك في الدفاع عن القسطنطينية كثير من مسيحي أوربا ، من روسيا وأسبانيا وجنوة . ومع ذلك ؛ سقطت القسطنطينية في يده في ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٢٩/٨٥٧ مايو[٣] ١٤٥٣ ؛ حيث قتل ملكها قسطنطين الحادي عشر (أو ١٢) باليولوجوس درغاسيس Constantinus XI-(XII) Paleologos Dragasis – تكفور – (١٤٤٩ – ١٤٥٣ م) ، في حرب الشوارع . ومن يومها عرفت القسطنطينية باسم: إسلامبول ، أي تخت الإسلام[٤] ، أو مدينة السلام؛ وإن اشتهرت باسطنبول[٥] ، وعرف محمد الثاني من يومئذ : بالفاتح ؛ حيث أقسم الفاتح أن يستولي على روما أيضاً ، مقر البابوية ، وأن يربط حصانه في كنيسة القديس بطرس[٦] .

ولما دخل محمد الثاني القسطنطينية أمر أن يؤذن في أكبر كنائسها المعروفة باسم : كنيسة القديسة صوفيا « Aya Sofia »[٧] ، إيذاناً بجعلها مسجداً للمسلمين؛ وهي مبنية على الطراز البيزنطي، كانت في وقت ازدهارها

---

(١) انظر . أحمد فريدون ، منشآت الملوك والسلاطين ، مخطوط طوب قبوسراي باسطنبول؛ تحت رقم R. 1960 ، ورقات ٣٣٨ وما بعدها.

(٢) أنظر . محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٩ – ٦٠ .

(٣) أنظر Mehmet Zaki : Osmanli Tarih, vol. 3, p. 443. Pekolin

(٤) أنظر . محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٦١ .

(٥) العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، مصر ١٣١٢ هـ ، ص ٤٠ .

(٦) أنظر . محمد فريد، الدولة العلية، ص ٦٣ .

(٧) طاثور ، ص ١٤٣ – ١٥٤ .

تضم ستة آلاف رجل من رجال الدين، وملحق بها كثير من الكنائس الصغرى، وتوجد فيها مخلفات المسيح، مثل: عباءته، والحربة التى طعن بها فى جنبه، وخشبة الصلب، وأحد المسامير، والعامود الذى رفعوه عليــــه، ومخلفات أخرى من القديسين والقديسات.

ولما تحولت هذه الكنيسة إلى مسجد؛ حيث ينسب ذلك إلى مهندس يونانى إسمه كريستودولوس[1] « Christodulos »؛ فقد زيد فيها؛ فغطيت بالمصيص الصور الذهبية للقديسين والقديسات، وحددت القبلة نحو مكة، بإقامة المحراب الذى أقيم بجواره المنبر والمقصورة من الذهب؛ حيث أفردت المقصورة مكاناً خاصاً للسلطان؛ كما كتب على حوائطها بخط مذهب كبير اسم الله ومحمد والخلفاء الأربعة، وأقيمت مآذن أربع، وأقيم فى أحد كنائسها الملحقة، التى كانت اتخذت مقبرة للاباطرة مسجداً، حمل اسم فاتح القسطنطينية: محمدى فاتح جامعى[2]؛ فعلى حسب قوله: « صيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام ».

ولقد أصبح لفتح القسطنطينية أهمية خاصة فى تاريخ المسلمين؛ إذ ترتب عليه قطع دابر دولة الروم نهائياً، التى شغلت العرب طوال تاريخهم الإسلامى الأول؛ وبسبب أن الأمويين والعباسيين من قبل لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، مع أنهم وصلوا إليها عدة مرات؛ إلا أنهم فى كل مرة كانوا يرجعون عنها ـ قيل إحدى عشرة مرة ـ قبل هذه الأخيرة. ولكن العثمانيين وحــــدهم قد تمكنوا من فتحها، على الرغم من أنها ـ كما وصفت ـ كانت صعبة المرمى، شامخة الأركان، راسخة البنيان، وقلعة حصينة عظيمة، مشتهرة فى ألسنة أهل الأرض، حتى راجت أحاديث نبوية؛ نطقت بها صحاح الحديث، من أن يكون فتحها على يد العثمانيين: «فيفتحون قسطنطينية». لذلك؛ فإن ســــلطان مصر المملوكى إينال، أرسل

---

(١) أنظر: Brocke: Hist. des Peuples, p. 237.

(٢) أنظر. Idem.

التهنئة[١] الحارة إلى محمد الثانى على هذا الفتح الكبير ، والانتصار على ملك القسطنطينية التكفور الكفور ، وأرسل إليه الهدايا أيضاً ؛ « ليؤكد له أسباب الود والمحبة ، ويوثق عرى الاتحاد والصحبة » .

ولكى يؤكد العثمانيون الصلة الدينية بينهم وبين الإسلام ؛ فإنهم فتشوا بجوار القسطنطينية عن قبر صحابى كبير ، كان قد اشتهر فى حروب السلف العظام ضد الروم فى أيام الأمويين ، وهو الصحابى أبو أيوب الأنصارى ؛ فبنى محمد الفاتح على تربته مسجداً كبيراً ، وأطلقوا عليه مسجد أيوب سلطان[٢] ؛ إجلالا له ؛ بحيث كان كل سلطان عثمانى ؛ حينما يتولى السلطنة ؛ فإنه يتقلد سيف عثمان الأول — مؤسس دولتهم — بهذا المسجد — وقبل سفره إلى الحروب يزور قبر أيوب هذا ، إذ اعتبروا وجود قبره فى بلادهم ؛ فألا بالانتصار على أعدائهم .

ومن ناحية أخرى كان لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية نتائج هامة أخرى تتمثل فى انتصارات أخرى كثيرة فى أعماق أوربا ؛ إذ بعدها انطلقوا بالفتح وكأنهم أصبحوا يقومون بحركة إسلامية مضادة للحركة الصليبية ؛ بغزو الأوربيين فى عقر دارهم ؛ وإن قاموا بذلك منذ قيام دولتهم[٣] ؛ بحيث حلت لفظة « الترك » محل « لفظة « الشرقيين » «Saraceni» ؛ فى لسان الأوربيين . وما لبثت هى الأخرى أن اختفت ، وحل محلها « العثمانيون » ؛ فهم بذلك أعادوا الإسلام إلى أوربا ، الذى كان قد رحل عن الأندلس .

كل ذلك جعل من العثمانيين دولة إسلامية لها مكانتها فى العالم الإسلامى ،

---

(١) فريدون ، منشآت ، ورقات ٣٤١ — ٣٤٢ ب ؛ انظر . متولى ، ملحق ١٣ صفحات ٣٠٨ — ٣١١ . كذلك مخطوط فى (B.N.) ، برقم ٤٤٤٠ ، ورقات ١٥٧ — ١٦٠ .

(٢) أنظر : Brocke Op. Cit., p. 237.

(٣) يقال إن عثمان — مؤسس دولتهم — مات شهيدا (ت٦٩٩/١٣٠٠) ؛ فى بعض غزواته فى بلاد أوربا . ابن إياس ، ٣ ص ٢٣٧ س ١٧ .

تقف موقف الند من دولة المماليك الإسلامية الكبرى فى الشرق ؛ إذ بفتح العثمانيين للقسطنطينية يؤرخ فى أوربا بالتاريخ الحديث ؛ مما يبين أهمية هذا الحدث الحربى الإسلامى.

★

وفى أول الأمر ؛ فإن المماليك لم ينظروا إلى العثمانيين بمنظار المداوة ، أو حتى المنافسين لهم فى السيطرة والنفوذ فى العالم الإسلامى ؛ على أساس أنهم لم يعادوهم بعد ، ولأنهم فى نظرهم لا يرقون إلى مرتبتهم ؛ حتى وإن كانوا قد أحرزوا انتصارات هائلة على أهل الكفر فى آسيا الصغرى وأوربا ؛ إلا أنهم فى رأيهم لايقيمون مثلهم فى قلب العالم الإسلامى والعربى ، وإنما فى آسيا الصغرى وأوربا ، موئل شعوب غير إسلامية ؛ فهم اتخذوا القسطنطينية ، عاصمة الروم السابقة عاصمة لهم — وإن سموها اسطنبول كما ذكرنا — بكل ما كانت تمثله من عداء شديد للإسلام طوال قرون عديدة ؛ لذلك فهم مسلمون مجاهدون فقط .

وعلى العكس ؛ فإن المماليك بسبب وجود دولتهم فى الشرق الإسلامى ، اعتبروا أنفسهم حماة الإسلام ، وعلى الخصوص بسبب اتخاذهم مصر قلب العروبة والإسلام ، ومركز الثقل فيها ؛ قاعدة أصيلة لدولتهم الإسلامية المترامية، ولا سيما أن سياستهم هى نفسها سياسة الفاطميين والأيوبيين من قبل ؛ باتخاذ مصر قاعدة للنضال فى سبيل الإسلام . ثم إن المماليك كان رصيدهم السابق بالنسبة للإسلام كبيراً جداً ؛ فهم الذين قطعوا دابر الصليبيين من الشرق ، وأنهم هم الذين أوقفوا الخطر المغولى ، الذى لم يكن يقل تهديداً للبلاد الإسلامية عن الخطر الصليبى ، كما استطاعوا أن يعيدوا الخلافة التى قضى عليها المغول فى بغداد، وبذلك أعادوا للإسلام ركناً هاماً فى شرعية وجوده ، بحيث أصبحت القاهرة مركز خلافة

---

(١) لدينا مخطوط بعنوان : قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة (فى B.N.) برقم 4613 وقبله.

العباسيين. وبعد أن أقاموا بهذه المهام الكبرى لصالح الإسـلام العام ؛ فإنهم لم يستكينوا فى الجهاد ضد قوى المسيحية الشريرة ؛ فهاهو برسباى يذكى روح الجهاد ويهاجم قبرس فى ثلاث حملات حتى أخضعها له وانتصر على ملكها جانوس الثانى لوزينان ، وأحضره أسيراً إلى القاهرة .

ولذلك ؛ فإن المماليك لم يكونوا يخلطون أنفسهم بالعثمانيين أبداً ؛ على الرغم من أنهما كليهما من الترك ؛ وإن سعى كل منهما إلى إيجاد أصل عربى ؛ على أساس أن العروبة هى مادة الإسلام ؛ فالجراكسة اعتبروا أنفسهم من اصل عربى كما ذكرنا[١] ، فهم يربطون نسبهم بقريش . وحتى العثمانيون كانوا يرون أن جدهم عثمان هو عربى من سكان نواحى المدينة ؛ وإن اتصل بالسلاجقة فى آسيا الصغرى ، وتكلم لغتهم[٢] . ويظهر عدم خلط أنفسهم بالعثمانيين، فى أنهم كانوا يطلقون على دولتهم اسم العثمانية ؛ نسبة إلى عثمان جدهم ، أو الروم أو مملكة الروم[٣] ، أما سلاطينهم فيطلق عليهم ملوك الروم من بنى عثمان[٣] ، وربما بسبب استقرارهم مكان الروم فى آسيا الصغرى بعد تغلبهم عليهم، أو لأنهم مثل السلاجقة فى آسيا الصغرى ، يطلق عليهم سلاجقة الروم ؛ لمجاورتهم لهؤلاء ، أو حتى لأنهم بعد ذلك أصبحوا مثل الروم يهاجمون فى بلاد الإسلام ، وهى على كل حال تسمية مقبولة من العثمانيين أنفسهم ؛ فقد كان سلطان العثمانيين — كما يظهر من مفاتيح الكعبة الشريفة — يسمى نفسه سلطان الروم[٤] .

وفى أول الأمر ؛ فإن المماليك مثل بقية المسلمين كان يثلج قلوبهم انتصارات العثمانيين على الروم، وقضاؤهم نهائياً عليهم ، وفتحهم فى بلاد فى أوربا، بل يرون

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٢٣٧ س ٧ — ٨
(٢) فريدون ، المصدر السابق، وثائق متعددة ، أنظر .
(٣) ابن إياس ، ٣ ص ٢٣٧ س ٦.
(٤) أنظر . Sourdel : Les Clefs, p. 76

أنهم أفضل من سلاجقة الروم، الذين عاصروا نشأة دولتهم، ولو أن هؤلاء جاهدوا الروم والصليبيين من قبل ؛ إلا أنه بسبب ضعفهم بعد ذلك ، نتيجة لانقسامهم ، فإنهم أصبحوا ضعافاً متداعين . فكان مظهر التقدير للعثمانيين المجاهدين ؛ هو أن الخليفة الذى يستظل بحماية المماليك فى مصر ، كان يرسل إلى سلاطين آل عثمان تقليد السلطنة[١]، من دون هؤلاء السلاجقة ، وكان إذا وصل انتصار العثمانيين على الروم إلى مصر ، كانت تزين البلاد[٢] .

ومن ناحية العثمانيين ، فإنهم كانوا على وئام مع المماليك فى أول الأمر ، يظهر ذلك من الرسائل التى تبادلوها مع سلاطين المماليك ، ومعظمها بالعربية[٣] ؛ فيها تفخيم لهم باعتبارهم قادة العرب ، وحماة الحرمين الشريفين ، أو أن السلطان المملوكى ، هو خادم المساجد الثلاثة ؛ أى المسجد الأقصى مضافاً للحرمين الشريفين[٤] . وأحياناً تبادل عبارات الحب والوله ـ وإن كان ذلك من قبل سلاطين المماليك أيضاً ـ ولا سيما حين كان أى جانب منهما ينتصر على قوى المسيحية ، فيتردد فى رسائلهم أن المملكتين روحان فى جسد ، أو ساعدان فى عضد[٥] ؛ أو أنهما مملكة واحدة[٦] ؛ فمثل هذه التعابير قد أصبحت تتردد غالباً فى مراسلات الدول الإسلامية الصديقة فى ذلك الوقت . ففى عهد مراد العثمانى ، أرسلت منه تهنئة إلى برسباى المملوكى ، يهنئه بالفتح القبرسى ، الذى يضاهى الفتح القدسى من قبل[٧] . كذلك كثيراً ما كان سلاطين العثمانيين يستشيرون سلاطين مصر فى حملاتهم الأوربية ، وينزلونهم منزلة الآباء لهم[٨] ؛ وإن انتصروا

---

(١) مثلا طلب بايزيد الأول ، سلطان العثمانيين من الخليفة العباسى ، المتوكل على الله ؛ تشريفا وتقليداً ؛ باعتماده سلطانا فى ٧٩٧/١٣٩٤ ؛ فبعث له المتوكل بالتشريف والتقليد . انظر . مصطفى زيادة ، نهاية السلاطين المماليك فى مصر ، المجلة التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ ص ٢٠ .

(٢) ذيل ، ورقة ١٢٠ ب .

(٣) ورد معظمها فى كتاب أحمد فريدون ، منشآت الملوك ، مخطوط باسطنبول ؛ برقم R. 1960 ، وفى مخطوط بالمكتبة الأهلية (B.N.) برقم 4440 . أنظر . متولى ؛ الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته ، القاهرة ١٩٧٦ .

=

فى معارك ضد الروم أو الفرنجة ؛ أرسلوا إليهم بعض الأسرى منهم[١] . وحتى لما حارب المماليك البرتغال أرسلوا إلى المماليك بعض مكاحل البارود[٢] . بل كان بعض سلاطين العثمانيين يطلب أطباء مصريين لعلاجهم[٣] ، أو بعض منتجات مصرية ؛ وأن أحدهم قد طلب فيسلا ليراه[٤] ؛ مما يبين العلاقة الودية مع مماليك مصر .

ولكن العثمانيين ؛ بسبب انتصاراتهم على أهل الكفر فى آسيا وأوربا ؛ فإنهم أصبحوا يرون أنهم يستحقون مركزاً خاصاً بين مسلمى الشرق ؛ حتى ولو كانوا بعيدين عنه ؛ بحيث أصبح ذلك هدفاً فى سياستهم . يظهر ذلك ؛ فيما نسبوه إلى جدهم عثمان ؛ من أنه قد حلم حلماً عجيباً[٥] ؛ هو أنه خرج من صلبه شجرة ، نمت حتى غطت الأكوان بظلها ؛ فنظر أكبر الجبال تحتها ، وخرج النيل ودجلة والفرات والطونة — الدانوب — من جذعها .

ولقد أصبح هذا الحلم يحرك كل سلطان عثمانى ؛ بحيث أصبح يحلم بأن تمتد

== (٤) فريدون ، المصدر نفسه ، ورقات ٢٤٦ — ٢٤٧ ؛ ومخطوط B.N. برقم 4440 ، ورقة ٨٠ .

(٥) فريدون ، المصدر نفسه ، ورقات ١٨١ ب — ١٨٣ أ؛ ١٨٣ أ — ١٨٤ أ ؛ انظر . متولى . المرجع نفسه ، ص ٥ — ٩ . أو حتى كيدين فى عضد.
أنظر مخطوطة 4440 ، ورقة ٤٥ .

(٦) فريدون ، المصدر نفسه، ورقة ١٥٧ أ .

(٧) فى نسخة جواب مراد بك، ابن عثمان ، مخطوط 4440 ، ورقة ٤٧ ب .

(٨) فريدون ؛ المصدر نفسه ، ورقة ٣٧٦ وما بعدها ؛ انظر . متولى ، المرجع نفسه، ملحق ١١ صفحات ٢٩٨ — ٣٠٢ .

(١) فريدون، المصدر نفسه، ورقات ٢٩٥ ومابعدها؛ انظر . متولى؛ المرجع نفسه، ص ٢١ وما بعدها .

(٢) ابن إياس ٤ ص ٢٠١ س٥ . حوادث شوال ٩١٦/١٥١١ .

(٣) أنظر . Enc. de l'Isl. (art Bayazîd) 2ed. t., I, p. 1150-3

(٤) المخطوط 4440 ورقة ١٦١ .

(٥) أنظر . أحمد فريد ، الدولة العلية، ص ٤٠ .

دولته من الدانوب إلى النيل . ولعلهم منذ أخذوا القسطنطينية بالذات ؛ فإنهم طمحوا إلى السيطرة على بلاد المشرق الإسلامى فى آسيا ؛ بحيث أن محمداً الثانى — أو الفاتح — الذى استولى على القسطنطينية ، كان قد أعد جيشاً لغزو بلاد المسلمين ؛ ولكنه توفى قبل أن ينفذ غرضه ؛ وإن كنا لانعرف أى دولة منها ، كان ينوى حربها .

★

ومن الغريب أن النزاع الأسرى للعثمانيين ؛ كان السبب المباشر فى تفجير العداء مع المماليك ؛ سيما وأن محمداً الفاتح ، كان قد نص فى قانوننامه" محمدى [١] ؛ أنه لإقرار السلام والأمن للدولة العثمانية ؛ فإنه نصح السلاطين إلى المبادرة بقتل إخوتهم من الأمراء ، ووافقه بعض علماء الشرع على اقتراحه .

وبالفعل بعد وفاة محمد الثانى ؛ حدث نزاع على السلطنة بين بايزيد ، وأخيه الأصغر جم « Zizim » [٢] ، الذى كان يريد أن تقسم المملكة بينهما . فلما هزم جم لجأ إلى مصر ، ومعه أمه وزوجته ، عن طريق حلب . وقد أخطأ قايت باى ، سلطان مصر وقتذاك — بموافقة أمراء المماليك فى مصر — فى تشجيع العنصر الضعيف ، وهو جم ، ضد بايزيد ، الذى نجح فى تولى السلطنة ، بفضل الإنكشارية وكبار رجال الدولة العثمانية ؛ على أساس تقدير قايت باى أن مد يد المعونة إلى جم فى مصلحة دولة المماليك . فلما حصل جم على عون قايت باى ؛ تمكن جم من دخول الأناضول من جديد ، وانضم إليه أنصاره ؛ إلا أن بايزيد هزمه فى موقعة يى شهر فى ٢٣ من

---

(١) أنظر . قانوننامه" آل عثمان ، اسطنبول ١٣٣٠ هـ .

(٢) بتفصيل ، انظر . دراج ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ؛ مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٨ ، ١٩٢٩ وايضا

Gem Sultan Istanbul 1946 : Gavid Baysum
Djem-Sultan. Paris, 1892 : Thusane.

كان الأمير جم شاعراً رقيقا ، تكلم فى شعره عن حبه لمصر ونيلها . أنظر . عجيب المصرى ؛ شعر الفرس والترك فى مصر ، ص ٣٠١ وما بعدها .

جمادى الأولى سنة ٨٨٦/٢٠ يوليو ١٤٨١ . فلجأ جم هـــذه المرة إلى فرسان الاسبتارية فى رودس ، الذين أرسلوا إليه ، وهو فى مصر ، بعض السفن؛ ليحارب أخاه الذى كان يعاديهم ؛ ولـكن بايزيد الثانى تفاوض معهم .حينئذ لجأ جم من جديد إلى إيطاليا ليستمر فى المقاومة ؛ حيث كانت دولة البندقية تشجعه على ذلك ، وتلقبه بالسلطان جم Sultano Gem ؛ كما يظهر فى مجموعة الوثائق التركية ، الموجوده فى أرشيف البندقية المعروفة باسم Regestri Bombaci (١) ؛ إلا أن البابا اسكندر السادس بورجيا Alexandre VI Borgia (١٤٣١ -١٥٠٣م) دس له السم(٢) ؛ خوفاً من أن يهاجم بايزيد الثانى فى إيطاليا .

عندئذ قرر بايزيد الثانى الإنتقام من قايتباى بالتحرش ببقايا الدولة التيمورية فى إيران ، التى كان قايتباى قد حالفها ؛ رعا استثماراً لطموح العثمانيين ؛ حيث كانت الدولة التيمورية على عداوة لهؤلاء منذ غزو تيمورلنك لهـــم . ثم قرر بايزيد الثانى أن يتحرش بالمماليك أنفسهم ؛ بغزو الإمارات التركمانية المديدة التى كانت تحت نفوذ المماليك ؛ وإن أرسل بايزيد الثانى قبل ذلك يسأل قايتباى عن سبب تحالفه مع الدولة التيمورية ؛ حيث كانت توجد هذه الإمارات على حدود دولة المماليك ، وهى بلاد الدروب (٣) ، وكانت لاتنتظم لهم كلة ، ولا يتوحدون ؛ أشهرها إماراتى ذى القادر وقرمان أو بنو قرمان ، وهذه الأخيرة ، كان لقرب ديارهم للأرمن ؛ بسبب أنهم يهاجمونهم ؛ فإن مراسلاتهم(٤) ، لم تنقطع مع مصر .

ولما استولى العثمانيون على طرسوس وأذنه (أطنة) من أملاك المماليك ؛ فإن قايتباى أرسل قائده أزبك بن ططخ نحوهم ، وأوقف تقدمهم ، واسترد

---

(١) أنظر . Regestri Bombasi 15 (XVIII. 37).

(٢) مات فى نابلى Napoli ، فى ٢٩ من جادى الأولى سنة ٩٠٠هـ/٢١ فبراير ١٤٩٥م .

(٣) صبح ، ٨ ص ١٢ .

(٤) أنظر المصادر المعاصرة .

المدن المأخوذة . وتكريماً لهذا القائد الشجاع ؛ أنشأ قايت باى باسمه مسجداً ، عرف بمسجد الأزبكية ؛ حيث ، بقيت تسمية الأزبكية[١] إلى وقتنا هـذا ، على الرغم من زوال المسجد ؛ كما أن سيف أزبك هـذا ؛ لايزال محفوظاً فى المتحف الإسلامى[٢] بالقاهرة . ولكن العثمانيين استمروا فى موقفهم العدائى ، وأرسلوا جيشاً كبيراً بقيادة على باشا ، الذى توغل مرة أخرى فى أذنة وطرسوس ؛ مما دعا قايت باى إلى أن يرسل أزبك من جديد ، الذى تمكن من أن يهزم علياً باشا هزيمة منكرة ، ربما لأنه استخدم سلاح البارود ضدهم ؛ بدليل أن شعار أزبك « رنكة » كان قرن البارود[٣] ؛ كما أن قايت باى كان قد أقام له قلعة فى الإسكندرية ، زودها بمدافع البارود ، خوفاً من غزو بحرى عثمانى مفاجىء على مصر .

ولما لم يكن قايت باى حينذاك فى وئام تام مع أمرائه المماليك ؛ فإنه أقام السلام مع العثمانيين ؛ بقصد وقف العداء بينه وبينهم ؛ حقناً لدماء المسلمين . وقد استعان على ذلك بوساطة باى تونس المسمى عثمان ، الذى أوسل زين الدين ؛ أحد فقهائه المشهورين للتوسط بين بايزيد الثانى وقايت باى ، ومع لباقة الفقيه التونسى ؛ فإن الوساطة لم تنجح ؛ مما جعل قايت باى يتنازل للعثمانيين عن أذنة وطرسوس ؛ فكان هذا هو أول وهن للمماليك أمام العثمانيين .

ولما تولى الغورى بعد قايت باى ؛ سعى إلى أن يصلح الأمور أكثر مع

---

(١) هى قرية أم دنين المعروفة فى أيام الفتوح العربية الأولى . أنظر .
Ency. de l'Isl. (art Le Caire) 2ed., t. I, p. 836 ؛

(٢) يوجد برقم ٣٥٨٧ ، وقد نقش على وجهه : وقف المقر الأشرف السيفى أزبك ، أمير (رأس) نوبة النوب ، الملكى ، الأشرفى ، أعز الله أنصاره على توالى سنته . أنظر . مقالة عبد الرحمن زكى ، النقوش الزخرفية ، صحيفة معهد مدريد ١٩٥٧ ، ص ٢٣٥

(٣) وكان من شاراته الكأس والبقجة أيضا .

بايزيد الثاني ؛ فأعان[١] له في رسالة : أن سلفه قايت باى « انموذج على الصادقة » ؛ إلا أنه على عكسه يسعى إليها ، ويعترف بمواقف بايزيد الثاني في الجهاد ، ويصفه بالسلطان الغازي . وتبدو حيطة الغوري ؛ في أنه قد رفض مجيء ابن بايزيد الثاني ، وهو قورقود ، إلى مصر في طريقه للحج ؛ إلا إذا أذن له أبوه بذلك ؛ فأرسل قورقود ، الذي كان قد وصل إلى القاهرة برسالة[٢] أو التماس إلى أبيه ؛ يستأذنه في ذلك ، مع أحد علماء الأزهر الشريف ؛ بحيث أن بايزيد الثاني أرسل رسالة للغوري يشكره[٣] على ذلك ، ويلقبه فيها بالأخ ؛ مما يدل على أن العلاقات الودية قد عادت بين المماليك والعثمانيين بعد التوتر السابق .

وبعد موت بايزيد الثاني ؛ تجدد النزاع بين العثمانيين والمماليك ، وحدثت حوادث متشابهة ؛ بالتجاء أحد أمراء آل عثمان إلى مصر ؛ بسبب النزاع على الحكم فقد كان بايزيد الثاني هذا ؛ قبل موته ؛ قد فرق مملكته بين أولاده ؛ مما أغضب ابنه سليماً ، الذي تميز من بين أخوته بشدة البأس ، ولم يكن في قلبه أي رحمة[٤] ، بشكل غير عادي ، ولا يهمه غير شخصه . فتآمر سليم ضد والده ، معتمداً على الإنكشارية على الخصوص ، وأجبره على التنازل عن السلطنة ، ودخل القسطنطينية ؛ مما جعل والده يتركها إلى الكوفة بالعراق ، الذي توفي فيها عام ١٥١٢/٩١٨ . ثم حارب سليم أخاه الأكبر أحمد الذي لحق بأبيه خوفاً منه ، ولم يسمع بأحمد هذا بعد ذلك ؛ إذ يبدو أن سليماً قد قتل بيده[٥] معظم أخوته ؛

---

(١) فريدون ، المصدر السابق ، ورقات ٤٠١ ب — ٤٠٩ أ ؛ انظر ، متولي الوثائق ، ملحق ١٥ ، ص ٣١٥ وما بعدها .

(٢) مخطوطة بالعربية ، بمكتبة آيا صوفيا باسطنبول برقم K 3529 ورقات ١٦ أ — ٢٧ ب ؛ انظر ، متولي ، وثائق ، ملحق ١٩ ، ص ٣٢٧ — ٣٣١ .

(٣) فريدون ، المصدر السابق ، ورقات ٥٠٢ أ — ٥٠٣ ب ؛ انظر ، متولي ، وثائق ، ملحق ٢٠ ، ص ٣٣١ وما بعدها .

(٤) ولد سليم في ١٤٦٧/٨٧٢ أو في ١٤٧٠/٨٧٥ . ابن زنبل ، ص ٦ — ٧ ؛ مخطوط بدار الكتب ، برقم ٤٤ ، ورقات ٩ — ١١ ؛ انظر ، Enc. de l'Isl., (art Selîm) 2ed., t. 4, p. 222 sqq.

(٥) ابن إياس ، ٣ ص ٢٣٥ .

بما فيهم قورقود، وربما كان قد قتل أباه أيضاً، حتى عرف باسم ياووز « Yuvuz »، أى الصارم، أو الجبار البطاش .

ومع ذلك ؛ فقد تمكن أبناء أحمد المقتول هذا من الهروب إلى مصر ، وهم على التوالى : سليمان؛ وعلاء الدين ، وقاسم ؛ وإن كان الغورى قد استقبلهم فى مصر على مضض ، وقدمات الأولان بالطاعون[1] . فأرسل سليم يطالب من الغورى تسليم قاسم[2] ، وكان هو الصغير ، لايتعدى ثلاث عشرة سنة ؛ فرفض الغورى طلبه ؛ بسبب أن الغورى كان يرى أن سليما الذى اجترأ على ارتكاب كل هذه الجرائم ، لايتورع عن التحرش به ؛ سيما وأن الأمور قد تأزمت بين الدولتين ؛ بسبب مدن الحدود ، أما سليم فقد وجد أن الغورى يتدخل فى شئون أسرته ، وعزم على حربه حرباً شاملة .

★★

ومع ذلك ؛ فقد تأخر حرب سليم للماليك ، بسبب حربه فى إيران ، التى اختصت بمذهب الإمامية[3] الشيعى ، الذى يدعو إلى سلالة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، من سلالة على بن أبى طالب ؛ فعرفت بالجعفرية أيضاً ؛ نسبة إلى جعفر الصادق ، وبخاصة الاثنى عشرية ؛ بسبب استكمال عدد الأئمة إلى إلى اثنى عشر ؛ حيث آخرهم هو محمد بن الحسن ، المعروف بصاحب السرداب ؛ بسبب أنه غاب فى سرداب مسجد سامراء فى أيام المعتصم العباسى ، وهو الذى أصبح مهديهم المنتظر .

---

(١) نفسه ، ٤ ص ٢٨٩ ، ٢٩١ ؛ انظر متولى ، الوثائق ، ملحق ٢٤ ، ص ١٣٨ — ٣٢٩ .

(٢) ابن زنبل ، ص ٨ ؛ ابن إياس ، ٣ ص ١٥٢ — ١٥٣ ؛ انظر متولى ، الوثائق ، ملحق ٢٥ ؛ ص ٣٣٩ — ٣٤٢ .

(٣) انظر مثلا : الشهرستانى ، الملل والنحل .

وهذا التحول المذهبي الشيعي في إيران ؛ ينسب إلى أسرة بالذات ، على رأسها شيخها صفي الدين إسحق العلوي الحسيني (ت. ١٣٣٤/٧٣٥)[١] ، الذي اشتهر هو وأولاده وأحفاده ؛ بسبب تفانيهم في سبيل الدعوة لمذهب الإمامية ؛ بحيث جمعوا له الأعوان ؛ حتى أصبح معظم الإيرانيين من أتباعه ، واضمحلت جميع المذاهب الأخرى في إيران سنية كانت أو شيعية ؛ وأصبح لهم شعر مذهبي فيه مدح لأئمة الشيعة الإمامية . فكان حكام الدول التي قامت في إيران على أنقاض غزوات المغول يتقربون من مشايخ هذه الأسرة الشيعية ، التي ذاع صيتها ؛ كوسيلة للحكم في إيران .

وما لبث أن برز واحد من سلالة الشيخ صفي الدين نفسه ؛ هو إسماعيل بن الشيخ جعفر ؛ السادس في هذه الأسرة ؛ حيث تمكن بمساندة القبائل الإيرانيـــة ، من تكوين دولة متحدة في إيران بزعامته ؛ لأول مرة منذ الفتح العربي ؛ متخذاً شيراز عاصمة له في ١٥٠٢/٩٠٧ ؛ حتى عرف بالشاه إسماعيل . كذلك أحاطه نفسه بهالة من الانتصارات المتوالية ؛ فقضى له على بقايا دولة الشاة الأبيض آق قيونولية التركمانية السنية ، التي كانت تبددت بالفعل بعد موت أوزن حسن ؛ فهزم من تبقى من سلالته في نحو عام ١٥٠٢/٩٠٨ ؛ حيث كان الشاه اسماعيل هو نفسه من نسل أوزن حسن[٢] ؛ كما ضم أجزاء من بلاد الأناضول المجاورة للدولة العثمانية ، وأجزاء من بقايا الدولة التيمورية التي قامت في بلاد ماوراء النهر ، وهزم قبائل الأوزبك السنية التي استقرت مكانها . وأكثر من ذلك ضم أجزاء كثيرة من بلاد العرب

---

(١) هو صفي الدين بن جبرائيل (٦٥٠ — ١٢٥٢/٧٣٥ — ١٣٣٤) . بتفصيل :
Michel M. Mozaoui : The origins of the Safawids : Shi'ism, Sufism and the Ghulât, 1972.
Ency. de l'Isl. (art Safawides) 1ed., t. 3, p. 56-7.
؛ بديع والحولي تاريخ الصفويين ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٦ .

(٢) انظر . Minorsky : La Perse au XVe. siècle entre la, Turquie et Venise. Publ. de la Société des Etudes iraniennes, no. 7, Paris, 1933, p. 17.

فى بلاد الجزيرة والعراق ، وأخذ بغداد ؛ حيث هرب منها حاكمها السلطان خان ابن يعقوب بن حسن الطويل إلى مصر فى رمضان ٩١٤/ديسمبر ١٥٠٨[١]؛ طالباً نجدة مصر ؛ فجمل كربلاء والنجف والكوفة ، مدناً مقدسة للشيعة الإمامية .

وكان المماليك والعثمانيون ، وكلاهما من السنة؛ يرون القضاء على دولة الصفويين الناشئة ، بحكم أن هـــذه الدولة تخالفهما فى المذهب ؛ حيث كان للمذهب أهمية كبرى ، فى هذه العصور ، ورغبة فى وضع حد لطموحها ؛ إذ ظهرت كبيرة فجأة، وكانوا يسمـــونها فى مكاتباتهم المتبادلة بينهما بالاسم التركى : القزلباش[٢] Qizill-Bach ، أو الـــفرقة القزلباشـــية ؛ بســـبب زيهم ، الذى كان يتميز بلبس القلانس الحمر . كذلك يطلق العثمانيون عليهم الملحدين[٣]،أما المماليك فيصفونهم بالرافضة أهل البدع والضلالة[٤] ، لا سيما وأنهم استولوا على العراق البلد العربى ، واتفقوا مع البرتغاليين أعداء المماليك[٥] ، وحتى اتصلوا بقناصل الفرنجة فى مصر ؛ يحرضونهم على دولة المماليك ، وقبض على رسل يحملون كتباً لهم[٦]. بل إن الصفويين فى أول نشأتهم عبروا حدود المماليك فى الفرات،وهاجموا الإمارة التركمانية ذا القادر فى جمادى الآخرة ٩١٣/أكتوبر ١٥٠٧ ، وإن هزم الجيش الصفوى ؛ بحيث أرسل بعض الأسرى ورؤس القتلى إلى مصر ، وعلقت على

---

(١) ابن إياس ، ٤ ص ١١٦ .

(٢) القزل معناها اللون الأحمر ، وباشى معناها الرأس ؛ وإن عنى بهم التركمان الذين اتخذوا التشيع وسيلة للعصيان .

(٣) أحمد فريدون ، المصدر السابق ، أنظر متولى المرجع السابق ، ص ٤٢ — ٤٣ وهامش .

(٤) نفسه ، ورقات ٥٠٠أ — ٥٠٢ أ ؛ انظر : نفسه ، ملحق ١٧ ص ٣٢١ وما بعدها

(٥) أنظر . دراج ، المماليك والفرنجة ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٢٧ — ١٥٧.

(٦) ابن إياس ، بدائع، ٤، ص ١٩١ س ٦ — ٧ ؛ انظر Rabie Political relations, p. 36 (فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية).

باب زويلة ، وتهيأت قوات مصر فى الشام لإرسالها لنجدة هذه الإمارة الحليفة التركمانية(١) .

ولكن لما بدأت تظهـــر أطماع العثمانيين فى الشرق ؛ فإن المماليك بدأوا يتحفظون فى عداوتهم للصفويين ؛ لاسيما وأن الشاه اسماعيل فى شعبان ٩١٣/ ديسمبر ١٥٠٧ ، أى فى العام ذاته ، أرسل يعتذر عن الهجوم على ذى الغادر(٢) ، وأنها كانت غير مقصودة ، وقبل الغورى الاعتذار ، وأرســـل إليه الأسرى الصفويين ، كما أرسل الشاه اسماعيل من ناحيته هدية عبارة عن سجادة عجمى(٣) ، وربما أصبح المماليك يراسلونهم للاتفاق معهم(٤) ، ويخشون فى الوقت ذاته إن انتصروا على العثمانيين أن يزحفوا عليهم(٥) .

وكان مظهر التحرش العثمانى بالدولة الصفـــوية ؛ هو اضطهادهم للشيعة فى البلاد العثمانية نفسها ؛ بحيث استحكم العداء بين الدولتين ؛ وحينما ثار الشيعة ؛ بسبب سوء المعاملة ؛ أحل بهم بزيد الثانى نقمته ، واطلق يد ابنه سليم الصارم — ياووز — للتنكيل بهم ؛ حتى قيل إنه هلك من الشيعة فى الأناضول عشرة آلاف إنسان بين صبى فى السابعة ، وشيخ فى السبعين(٦) . فلما تسلطن سليم نفسه ، أصبح همه القضاء على الشيعة ؛ فأمر بقتلهم فى جميع بلاد العثمانية ، مستنداً فى ذلك إلى فتوى(٧) من رجال الدين العثمانية ، أن الصفويين استخفوا بالشريعة والسنة

---

(١) نفسه ، ٤ ص ١١٨ ، ١٢١ — ٢ ؛ ابن طولون ، الفاكهة ، ١ ص ٣١٨ .

(٢) ابن إياس ، ٤ ص ١٢٣ — ٤ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ٢٢١ — ٢٢٢ ؛ ابن طولون ، الفاكهة ، ١ ص ٣٥٧ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٢٣ ص ٢٤ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٢٢ .

(٦) ابن زنبل ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٧) أصدرها حمزة أفندى ؛ مفتى السلطنة العثمانية ، وتوجـــد الفتوى ضمن وثائق طوبقبو سراى برقم E. 5960 ؛ انظر ، متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٥٦ — ٧ وهامش (١)

والعلوم الدينية ؛ بحيث أصبحوا يسمونهم رافضة ؛ فقتل منهم أربعين ألفاً[١] ؛ كما أرسل إلى الشاه إسماعيل الصفوى ؛ رسائل مفعمة بالسباب[٢] ،وأن الفتوى الدينية قد استوجبت قتله[٣] أيضاً .

ومن ثمة أصبحت الحرب واقعة لامحالة بين العثمانيين والصفويين ؛ فقصد سليم إيران ، وعلى الرغم من أن الشاه إسماعيل جمع من العسكر مالا يحصى ، وأنه زحف بهم على سليم؛ إلا أن هذا الأخير هزمه هزيمة منكرة فى موقعة جالديران – تشالديران – بين تبريز وبحيرة إرميـــة فى ٢ من رجب ٩٣٠/٢٣ أغسطس ١٥١٤[٤] ، وقتل غالب عسكره ، واحتوى على أمواله وسلاحه . وبعدها استولى على تبريز ، التى أصبحت عاصمة الدولة الصفوية ؛ واستولى فيها على عرش الطاووس المرصع بالجواهر ، ونقله كعاريقته فى الاستحواذ على نفائس البلاد التى يفتحها إلى بلاده ؛ حيث يوجد حاليـاً فى متحف طوب قبوسراى Topkabi باسطنبول . ومع أن سليماً قد تتبع عدوه إلى نهر الرس فى جبال القوقاز ، وأخذ فتوى جديدة بقتل إسماعيل شاه ، وأن قتله جائز[٥] ؛ وإن كان سليم مع ذلك ، فإنه لم يحاول أن يقضى عليه نهائياً ؛ فاكتفى بهزيمته ، ولم يتغلغل فى إيران ، وإنما رجع إلى بلاده .

وبعد ذلك؛ أصبحت العراق على الخصوص،هى منطقة الاصطدام بين العثمانيين والإيرانيين ؛ وإن كان سليم من دون قبـــل قد ملك غالب بلاد الشاه إسماعيل بالجزيرة والعراق – العراقيين[٦] – ولكن السلطان سليمان القانونى ،الذى خلف

---

(١) ابن إياس، ٣ ص ١٥
(٢) أنظر • فريد، الدولة العلية ، ص ٧٤ .
(٣) منها وثيقة بطوبقبو سرايى، برقم E. 5960 ؛ انظر . متولى،المرجع السابق؛ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .
(٤) ابن إياس، ٣ ص ١٠١ س ٩ — ١٠ ؛انظر . بديع والخولى ، تاريخ الصفويين ، ص ٨٣ .
(٥) ابن إياس، ٣ ص ٤٠ س ١٨ .
(٦) نفسه ٣ ص ١٠١ س ١١ .

سليم ، هو الذي فتح العراق في ١٥٤٣/٩٥٠ ؛ وفيها كشف عن قبر الفقيه الإمام أبي حنيفة ، أحد مؤسسي المذاهب الأربعة السنية ، وبذلك حذا حذو محمد الفاتح ، الذي كشف عن قبر أبي أيوب الأنصاري ؛ مما يعني أن العثمانيين السنة ، قد انتصروا على الإيرانيين الشيعة .

* *

وكان موقف المماليك من هذا الصراع بين العثمانيين والصفويين ؛ هو موقف المترقب ، الذي ينتظر دوره ؛ إذ تيقن المماليك من طموح العثمانيين إلى الفتح في الشرق الإسلامي أيضاً ، ولو لجأوا في ذلك إلى محاربة المسلمين ؛ مثلما يحاربون الروم أو الفرنجة ؛ خصوصاً وأن سليماً كان قد أرسل إلى قانصوة الغوري ، الذي تولى السلطنة آنذاك في مصر ؛ يتهدده إن تدخل في النزاع بينه وبين الشاه إسماعيل[١] ، فكتب له يقول : إذا لم توافقوا على قيامنا بسحق أعداء الدين ، حسبما أوجد الشرع الشريف ... فليظهر حينئذ ما خفي من التقدير الرباني ، « والأمر يومئذ لله[٢] » .

وعلى كل حال أدرك الغوري أن قصد سليم من تحركه إلى الشرق لم يكن محاربة الصفويين ؛ بقدر محاربته هو ؛ بدليل أن سليماً لم يسر في هزيمة الصفوي للنهاية ، وربما أيضاً بسبب أن بلاد الصفوي واسعة وجبلية ، أو حق خوفاً من أن يهاجمه المماليك في مصر في الوقت نفسه[٣] . ومع ذلك ، كان سليم في وقت محاربته

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٤٠ : ص ١٩ .

(٢) أحمد فريدون ، المصدر السابق ، ورقات ٥٩٢ أ ؛ انظر . دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، القاهرة ١٣٢٣ هـ ، ص ٩٦ .

(٣) أنظر هذا الرأي في Ahmet Asrar : Osmânli Devletinin Dini Siyâsetive Islam Alemi. Istanbul, 1972.

؛ متولي ، المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .

للصفوى يتحرش بالغورى ؛ بحجة أنه يأخذ جانب الشيعة ضده[١] ، واعتبر ذلك تحدياً له. وفى الوقت الذى أرسل فيه سليم إلى الغورى رسالة يصفه فيه بالوالد[٢] ؛ وذلك على حسب التقليد الذى جرى عليه سلاطين العثمانيين فى مكاتباتهم لسلاطين مصر ، ويطلب فيها سكراً وحلوى[٣] ؛ حيث اسرع الغورى بإرسال مائة قنطار منها فى علب كبار ؛ فإنه أخذ يهاجم الإمارات التركمانية الحليفة للغـــورى على الحدود ، التى تقع بين العثمانيين والصفويين والمماليك ، وتعتبر أهؤلاء منافذ للتجارة القادمة من الشرق[٤] ، ونصح سليم الغورى ومماليكه بقوله[٥] : « إن لاتلتفتوا بتضرعاتهم ، ولا تتقيدوا بسفسطتهم » وبعد انتصار سليم على الصفويين قضى على إمارة ذى القادر — القادرية[٦] — التى تقع فى وديان طوروس ، حليفة الغورى ؛ كما استولى جنده على بعض مدن الحدود المصرية ؛ مثل : مرعش التى كان نائب الغورى عليها ، وهو علاء الدين ، الذى ساعد الشاه إسماعيل من قبل ضد سليم ؛ وأصبحت حدود سليم ملاصقة لحدود مصر .

ويبدو أن إرادة قتال العثمانيين المماليك أصبحت أمراً مسلماً به لديهم ؛ بسبب أن المماليك كانوا يسيطرون على الحرمين ، وأن العقلية الإسلامية وقتذاك لاتقبل أن يكون صاحب سيادة وشرعية على المسلمين ؛ إلا من كان يسيطر على الحرمين . ولما كان العثمانيون يريدون أن تكون لهم زعامة المسلمين من دون المماليك ؛ فإنه لن تتهيأ لهم هذه الزعامة إلا بالاستيلاء على أملاك المماليك فى الحرمين . ومن قبل ؛ فإن سليما قد أرسل إلى شريف مكة — بركات — هـــدايا منها مفتاح

---

(١) ابن زنبل ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٠ ٤ ص ١٩

(٣) نفسه ، ٣ ص ٤٠ ص ٣٠ .

(٤) أنظر . طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ١٧٧ .

(٥) أحمد فريدون ، المصدر السابق ، ورقات ٥٢٣ ب — ٥٧٦ أ ؛ انظر . متولى ، المرجع السابق ، ملحق ٢٧ صفحات ٣٤٤ — ٣٤٧ .

(٦) أنظر . ابن زنبل ، ص ٨ — ٩ .

وطبلة للكعبة[١] ، وذلك دون استئذان من الغوري ، الذي غضب على أمير مكة .

ويؤيد الطموح العثماني تلك الأقوال التي نقلت عن سليم ومن حوله[٢] ؛ قبل غزو مصر . فقد وجه الصدر الأعظم العثماني ، هرسك زاده أحمد باشا الحديث إلى سليم ؛ فقال له : سلطاني ، ينبغي عليك أن تؤدب سلطان مصر ،بشن حرب عليه ، فعندما أسرت في مصر ، سمعت من كبار المسئولين ، أنهم لا يدخرون وسعاً ، في العمل ضد العثمانيين . كذلك ورد على لسان آخر في حاشية سليم ، قوله : إن ولاية الحرمين ، ومقام الخلافة ؛ سيؤولان إلى أسرة العثمانيين . وحتى شيخ الإسلام العثماني ، زنبللي علي أفندي ، قد أفتى بشرعية التحرك إلى مصر ، وشن حرب عليها ، فقال : الحرب والقتال مع أهلها غزو وجهاد ... والمقتول على أيديهم شهيد ومجاهد .

ومع ذلك ؛ فلم يستعد الغوري الاستعداد الكافي لمواجهة أطماع سليم ؛ ربما لأنه كان لاينتظر أن ينهزم الصفوي سريعاً هكذا ، ويستبعد أن يجرؤ سليم على القيام بحرب شاملة معه . ولعله كان يسعى دائماً للمصالحة ، وحتى التوسط بين سليم والصفوي[٣] ؛ بدليل أن الغوري لما قرر السير إلى الشام ، اصطحب معه أهل العلم جميعاً في مصر ، وعلى رأسهم الخليفة وقضاة القضاة والمتصوفة وغيرهم[٤] ، ولم يعلن النفير العام — مثلما كان يحدث من قبل في الحروب الهامة — واكتفى بأن دعا

---

(١) أنظر . Sourded : Clefs, p. 41

(٢) أنظر . Mualliam Fuad Gwcuyener : Vavus Sultan Selim, Istanbul, 1945, I, p. 128-130.
Abdulkadir Altuna. : Seyhulislamlari, Ankara, 1972, p. 14.
؛ متولي، المرجع السابق، ص ١٢٤ — ١٢٥ . بل طلب سليم من الشاعر التركي ابن كمال باشا أن يلخص له كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ؛ ليكتسب معرفة أحوال مصر . حاجي خليفة في كشف الظنون ، إستانبول ١٩٤١ ، ص ٣١٧ ، انظر . عجيب المصري ، شعر الترك .

(٣) ابن زنبل، ص ١٩ .

(٤) مثل : خليفة سيدي أحمد البدوي ، وسيدي إبراهيم الدسوقي ، وسيدي أحمد الرفاعي ، وسيدي عبد القادر الجيلاني . نفسه ، ص ١٤ .

مماليكه وحدهم للسير معه ، وطلب من مدرسى الطباق – وهى المدارس الحربية المملوكية – أن يطلقوا زوجاتهم بسبب ذلك[1] ؛ ليتفرغوا للسير معه ؛ كما لم يطالب من عرب مصر السير معه ، وإن طلب إعداد بعض فرسانهم ليحلوا محل المماليك فى أثناء غيبتهم[2] ؛ على الرغم من تحذير المقربين له من مغبة ذلك ، وحتى لم يعلق الجاليش[3] – أو الشاليش – وهى راية السلطان المملوكى الكبرى فى الحرب ، التى أعلاها خصلة شعر كبيرة ، إلا أربعة أيام فقط[4] ؛ مع أنه كان من المعتاد أن يستمر الجاليش معلقاً مدة التعبية ، وهى أربعون يوماً ، حيث كانت تدق من حواليه الطبول والمزامير والنفير يومياً ، إلى أن يتم الاستعداد الكامل ؛ مما يبين أن قصد الغورى من ذهابه إلى الشام ليس حرب العثمانيين ؛ بقدر البحث عن حل سلمى للنزاع معهم .

وحتى لم يستمع الغورى لنصيحة نائبه فى الشام ، واسمه[5] سيباى ، الذى كان يتمتع باحترام وتقدير أهل الشام ؛ بأن لا يأتى لمحاربة سليم بنفسه ؛ وإنما عده بالعسكر[6] ، واستحلفه بألا يحارب فى هذا العام ؛ لوجود قحط فى البلاد[7] . وعلى العكس ؛ فإن الغورى ، كان يتخوف من سيباى هذا ، ويظن أنه يسعى إلى أن يحل محله ، ويسأل رجال الطالع ، فيقولون له إن من يتولى السلطنة بعده ،

---

(١) ابن إياس، ٣ ص ٥ س ١٢ .
(٢) نفسه، ٣ ص ١٥ س ١٩ . فقد اختار منهم عشرين ألفاً .
(٣) هذه الكلمة أصلها تركى ؛ أو فارسى قديم ؛ كما يسمى أيضاً : « جاليش السفر » وهو من شعار الترك فى موطنهم الأصلى عنها :

Sult, I, 225; 253. : Quat

Suppl., I, p. 108. : Dozy

؛ ماجد ، نظم المماليك، ١ ص١٥٨ – ١٥٩ وهامش.
(٤) ابن إياس، ٣ ص ١٩ س ٢٥ .
(٥) ابن زنبل، ص ٦٠ ، بنى مدرسة فى دمشق . نفسه ص ، ٦ .
(٦) نفسه .
(٧) ابن إياس، ٣ ص ١٨ س ١ ومابعدها .

يبدأ أسمه بحرف سين[١] ؛ فيظن أنه هو سيباى نائبه فى الشام. وربما قد أتى هذا التخوف من سيباى، من أن نواب الشام كثيراً ما كانوا يثورون ضد سلاطينهم، وأحياناً يتولون السلطنة من دونهم .

كذلك كان المماليك الذين اصطحبوه إلى الشام فى نزاع فيما بينهم : فمماليك الجلبان[٢] ، أى الذين اشتراهم السلطان لنفسه ، وجاءهم من خارج مصر ، وبلغ عددهم فى عهد الغورى ١٣ ألفاً[٣] ؛ أصبحوا يعادون مماليك السلاطين السابقين قبله ، الذين عرفوا : بالمماليك السلطانية ، أو القرانص ، أو القرانصة ، أو القرانيص[٤] ؛ حيث كان معظمهم من الشيوخ والعجائز ، وهولاء لم يكونوا فى شجاعة أو فروسية الجلبان ؛ بسبب كبر سنهم ، فكان يصعب تدريبهم ، بل قيل إن الواحد منهم لم يعد يهتدى لمسك لجام الفرس. ولعل أساس النزاع بين الفريقين؛ قد أتى من تقريب الغورى لمماليكه الجلبان على حساب الآخرين[٥] ؛ فكان يترتب على تنازعهم حدوث فتن وفوضى فى البلاد ؛ حتى أنه قبل سيره إلى الشام ، وكان قد قتل أحد جلبانه ؛ فاتهم به القرصانة[٦] ، وربما تحت تحريض الجلبان من مماليكه ؛ فإنه ترك كثيراً من القرانصة فى مصر[٧] .

ومما يؤكد أن الغورى قد أخذ حرب سليم بخفة ؛ من أن خروجه إلى

---

(١) ابن زنبل، ص ٤ — ٥.
(٢) نفسه ص ١٣ .
(٣) نفسه .
(٤) بتفصيل : نظم المماليك، ١ ص ١٤ وهامش . أما مماليك الأمراء ، الذين يتوفون أو يغضب عليهم ، أو يقتلهم السلطان القائم : يسمون : السيفية أو سيفية . زبدة ، ص ١١٦ .
(٥) كان الغورى يرى أن القرانصة يوقعون بينه وبين مماليكه . ابن إياس، ٣ ص ٥ س ١٠ .
(٦) نفسه، ٣ ص ١٣ س ١٠ — ١١.
(٧) نفسه ، ٣، ص ١٥ س ١٦ .

الشام سمى فقط تجريدة[١]، وليس حملة، وأنه خرج فى موكب تتقدمه الأفيال، مزينة بأنواع الزينة، والمباخر تفوح منها رائحة البخور، وحتى صحبته المغانى[٢]؛ كما أخذ معه آلات السلاح الفاخر، المستعملة فى المواكب الرسمية، من ذخائر الملوك السابقين، مثل: السيوف والسروج المذهبة والمزينة بالجواهر، وحملت على خمسين جملا[٣]، وكان هو نفسه يحب البذخ، ويضع فى أصابعه الخواتم والياقوت والفيروز والزمرد[٤]، ومترفاً فى ملابسه، ولا يشرب إلا فى طاسات من ذهب. وفى أثناء سفره فى الشام، كان يحتفل بوصوله إلى كل بلد؛ حيث كان أهله يظهرون الحماس نحوه، وذكرت فى هذه المناسبة أشعار، تتضمن أن البلاد الشامية قد شرفت بتشريفه؛ فزينت له دمشق سبعة أيام زينة حافلة[٥]، وأقيمت فيها المواكب، ونثر على فرسه الذهب؛ وفرش تحت حافره بساط الحرير، كما أقام له جان بردى الغزالى باشا ــ قنبردى ــ أمير حماة، احتفالات أعظم من احتفالات دمشق[٦]، أما خاير بك أمير حلب؛ فقد حمل المظلة ــ القبة ــ بنفسه، فوق رأسه[٧].

وقد أسرع الغورى فور وصوله إلى حلب بإرسال أحد أمرائه إلى سليم، ومعه نص للصلح؛ كما أن خطبة إمام جامع حلب كانت كلها عن الصلح، وحتى الأمراء المماليك كانوا ينتظرون الجواب بالصلح، ويحنون العودة إلى

---

(١) نفسه، ٣ ص ١٨ س ٢٠، ٢٨ س ٦.
(٢) نفسه، ٣ ص ٢٦ س ٢٦ وما بعدها، ٢٩ س ١٢.
(٣) نفسه، ٣ ص ٢٨ س ٦ وما بعدها.
(٤) نفسه، ٣ ص ٤٥ س ١٩ وما بعدها.
(٥) نفسه، ٣ ص ٦٥ س ١٤ وما بعدها.
(٦) نفسه، ٣ ص ٣٣ س ١.
(٧) نفسه، ٣ ص ٤٠ س ٩.

الوطن(١) . إلا أن سليماً رفض الصلح ، وقبض على رسول الغوري(٢) ، ووضعه في الحديد ، وحلق لحيته ، وربما أرسل إليه الغوري رسلا آخرين ، فقطع سليم رؤوسهم(٣) ؛ مما جعل الغوري يدفع بطوالع جنده إلى مرج دابق(٤) ؛ من مدن الحدود ، قرب حلب ، وقال : إنها إرادة الله . وخوفاً من غدر أمرائه ؛ فإنه جمعهم رجعلهم يحلفون له على المصحف الشريف أن لا يخونوا ولا يغدروا ، فحلفوا كلهم على ذلك ، أما غير الأمراء من الجند ؛ فإنهم مروا تحت سيفين على هيئة قنطرة ، عنوان القسم على الولاء(٥) .

وقد قسم الغوري عسكره بإزاء عسكر سليم ؛ فوضع في المقدمة سيباى ، نائب الشام ، وميمنة على رأسها جان جان بردى الغزالي نائب حماة؛وميسرة على رأسها خاربك ، نائب حلب ؛ أما هو ؛ فقد أقام لنفسه في الوسط سرادقاً كبيراً ، وقد أحاط به الخليفة وقضاة القضاة وأعلام رجال الصوفية ، وقاسم بك ، ابن أخ سليم؛ وغيرهم ، وحولهم أربعون مصحفاً في أكياس حرير صفر ،منها مصحف الصحابي عثمان ، الذي قتل وهو يقرأ القرآن(٦) . وقد طلب الغوري من القراء قراءة الختمة(٧) ، وقرأها معهم ؛ كما أكثر من الصلاة ، وعلى الرغم من أن سيباى ، قد شك فيأن خاربك يتراسل مع سليم، وأراد قتله؛إلا أن الغوري لم يستمع له،خوفاً من أن يقتتل المماليك فيما بينهم(٨) .

وقد دارت المعركة في يوم الأحد ١٥ من رجب سنة ٩٢٢/٢٤ أغسطس

---

(١) نفسه،٣ س ٤١ .

(٢) نفسه ، ٣ص ٤٣

(٣) ابن زنبل ، ص ١١

(٤) عنها : ياقوت معجم البلدان ٤ ص ٣ .

(٥) ابن إياس ، ٣ ص ٤٣ .

(٦) نفسه ،٣ ص ٤٦ س ٤ — ٥ . يوجد هذا المصحف في متحف طوب قبو سراى ، مع مخلفات أخرى قيل إنها من مخلفات النبي ؛ أخذها سليم معه بعد انتصاره في مصر .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٤٣ س ١ .

(٨) ابن زنبل ، ص ١٢ .

١٥١٦[١] ، في يوم شديد الحرارة ؛ وإن أحاطت بها الخيانة منذ بدايتها . فقد سرت إشاعة مغرضة بأن الغوري يريد أن يتخلص من القرانصة ، وهم من مماليك السلاطين السابقين ، وأنه طلب من الجلبان وهم مماليكه ألا يقاتلوا ؛ مما جعل القرانصة الذين كانوا في المقدمة يتوقفون عن القتال[٢] ؛ مما ترتب عليه الهزيمة الكاملة ، وفرار المماليك بجميع فئاتهم ، وكان خاير بك أول من هرب من الأمراء[٣] ، وتبعه جان بردي ، فلعلهما كانا متفقين في الباطن مع سليم[٤] ؛ حيث كان كلاهما يرى نفسه أنه أحق بالسلطنة من الغوري ؛ ومع ذلك ، لم يكن تصرفهما جديداً على الأمراء المماليك ، الذين تعودوا على خيانة سلطانهم .

وقد حاول الغوري أن يوقف فرار المماليك — ضيا من الجلبان — حيث أصبح في نفر قليل ، وكان ينادي بصوته[٥] : هذا وقت المروءة ، هذا وقت النجدة ؛ إلا أن المماليك استمروا يفرون . حينئذ طوى حامل راية السلطان — الصنجق السلطاني — رايته ، وحدث شلل مفاجيء للسلطان ، وخرجت روحه ؛ بعد أن انقلب عن فرسه ؛ وإن يبدو أن رأسه قد قطعت ؛ حتى لا يتعرف عليه العثمانيون ؛ فلم تظهر له جثة بين القتلى[٦] ، وكأن الأرض ابتلعتها في الحال ؛ إذ كانت جثث كثيرة مرمية بلا رءوس ؛ فقد قتل كثير من أمراء الشام ومصر ، فوق الأربعين ؛ منهم سيباي[٧] ؛ نائب الشام .

---

(١) يقول ابن زنبل في يوم الأحد ٢٣ من رجب سنة ١٢١ / ٥ نوفمبر ١٥١٠ . ابن زنبل ، ص ١٤ .

(٢) نفسه ، ص ١٦ .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ٤٦ س ٣٠

(٤) نفسه ، ٣ ص ٥٨ .

(٥) ابن زنبل ، ص ١٨ .

(٦) نفسه ، ص ١٨ . وربما قطع حامل اللواء رأسه ؛ حتى لا يطوف بها سليم في أنحاء البلاد ؛ كما لا يعرف للغوري قبر ؛ مع أنه كان بني له مدرسة ليدفن فيها : صرف عليها مائة ألف دينار (ابن إياس ، ٣ ص ٥٨ س ١١ وما بعدها) ؛ وقد مات وله من العمر نحو ثمانية وسبعين سنة ، ودامت سلطنته أكثر من خمس عشرة سنة .

(٧) ابن إياس ، ٣ ص ٤٨ س ٤ .

حينئذ استولى سليم على خيام السلطان ؛ واحتوى على مافيها من أسلحة ، لاسيما سيفه[1] ، ومال وتحف ، واحتـــوى على خيام الأمراء ؛ بحيث لم يقع لأحد من سلاطين العثمانيين مثل ذلك ، كما أنه أخذ الخليفة والقضاة ، وعدداً كبيراً من الأسرى .

* *

فى ذلك الوقت نجد أن أهل القاهرة لما علموا بموت قانصوة الغورى فى حربه مع العثمانيين ،اختاروا نائب الغيبة طومان باى ؛على أساس أن محمداً؛ ابن الغورى ؛ كان صغير السن، ولأن الغورى نفسه كان قد أوصى جميع أمرائه أنه إذاما أصابه شىء أن يسلطنوا عليهم طومان باى[2] . إلا أن طومان باى امتنع فى أول الأمر غاية الامتناع ؛ وذلك خوفاً من غدر المماليك ، وتعودهم على العصيان ، واستمر عنه مدة خمسين يوماً ؛ إلا أنه قبلها بعد ذلك ، تحت ضغط رجال الدين فى مصر ، وبخاصة عالم وشيخ كبير منهم ، اسمه أبو السعود الجراحى[3]، كان من مشايخ الصوفية ؛ فكانت مبايعة طومان باى بالسلطنة فى يوم الجمعة ١٤ من رمضان سنة ٩٢٢/١١ أكتـــوبر ١٥١٦ . فكان رجال الدين المصريون يأتون بالأمراء المماليك ، ويجبرونهم على وضع أيديهم على المصحف الشريف ، ويحلفون عليه أنهم إذا سلطنوه لن يتآمروا ولا يغدروا؛ ولا يثيروا شغباً ، وأنهم ينهون عن مظالم المسلمين قاطبة . ولا شك أن ماقام به زعماء المصريين فى هذا الصدد ؛ كان مبدأ خطيراً فى تقاليد مصر الإسلامية .

---

(١) استولى سليم على سيفه ، الذى يوجد الآن بمتحف طوب قبوسراى ،الذى نقش عليه : عز لمولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوة الغورى ؛ عز نصره (برقم ١/٨٩). عن ذلك ، انظر . عبد الرحمن زكى ،النقوش الزخرفية ، صحيفة معهد مدريد ، ص ٢٢٧.

(٢) ابن إياس، ٣ ص ٦٩ س ٨ ؛ ابن زنبل ، ص ٤٦ — ٤٧ .
وبتفصيل ، انظر . ماجد ،طومان باى ، آخر سلاطين المماليك فى مصر ، القاهرة ١٩٢٨

(٣) ابن اياس، ٣ ص ٥٧ ، ٦٩ .

ومع ذلك ؛ فلا نعرف لأول وهلة حقيقية مقصد سليم ، بعد انتصاره على الغوري في مرج دابق هل كان ينوي أن يستمر في فتح الشام ومصر ، أو يكتفي بهذا الانتصار ، ويعود إلى بلاده ، سيما وأن المؤرخ ابن زنبل[1] ، قد أورد أن سليماً لم يكن يريد أن يستمر في حرب المماليك ، وينوي العودة إلى بلاده ، مثلما فعل تيمورلنك المغولي من قبل ، الذي لم يستمر في نضاله مع المماليك وكان من رأي سنان باشا ، وزير سليم ، أن يكتفي العثمانيون بأخذ الشام ، وترك مصر لشأنها ولكن إذا كان سليم قد استمر في حرب المماليك ؛ فذلك راجع إلى تحريض خاير بك بالذات ، الذي كان نائباً للغوري في حلب ، وربما كان يؤمن بتوحيد كلمة المسلمين ، تحت قيادة سليم ، أقوى ملوك المسلمين ؛ حيث كانت خيانته للغوري من أسباب هزيمته[2] ، كما قد يفسر تردد سليم إلى خوفه من أن يضيع في أرض العرب الكبيرة .

ولكن مثل هذه الأقوال التي أوردها بعض المؤرخين ، لا تنفي حقيقة طموح سليم نفسه في أخذ بلاد الشام ومصر ؛ يظهر ذلك بوضوح في الرسالة التي أرسلها طومان باي بعد موقعة مرج دابق ، مكتوبة بالتركية[4] ؛ فحواها أن الله قد أوحى إليه بأن علكه البلاد شرقاً وغرباً ، كما ملكها الإسكندر ذي القرنين من قبل . ويعتبر سليم نفسه ؛ بسبب انتصاره على الغوري ، سلطاناً في أملاكه ، ويدعوه ، أن يكون نائباً له من غزة إلى مصر ، وأن تكون له فيها الخطبة ، وسك العملة ، أما هو ، فيكون له من الشام إلى الفرات .

وعلى كل حال ؛ كانت الخطوة التالية لسليم ، بعد مرج دابق ، استيلاؤه على حلب ، أكبر مدن الشام . فيذكر المؤرخون أنه دخلها بدون ممانعة[5] ؛ وذلك

---

(١) ابن زنبل ، ص ٢٨ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ، ص ٢٦ .

(٤) ابن إياس ، ٣ ص ٨ س ١٢ أو ما بعدها .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٤٨ (آخر صفحة) .

راجع إلى أن خاير بك ، لما انسحب من مرج دابق ، عاد إلى حلب ، وما لبث أن أظهر حقيقة غدره للغورى ؛ فخلع زى المماليك ، وتزيا بزى العثمانيين ، وأصبح يكتب للأمراء المماليك ، ويرغبهم فى الدخول تحت طاعة سليم ، ويعدهم بأن يبقى كل أمير فى وظيفته ويحفظ له رزقه[1] ؛ بحيث سماه سليم «خاين بك»[2] ، بدلا من «خاير بك» ، وبذلك أشبه الوزير ابن العلقمى ، الذى خان خليفته المستعصم ، آخر خلفاء العباسيين فى العراق ، وملك هولاكو بغداد .

وحينما دخل سليم حلب ، أظهر منتهى القسوة ؛ فقتل كل من التجأ إليها من المماليك ، وحتى رجال الدين سيما رجال الصوفية منهم ، الذين كانوا مع الغورى ، وعلى رأسهم أقطابهم ، الذين هربوا إليها بزيهم ، فأمر سليم بقتل كل من وقع بين يديه ، واحداً بعد آخر ، ولم يرحم كبيراً لكبره ، ولا صغيراً لصغره[3] ؛ إذ عرف سليم بحبه لسفك الدماء ؛ فمن قبل قتل أباه وأخوته لأجل العرش[4] ويبدو أن أغلب من قتلهم كانوا من أهل مصر العلماء[5] ؛ حيث أصبح من سياسته فى مصر بعد ذلك ؛ لما استولى عليها ؛ أن يقضى على كل مقوماتها الحضارية . ومع ذلك ؛ فقد أبقى على الخليفة ، وقضاة القضاة المصريين ؛ ليستفيد منهم فى غزوته المقبلة لمصر ؛ وإن أهانهم ووبخهم[6] ، ولم يرع حرمتهم الدينية .

ولقد أسرع سليم إلى استثمار نصره بالاستيلاء على مدن الشام الواحدة بعد الأخرى ، وخصوصاً أن معظمها قد سلم له بالأمان ، وساعد على ذلك أن عرب الشام لما تحققوا من موت الغورى وثب بعضهم على بعض ، ونهبوا زروع الشام ،

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٨٣ — ٨٤ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٥١ س ٧ وما بعدها
(٣) ابن زنبل ، ص ٢٥ .
(٤) ابن إياس ، ٣ ص ١٣٦ س ٩ .
(٥) نفسه ، ٣ ص ٨٢ س ٢١ .
(٦) نفسه ، ٣ ص ٤٩ س ٢٣ وما بعدها .

واضطربت أحواله[1]. وحتى دمشق التي قد بدأت المقاومة على يد ابن الحنش[2]، أمير العربان ؛ إلا أن أحوال دمشق كانت قد فسدت؛ بعد مقتل سيباى نائب الشام ؛ بحيث نهبت أسواقها ، واضطر أهلها إلى الخروج عنها ، فقتل العثمانيون لما دخلوها عدداً كبيراً من أمرائها المماليك ، ومن كانوا قد لجأوا إليها[3]؛ غير الرعية .

ومع ذلك ؛ فقد حدثت معركة حقيقية في غزة ؛ بحيث اعتبر أنه لم تحدث معركة في الشام ، بعد مرج دابق ؛ إلا فيها ، سيما وأن نائب الغورى فيها ؛ كان قد طلب من طومان باى أن يدركه بالعسكر[4]. وبالفعل شرع طومان باى في إعداد الجند ، وجمع منهم عشرة آلاف[5] فأرسل إليها بعض المماليك الذين كانوا في الطباق — وهى المدارس الحربية المملوكيـــة — ولم يكونوا قد اشتركوا في القتال بعد[6] ؛ كما أرسل إليها بعض الذين هربوا من الأمراء ومماليكهم من مدن الشام الأخرى ؛ وإن كانت سمة هؤلاء التباطؤ والتراخى والتقاعس الزائد؛ بسبب أن طومان باى لم يجد المال الكافى لينفق عليهم[7] ؛ وأظهر بعضهم الجبن ، وأراد أن يهرب من القاهرة[8]؛ بحيث اضطر طومان باى أن يظهر أنه يذهب بنفسه لقتال سليم[9] ، وليستحثهم طلب منهم القتال عن أعراضهم وأموالهم . كذلك أرسل بعض رماة البنادق من أهل مصر وسودانها[10] — العبيد — في ثلاثين عجلة تجرها الأبقار ، أما رماة المكاحل — المدافع — فقد أرسلهم على الجمال . فتوجه هذا الجمع

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٦٠ س ٤ وما بعدها .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٧١ س ٤ وما بعدها .
(٣) نفسه ، ٣ ص ٧٤ س ١٠ وما بعدها
(٤) نفسه ، ٣ ص ٧٩ س ٧ .
(٥) ابن زنبل، ٣ ص ٢٩ — ٣٠ .
(٦) ابن إياس ، ٣ ص ٨٠ (في آخر الصفحة) .
(٧) نفسه ، ٣ ص ٨١ س ٥ — ٦ ، ٨٤ س ٩ .
(٨) نفسه ، ٣ ص ٨٠ .
(٩) نفسه ، ٣ ص ٨١ س ٢ — ٥ .
(١٠) نفسه ، ٣ ص ٨٠ — ٨١ .

غير المتحمس للقتال ؛ بقيادة الأمير جان بروى الغزالى، الذى كان وصل إلى مصر، بعد هزيمة مرج دابق .

أما العثمانيون ؛ فقد هجموا على غزة فى أعداد كبيرة ، مثل الجراد ؛ لا يحصى عددهم[١] ، بقيادة الوزير سنان باشا[٢] ؛ إذ كان سليم قد ذهب لزيارة بيت المقدس[٣]؛ وقد سلحوا بالمدافع الكثيرة والبنادق ، التى حملت على عجلات خشب؛ تسحبها أبقار وجاموس فى أول العسكر[٤] . كذلك ، كان ضمن أسلحتهم رماح بكلاليب يخطفون بها الفارس عن فرسه[٥]؛ حتى أن الجند أسقطت جان بردى الغزالى عن فرسه ، وكادوا يحزون رأسه ؛ لولا غلمانه الذين خلصوه . وقد انتقم العثمانيون من أهل غزة ؛ بسبب أنهم ساعدوا المصريين ؛ فقتلوا منهم ألف إنسان من الرجال والنساء والأطفال[٦] ، أما المماليك الذين نجوا من هذه المعركة — وهم قلة — فإنهم عادوا إلى مصر، وهم فى أسوأ حال ؛ بعضهم جاءها راكباً الحمير ؛ وقد فقد سلاحه وملابسه ، أو حتى حافياً .

* *

وعلى كل حال، يبدو أن طومان باى قد أصبح يقدر أهمية البارود وأسلحته ؛ سيما وأنه قد سمع عن فعالية النفوط المرعبة[٧] — كما سماها ابن إياس — التى كانت السبب فى نصر العثمانيين ، فى موقعتى مرج دابق وغزة فيقول النص؛ إنه حتى وهو

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٨٧ س ١٥ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٨٦ س ١٠ — ١١ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ٩١ س ٦ — ٧ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ٨٧ س ١٦ .
(٥) نفسه ؛ ٣ ص ٨٧ س ١٢ — ١٣ .
(٦) نفسه . ٣ ص ٨٨ .
(٧) نفسه ، ٣ ص ١٢٣ س ٧ .

أمير غيبة ؛ نائباً عن الغورى ؛ كان قد أظهر همة فى صنع البارود وآلاته[١] . ولما ولى السلطنة ؛ بعد مقتل الغورى ؛ زاد عزمه — وكان له عزم شديد — فى سبك المكاحل وعمل البنادق[٢] . وربما سعى أيضاً إلى جلب بعضها من صاحب رودس ، الذى أحس هو الآخر بخطر العثمانيين عليه ؛ حتى سرى نبأ بأنه قد أرسل إليه ألف رام من أهل رودس ، وعدة مراكب محملة بالبارود ، وأنها دخلت إلى ثغر دمياط ؛ إلا أنه قد تبين فيما بعد أنها مجرد إشاعة[٣] ، وأن هذا النبأ غير صحيح ، مما يدعونا إلى الجزم بأن جل مااعتمد عليه طومان باى بالنسبة للأسلحة النارية على ما كان يصنع منها فى مصر . ويؤيد ذلك ؛ أن ابن إياس يروى أنه أمر بصنع مكاحل ، بعضها من النحاس[٤] ، صرف عليها جملة من المال ؛ حيث عرض بعضها أمامه ؛ فكان عددها مائة ، محملة على عجل من خشب ؛ يسحب كل منها زوج أبقار ، كما عرض مائتى جمل بارودا ورصاصا ؛ محملة ألفاً وخمسمائة طارقة — جمعها طوارق — ولعلها صناديق الذخيرة . كذلك جمع مالا يحصى من الرماة بالأسلحة النارية ؛ حيث كان جلهم من المصريين والسودانيين كما ذكرنا الذين يرمون بالمكاحل والبنادق[٥] ؛ لتفوقهم فى الرمى بها ؛ لا سيما وأن المماليك أنفسهم ، لايستخدمون إلا السيوف ، رمز الفروسية ، وتركوا القتال بالبارود

(١) نفسه ، ٣ ص ٥٥ س ٣ . يقول النص : عمل طوارق خشب وكفيات وبنادق ؛ وغير ذلك . فمن الطوارق ؛ فان Dozy (أنظر . Suppl., 2, p. 40-41) ؛ يرى أن هذه اللفظة من الصعب تحديد معناها ؛ فقد اتبعت المستشرقين قبله ؛ فانها أسلحة أو صناديق البارود الخشب ؛ بدليل أنه كان لها أيام الفاطميين فرقة خاصة ؛ لهـا معسكر فى القاهرة ؛ عرف باسم : حارة الطوارق . بتفصيل ؛ انظر ، ماجد ، نظم الفاطميين ، ط ٢ ١ ص ٢٠٤ وهامش . أما الكفيات ؛ فهى آلات للقذف . أنظر . Suppl., 2, p. 476 : Dozy

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٩٣ س ٦ — ٧ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٩٢ س ٢٤ وما بعدها .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٨٩ س ١٠ وما بعدها .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٩٢ . س ٧ . يقول إن بعض المغاربة من سكان مصر ضموا للرماة أيضا . نفسه ، ٣ ص ٩١ س ١٣ ومابعدها .

للمصريين والسودان فى مصر[1] ؛ فكانوا دائمى التمرين ، حتى أن القاهرة كانت ترتج لقذائفهم[2] .

وكان من رأى طومان باى أن يهاجم سليماً فى وسط الطريق ، ولا يتركه حتى يأتى إلى القاهرة ، على أساس أن صحراء شرق مصر وقسوتها ، من الممكن أن تنهك جيشه[3] ؛ سيما وأنه لم يأت عن طريق الساحل ؛ مثلما حدث فى غزوات سابقة . ولكن تحت إلحاح أمراء المماليك ؛ فإنه اضطر أن يطرح استراتيجيته المعركة ؛ كما كان يريدها ؛ جانباً ، وأجبر على انتظار مجىء العثمانيين . ولذلك لم يجد هؤلاء أى مقاومة فى زحفهم على مصر ؛ إلا من بعض العربان ، الذين كانوا يميلون بطبعهم إلى النهب والسلب؛ فكانوا يقطعون بعضُ رؤوس العثمانيين؛ ويرسلونها إلى القاهرة ؛ لقبض الثمن[4] . ومع ذلك ؛ فإن طومان باى قد أمر بحرق بعض الشون التى تقع خارج القاهرة[5] ؛ حتى لاتقع فى أيدى العثمانيين .

وعلى كل حال ؛ استعد طومان باى لمقابلة العثمانيين بجوار القاهرة — فى المطرية — فى مكان اسمه الريدانية[6] ؛ يقع خارج أسوارها ؛ من ناحية باب النصر ، ويمتد حتى جبل المقطم ؛ عبارة عن بعض البساتين والأسواق ؛ إلا أنه فى أواخر عهد المماليك ؛ خرب معظمه ؛ وأصبح أرضاً جرداء ، خالياً من السكان . فكانت المدافع تنقل من مسابكها إلى هذا المكان ؛ وهى مغطاة بالجوخ ؛ حيث وضعت الكبار منها ، التى كان يجرها ثلاثون أو أربعون من الخيل ، على الجبل

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٦٩ س ٦ .

(٢) أنظر : Ayalon Gun, p. ix

(٣) إبن إياس ، ٣ ص ٩٤ س ١٤ وما بعدها .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٩٤ ، س ٢٥ ، ٩٥ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٩٥ .

(٦) الخطط ، ٣ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ . نسبة لريدان الصقلبى ؛ من خدام العزيز بالله الفاطمى ، الذى قتل فى أيام الحاكم بأمر الله ، فى ٣٩٣/١٠٠٣ ؛ وإن قيل إن الريدانية تعنى الريح الكثيرة الهبوب .

الأحمر[١] ، وهو جزء من جبل المقطم فى هذا المكان ؛ بينما صغار المدافع ، وكان يجرها أربعة من الخيل ؛ قد رصت من الريدانية إلى الخانقاه[٢] ؛ إحدى زوايا الصوفية . فأحيطت هذه الأخيرة ؛ وهى ثابتة على الأرض بالحوائط والخنادق ؛ لإخفائها عن العيون ؛ حتى أن السلطان نفسه ؛ كان يحمل مع عمال البناء الحجارة على كتفه لهذا الغرض[٣] ؛ فعملت المماليك مثله . كذلك أمر طومان باى أرباب البضائع[٤] ؛ أن يحولوا بضائعهم إلى المعسكر ، الذى هو منطقه نائية من القاهرة ؛ حتى تتوفر الأقوات فيه .

إلا أن المتاعب مالبثت أن ظهرت من المماليك أنفسهم ؛ على الرغم من أن طومان باى ، كان قد أصـــدر أمره للذين تجمعوا منهم فى الريدانية ؛ من بقايا المهزومين فى غزة ، أو المقيمين منهم فى القاهرة أو غيرها ؛ حتى تجمع منهم لديه أكثر مما تجمع للغورى من قبل[٥] ؛ بأن يكونوا فى الميدان بكامل اللباس من آلة السلاح ؛ إلا أن أغلبهم رفضوا أن يناموا فى المعسكر ؛ فكانوا يرجعون إلى بيوتهم فى المساء .

وحتى الأسلحة النارية المصرية ، التى كان من المنتظر أن تلعب دوراً حاسماً فى المعركة ؛ لم تقم فيها بأى دور ؛ بسبب أن المدافع كانت قليلة ؛ لم تتعد المائة ؛ بينما العثمانية زحفت بستمائة مدفع[٦]؛ منها المائة والخمسون مدفعاً كبيراً . وبينما كانت

---

(١) عنه : الخطط ، ١ ص ٢٠١ .
(٢) ابن زنبل ، ص ٨٣ .
(٣) ابن إياس ، ٣ ص ٨٦ ، ٩٣ (فى آخر الصفحة) ؛ انظر ، ماجد ، طومان باى ، ص ١٥٥ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ٩٢ س ١٤ — ١٥ .
(٥) نفسه ، ٣ ص ٩٢ س ٥ — ٦ .
(٦) نفسه ، ٣ ص ٩٣ س ١٨ — ٢٠ .

هذه سهلة الحركة ؛ تتحرك على عربات ، فى أى اتجاه ؛ فإن المدفعية المصرية ؛ وضعت على قواعد ثابتة ؛ وأصبحت غير قابلة للحركة ، وزاد الطين بله ؛ أنها طمرت فى الرمال عمداً ، زيادة فى إخفائها ؛ وهى معمرة[١] ؛ حيث قيل إن الذى أمر بوضعها هكذا ؛ هو الأمير جان بردى الغزالى[٢]، الذى هزم فى موقعة غزة ؛ فيقول ابن زنبل[٣] عنه : إنه كان يوجد اتفاق باطنى بينه وبين خاير بك ، الذى خان الغورى من قبل ويبدو أن طومان باى قد تنبه إلى خيانة الغزالى ، فى آخر لحظة ؛ فأراد قتله؛ لولا أن الأمراء منعوه[٤]؛ لوصول العثمانية إلى الريدانية فى يوم الخميس ٢٩ من ذى الحجة سنة ٩٢٣/ ٢٢ من يناير ١٥١٧ . كذلك لما تدفقت العثمانية من تحت الجبل الأحمر بأعداد هائلة بلغت ٢٠٠ ألف أو أكثر ؛ بقصد الالتفاف حول المدافع المصرية ؛ بالتواجد من وراء فوهاتها ؛ ولم توجد فرصة لهذه المدافع لمواجهة العثمانيين ؛ فلم تنطلق إلا واحدة[٥] ؛ مما أرعب العثمانيين ، الذين مالبثوا أن أدركوا عجز مدافع المصريين ؛ مما جعلهم ينهبون بارودها .

حينئذ لم ينتظر طومان ، وقصد ومعه شجعان فرسان المماليك إلى معسكر سليم ؛ الذى أقيم فى أول الريدانية ؛ فوقعت وقعـــة مهولة[٦] ؛ وصفها المؤرخون العثمانيون[٧] أنفسهم فى دائر مخابرات — وهى دفاتر المخابرات العثمانية — بأنها

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٩٣ س ١٨ — ٢٠ .

(٢) ابن زنبل ، س ٣٠ ، ٥٠ .

(٣) نفسه ، ص ٦٠ .

(٤) نفسه ، ص ٣٠ .

(٥) ابن إياس ، ٣ ص ٩٧ س ٢ .

(٦) بتفصيل : أحمد فريدون ، المصدر السابق ، ورقات ٦٣٠ — ٦٤١ ؛ روزنامه حيدر جلبى ؛ سلطان سليمك إيران سفرينه دائر مخابرات (مخطوط تركى) فى طوبقبو سراى ، برقم R. 1955 ، ورقات ١٤٣ — ٦٠ ؛ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، القسم الثانى ؛ تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٤ ؛ انظر . متولى ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ وما بعدها

(٧) أنظر . سنجم باشا أحمد دده ، صحايف الأخبار فى وقائع الأمصار — مخطوط =

أعظم من الواقعة التي كانت في مرج دابق ؛ كما أن المؤرخ ابن زنبل يصف القتال فيها بأنه كان قتال الأبطال ؛ إذ اقتحمه طومان باي ومن معه بشجاعة نادرة ، ويقول عنهم(١) : درهم من فرسان ؛ فقتل عدد لا يحصى من أعـــداء العثمانية وعسكرها ، ومعظم الموجودين في خيمة سليم نفسها ، بمن فيهم سنان باشا الخادم، الصدر الأعظم ، الذي بارزه طومان باي وقتله بيده بأن رفعه إلى أعلى رأسه ؛ ثم ألقاه على الأرض بعنف ؛ فطبق أضلاعه بين جنبيه ، ثم حز رأسه ؛ ربما ظناً منه أنه هو السلطان نفسه ؛ وإن كان سليم لم يكن موجوداً فيها وقتـــذاك ؛ فقال له ياسليم أنت غير سالم « بر مملكت آ كابدل أو له ماز » .

وقد حزن سليم على وزيره الكبير حزناً كبيراً ، واعتبر فقده خسارة كبرى؛ وفكر في الانتقام ، وقال : استولينا على مصر ؛ ولكننا فقـــدنا سنان باشا ؛ خسارتنا فيه لا يمكن أن تعدلها دولة(٢) . فكانت الجند العثمانية تنتهك حرمة المساجد بدخول الخيل فيها(٣) ، وطلمت المآذن ، وصاروا يرمون بالبنـــدق الرصاص ؛ فكان معظم قتلى المماليك من رش البندق(٤) — توفنك — حتى قال ابن زنبل عن ذلك : قاتل الله أول من اصطنعها ، وقاتل من رمى بها(٥) ؛ بحيث عد العثمانيون من قتل بعشرة آلاف من المماليك ، وبقي طومان باي في قليل من المماليك والرماة العبيد(٦) — السودان — الذين دافعوا عنه ببنادقهم . فلما تكاثرت

= عربي — بطوبقبو سرايي ، برقم 2945 ، ورقة ١١٨٤ ؛ انظر المرجع السابق ، ١٨٥ — ١٨٦ .

(١) ابن زنبل ، ص ٣٢ .

(٢) أنظر . أحمد راسم ، عثمانلي تاريخي ، ص ٢١٠ .

(٣) ابن زنبل ، ص ٣١ .

(٤) نفسه ، ص ٢٩ — ٣٠ .

(٥) نفسه ، ص ٣١ .

(٦) ابن إياس ، ٣ ص ٩٧ س ١٣ .

العسكر العثمانية عليه ، انسحب إلى طرا[١] ، قرية فى نواحى الفسطاط المجاورة ، من كثرة البندق .

وبمجرد دخول طلائع العثمانيين القاهرة ، شرعوا فى تعقب الجراكسة فى كل مكان ، وحتى فى البيوت والمقابر ؛ فمن كان يقع منهم ؛ تضرب عنقه فوراً ، وساعدهم فى ذلك العربان ؛ بحيث أنه قتل منهم فى يوم واحد ثلثمائة وثلاثون رأساً[٢] ؛ مما جعل كثيراً من المماليك يتخفون فى زى الفلاحين[٣] ، أو يلبسون ملابس حرافيش القاهرة ، وهم صعاليكها أو فقراؤها . كذلك عمد العثمانيون إلى قتل المصريين بوحشية لا نظير لها ، سيما وأن سليما وهو فى الشام ؛ كان قد هدد إذا مادخل القاهرة — مصر — أن يحرق بيوتها قاطبة ، والعب فى أهلها بالسيف[٤] . فكانوا يقتلون المصريين ويربطونهم من رقابهم بالحبال ؛ لا فرق بين أعيانهم وخدامهم[٥] ؛ مع أنه كان أعلن الأمان للناس ؛ إلا أن سليماً كما يلاحظ ابن إياس لم يكن له أمان[٦] . وفى الوقت ذاته ؛ ساد النهب فى القاهرة ؛ بحجة البحث عن الجراكسة ؛ بحيث صار الجند العثمانيون ينهبون مايلوح لهم[٧] ؛ فلم يتركوا خيلا ولا بغالا ، ولا أقمشة ، ولا قليلا ولا كثيراً .

وقد دخل سليم نفسه القاهرة فى يوم الاثنين ٣ من المحرم سنة ٩٢٣/٢٦ يناير ١٥١٧[٨] ؛ فى موكب حافل ، وقد فرشت له على الأرض شقق الحرير تحت حافر

---

(١) ابن زنبل ، ص ٣٤ . عنها : معجم البلدان ، ٦ ص ٣٣ .
(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٩٩ س ١٢ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ١٠٠ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ١٠٠ س ١٧ ؛ انظر . جلال زاده قوجه نشانجى ، مآثر سليم خانى طاب ثراه ، مخطوط بالتركية ؛ برقم 415 ورقة ١٤ أ .
(٥) ابن إياس ، ٣ ص ١٢٤ .
(٦) نفسه ، ٣ ص ١٢٤ .
(٧) نفسه ، ٣ ص ٩٧ — ٩٨
(٨) نفسه ، ٣ ص ١٠٠ .

فرسه ، وكان قدامه الخليفة والقضاة ، الذين كان قد أسرهم فى موقعة مرج دابق ؛ وقد أحاطت به العسكر بين مشاة وفرسان ؛ ضاقت بهم الشوارع ، وقد حملت راياتها الحمراء — شعار الدولة العثمانية — التى كتب فى بعضها[١] : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، وفى بعضها الآخر : نصر من الله وفتح قريب .

وقد أخاف السلطان سليم بشكله أهـــل القاهرة ؛ إذ لدينا وصفه ؛ مما نقله المؤرخون المصريون المعاصرون له مثل ابن إياس[٢] ، ومن الرحالين الأوربيين مثل باولو جيوفيو Paolo Giovio[٣] ، الذى وصفه وصفاً دقيقاً ؛ كما لدينا له تصويرات وتماثيل[٤] ؛ بعضها بزيه الحربى الـكامل . فهو وصف[٥] ؛ بأنه له من العمر نحو أربعين سنة أو دون ذلك ؛ وأنه مربوع القامة ، واسع الصدر ، ملىء الجسد ، كبير الرأس ، درى اللون ، له وجه كالح ، وجبهة ضيقة ، واسع العينين ، وأنفه كبير وافر ، وله لحية سوداء ؛ حلقت حتى الذقن ، وشنبه بارز ، وله عنق قصير « أقنص العنق » ، ومكرفس الأكتاف ، وعلى رأسه عمامة صغيرة ؛ وقد وجد فيه المصريون خفة ظاهرة ؛ إذ كان فى أثناء ركوبه كثير التلفت .

وقد أثار دخول العثمانيين فزعاً كبيراً بين أهل مصر ؛ وشبه دخولهم القاهرة بدخول هولاجو — هولاكو — بغداد ؛ وأن ماجرى فى مصر بسبب ذلك ؛ لم يحدث مثله ؛ منذ أن دخلها البابليون فى الزمن القديم[٦] ؛ حتى عبر أحد الشعراء عن ذلك بقوله[٧] :

---

(١) ابن زنبل ، ص ٨٣ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٩٨ .

(٣) أنظر .

Le Mythe Turc et son déclin, dans les relations de voyage des Européens de la Renaissance, p. 159 sqq. : Kafé. E.

(٤) صـــورته وتماثيله موجودة فى متحف طوب سراى Topkapi ، والمتحف العسكرى باسطنبول .

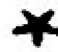
(٥) ابن إياس ، ٣ ص ٤٩ (فى أسفل الصفحة)، ٣ ص ١٠٠ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ١٣٣ س ٢٢ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٩٨ . شعر الشيخ بدر الدين الزيتونى .

نبكى على مصر وسكانها
قد خربت أركانها العامرة .

وأصبحت بالذل مقهورة
من بعد ما كانت هى القاهرة .



ولكن ماكس سليم وهو فى القاهرة ، ولم تمض خمسة أيام على انتصار العثمانيين عليه ؛ إلا وطومان باى يطوقها ؛ معتمداً فى هذه الحرب على مؤازرة المصريين من أحياء القاهرة ، لا سيما من حى بولاق ؛ ومن رماة البندق من العبيد؛ أى من السودانيين. ولعل هذه أول مرة يشترك فيها المصريون فى مقاومة العثمانيين؛ إذ أنهم بحسهم الوطنى قدروا أبعاد الكارثة ، التى حلت بهم نتيجة لمجىء العثمانيين لمصر ؛ فلم يكن من الممكن أن يقفوا سلبيين على طول الخط من هذا النضال بين المماليك والعثمانيين ؛ لا سيما وأن أهل القاهرة كان لهم دور إيجابى فى اختيار طومان باى سلطاناً عليهم .

ففى ليلة الأربعاء الخامس من المحرم سنة ٩٢٣/ ٢٩ يناير ١٥١٧ ؛ تمكن طومان باى من تسريب أتباعه فى حاراتها ؛ حتى وصلوا إلى معسكر سليم ؛ حينئذ أطلق فيه جمالا محملة بمادة مشتعلة ؛ مما جعل معسكر سليم يشتعل بالنار ، وظن سليم أنه مأخوذ لا محالة . فاستمرت مقاومة المماليك ومعهم المصريون أربعة أيام ولياليها ، إلى يوم السبت ؛ ظهروا فيها على العثمانيين . وبسبب انتصار طومان باى ؛ فإنه خطب له فى القاهرة فى يوم الجمعة ؛ مع أنه فى يوم الجمعة الماضية ، كان قد دعى لسليم .

ويبدو أن حرب الحارات ، التى أكره عليها العثمانيون لم تكسد تلائم العثمانيين ؛ مما جعلهم يلجأون إلى تكتيكهم السابق بالحرب بالبارود وحده ،

الذى كانوا يعتمدون عليه فى كل حرب ناجحة ؛ لتفوقهم فيه. فطلعت الإنكشارية من رماة البندق « اليكنجرية » إلى المآذن ، وصاروا يرمون فى كل اتجاه بالبندق الرصاص ؛ مما أجبر المماليك والأهالى على وقف المقاومة ؛ لاسيما وأنهم قد تعبوا من القتال المستمر طيلة هذه الأيام ؛ دون راحة . فانسحب الجميع من القتال ؛ بما فيهم المماليك ؛ بحيث لم يبق إلا طومان باى وحوله رماة البندق المصريين ، وبعض خاصة مماليكه – مماليك سلطانية – واضطر طومان باى هو الآخر أن ينسحب إلى خارج القاهرة .

وقد انتقم العثمانيون من المصريين بحرق بيوتهم، وتدنيس مساجدهم ومشاهد أوليائهم ؛ بما فيهم مقام الإمام الشافعى ؛ وقتلوا منهم فوق عشرة آلاف[1] ، أو ستين ألفاً[2] ؛ تركوا جثثهم مرمية فى الطرقات تنهشها الكلاب ؛ حتى كاد يفنى أهل القاهرة ؛ نتيجة لذلك . كذلك قتل العثمانيون كل من وقع فى أيديهم من المماليك ، الذين تخفوا فى بيوتهم ، أو فى أماكن أخرى ؛ بلغ عددهم نحو ثمانمائة[3] ؛ من الأمراء والمماليك العاديين ، بمن فيهم كرتباى والى مصر – الفسطاط – الذى هتف وهو يموت بحياة طومان باى فى نصرة الله[4] .

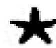
وقد اعتبرت هذه المحاولة الفاشلة من قبل طومان ؛ الكسرة الرابعة للمماليك على أيدى العثمانيين ؛ بعد مرج دابق وغزة والريدانية ؛ مما يبين أهمية انتصار العثمانيين فيها . وبالفعل ؛ فإنه بعد أن استتبت الأمور للعثمانيين فى القاهرة ؛ طلع سليم القلعة لأول مرة ؛ فى موكب حافل ، ارتجت له القاهرة[5] ؛ وذلك فى يوم الثلاثاء ١١ من المحرم / ٣ فبراير .

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١٠٤ س ١٥ .
(٢) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، القسم الثانى ص ٤٣ ؛ انظر ، متولى ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ .
(٣) ابن إياس ، ٣ ص ١٠٤ س ٢٠ .
(٤) ابن زنبل ، ص ٣٩ .
(٥) ابن إياس ، ٣ ص ١٠٧ س ١٩ .

وقد لجأ طومان باى هذه المرة إلى الصعيد فى البهنسا[١] ؛ وهى غربى النيل فى جنوب القاهرة ؛ فأقام فيها متخذاً النيل كخط دفاعى له ؛ يأمل أن يعاود الهجوم فى الوقت المناسب . وفى الوقت نفسه ؛ لجأ سليم إلى الحيلة مع طومان باى؛ فأرسل إليه أماناً مع قضاة مصر[٢] ؛ يصحبهم مندوب عن الخليفة ؛ يمينه فيه على بلاده مدى الحياة ، ويرضى أن تكون له الخطبة والسكة وحمل الخراج إليه ؛ وربما كان سليم مضطراً إلى ذلك ، إذ كان يقدر صلابة طومان باى .

وبالفعل ؛ فإن طومان باى كان قد قوى بكثرة من أتاه من العسكر ؛ حيث جند أهل الصعيد والإسكندرية والعربان ، وزحف بهم من جديد إلى الجيزة[٣] . فخرج إليه سليم بنفسه ، وفى صحبته ابن الغورى سيدى محمـــد ؛ ليناوىء به طومان باى[٤] ، بمدفعيته التى وضعها على شواطىء النيل ، ومع عدم تكافؤ قوة هذا الأخير مع قوة سليم ؛ إلا أنه قرر أن يخوض المعركة ، فكانت بالنسبة له ولزملائه أمراء المماليك ملحمة من ملاحم الفروسية النادرة . وقد رمى سليم فى المعركة برماة البندق والمدافع[٥] ؛ بحيث زلزلت الصحارى من حولهما ، وكانت نتيجة المعركة ، أن قتل معظم من كان مع طومان باى من الأمراء والجند[٦] ، بل مالبث أن انقلب الأعراب الذين وعدوه بالنصر ؛ وهاجموه ؛ إلا أنه حاربهم وتغلب عليهم .



(١) نفسه ، ٣ ص ١٠٦ ص ٢٣ . عنها : معجم البلدان ، ٢ ص ٣١٦ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ١٠٩ — ١١٠ ؛ ابن زنبل ، ص ٤٨ — ٤٩ .
(٣) ابن إياس ، ٣ ص ١١٢ .
(٤) ابن زنبل ، ص ٦٧ .
(٥) ابن إياس ، ٣ ص ١١٥ — ١١٦ .
(٦) ابن زنبل ، ص ٧٠ .

بعد هذه المعركة الحاسمة انسحب طومان باى إلى سنغا[١] ، مركز بإقليم الغربية . ولكن بسبب عداء عربانها له ؛ انتقل إلى إقليم البحيرة[٢] فى تروجة[٣] ؛ من ناحية الإسكندرية ؛ حيث يوجد فيها عرب من قبيلة محارب ، أو ما كانوا يسمون أولاد مرعى . إلا أن هؤلاء بالتالى؛ مع أنهم أحسنوا استقباله ؛ ولكن سليماً عن طريق جان بردى الغزالى ، الذى انضم إليه ؛ اتصل بحسن بن مرعى ، ومالبث أن جاءت الخيل العثمانية ؛ لأخذ طومان باى . فما شعر هذا السلطان الشجاع ، الذى بذل كل مافى استطاعته ؛ إلا والعسكر العثمانية تحيط به ، وتضعه فى الحديد ، وتحمله إلى القاهرة ؛ والمصريون لا يصدقون أن فارسهم قد أسر .

ولكن السلطان سليم لكى يقنعهم قرر شنقه ؛ بأن أخرجه على بغلة ؛ وشق به القاهرة ؛ حتى باب زويلة[٤] — أحد أبواب القاهرة المشهورة وأهمها — الذى كانت علقت عليه حبل الشنق ؛ فأسرعوا به ، وأنزلوه عن البغلة ؛ بقصد شنقه من غير مهلة . فتقدم طومان باى نحو الحبال بقلب جسور ، وحوله جنود العثمانية مسلولة السيوف؛ فطلب طومان باى من الناس قراءة الفاتحة له ثلاث مرات ؛ فقرأت الناس معه ؛ ثم قال للجلاد - المشاعلى — اعمل شغلك[٥] . فكان الحبل يقطع

---

(١) عنها : معجم البلدان ، ٥ ص ٤٦ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ١٢٨ س ١١ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٩٢ س ٢ . عنها : معجم البلدان ، ٢ ص ٢٨٤ .

(٤) أنظر . محمد وصفى ، باب زويلة ، مجلة كلية الآثار ، العدد (١) ، ١٩٧٦ ، ص ٨٧ . زويلة اسم لبابين ، الأول بناه جوهر وقد هدم ، أما الثانى فقد بناه بدر الجمالى ، وهو الذى بقى ، ويعتبر أحد أبواب ثلاثة ؛ بناها الوزير ؛ فكان هذا الباب وباب النصر ، وباب الفتوح ؛ يعتبر من أروع الأبنية الهندسية والحربية فى الإسلام ، أثار إعجاب الرحالة فهو باب عظيم ، ذو قوس ، يرتكز على برجين عظيمين ، على كل منهما منارة ؛ عليها نقش عليه عقيدة الشيعة الفاطمية : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، على ولى الله » ؛ لأن هذا الباب قد انشىء فى أيام الفاطميين الشيعة .

(٥) ابن إياس ، ٣ س ١١٥ — ١١٦ ؛ ابن زنبل ، ص ١١١ .

به مرتين ، وفى كل مرة يعلقوه من جديد ، وشنق إلى أن مات . وقد بقى معلقاً ثلاثة أيام ، ثم بعد ذلك أنزلوه لمـا فاحت رائحة جسده ، ووضعوه فى تابوت ، وغسله القاضى ؛ وكفنه فى ثياب أرسلها سليم ، ثم صلى عليه ودفن فى فسقية قبة السلطان الغورى ؛ كما أرسل سليم ثلاثة أكياس من الفضة ، تصدقوا بهما عليه . فكان شنقه فى يوم الأحد ٢١ من شهر ربيع الأول سنة ٩٢٢/١٥ سبتمبر ١٥١٧. فكان سليم حتى وهو فى استانبول يتسلى برؤية ماصنعه صاحب خيال الظل[1] (الخايل) ــ وهى أشبه بمسرح العرائس من سقة باب زويلة ، وشنق طومان باى ؛ ويسر لذلك سروراً كبيراً .

وقد أحدث شنق طومان باى فى مصر رجة هائلة ؛ وكأن الدنيا قد انقلبت بسبب موته ، واعتبر يوم شنقه أشأم الأيام ، وارتفع الناس بالضجيج والبكاء والصياح فى كل مكان[2] ، ويقول ابن إياس[3] : صرخت عليه النـاس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف . فكان المصريون من غيظهم يقولون الزجل ، وكثرت المرثيـات عليه ، ومعظمها من قرض الزجالين والشعراء المصريين[4] وقد اعتاد كل من يمر تحت باب زويلة ، أن يتلو صلاة قصيرة على

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١٢٥ . أول ماوجد فى مصر ، وكان لسان حال شعبها ؛ وظهر له مؤلفون مثل ابن دانيال ، الذى كان من أبحر شعراء عصره ؛ فهو بالأولى فن شعبى . ابن دانيال ، خيال الظل ، حققه حماده . ١٩٦٣ ؛ انظر . ماجد ، الحضارة الإسلامية ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٢) ابن زنبل ، ص ١٠٩ .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ١١٥ س ١٤ .

(٤) ابن زنبل ، ص ١٩٣ مثل قوله : لهفى على سلطان مصر

كيف قد ولى وزال ، كأنه لن يذكرا

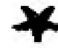
شنقوه ظلمـا ، فوق باب زويـلة

ولقـد أذاقـوه الوبال الأكبرا

يارب ؛ فاعف عن عظائم جرمـه

وأجعل جنـات الخلد له قرى .

روجه ؛ كما أن رجال الصوفية وأتقياء الناس أصبحوا يسكنونه ؛ وأصبح له شهرة خاصة ؛ لأنه فضلا عن أن الشعب المصرى هو الذى اختاره ، امتاز ـ رحمه الله ـ بكرم أخلاقه ؛ بحيث لم ترتكب فى عهده أى مظلمة ، وبالشجاعة والجسارة؛ لولا سوء الحظ الذى لازمه . وقد بقى لنا سيفه بالمتحف الإسلامى ، وقد نقش على وجهى نصله ، بكتابة عبارة جميلة لانجدها لأى سلطان مملوكى آخر ، تدل على تواضعه الجم ، وأهدافه العليا ، ورد فيها : « السلطان ، الملك ، العادل ، أبو النصر طومان باى ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أبو الفقراء والمساكين ، قاتل الكفرة والمشركين ، محى العدل فى العالمين ، خلد الله ملكه ، وعز نصره[1] » .



وبذلك انتهت دولة فرسان مصر ؛ وكأن مصر قد طوت بموته صفحة ناصعة فى تاريخها ؛ فقد أصبحت مجرد نيابة أو ولاية فى إمبراطورية العثمانيين الكبيرة ؛ بعد أن كان سلطانها أعظم ملوك الأرض ؛ لتدخل بعدها فى فترة احتلال مظلمة ؛ اعتبرت ضمن فترات الإضمحلال القاسية ، التى مرت بها مصر فى تاريخها السياسى الطويل ، ولم تفق منها إلا بعد ثلثمائة سنة فى بواكير العصر الحديث .

كذلك اضمحلت مصر حضارياً ؛ بعد أن ودعت حياة زاخرة ، ازدهرت بأروع ما يكون الازدهار فى عهـــد سلاطين المماليك ؛ بحيث اعتبرت الفترة العثمانية من أبشع الفترات التى مرت بها ؛ بسبب النتائج التى ترتبت عليها ، لاسيما وأن هدف سليم وخلفه كان القضاء على مقومات مصر الحضارية بجميع جوانبها ؛ حتى أن جرائمه ضدها ؛ بقيت ولم تمح من ذاكرة المصريين إلى وقتنا الحاضر .

وعلى النقيض يقول المؤرخون عن سليم نفسه إنه طوال اقامته فى مصر لم

---

(١) يوجد برقم ٥٢٦٧ . أنظر . عبد الرحمن زكى ، النقوش الزخرفية ، صحيفة معهد مدريد ، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

ينصف مظلوماً ولو مرة ، وكان مشغولا بالسكر[١] ، وتبجحه مع الصبيان المرد ؛ بحيث ترك فى نفوس أهل مصر مالم يتعودوا عليه من حكامهم ،الذين كانوا على خلق وشهامة وخشية لله ، لا سيما آخر سلاطينهم طومان باى . أما عساكر العثمانيين ؛ فكانوا على شاكلته ؛ ليس لهم نظام يعرف ، لا هم ولا أمراؤهم ، وهم فى رأى المصريين همج كالبهائم[٢] ، وجميعاً عيونهم دنية ، ونفوسهم قذرة ؛ يتجاهرون بشرب الخمر بين الناس ، ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة ؛ حيث كانوا يعتدون على الأموال والأعراض بشكل ظاهـــر ، ويقومون بطرد السكان من دورهم ، والسكنى فيها[٣] .

لذلك اندهشوا مما وجدوه فى مصر ؛ فأخذوا ينهبون كل ما وجدوه فى مصر ؛ وهى التى تمـــلأ متاحفهم فى وقتنا ، ولاسيما متحف طوب قبوسراى Topkapi . فبالإضافة إلى أنهم غنموا كل ما كان حمله الغورى من مال وتحف ؛ فإنهم لما دخلوا مصر عملوا على مصادرة أموال كبار الدولة المملوكية ، بما فيها مال الستات المملوكيات أيضا[٤]. وفى الوقت ذاته رسمت سياسة عامة ؛ لنهب كل ماهو قيم فى مصر ، وحمله إلى اسطنبول بالطريق البرى على آلاف الجمال ، وفى أعداد لاتحصى من المراكب . فكان أكثر مانهب من القلعة أو قلعة الجبل — جبل المقطم — التى كانت مقر سلاطين المماليك بالقاهرة ، وجمعت منها تحف عديدة على مدى ثلاثة قرون ؛ فيما عرف بالبيوت أو الخانات ، وتمثل درجة كبيرة من الغنى ؛ بحيث أصبح غناها الفاحش مضرباً للخيال فى قصص ألف ليلة وليلة[٥] . فلم يترك سليم فى القلعة شيئاً لم يأخذه منها ، حتى رخامها وأعمدتها ، لاسيما تلك التى فى الأواوين ،

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١٣٤ س ٥ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٣٤ س ١٤ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١١٨ س ١٠ — ١١ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٦٨ .

(٥) أنظر . كتابنا ؛ نظم المماليك ورسومهم فى مصر ؛ الجزء الثانى .

التي كان من يراها يقر لسلاطين مصر بعلو الهمة ، فكان سليم يأمر بوضع الرخام في صناديق خشبية ، ليشحنه إلى اسطنبول . بل نقل إلى بلاده أعمدة عظيمة من الصعيد ، وأبواباً مشبوكة من حديد بصناعة بديعة[١] ، وحتى آثار النبي ومفاتيح الكعبة وأبوابها التي كانت بمصر ؛ هـذا غير الخيول والجمائب ، وكل ما هو ناطق .

وحتى يسود الفقر المصريين جميعاً ؛ فإنهم منعوا من تداول العملة المملوكية السائدة في التداول ، وأصدروا بدلها عملة خفيفة[٢] ؛ لايدخل فيها الذهب والفضة إلا قليلا . وأمل سليماً جمع جميع الذهب والفضة من مصر ؛ فحينما خرج منها خرج ومعه ألف جمل محملة مابين ذهب وفضة[٣] . كذلك ألغى العثمانيون دور سك العملة من مصر ؛ وكانت منتشرة في مصر والشام ؛ بل إن سليما قد أخذ معه عند عودته إلى اسطنبول معلم سك العملة في القاهرة[٤] .

وفي سبيل القضاء على مقومات مصر الحضارية ؛ سعى سليم إلى أن يفرغها من كل نابه فيها ؛ فسحب منها رجالها الحاذقين في المهن والحياة الحضارية ؛ ليحملهم معه إلى اسطنبول ؛ بقصد أن يسخرهم في تعمير بلاده ، وليجعلهم يغيرون من نمط الحياة اليوناني فيها إلى النمط الإسلامي ؛ إذ أن آسيا الصغرى ، التي اتخذها العثمانيون مقراً لسكناهم ، كانت منذ أيام هومر مراكز لليونان ؛ وان سميت القسطنطينية عاصمة الروم أو البيزنطيين ، بعـــد استيلائهم عليها باسم : إسطنبول ؛ أي تخت الإسلام كما ذكرنا ؛ ولذلك لم يقابل أهل مصر منذ قديم الزمان أعظم من هذه الشدة ، ولاسمع بمثلها من قبل في التواريخ القديمة

فيذكر المؤرخ ابن إياس أسماء هؤلاء التعساء الذين تقرر سفرهم من مصر

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص٣٣٥ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ١١٧ س ١٦ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ١٤٣ س ٢٢ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ٢٨٩ .

إلى اسطنبول ؛ حيث خصص فصلا فى كتابه لمن توجه منهم إلى القسطنطينية على حد قوله[١] ، وهم من جميع نواحى مصر ، من المسلمين والقبط واليهود على السواء[٢] ، منهم : أصحاب الحرف والصناعات[٣] : كالمهندسين ، والبنائين ، والنجارين ، والحدادين ، والسباكين ، والفعلة؛ حيث أخذ سليم من هؤلاء جماعة كبيرة جداً؛ لا يمكن حصر أعدادهم[٤] . كذلك أخذ سليم الحذاق من صناع الزردخانة،أى السلاح[٥] ، أو الذين يشتغلون بصناعة النسيج ، وهم من الصناع الذين كانوا يوجدون فى مصر بكثرة . كما أخذ جماعة من التجار ، لاسيما تجار خان الخليلى ، بمن فيهم تجار المغاربة فى مصر[٦]،وحتى تجار الشراب «العصير»؛حيث لا تزال هذه التجارة موجودة فى بلاد الأتراك للآن ومن رجال الحكم أخذ رؤساء الأديان المصرية ، ومشاهير الناس ، وكتاب الدواوين[٧] ، والمعلمين فى المدارس الحربية «الطباق» ، والقضاة ، والشهود ، وأخذ الفلاحين والعوام والسوقة ، وحتى[٨] الخياليين — خيال الظل — فاستقدم من حذاقهم فى مصر ستمائة مشخص . وقد لاحظ المؤرخ نفسه؛ أنه بسبب ترحيل أصحاب الحرف والصناعات من مصر إلى بلاد العثمانيين ، فإنه قد بطل من مصر نحو خمسين صنعة .

فكان ترحيل المصريين إلى اسطنبول فيه إذلال كبير لهم ، وقسوة بالغة ؛ فهم قد فصلوا عن أهاليهم ؛ حتى جرت الدموع فى مصر بسبب ذلك أنهاراً ، ودق عليهم

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١٤٧ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ١١٦ — ١١٧ ، ١٤٩ س ١٢
(٣) نفسه ، ٣ ص ١٢٢ س ٢٢ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ١٤٩ س ٩ — ١٠ .
(٥) نفسه ، ٣ ص ٤٨ س ٢٤ .
(٦) نفسه ، ٣ ص ١١٩ س ٤ — ٥ .
(٧) نفسه ، ٣ ص ١٢٢ .
(٨) ابن دانيال،خيال الظل ، حققه حماده ١٩٦٣ .

النساء بالطارات[١] . فكانوا ينزلونهم في المراكب رغم أنفهم[٢] ، ويربطونهم بالحبال في رقابهم ؛ لافرق بين أعيانهم وفقرائهم ؛ كما يسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم ، ولو كانوا من أعيان الناس[٣] . ولانعرف ماحدث لهؤلاء المنفيين التعساء ، أو حتى أعدادهم[٤] ، وإن عرفنا أن بعضهم قد غرق في الطريق[٥] .

يضاف إلى ذلك ، أن سليماً قد قضى على زعامة مصر الروحية التي استمرت طوال حكم دولة سلاطين المماليك ؛ بنقل منصب الخلافة إلى اسطنبول ؛ وإن كان يبدو أنه قد فعل ذلك تدريجياً[٦] . فأصدر أمره بترحيل الخليفة مع بعض أولاد عمه إلى اسطنبول ، وربما أودعه بعد ذلك في سجن يسمى يدي قوله ، أي قلعة الأبراج السبعة[٧] ؛ تمهيداً لإسقاط حقه في لقب الخلافة . حقاً ؛ كان منصب الخلافة ضعيفاً منذ انتقاله إلى مصر ؛ إلا أن المماليك لم يجرؤا على إزالته أو إدعائه ؛ بسبب أن منصب الخلافة كان من تقاليد الإسلام ، وأن المماليك لم يكن لهم نبل الأصل . وعلى العكس ؛ فقد نقل سلاطين العثمانيين منصب الخلافة لأنفسهم ؛ على أساس أن الواحد منهم ملك ، ابن ملك ؛ وبقصد أن يعيدوا لمنصب الخلافة في شخصهم السلطة الزمنية ، التي منعها سلاطين المماليك عنهم . ومهما يكن ؛ فقد استمرت الخلافة في بني عثمان ؛ حتى نهاية حكمهم على يد كمال أتاتورك في العصر الحديث ، وصار كل واحد منهم ، أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين .

---

(١) أنظر . نجيب المصري ، التركية في العامية ؛ المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٣ ١٩٧٦ . ص ٣٩ .
(٢) ابن إياس ، ٣ ص ١١٩ س ٧ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ١٢٤ ، ١٣٢ .
(٤) قيل ١٨٠٠ إنسان .
(٥) ابن إياس ، ٣ ص ١٤٠ س ٦ — ٧ .
(٦) لا يذكر مؤرخون ترك معاصرون ؛ شيئاً عن نقل الخلافة إلى سليم ؛ وكأن نقلها أمر طبيعي . أنظر . حيدر جلبي ، ومترنجي نصوح ، وجلال زاده قوجه نشانجي . ملاحظة متولي ؛ المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .
(٧) عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ٢ ص ٦٩ وهامش (٢) .

هذا بالإضافة إلى أن خاير بك الذى ولى نيابة مصر عن السلطان العثمانى ؛ نجده اشتهر بالقسوة . ولكى يؤيد حكم العثمانيين فى مصر قتل منهم عشرات الآلاف ، أغلبهم راح ظلماً[1] ، بوسائل وحشية ، مثل : التنصيف ، أو التوسيط ، أو عن طريق الخوازيق[2] . ولقد أصبح همه أن يرسل إلى اسطنبول جميع مال مصر ؛ بينها المال الذى كان يجبى على الزروع ، وهو الخراج[3] ؛ مصحوباً بالهدايا الكثيرة من خيرات مصر . بل سلط خاير بك على المصريين يهودياً ليأخذ أموالهم ، وإتلاف عملتهم ، بادخال الزيف فيها ؛ كما جعل شخصاً نصرانياً متحدثاً على الدواوين ، وهى الإدارات الحكومية .

ويبدو أن المصريين كانوا يتمنون زوال الحكم العثمانى ، ويتوقون إلى عودة حكم سلاطين المماليك ؛ حتى أنه لما ظهر رجل فى الصعيد زعم أنه الغورى[4] ، الذى انهزم أمام سليم فى موقعة مرج دابق ، ولم يكن قد عثر على جسده ؛ فإن اسمه انتشر بين الفلاحين ، ووصل خبره إلى القاهرة ؛ مما اضطر خاير بك أن يسعى إلى القبض عليه وسحله على الأرض ، ونودى فى البلاد هذا جزاء من يكذب على الملوك والناس ؛ وإن كان الفلاحون قد قالوا مسكوا السلطان الغورى .

ومع ذلك ، فإنه نتيجة لغزو العثمانيين مصر ، لم يقض نهائياً على المماليك ، وإنما الذى قضى عليه دولة سلاطينهم ؛ فالمماليك بقوا فى مصر قوة هائلة ؛ إذ كان سليم قد سمح لنائبه خاير بك ؛ أن يستعين فى حكم مصر ببقى جنسه من الجراكسة ؛ بحيث أن خاير بك أعطى منديل الأمان[5] للجراكسة ، الذين كانوا هربوا فى كل

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٣١٥ س ٢٠ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٣٨ س ١٩ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٣٢٠ س ٢٢ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٦١ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ١٣٦ .

مكان ، وبلغ بهم الخوف حداً إلى أن تزيوا بزى الفلاحين . بل إن سليماً جعلهم يعودون بالفعل إلى حكم مصر من جديد ؛ فقسم البلاد من الناحية الإدارية إلى مديريات ، عددها أربع وعشرون مديرية ، على رأس كل منها أمير مملوكى ، تكون مهمتهم فيها جمع المال له[١] . وفى الوقت ذاته قسم مصر من الناحية السياسية إلى ثلاثة أقسام كبيرة ، جعل على كل قسم رئيساً من المماليك أيضاً ؛ لمعاونة خاير بك فى حكم البلاد ؛ فكان خاير بك يتسمى بملك الأمراء ؛ كما كان هؤلاء الثلاثة يتسمون الديوان — أى الوزارة - فى اسطنبول[٢] .

كذلك جان بردى الغزالى ، الذى كان سليم عينه نائباً له فى الشام ؛ مكافأة له هو الآخر بسبب خيانته للغورى ، ثم طومان باى ؛ مما مهد لنصره ؛ فإنه لما أعلن فى الشام طموحه إلى السلطنة بعد موت سليم ؛ فإن كثيراً من الجراكسة خرجت لتؤيده[٣] . بل إن الناس فى مصر كانت تتمنى ذلك ؛ حتى أشاعوا أن الغزالى يحضر إلى مصر ويتسلطن ؛ ويطارد العثمانيين[٤] . وبالفعل توجه إليه من مصر جماعة من أولاد العسكر الملفق ، أو الطبقة الخامسة[٥] ، كما كانوا يسمون فى أيام سلاطين المماليك ، وهم من أولاد المصريين والسودان فى مصر ، ويعرفون استخدام البنادق . وقد عرض الغزالى على خاير بك أن يتسلطن فى مصر على أن ينقلب على العثمانيين ؛ ويكون هو نائباً له فى الشام[٦] . ولكن خاير بك أسرع بإخبار سليمان الذى تولى بعد سليم ؛ فكان عدم تعاون خاير بك سبباً فى هزيمة الغزالى وقتله .

---

(١) أوردها فريد . أنظر . الدولة العلية ، ص ٢٧ .
(٢) نفسه ، ص ٧٦ .
(٣) ابن إياس ، ٣ ص ٢٤٩ س ١٨ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ٢٤٦ س ٦ .
(٥) نفسه ؛ ٣ ص ٢٤٣ .
(٦) نفسه ، ٣ ص ٢٧٦ س ٤ — ٥ .

ومع ذلك ، فإن هـــذه الطبقة المملوكية التى عاصرت الفتح العثمانى ، وعلى رأسها خاير بك ، لم يكن لها حرمة أو وقار أو مراعاة عند العثمانيين[(١)] ؛ إلا أنها تستعيد سلطانها فى مصر ، وتعود إليها قطاعاتها كما كانت من قبل ، بل إنها أصبحت تتدخل فى اختيار نائب السلطان التركى بمصر ؛ كما كانت تفعل من قبل مع السلاطين المماليك ؛ بل أصبحت تعزله وتغيره فى أى وقت ، وكان من تقاليد العزل أنهم يلقون سجادة أمامه ؛ ويقولون له إنزل يا باشا . وقد بقيت هذه الطبقة إلى وقت مجىء نابليون ، الذى أعلن انه ما جاء إلا ليخلص المصريين من شر هذه الطبقة ، ويأتى محمد على باشا ليقضى عليها نهائياً ؛ فيما عرف بمذبحة القلعة .

★ ★ ★

---

(١) نفسه ؛ ٣ ص ١٣٩ س ٢٥ .

الخاتمـــــة

من المؤكد ، أن المماليك فى مصر فى نظر المسلمين ، اعتبروا حماة الإسلام فى بلادهم ؛ إذ استولى الإسلام على أفئدتهم ؛ فهم أوقفوا الخطر المغولى الوثنى ، الذى كاد يستولى على معظم بلاد الإسلام ، وأنهم أحيوا الخلافة العباسية ، التى قضى المغول عليها فى العراق ؛ مما ساعد على الإبقاء على وحدة المسلمين؛ إذ الخلافة أساس النظام الإسلامى فى تلك العصور ، وحاربوا بقايا الصليبيين واقتلعوهم نهائياً من الشام ؛ مع أن الأيوبيين قبلهم لم يتمكنوا من ذلك، كما استولوا على قبرص وجعلوها خاضعة لمصر . بل إنهم كانوا السبب المباشر فى نشر الإسلام فى ربوع أقاليم السودان؛ بأممه الكثيرة ، الممتدة غرباً وشرقاً شمال خط الاستواء ، واتبعوا سياسة جديدة ربطت بين شمال الوادى وجنوبه ؛ لأول مرة فى الإسلام .

ثم إن عصرهم ، هو عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، وبلوغها أوجها ؛ وساعدهم على ذلك ، وجودهم فى مصر ، التى هى بيئة صاحبة احساسات عريقة ، بحيث بلغت الثقافة العربية فى مصر غايتها فى عهدهم ، وإنتظمت الحياة فى مصر على أيديهم ، مما كان سبباً فى رواج اقتصادياتها ؛ فأصبحت مصر بلد الألف مئذنة ، واعتبرت آثارهم من أروع آثار مصر الإسلامية .

إلا أن هذه الدولة العظيمة ، صاحبة الأمجاد الحربية والحضارية المتفوقة ، سقطت على يد العثمانيين ، وهى دولة فتية ، سمت إلى أن تحل محلهم فى الزعامة على المسلمين . ولا شك أن انتصار العثمانيين على دولة سلاطين المماليك ؛ يرجع إلى التفوق الحربى وحده ؛ فقد استطاعوا تطوير استعمال سلاح البارود وآلاته، فى الوقت الذى أهمله المماليك ، مع أن هؤلاء قـــد اعتبروا أول من استعملوه كسلاح حربى .

أما الدولة العثمانية ، التى كانت السبب فى سقوط دولة المماليك ؛ فإنها عمدت بعد أن ضمت أملاك دولة المماليك إليها ضمن ولاياتها الأخرى ، إلى أن تقضى

على جميع مقومات مصر المتفوقة ، التي اكتسبتها منذ ظهور الإسلام ، وبلغت أوجها في عهد دولة سلاطين المماليك ؛ حتى أنها سلبت مصر ومعها العرب لسانهم أيضاً ، فكانت الطامة الكبرى ، التي لم تفق منها مصر إلا في بواكير العصر الحديث .

هذه هي أحوال دولة سلاطين المماليك في مصر من الناحية السياسية ؛ حركتها عناصر مجتمعة أو منفردة ؛ لها كنهها وأهدافها ، تبين عوامل النشأة والحرب والنهوض والسقوط فيها .

جداول
المصادر والمراجع

١ — المخطوطات العربية والتركية

أحمد فريدون (ت ١٥٨٣/٩٩١)، منشآت الملوك والسلاطين، بمكتبة بطوبيقبو سراي باستانبول، مخطوطات في مجلد واحد؛ تشتمل على عشرات الرسائل التركية؛ برقم R. 1960 (بالتركية).

ابن أرنبغا الزردكاش (ت ١٤٦٣/٨٦٧)، الأنيق في المجانيق، مخطوط بدار الكتب، برقم ٧٥ فنون حربية، وميكرو فيلم بمكتبة جامعة الدول العربية، برقم ٤ (فروسية).

اسحق بن ابراهيم، تاريخ سلطان سليم، بدار الكتب المصرية برقم ٧١ تاريخ تركي، ١١٧٣ (بالتركية).

آق بغا الخاسكي (كاتب السلطان الغوري)؛ التحفة الفاخرة في ذكر رسوم خطط القاهرة، مخطوط (في B.N.)، برقم ٢٢٦٥.

ابن إياس (ت ١٥٢٣/٩٣٠)، محمد بن أحمد، كتاب نزهة الأمم في العجائب والحكم، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم ٢٠٤٤٢ تاريخ.
،نشق الأزهار في عجائب الأقطار،مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم ١٤٥٩ جغرافيا.

ابن أيبك الدواداري (ت ١٣٣٦/٧٢٦)، أبو بكر عبد الله، كنز الدرر وجامع الغرر، في ٩ أجزاء، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم ٢٥٧٨ تاريخ، وحقق بعضه.

البرزالي (أو ابن البرزالي) (ت ١٣٣٩/٧٣٩)، علم الدين، المقتفي لتاريخ الشيخ شهاب الدين أبي شامة، في جزءين، مخطوط بطوبيقبو سراي، برقم ٢٩٥١.

ابن البقال البغدادي (ت ١١٩٢/٥٨٨)، كتاب المقترح في المصطلح في تعليم رمي البندق والصيد، ألفه للخليفة الناصر لدين الله العباسي، مصور بدار الكتب المصرية، برقم ٣٥٠٦ ج.

بكتوت الرماح (ت ١٣١١/٧١١) ، نهاية السؤل والأمنية فى تعلم أعمال الفروسية ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ١٦ فنون حربية م ، (وفى .B.N) ، برقم ٢٨٢٨ ، وبالمتحف البريطانى (.B.M) ، برقم ٣٦٢١ .

ابن بهادر (ت ١٤٧٢/٨٨٧) ، محمد بن محمد ، فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٤٩٧٧ تاريخ .

بيبرس المنصورى الدوادارى (ت ١٣٢٥/٧٢٥) ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، وهو الجزء التاسع ، فى مكتبة جامعة القاهرة ، برقم ٢٤٠٢٨ ، وحققته زبيدة محمد عطا ، رسالة الدكتوراه ، جامعة القاهرة ١٩٧٢ ، والجزء العاشر فى مكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٩ تاريخ (تصوير) .

ابن تغرى بردى (ت ١٤٧٠/٨٧٤) ، أبو المحاسن ، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، مخطوط (فى .B.N) ، برقم ٢٠٦٨ — ٢٠٧٢ ، وبدار الكتب المصرية ، برقم ١٤٧٥ تاريخ ؛ وحقق بعضه .

الجزرى (ت ١٣٣٩/٧٣٩) ، محمد شمس الدين ، ويقرأ خطأ بابن الجزرى ، جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك ، تكملة لمرآة الزمان ، لسبط ابن الجوزى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٧٥٧٥ تاريخ ؛ (وفى .B.N) برقم ٦٧٣٩ (وهى التى استعملت) ؛ جزء منها نشره Sauvaget ، بعنوان :

La chronique de Damas et de al-Jaziri, Paris, 1949.

، الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة ، مخطوط بمكتبة تيمور ، برقم ٦٢٩ تاريخ .

جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى ، مآثر سليم خانى ، طاب ثراه (بالتركية) ، مخطوط بطوبقبوسرايى ، برقم 415 .

ابن حبيب (ت ١٣٧٨/٧٧٩) ، الحسن بن عمـــر ، درة الأسلاك فى دولة (ملك) الأتراك ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة ، برقم ٢٢٩٦١ ؛ (وفى B.N.) برقمى ٤٦٨ و ٤٦٨١ ، وميكر فيلم بمعهد المخطوطات العربية ، برقم ٢٣٦ ، ولدينا مقتبسات من Weijers ، فى Orientalia II. ، ط. Amesterdam ، ١٨٤٠ .

ابن حجر العسقلانى (ت ١٤٤٩/٨٥٢) ، شهاب الدين ، ذيل الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٦٤٩ تاريخ - تيمور .

، إتحاف إخوان الصفا بنبذ من أخبار الخلفا ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٢٧٦ تاريخ .

حسام الدين الاجين (ت ١٣٧٩/٧٨١) ، عمدة المجاهدين فى ترتيب الميادين ، وكتاب فى لعب الدبوس ، مخطوط (فى B.N.) ، برقم ٦٠٦٠٤ .

حسن الرماح ،(ت ١٢٩٥/٦٩٥)، نجم الدين ، المعروف بالأحدب ، الفروسية والمناصب الحربية ، وهو مخطوط (فى B.N.) ، برقم ٢٨٢٥ - عليها الاعتماد - وميكرو فيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، برقم ٣٨ (فروسية) ، وله مختصر مخطوط بجمعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٩ ، وقد ظهر له تحقيق من عيد ضيف العبادى ، بغداد ١٩٨٤ (لم يعتمد عليها) .

حيدر جلبي ، سلطان سليمك إيران سفرينة (بالتركية) ، دائر مخابرات أو كتاب روزنامه ، مخطوط بطوبقبو سرايى ، برقم R 1955 .

خضر بن أبى بكر ، المناقب المعزية ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٤٧٥ الخزانة التركية - (الف لعز الدين أيبك) .

الخالدى (ت ١٥٣١/٩٣٧) ، بهاء الدين ، المقصد الرفيع المنشا ، الهادى لصناعة الانشا ، مخطوط : (فى B.N.) برقم ٤٤٣٩ ، ، ونسخة مصورة فى دار الكتب المصرية ، برقمى ٢١٠٣١ و ٢٤٠٤٥ ، ونسخة مصورة بجامعة القاهرة .

الذهبى (ت ١٣٤٨/٧٤٨) ، شمس الدين ، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، فى ٤٣جزءاً ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٤٢ تاريخ ، وفى خمس مجلدات ، برقمى ٤٤٩٦٧ و ٤٤٩٦٨ .

رسائل ، مخطوط بالمكتبة الأهليـــة (في .B.N) ، برقم ٤٤٤٠ ، من غير عنوان .

ابن زنبل (ت ١٥٥٢/٩٦٠) ، أحمد الرمال ، تاريخ السلطان سليم خان العثمانى مع قانصوة الغورى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، فى جزءين ، برقم ١٧٧٦ تاريخ تيمور ، وحقق بعضه .

السخاوى (ت ١٤٩٧/٩٠٢) ، محى بن عبد الرحمن ، تاريخ مصر ، مخطوط (فى .B.N) ، برقم ١٢٩ .

ابن أبى السرور البكرى (ت ١٦٧٦/١٠٨٧) ، السيد محمد ، المنح الرحمانية فى فى الدولة العثمانيه ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ١٩٢٦ تاريخ .

، قطف الأزهار من الخطط والآثار ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٤٥٧ جغرافية .

، المنح الرحمانيه فى الدولة العثمانية ، مخطوط بدار الكتب المصريه برقم ١٩٢٦ تاريخ .

، النزهة الذهنية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٢٢٦٦ تاريخ .

الشعرانى (ت ١٥٦٥/٩٧٣) ، ذيل لواقح الأنوار القدسية فى طبقات العلماء الصوفية ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٤٩٣ تاريخ .

الصفدى (ت ١٢٦٣/٧٦٤) ، خليل بن أيبك الدمشقى ، الوافى بالوفيات ، مخطوطة بمعهد المخطوطات العربية ، برقم ٥٦٥ وبدار الكتب برقم ١٢١٩ تاريخ ، وحقق بعضه .

، أعيان العصر وأعوان النصر ، مخطوطة بطوبيقبو سرايى ، برقم E II 1214; 1216 ، وبمعهد المخطوطات المصرية برقم ٥٣ تاريخ .

طينبوغا (تينبغا) ، البقلميشى اليونانى (ت ١٣٦٨/٧٧١) ، الجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية ، وهو الجزء ٣٣ ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٣٣ فنون حربية .

، الرامي والركوب (في .B.N) برقم ٦٦٠٤ .
، كتاب غنية الطلاب في معرفة الرمي بالنشاب ، بجامعة كمبردج ، برقم ١٨٧ — ٢٤ .

عماد الدين موسى (ت ١٣٥٨/٧٥٩)، اليوسفي المصري ، كشف الكروب في معرفة الحروب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٢١ فنون حربية .

العمري (ت ١٣٤٩/٧٤٩)، أحمد بن فضل الله ، مسالك الأبصار في أخبار ملوك ممالك الأمصار ؛ لايزال معظمه مخطوطاً بدار الكتب المصرية ، برقم ٥٥٩ معارف عامة ، في ٢٠ جزءاً ، (وفي .B.N)بأرقام ٢٣٢٥، ٥٨٦٧ ، ٥٨٦٨ .

العيني ، (وهو غير العيني مؤلف عقد الجمان)، سيرة الجراكسة ، وما وقع منهم مع السلطان سليم ، مخطوط (في .B.N) برقم ٥٨١٨ .

العيني (ت ١٤٥١/٨٥٥) ، بدر الدين ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، مخطوط مصور في ٢٣ جزءاً بدار الكتب ، برقم ١٥٨٤ تاريخ ، نشر جزء منه في .R.H.C ، الجزء الثاني ، القسم الأول ، ومن ٨١٥ — ٨٢٤هـ ، تحقيق القرموط ، القاهرة ١٩٨٥ .
، ذكر سلطنة الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري ، مخطوط طوبقبو ، سراي برقم (A. 2971/2

فتوى ، ضمن وثائق طوبقبوسراي ، برقم E 5960 (بالتركية) .

ابن الفرات (ت ٨٠٧ / ١٤٠٥) ، ناصر الدين ، تاريخ الدول والملوك ، المعروف بتاريخ ابن الفرات ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٣١٩٧ تاريخ .

أبو الفرج البصري (في أيام بيبرس) ، المناقب العباسية والمفاخر المستنصرية ، مخطوط (في .B.N ، ٦١٤٤ .

الفيومي (ت ١٣٦٨/٧٧٠) ، أحمد بن أحمد ، نثر الجمان في تاريخ الأعيان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ١٧٤٦ تاريخ .

ابن قاضي شهبة (ت ١٤٤٧/٨٥١ — ١٤٤٨) ، عبد الوهاب ، الذيل على تاريخ الإسلام ، في جزءين ، مخطوط (في .B.N) برقم ١٥٩٨ — ٩ .

قانون نامه مصر مخطوط تركي بدار الكتب المصرية ، برقم ٤٦
قانون ٤٦ قانون تركي صدر في ٩٣٢ /١٥٢٥ (بالتركية والعربية) .

بن منكلى (من حوالى ٧٧١ / ١٣٧٩) محمد ، الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية ، صورة مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ٢٣ فروسية ، ومكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية برقم ٢٩٨٨ تصوير . (رسالة دكتوراه من عبد العزيز عبد الدايم) .

، التدبيرات السلطانية فى سياسة الصنائع الحربية ، المكتبة التيمورية ، برقم ٢٣ ، ومخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٣٣٧

مقترجى نصوح ، فتح نامه ديار عرب ، مكتبة نور عثمانية فى استانبول ، برقم ٤٠٨٧ (بالتركية) .

مجهول ، تاريخ الملك الأشرف قايتباى ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٨٥٥ .

مجهول ، قهر الوجوه العابسة ، بذكر نسب الجراكسة ، (بالعربية) ، مخطوط (فى B.N.) ، برقم ٤٦١٣ .

منجم باشا ، أحمد دده (ت ١١١٣/١٧٠١ —٢) ، صحايف الأخبار فى وقائع الأمصار ، مخطوط بطوبيقبوسراى ، برقم A. 2945 ، وله ترجمة تركية ، هى الجزء الثالث ، برقم ٢٥٧٣ تاريخ ، بالخزانة التيمورية .

النويرى (ت ٨٣٣/١٣٣٢) ، شهاب الدين أحمد ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، الجزء المخطوط يوجد بدار الكتب المصرية ، برقم ٥٤٩ معارف عامة ، ويشمل المجلدات ١٩ إلى ٣١ ، وقد حقق بعضه بدار الكتب تحقيق أول ١ — ١٢ ، ١٩٢٨—١٩٣٨ ، وله تحقيق ثان فى ١٨ جزءاً ، ويوجد فى ٣٢ جزءاً (فى B.N.) بأرقام ١٥٧٧ — ١٥٧٩ ، ١٥٨٧ / ١٥٨٨ ، وله مختصر بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٩ .

النويرى (ت ٧٧٥/١٣٧٣) ، محمد بن قاسم السكندرى المالقى ، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام فى الأمور المقضية فى واقعة الإسكندرية ، فى

سنة سبع وستين وسبعمائة ، وعودها إلى حالتها المرضية ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، بأرقام ٣٩٤٢ و ٤١٩٣ تاريخ ، وتوجد نسخة مصورة بمكتبة كلية الآداب ، بجامعة الإسكندرية ، برقم ٢٨٥٥٨ عمومية ، تاريخ ١٠٦٤ هـ .

اليونيني (ت ٧٢٦/١٣٢٦) ، قطب الدين ، ذيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية برقم ٢٥٧ ، وبدار الكتب المصرية برقم ١٥١٦ تاريخ ؛ وطبعت أجزاء منه في أربعة أجزاء ؛ في حيدر آباد ، ١٩٥٤ - ١٩٦١ .

ب – الكتب العربية والفارسية والتركية المطبوعة

إبراهيم صالح بن يونس ، تاريخ الإسلام وحياة العرب فى إمبراطورية كانم – بورنو ، شعبة أبحاث السودان ، الخرطوم ، أكتوبر ١٩٧٠ .

إبراهيم خان على ، النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٣٨٩/١٩١٨ .

أحمد بابا ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، فاس ١٨٩١ .

أحمد بدوى ، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، القاهرة ١٩٥٣ .

، الخلفاء العباسيون فى ظل دولة المماليك ، القاهرة .

أحمد تيمور باشا ، أعلام المهندسين فى الإسلام ، القاهرة ١٩٥٧ .

، خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب ، القاهرة ١٩٥٧ .

أحمد دراج ، عيذاب ، مقالة بمجلة نهضة أفريقيا ، وزارة الثقافة ، العددان ٩ و ١٠ ، يوليو – أغسطس ١٩٥٨ .

، رسالتان متبادلتان بين سلطان مالوه والأشرف قايت باى ، فصلة من مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، شوال ١٣٧٧ هـ/ مايو ١٩٥٨ ، ص ٩٧ ومابعدها .

، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، مقال فى المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٥٩ .

، المماليك والفرنج ، فى القرن التاسع الهجرى ، القاهرة ١٩٦٠ .

، حجة وقف الأشرف برسباى ، القاهرة ١٩٦٣ .

، إيضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر ، منذ مطلع القرن التاسع الهجرى ، نشر الجمعية الدراسات المصرية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٨٥ وما بعدها .

، الوثائق العربية المحفوظة فى دور الأرشيف الأوربية (مصر الإسلامية) مقال ندوة تاريخ القاهرة ١٩٦٩ ، ١ ، ص ١١٥ — ١٤٤ .

، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف ، القاهرة .

أحمد راسم ، عثمانى تاريخى ، استانبول ١٣٢٩ هـ (بالتركية) .

أحمد الطوخى ، القيسارات الإسلامية فى مصر والمغرب والأندلس ، فصلة من مجلة كلية الآداب ، العدد ٨ ، السنة ١٩٨١ ، ص ٦٧ وما بعدها .

، المماليك والأندلس ، دراسة فى العلاقات السياسية أو العلمية والاقتصادية والفنية ، القاهرة ١٩٨٣ .

أحمد عبد الرازق ، دراسات فى المصادر المملوكية المبكرة ، القاهرة ١٩٧٤ .

، العلاقات الأسرية فى المصطلح المملوكى ، المجلة التاريخية المصرية ٢٣ ، ١٩٧٦ ، ص ١٥٥ وما بعدها .

، البذل والبرطلة ، زمن سلاطين المماليك ، القاهره ١٩٧٩ .

أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات فى الإسلام ، القاهرة ١٣٥٧/١٩٣٩ .

، مخطوطات وثائق دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، المجلد الخامس ، ص ١٠٥ — ١٢٤ .

أحمد فكرى ، المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ، الإسكندرية ١٩٦٣ .

أحمد مختار العبادى ، مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى ، ط. ثانية ١٩٤٩ .

، دولة سلاطين المماليك فى الهند ٦٨٩ - ٩٠٣/١٢٩٠ - ١٢٠٣ هـ ، أوجه الشبه بينها وبين دولة المماليك فى مصر ، فصله من مجلة كلية الأدب — جامعة الإسكندرية ، ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ ، ص ٦٥ ومابعدها .

، دراسة حول البارود والأسلحة النارية لدافيدا يالون ، فى مجلة Hesperis ، ١٩٥٩ .

، قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩ .

وسالم ، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر ، بيروت ١٩٧٢ .

وغيرهما ، البحرية المصرية وزمن الأيوبيين والمماليك ، الاسكندرية ١٩٧٣ .

أحمد فؤاد متولى ، الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له ، القاهرة ١٩٧٦ .

الإدفوى (ت ٧٤٨/١٣٤٧) ، كمال الدين ، الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، القاهرة ١٣٣٢/١٩١٤ .

أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم وآخرين ، القاهرة ١٩٤٧ .

ابن أبى أصيبعه ، عيون الانباء فى أخبار الاطباء ، ط ٣ القاهرة ١٩٣١ .

أنطون خانجى ، مختصر تواريخ الأرمن ، القدس ١٩٦١ .

أنور زقلمة ، المماليك فى مصر ، القاهرة ١٩٣٠ .

أنور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، سلسلة أعلام العرب ، العدد ٦٣ ، مارس ١٩٦٧ .

ابن إياس (ت ٩٣٠/١٥٢٤) ، محمد بن أحمد ، تاريخ مصر ، أو تاريخ ابن إياس ، المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور ، فى ٣ أجزاء ، فى مجلدين ، بولاق ١٣١١ و ١٣١٢ هـ ، والأجزاء ٣ و ٤ و ٥ ، تحقيق Kahle

و Sobernheim، ومحمد مصطفى، بعنوان Die Chronik،
ط. استانبول ١٩٣١ — ١٩٣٦؛ وتوجـــد الآن طبعة كاملة
من محمـــد مصطفى، في خمسة أجزاء، القاهرة ١٩٦٠ — ١٩٦٣،
وترجمة مختصرة من Wiet، القاهرة ١٩٤٥. (في IF.AOC.)
، ومنه ظهر كتاب :

Journal d'un bourgeois du Caire : Chronique d'Ibnlyas, 1955.

أبي أيبك الدوداري (ت٧٣٦/١٣٣٦) أبو بكر، موسوم ملكي شريف
بمخالفة عقيدة ابن تيمية، إستخرج من مخطوط الدر الفاخر،
نشر صلاح الدين المنجد، ظهر في مجلة المجمع العلمي بدمشق،
المجلد ٣٣، ١٩٥٨ ص ٢٥٩ — ٢٦٩.

، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن بعنوان : الدرة الزكية في
أخبار الدولة التركية، تحقيق Hermann، القاهرة ١٩٧١،
والجزء التاسع بعنوان : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق
Roemer، القاهرة ١٩٦٠.

باوتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد، القاهرة ١٩٥٨.

الباز العريني، الإقطاع في الشرق الأوسط، منذ القرن السابع حتى القرن الثالث
عشر الميلادي، دراسة مقارنة، حوليات كلية الآداب، جامعة القاهرة،
المجلد الرابع، يناير ١٩٥٧، ص ١١٣ ومابعدها.
، الفارس المملوكي، مقال في المجلة التاريخية، ١٩٥٦.

، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، الجزء الأول، القاهرة
١٩٦٣.

باعزمة (١٦/١٠) ، (أبو محمد) ، تاريخ ثغر عدن ، نشر Löfgren ، في جزءين ، Leyden ، ١٩٣٦ .

باول كاله (Kahle)، : منارة الإسكندرية القديمة في خيال الظل المصري ، نشر وترجمة ومقدمة، ط. Stuttgart، ١٩٣٠ .

بديع جمعة والحولي ، تاريخ الصفويين وحضارتهم ، الجزء الأول ، ط ١ ، القاهرة ١٩٧٦ .

بسام العسلي ، الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ، بيروت ١٩٧٨

ابن بطوطة (ت ١٣٧٧/٧٧٩)(أبو بطوطة)،أبو عبدالله الطنجي ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ،في جزءين،ط. Paris ، ١٨٨٠؛ ونشر القاهرة ١٩٦٦ ، وله ترجمات متعددة بالفرنسية والألمانية والطليانية والتركية والفارسية .

بول غالسيوتجي ، ابن النفيس ، من سلسلة كتاب أعلام العرب ، القاهرة.

بهادورخان (ابن أسرة جوجي) أبو الغازي ، شجرة تركي ، (بالتركية) ، وله ترجمة إلى الفرنسية

بيبرس المنصوري الدواداري (ت ١٣٢٥/٧٢٥) ، التحفة الملوكية في للدولة التركية ،نشر Roomer ، ١٩٦٠.

ابن تغري بردي ، (١٤٧٠/٨٧٤) ، أبو المحاسن ،مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافه ، مع ترجمة لاتينية من Carlyle ، ط .

كامبردج Cantabrigae ، ١٧٩٢ .

،منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور (حوادث)،

فى ٤ أجزاء ، تحقيق Popper ، ط .California ، ١٩٣٠ — ١٩٤٢ .

، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، ط . القاهرة ١٩٥٢ ، تحقيق الجزء الأول من يوسف نجاتى ، القاهرة ١٩٥٦ ، و تحقيق محمد محمد أمين ، فى جزءين ، القاهرة ١٩٨٤ — ١٩٨٥ ؛ و له ملخص بالفرنسية من Wiet ، بعنوان :
Les Biographie du Manhal Safi, 1932,

، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، فى ١٢ جزءاً . تحقيق ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩–١٩٥٦ ، والأجزاء ١٣–١٦ ، القاهرة ١٩٧٠ – ١٩٧٢ ؛ و تحقيق Popper ، ط . Berkeley ، ١٩٠٩ – ١٩٣٦ ؛ وترجم القسم الخاص بالمماليك فى أجزاء : ٥ – ٧ ، ١٩٥٤ – ١٩٦٠ .

توفيق اسكندر ، سفارة بيرو دييدو ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص ، ١٤٩٠ م ، القاهرة ١٩٥٦ .
، نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصر الوسيط ، المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٥٧ .
، بحوث فى التاريخ الإقتصادى ؛ مترجم للمجلة التاريخية المصرية ، ١٩٦١ .

ابن تيمية ، السياسة والشرعية ، تحقيق عبد الله السمان ، القاهرة ١٣٨١/١٩٦١ ، ومن عمر فروخ بيروت ١٩٦٦ .

ثروت عكاشة ، القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية ، دار المعارف ١٩٧١ .

الجاحظ ، رسائل ، تحقيق هارون ، مصر ١٩٦٥ (رسالة الفتح ، فى مدح الترك) .

جرجس فام ميخائيل ، السلطان جقمق وحالة مصر فى عصره ، رسالة ماجستير ؛ بجامعة القاهرة ١٩٧٤ .

جرجس زيدان ، شجرة الدر ، مطبوعات دار الهلال ، مارس ١٩٢٩ .

جعفر حسين خصباك ، أحوال العراق الإقتصادية فى عهد الإيلخانيين المغول ، فصلة فى العدد الرابع من مجلة كلية الآداب ، بغداد ١٩٦١ .

جمال إبراهيم مرسى الحولى ، دراسة مقارنة لوثائق الاستبدال فى العصر المملوكى والعثمانى ، فى القرن العاشر الهجرى ، رسالة ماجستير ، بجامعة القاهرة ١٩٧٤ .

جمال زكريا ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، القاهرة ١٩٧٥ .

جمال سرور ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ، القاهرة ١٩٣٨ .

، دولة بنى قلاوون فى مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .

جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثمانى ، فى ٥ أجزاء ، بيروت ١٩٢٥ .

جواد على ، تواريخ مصرية ، إغفال وتعريف بمؤلفيها ، المجمع العلمى ببغداد ١٩٥٢ ، ص ١١٧ ومابعدها .

جورج فاضلو حورانى ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة يعقوب بكر ، ١٩٥٨ .

الجوزجانى (ت ٦٥٧/١٢٦٠) ، منهاج الدين ، طبقات ناصرى ، نشر Calcutta ١٨٦٤ ، (فارسى) وترجمة Paverty (Bibl. Indica) ، ط . London ، ١٨٧٣ — ١٨٨١ .

جوزيف نسيم ، لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، القاهرة ١٩٥٩ .

، العدوان الصليبى على مصر ، الإسكندرية ١٩٦٩ .

، العدوان الصليبى على بلاد الشام ، الاسكندرية ١٩٧١ .

، علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية ، فى ضوء وثائق صبح الأعشى ، مستخرج من مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية ، دراسات أثرية وتاريخية ، ١٩٧١ ، ص ٥١ وما بعدها .

جيان ، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية ، ترجمة يوسف كمال ، ١٩٢٧ .

ابن الجيعان ، (ت ٨٨٥/١٤٨٠) ، شرف الدين ، القـــول المستظرف فى سفر مولانا الملك الأشرف قايتباى ، تحقيق Lanzone ، ط. Torino ١٨٨٧ .

، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، نشر Moritz ، ط . Vienna ، وبولاق ١٣٩٦/١٨٩٩ .

حافظ أحمد حمدى ، الدولة الخوارزمية والمغول ، القاهرة ١٩٤٩ .

، الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى ، القاهرة ١٩٥٠ .

حامد زيان ، الأزمات الاقتصادية والأوبئة فى مصر عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٦ .

ابن حبيب (٩٧٧ / ١٢٧٨) ، الحسن بن عمر ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، ٣ أجزاء ، تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٧٦ — ٨٢ .

ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢/١٤٤٩) ، رفع الإصر عن قضاة مصر ، تحقيق حامد عبد المجيد ، ومحمد أبو سنة ، وإسماعيل ، فى جزءين ، القاهرة ١٩٥٧ — ١٩٦١ .

، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، فى ٤ أجزاء ، حيدر آباد ١٣٤٨ — ١٣٥٠ هـ (استخدمت) ، وفى ٥ أجزاء ، تحقيق جاد الحق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٦ .

، إنباء الغمر فى أنبــاء العمر ، تحقيق حسن حبشى ، فى ٣ أجزاء ، ١٩٦٩ - ١٩٧٣ ، حقق الجزء الأول حديثاً فى دمشق ١٩٧٩ .

حرب عبد الحميد ، دفاع عن السلطان محمد الفاتح ولم يفتح القسطنطينية فقط ، لكنه غير تاريخ أوربا ، العربى ، العــدد ٢٥٠ ، ص ١٠٢ ومابعدها .

حسن إبراهيم ، الدولة التيمورية فى الهند ، مستخرج بمجلة كلية الآداب ، بجامعة القاهرة ١٩٤٤ .

، انتشار الإسلام بين المغول ، بحث مستخرج من مجلة الجامعة ، مايو ١٩٥٣ .

، انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى ، ١٩٥٧ .

، انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٤ .

، تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والإجتماعى ، الجزء الثالث ، ط ٧ ، القاهرة ١٩٦٥ .

حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٧٦ - ٠٧

حسن حبشي ، الاحتكار المملوكى وعلاقته بالحالة الصحية ، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ، المجلد التاسع ١٩٦٤ ، ص ١٣٣ — ١٥٨ .

حسن عبد الوهاب ، العمارة الإسلامية فى عصر المماليك العربية ، مجلة العمارة ١٩٢٧ .

، تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ١٩٤٦ .

، الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، مقال فى مجلة الكتاب ، عدد يناير ١٩٤٧ .

، تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها ، المعهد المصرى ٣٧ ، ٢ ،

حسن عثمان ، مصر العثمانية ، كتاب الجمل ، القاهرة ١٩٤٢ .
« ، البحر الأحمر كطريق تجارى ، القاهرة ١٩٣٩

ابن حسول ، كتاب تفضيل الأتراك على سائر الأجناد ، تحقيق عباس العزاوى ، ط . إستانبول ١٩٤٠ .

حسين مجيب المصرى ، تاريخ الأدب التركى ، القاهرة ١٩٥١ .

حسين مؤنس ، أثر ظهور الإسلام فى الأوضاع السياسية والإقتصادية فى البحر المتوسط ، مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ .

« ، الممالك الإسلامية فى غرب أفريقيا وأثرها فى تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ، القاهرة ١٩٦٨ ، وهذه ترجمة كتاب Bovill :
The Golden Trade. Oxford, 1961.

حكيم أمين ، قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ١٩٦٧ .

حلمى سالم ، علاقات مصر الخارجية فى عهد السلطان الظاهر برقوق ، ١٩٧٦ .
« ، إقتصاد مصر الداخلى وأنظمته فى العهد المماليكى ، القاهرة ١٩٧٧ .

حمد الله المستوفى القزوينى (ت ٧٤٠ / ١٣٣٩ - ٤٠) ، تاريخى كوزيده ، (بالفارسية) نشر وترجمة Gantin ، ط Paris. ، ١٩٠٣ ، وتحقيق Nicholson, Browne ط. Leyden ، ١٩١٠/١٩١٣ .

الخزرجى ، العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، مصر ١٩١١ .

ابن خلدون (ت ٨٠٨ / ١٤٠٦) ، عبد الرحمن ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ،

الجزء الخامس ، بولاق ١٢٨٤/١٨٦٧ — ٠٨ .

، المقدمة ، ط . القاهرة ١٣٢٢/١٩٠٤ .

خوالد مير (ت ٩٤١/١٥٣٤) ، غياث الدين ، حبيب السير فى أخبار أفراد البشر ، طهران ١٣٧٣هـ وله ترجمة فرنسية .

، دستور الوزراء ، ط . طهران ١٣١٧ هـ ، تأليف وترجمة وتعليق حربى أمين سليمان ، القاهرة ١٩٨٠ .

ابن دانيال الموصلى ، خيال الظل ، حققه حماده ، القاهرة ١٩٦٣ .

ابن دقماق المصرى (ت ٨٠٩/١٤٠٦) ، إبراهيم بن محمد ، الإنتصار لواسطة عقد الأمصار ، الجزءان الرابع والخامس ، بولاق ١٣٠٩ هـ/١٨٩١ ، وتحقيق Vollers .

، الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، فى ٣ أجزاء ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧١ — ١٩٧٣ .

دونالدولبر ، إيران ماضيها وحاضرها ، ترجمة عبـــد النعيم حسنين ، القاهرة ١٣٧٧/١٩٥٨ .

الذهبى (ت ٧٤٨/١٣٤٨) ، شمس الدين ، العبر فى أخبار من غبر ، نشر صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد ، فى ٥ أجزاء ، الكويت ١٩٦٠-١٩٦٦ .

، دول الإسلام ، فى جزءين ، حيدر آباد ١٩٤٥ — ١٩٤٦

رجب عبد الحليم ، العلاقات السياسية بين مسلمى زيلع ونصارى الحبشة فى العصور

الوسطى ، القاهرة ١٩٨٥ .
، انتشار الإسلام بين المغول ، القاهرة ١٩٨٦ .
رشدى صالح ، مسرح خيال الظل فى العالم الإسلامى ، المجلة ، عدد ٣٣ ، سبتمبر ١٩٥٩ ، ص ٢٥ ومابعدها .
رشيد الدين (ت ٧١٨/١٣١٨) ، فضل الله ، جامع التواريخ (فارسى) ، ترجمه إلى الفرنسية Quatremère . ـ عليه الاعتماد ـ وترجمة إلى العربية من فؤاد الصياد ، القاهرة ١٩٦٣ ، وله ترجمة سابقة من صادق نشأت وآخرون ، القاهرة ١٩٦٠ .
، تاريخى مبارك غازانى ، ط . London، ١٩٤٢ .
رضا نوريا زوكى ، تاريخ الترك ، ١٩٢٦ .
، تاريخ إيران إزمغول افشارية ، طهران ١٣٠٩ هـ . ش .
الرمزى (وهو بلغارى) تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قازان و بلغار وملوك التتار ، المجلد الأول ، بلدة أورنبورخ .
زامباور ، معجم الأنساب، والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى حسن وحسن محمود ، فى جزءين ، القاهرة ١٩٥٢ .
زاهر رياض ، الإسلام فى أثيوبيا فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٤ .
ابن زنبل (ت ٩٦٠/٥٥٢) أحمد الرمال،آخر المماليك أو وقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٢ .
زغلول سلام ،الأدب فى العصر المملوكى، الدولة الأولى٦٤٨-٧٨٣هـ،دار المعارف .
زكى مبارك ، المدائح النبوية ، القاهرة ١٩٣٥ .
زكى محمد أمين ، خلاصة تاريخ الكرد و كردستان من أقدم العصور التاريخية ، ترجمة عونى ،القاهرة١٩٣٦ .
زكى محمد حسن وعبد الرحمن زكى وغيرهما ،مصر الإسلامية ،إخراج وإشتراك فى الكتابة ، القاهرة ١٩٣٧ .

زكى محمد حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٤٥ .

زينب محمد محفوظ ، التطور الدبلوماسى لمراسيم ديوان الأنشاء بدير سانت كاترين ، من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجرى ، رسالة ماجستير ، القاهرة ١٩٧٠ .

، وثائق البيع فى مصر خلال العصر المملوكى، رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة ١٩٧٧ .

الساداتى أحمد محمد ، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم ، ط . فى جزءين ، القاهرة ١٣٧٨/١٩٥٩ .

سامى سلطان ، أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية ، من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١٤٠٠ ، رسالة ماجستير ، القاهرة ١٩٥٨ .

سبط ابن الجوزى (ت ٦٥٤/١٢٥٦) ، شمس الدين ، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، نشر Jewett ١٩٠٧، فى جزءين ، وط حيدرآباد ١٩٥١-١٩٥٢ .

ستانلى لين بول ، سيرة القاهرة (مترجم من حسن إبراهيم وغيره) ، القاهرة ١٩٥٠ .

السبكى (ت ٧٧١/١٣٧٠)، طبقات الشافعية الكبرى ، ٦ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٣ - ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٥ - ٦ .

السخاوى (ت ٩٠٢/١٤٩٧) ، محمد عبد الرحمن ، التبر المسبوك فى ذيل الملوك، تحقيق زكى باشا ، بولاق ١٨٩٦ .

، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، فى ١٢ سفراً ، مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٣-١٣٥٥/١٩٣٤-١٩٣٦ .

، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، نشر القدسى، دمشق ١٣٤٩/١٩٣٠، ونشر روزنتال فى علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة صالح العلى ،

بغداد ١٩٦٣ ؛ ولهذا الكتاب عنوان آخر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ .

، الذيل على رفع الأصر ، تحقيق جوده هلال ، القاهرة ١٩٦٦ .

، التحفة اللطيفة ، فى تاريخ المدينة الشريفة ، فى جزءين ، تحقيق أسعد طرابزونى الحسينى .

سر الختم ، الإمارات العربية فى ساحل شرقى أفريقيا فى العصور الوسطى ، رسالة ماجستير ١٩٧٤ .

سعاد ماهر ، مساجد القاهرة ، القاهرة .

سعداوى ، نظام البريد فى الدولة الإسلامية ، ١٩٥٣ .

، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، ١٩٥٧ .

سعد زغلول ، الترك والمجتمعات التركية عند الكتاب العرب وغيرهم ، فصله من مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، المجلد العاشر ، ديسمبر ١٩٥٦ .

، الإسلام والترك فى العصر الوسيط ، عالم الفكر ، سبتمبر ١٩٧٩ ، عدد ٢ ، ص ١١١ ومابعدها .

سعد القطاطرى ، جارة الوادى ، القاهرة ٩٨٢ .

سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ .

، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة (من الألف كتاب) ١٩٥٩ .

، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٢ .

، الظاهر بيبرس ، القاهره ١٩٦٣ .

، العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ .

، بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٤ ، ١٩٦٨ ، ص ١ ومابعدها.

، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٧ .

سليمان بن خليل ، التحفة السنية فى تاريخ القسطنطينية ، ٣ أجزاء ، بيروت ١٩٨٧ .

سمنار جامعة عين شمس ، البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، القاهرة ١٩٨٠ .

سونيا هاو ، فى طلب التوابل ، ترجمة رفعت ، مراجعة النحاس ، الكتاب رقم ٩٨ ، من مجموعة الألف كتاب .

السيد دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٣٢٣ هـ .

السيد عبد العزيز سالم ، المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربى حتى الفتح العثمانى ، القاهرة ١٩٥٩ .

، الإسكندرية من الفتح الفاطمى حتى الفتح العثمانى ، مقال فى الكتاب الذى أصدرته محافظة الإسكندرية فى عام ١٩٦٣ ، صفحات ٢٩ — ٣٢٦ .

، تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها فى العصر الإسلامى ، بيروت ١٩٦٤ .

، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى حتى الفتح العثمانى ، الإسكندرية ١٩٦٩ .

السيوطى (ت ٩١٦/١٥٠٥) ، جلال الدين ، لب اللباب ، تحقيق Veth ، Lyde . ١٨٤٠ .

، تاريخ الملك الأشرف قايتباى ، تحقيق (Wahrmund) ، ط Wienn ، ١٨٨٤ .

، نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق حق ، ط . New York ،
١٩٢٧ .

، تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الدين ، تحقيق محمد
محى ، القاهرة ١٩٦٤ . وله ترجمة إنجليزية .

، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، فى جزءين ، القاهرة
١٣٢٧/١٩٦٧ ، وتحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة ١٩٦٧ـ١٩٦٨ .
، غزوات قبرس ورودس ، تحقيق Vienna ١٨٨٤ ،
والقاهرة ١٩٧٧ .

شارل أندرية جوليان ، تاريخ أفريقيا ، ترجمة طلعت ، ومراجعة عبد المنعم ماجد ،
القاهرة ١٩٦٨ .

ابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ، تحقيق عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥١ ،
وفى جزءين ، بولاق ١٨٨١ .

شادية قناوى ، ظاهرة الرشوة فى المجتمع المصرى ، رسالة ماجستير قدمت لجامعة
عين شمس ، ١٩٧٦ .

الشاطر بوصيلي ، الكارمية ، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ،
المجلد ١٣ ، القاهرة ١٩٦٧ .

، تاريخ حضارات السودان الشرقى والأوسط ، القاهرة ١٩٧٢ .

شاطر محمود عبد النعيم ، ابن حجر العسقلانى ، مصنفاته ودراسة منهجية ، رسالة
دكتوراه ، جامعة بغداد ١٩٧٦ .

أبو شامة ، عبد الرحمن ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل
على الروضتين ، نشر عزت العطار ، ١٣٦٦/١٩٤٧ .

، الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، فى جزءين ،

القاهرة ١٢٨٨ هـ ، وتحقيق محمد حلمى : القاهرة ١٩٥٧ ، وترجمة في R.H.C.Or ، Paris, IV, 1898, V, 1906 .

ابن شاهين الظاهرى ، (١٤٦٨/٧٧٢) غرس الدين خليل ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق Ravaisse ، في مجلدين ، ط . Paris ، ١٨٩٤ ، وتحقيق Gaulmier ، بيروت ١٩٥٠ .

شبيكة (مكى) ؛ مملكة الفونج الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٤ .

ابن الشحنة (ت ٨٨٢ / ١٤٧٧) ، أبو الوليد إبراهيم ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، حققه سركيس ، بيروت ١٩٠٩ .

ابن شداد (ت ١٢٨٥/٦٧٤) عز الدين ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الأول ، تحقيق Dominique Sourdel ، دمشق ١٩٥٣ ، بيروت ١٩٥٧ ، الجزء الثاني تحقيق سامى الدهان دمشق ١٣٧٥/١٩٥٦ ، وطبعة أخرى ١٩٦٢ ، والثالث تحقيق عمارة ، دمشق ١٩٧٨ .

شرف (طه) ، دولة النزارية ، أجداد أغاخان ، كما أسسها حسن الصباح ، القاهرة ١٩٥٥ .

شفيق غربال ، تكوين مصر ، نقله إلى العربية ، محمد رفعت ، ١٩٥٧ .

شمس الدين الشجاعى ، تاريخ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وبنيه ، حققه وترجمة إلى الألمانية Schefer ، القسم الأول ، النص العربى ، ط Visbaden ، ١٩٧٨ .

شهاب الدين الحلبى (ت ١٣٢٥/٧٢٥) ، حسن التوصل إلى صناعة الترسل ، مصر ١٣١٥/١٨٩٧ .

الشوار بى، مصادرنا فارسية فى التاريخ الإسلامى ، مستخرج من مجلة كلية الآداب، جامعة عين شمس ، المجلد ٧ ، ١٩٤٢ .

الشيال (جمال الدين)، الروك الناصرى ، مجلة الثقافة ، العدد٩٩، نوفمبر ١٩٤٠ .
، الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، مقال فى كتاب غرفة الإسكندرية التجارية ، ١٩٤٩ .

، تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، بيروت ١٩٦٤ .
، تاريخ مصر الإسلامية، الجزء الثانى العصران الأيوبى والمملوكى، دار المعارف ١٩٦٧ .

الشيخ زين الدين ، تحفـــة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين ، ط لشبونه .

الصابونى ، تاريخ حماة ، ١٣٣٢ هـ .

صالح بن يحيى (القرن التاسع الهجرى)، الأمير ، تاريخ بيروت ، تحقيق شيخو ، بيروت ١٩٠٢ .

صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، مجلة المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٥٢ .

الصفدى (ت ٧٦٤/١٣٦٣)، الدمشقى ،الوافى بالوفيات ، حقق منه أربعة أجزاء Dedering و Ritter، ١٩٣١ — ١٩٥٩ .
، تاريخ الفيوم ، القاهرة ١٧٩٨ .

صلاح بحيرى ، نحو منهج تحليلى وإنسانى فى دراسة الأركولجيا ، المجلة العربية ، للعلوم الإنسانية ، عدد ٤ ، المجلد الأول ، القاهرة ١٩٨١ .

ابن الصيرفى (ت ٩٠٠/١٤٩٥) ، على بن داود ، إنباء الهصر فى أنباء العصر ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ .

، نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشى، فى ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٧٠ ١٩٧٣ .

طافور ، رحلة طافور ، فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى ، ترجمة من الإنجليزية
وتقديم حسن حبشى ، دار المعارف ١٩٦٨ .

الطاهر أحمد مكى ، معاهدة تجارية فى القرن الخامس عشر بين سلطان مصر وملك
أرغون ، مجلة المجلة ، ٤٩ ، ١٩٦١ .

طرخان (إبراهيم) ، الإقطاع الإسلامى ، فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات
التاريخية ، العدد ٦ ، مصر ١٩٥٧ .

، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠ .

، النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، القاهرة
١٩٦٨ .

ابن طولون الدمشقى (ت ٩٥٣/١٥٤٦) ، شمس الدين ، مفاكهة الخلان فى
حوادث الزمان ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٤ ، الجزء
الأول ، وله ترجمة جزئية من Hartmann ، ١٩٢٦ .

، أعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق والشام الكبرى
تحقيق حامد ، القاهرة ١٩٧٧ .

، القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية ، تحقيق دهمان ، ط ٢ ، ١٩٨١ .

وابن جمعة ، حكام دمشق ، له ترجمة بعنوان :

Les gouverneurs de Damas
sous les Mamlouks et les premiers Ottomans.
Trad. Laoust. Damas, 1951.

طه بدر ، مغول إيران بين المسيحية والإسلام ، القاهرة

، محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدى
المغول ، القاهرة ١٩٤٦ .

ابن ظهيرة ، (القرن ٩ / ١٦ م) ، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ،
نشر السقا وكامل المهندس ، القاهرة ١٩٦٩ .

عبد الرازق السمرقندى (ت ٨٨٧/١٤٨٢) ، مطلع السعدين أو مجمع البحرين ، (فارسى) حققة Shafi ، ١٩٥٠ ، وله ترجمة فرنسية لبعضه من Quatremère

عبد الله حسين ، السودان القديم والحديث ، القاهرة ١٩٥٣ .

عبدالله بن فضل الله (ت ٧٢٨/١٣٢٧) ، الشيرازى ، تجزية الأمصار وتزجية الأعصار ؛ المعروف : تاريخ وصاف الحضرة ؛ نشر وترجمة Demaisons ، عيا ـ ١٢٦٩ هـ ، وترجم أجزاء منه Hammer ، فى ١٨٥٦ ،

عبد الرحمن زكى ، السلاح فى الإسلام ، ١٩٥١ .

، السيف فى العالم الإسلامى ، القاهرة ١٩٥٧ .

، الإسلام فى السودان الغربى ، المجلة ، يناير ١٩٦١ ، ص ٥٠ـ٥٥ .

، الإسلام والمسلمون فى أفريقيا ، القاهرة ١٩٧٠ .

، تاريخ انتشار الإسلام فى غرب إفريقيا ، ١٣٩٥/١٩٧٥

، ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية ، ابن إياس دراسات وبحوث ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٩٧ وما بعدها .

، تراث مصر فى الحضارة الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٩ .

، معارك حاسمة فى تاريخ مصر الإسلامية ، فى جزءين ، القاهرة .

عبد الرحمن فهمى ، موسوعة السكة الإسلامية ، مطبوعات المتحف الإسلامى .

عبد الرحمن : الشهير بناظر الجيش (ت ٧٨٦/١٣٨٤) ، تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف ؛ تحقيق vesly ، ١٩٨٧ (المعهد الفرنسى بالقاهرة)

عبد القادر الجزرى ، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، القاهرة ١٣٨٤ م .

العيدروسى ، النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، تحقيق محمد رشيد الصفار ؛ بغداد ١٣٥٣ / ١٩٣٤ .

ابن عبد الظاهر ، عبد الله الكاتب ، الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية ، نشر وترجمة Moberg ، ط . Leipzig ، ١٩٠٢ .

ابن عبدالظاهر (ت ٦٩٢/١٢٩٢) ، محى الدين ، السلطان الملك الأشرف خليل ، القاهرة ١٣٥٣/١٩٣٤ .

، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، أو سيرة الظاهر بيبرس البندقداري ، تحقيق عبد العزيز الخويطر (رسالة دكتوراه) ، الرياض ١٩٦٠ ؛ وترجمة مقتبسة لحياته من سيدة فاطمة صادق ، بعنوان : Babyars I of Egypt, 1956.

، تشريف الأيام والعصور ؛ في سيرة الملك المنصور (قلاوون) . تحقيق مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١ (في سلسلة تراثنا) .

عبد العزيز الأهواني ، سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة ، في القرن التاسع الهجري ، ٨٤٤ هـ ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد ١٦ ، ٢١ مايو ١٩٥٤ ، ص ٩٠ ومابعدها .

عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ؛ دولة إسلامية مفترى عليها ، في ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٨٠ .

عبد اللطيف إبراهيم علي ، دراسة تاريخية وأثرية في وثائق الغوري ، (رسالة دكتوراه) ، بجامعة القاهرة ١٩٥٦ .

، وثيقة الأمير آخور ، مجلة كلية الآداب ، ١٨ ديسمبر ١٩٥٦ .

، تعليق على وثيقة السلطان قايت باى ، القاهرة ١٩٦١ .

، المكتبة المملوكية ، القاهرة ١٩٦٢ .

عبد اللطيف البغدادي (٦٢٩/١٢٣١ — ٢) موفق الدين ، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، القاهرة ١٢٨٦/١٨٧٠ ، وترجمة من De Sacy :
Relation de l'Egypte par 'Abd al-Latif. Paris, 1810.

، التحفة السنية في أسماء البلاد المصرية ، تحقيق Moritz ، القاهرة ١٨٩٨ .

عبد اللطيف حمزة ، القلقشنـــدى فى كتاب صبح الأعشى ، عرض وتحليـــل ، القاهرة ١٩٦٢ .

، الحركة العسكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، ط ٨ ، القاهرة ١٩٦٨ .

عبد المعطى الصياد (فؤاد) ، المغول فى التاريخ من جنكيزخان إلى هولاكوخان ، القاهرة ١٩٦٠ .

، المغول فى التاريخ ، المكتبة التاريخية ، القاهرة .

، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ، القاهرة ١٩٦٧ .

، السلطان محمود غازان خان ، ١٩٧٩ .

عبد المنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٦٦ .

، موقف المصريين من حكم المماليك الوسطى ، فصلة من حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، العدد ١٢ ، ١٩٦٩ ، ص ٤٩ وما بعدها .

، التعبيرات الحضارية عند ابن إياس ، ندوة ابن إياس ، دراسات وبحوث ، ١٩٧٣ .

، عصر السيوطى ، ندوة السيوطى ١٩٧٦ ، نشر فى كتاب خاص بهذه المناسبة .

، منهجية محمد بن عبدالرحمن السخاوى فى كتابه التاريخ ، ندوة السخاوى ١٩٧٦ ، نشر فى كتاب خاص بهذه المناسبة .

، البارود وأثره فى تغيير ميزان القوى فى الشرق الأوسط فى القرن السادس عشر الميلادى ، ندوة التغيير الحضارى لمنطقة الشرق الأوسط فى العصر الحديث ، ١١ — ١٤ ديسمبر ١٩٧٦ ، نشر فى كتاب خاص ١٩٧٧ .

،روابط الإيمان بين مصر وأفريقيا، بحث نشر بمجلة المؤرخ العربي، ٤، ١٩٧٧.

، أضواء جديدة على موقعة عين جالوت ؛ بحث ألقى فى الجمعية التاريخية المصرية ، ونشر فى كتاب موسم الجمعية المصرية الثقافى لعام ١٩٧٧ .

، طومان باى آخر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٨ .

، العمران ، نظرية لابن خلدون فى تفسير التاريخ ، بحث ألقى فى ندوة الحضارة بمناسبة مرور عام على وفاة المرحوم أحمد فكرى ونشر مع أبحاث أخرى فى كتاب خاص ، طبع الاسكندرية .

،علاقة مصر التجارية بالبندقية فى وثائق أرشيفها؛ محاضرة ألقيت فى الجمعية المصرية التاريخية عام ١٩٨٠ ،ونشر بغداد .

،نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، فى جزءين ،ط٢، ١٩٧٩ — ١٩٨٢ .

،الأطلس التاريخى للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى، ط ٣ ، القاهرة ١٩٨٦ .

، الناصر صلاح الدين، الطبعة الثانية بيروت ١٩٥٨ ، وله طبعة شعبية (ط ثالثة) ١٩٨٧ .

، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى . ط ٥ ، القاهرة ١٩٨٧ .

ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، تحقيق صالحانى ، بيروت ١٨٩٠ .

ابن عربشاه الدمشقى (ت ٨٥٤/١٤٥٠) ، شهاب الدين ، عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، القاهرة ١٢٨٥هـ/١٩٧٩م وله ترجمة إنجليزية وفرنسية.

عزام (عبد الرحمن) ، مجالس الغورى ، مصر ١٣٦٠/١٩٤١ .

العزاوى ، تاريخ العراق بين إحتلالين .

١ — حكومة المغول ، بغداد ١٣٥٣/١٩٣٥ .

٢ — الحكومة الجلائرية ، بغداد ١٣٥٤/١٩٣٦ .

٣ — الحكومة التركمانية من ٧١٤-٩٤١ه، بغداد ١٣٥٧/١٩٣٩.

عطا ملك الجويني (ت ١٢٨٢/٦٨١) تاريخي جهانكشاي، حققه ميرزا محمد، في ٣ أجزاء، في ١٩١٢، ١٩١٦، ١٩٣٧، وله ترجمة عربية، القاهرة ١٩٥٣.

عطية القوصي، أضواء جديدة على تجارة الكارم، المجلة التاريخية المصرية، ١٩٧٥، ص ١٧ ومابعدها.

، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة ١٩٧٦.

على إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ١٩٤٨.

، مصر في العصور الوسطى، ط ٢، مصر ١٩٤٩.

على بن حسين السليماني، العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٣.

على باشا مبارك، نخبة الفكر في تدبير نيل مصر، القاهرة ١٢٩٧ ه.

، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، في ٢٠ جزءاً، بولاق ١٣٠٥ ه.

على يزدي (ت ٨٢٨ / ١٤٢٥) شرف الدين، ظفر نامه (فارسي)، طهران ١٣٧٧ / ١٩٥٧، وله ترجمة إنجليزية.

ابن العماد الحنبلي (١٠٨٩/١٦٧٨)، أبو الفلاح، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، من أجزاء ١ — ٨، القاهرة ١٩٣١ - ١٩٣٣.

العمري (ت٧٤٩/١٣٤٩)، أحمد بن فضل الله. كتاب التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة ١٣١٢/١٨٩٤.

، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الأول، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة ١٣٤٣/١٩٢٤؛ القسم الخاص باليمن، تحقيق أيمن

فؤاد السيد ، القاهرة ١٩٧٤ ، وله دراسة من Quatremère ؛ فى
Notices et extraits de manuscrits de la :
Bibliothèque du Roi, XIII, 1838

؛ وترجمة ألمانية من Hartmann ، بعنوان :
Politische Geographie des Mamlukenreiches.
فى Z D M G, LVX, 1916

؛ ومن Taeschner ، بعنوان :
Al-'Umaîrs Bericht über Anatolien, Leipzig, 1929.

؛ ومن Gaud-Dem : بعنوان :
L'Afrique moins l'Egypte, Paris, 1927.

عنان ، مصر الإسلامية ، وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ١٩٣١ .

، مؤرخو مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٩ .

، ابن إياس ، والفتح العثمانى لمصر ، ابن إياس دراسات وبحوث ، القاهرة ١٩٧٧ ص ١٣٧ وما بعدها .

العينى (ت ٨٥٤/١٤٥١) ، بدر الدين ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر ، تحقيق Hans Ernst ، القاهرة ١٦٩٢ .

، سيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، تحقيق محمد فهيم شلتوت ، القاهرة ١٩٦٧ .

فاروق عمر ومحسن حسين ، تاريخ العرب فى العصور الإسلامية الوسطى ، بغداد ١٩٨٥ .

، تاريخ فلسطين فى العصور الإسلامية الوسطى ، بغداد ١٩٨٧ .

فايد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، القاهرة ١٩٧٦ .

ابن الفرات (ت ٨٠٩/١٤٠٦) ، ناصر الدين ، تاريخ الدول والملوك ، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، ٧، ٨، ٩ ، بيروت ١٩٣٦ — ١٩٤٢ ، والجزء الرابع ، تحقيق محمد الشماع ، البصرة ١٩٦٧ .

فايز نجيب إسكندر ، مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى
(رسالة دكتوراه) ، جامعة الإسكندرية .

ابن أبي الفضائل (ت ١٣٥٨/٧٦٠) ، مفضل ، النهج السديد والدر الفريد فيما
بعد تاريخ ابن العميد ، نص عربي تحقيق وترجمة Blochet
(في P.O.) ، أجـــزاء ١٢ ، ١٤ ، ٢٠ ، ط . Paris ،
١٩١٩ – ١٩٢٨ .

فهرست الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة ، المساجد ، ١٩٥١ .

ابن الفوطي (ت ١٣٢٣/٧٢٣) ، كمال الدين ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة
في المائة السابعة ، نشر محمد رضا الشبيبي ، بغداد ١٩٣٢/١٣٥١ .

فيشيل ، لقاءات ابن خلدون لتيمور لنك ، ترجمة محمد توفيق ، بيروت ١٩٥١ .

فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ترجمة مصطفى العبادي ، بيروت ؛

، المواصلات في مصر في العصور الوسطى ، ترجمة محمد وهبي ،
القاهرة ١٩٣٧ .

قاسم عبده ، أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى ، دار المعارف ١٩٧٧ .

، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ١٩٧٨ .

، أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك ، القاهره ١٩٧٨ .

، دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي في عصر سلاطين المماليك ،
دار المعارف ١٩٧٩ .

، علاقات مصر بعالم البحر الأحمر في عصر الجراكسة ، سمنار قسم
التاريخ ، البحر الأحمر ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ١٢٥ ومابعدها .

، الشعر والتاريخ ، دراسة تطبيقية على شعر الحركة الصليبية ،
المجلة التاريخية ، ٢٨ و ٢٩ ، ١٩٨١ – ٨٢ .

قانوننامه آل عثمان ، استانبول ١٣٣٠هـ .

قداح ، نعيم ، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام ، دمشق ١٩٦٣ .

القرماني (ت ١٠١٩/١٦١٠) أبو العباس ، أخبار الدول وآثـار الأول ، القاهرة ١٢٩٦ هـ .

القلقشندي (ت ٨٢١/١٤١٨) ، أبو العباس ، ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر (مختصرة لصبح الأعشى) ، القاهرة ١٣١٤/١٨٩٦ ، وطبعة ثانية ١٣٢٤/١٩٠٦ .

، صبح الأعشى ، نشر في ١٤ جزءاً ، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩ ؛ وله طبعة ثانيه — أعتمد عليها — وله ترجمة لبعضه من Wust ، بعنوان : Calcaschandi's Geographie und Verwaltung von Aegypten. AGG, XXV, 1879

، وله بعض الترجمة من Björkamnn في : Beiträge, 1928 .

، أثر الأنافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار فراج ، في ثلاثة أجزاء ، الكويت .

، نهاية الأرب في معرفة إنساب العرب ، تحقيق الابياري ١٩٦٣ ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٨٠ .

، قلائد الجمان في التعريب بقبائل الزمان ، تحقيق الأبياري ، القاهرة ١٩٦٣ .

كازانوفا ، تاريخ وصفة قلعة القاهرة ، ترجمـة دراج ، ومراجعـة محرز ، القاهرة ١٩٧١ .

الكتبي (ت ٧٦٤/١٣٦٣) ، ابن شاكر ، فوات الوفيات ، ط بولاق ١٨٨١ م ، وتحقيق عبد الحميد ، في جزءين ، ١٩٥١ .

ابن كثير (ت ٧٧٤/١٣٧٣) عماد الدين ، البداية والنهاية في التاريخ ، في ١٤ جزءاً ، القاهرة ١٩٣٢ — ١٩٣٩ ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٣٣ — ١٩٥١ .

كعت (ت ١٠٠٢هـ/١٥٩٣م) ، محمود ، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر

الناس ، تحقيق Houdas و Delafosse ، ط ١ Paris ،
١٩١٣ — ١٩١٤ .

كمال الدين بن العديم (ت ٦٦٢/١٢٦٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق
سامي الدهان ، دمشق ١٩٥١ .

كولتون ، عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ترجمة وتعليق جوزيف نسيم ،
القاهرة ١٩٦١ .

ليلى صباغ ، المجتمع السورى فى مطلع العهد العثمانى ، دمشق ١٩٧٣ .

مجموعة أبحاث المؤرخ ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف ٨١٣ —
٨٧٤ ، القاهرة ١٩٧٤ .

مجموعة وثائق دير سانت كاترين ، النسخة العلميه الموجودة بالمجلس الأعلى لرعاية
الفنون والآداب ، حقق خمسة أجزاء محمد مصطفى ، ط ٢ ، ١٩٦١
— ١٩٦٣ .

مجهول ، تاريخ سلاطين المماليك ، تحقيق Zetterstéen ، ط . Paris ، ١٩١٩ .

مجهول ، تاريخ آل عثمان ، تحقيق Giese ، ط . Perslau ، ١٩٢٢ .

محمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربى ، ١٩٧٧ .

محمد أمين صالح ، التنظيمات الحكومية لتجارة مصر فى عصر المماليك الجراكسة ،
رسالة دكتوراة بجامعة عين شمس ، ١٩٧٠ .

محمد حرب ، دفاع عن السلطان ، محمد الفاتح ، العربى ، عدد ٢٥٠ ، ص ١٠٢
وما بعدها .

محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى ، الكويت ١٩٨١ .

محمد السيد الراقد ، الغزو العثمانى ونتائجه على الوطن العربى ، الإسكندرية ١٩٧٣ .

محمد عبد الستار عثمان ، وثيقة وقف جمال الدين يوسف الاستادار ، دراسة تاريخية
أثرية وثائقية ، دار المعارف ١٩٨٣ .

، المراسيم الحجرية من وسائل الإعلام في العصر المملوكي، مستخرج من مجلة كلية الآداب والبحوث والدراسات الإنسانية لسوهاج، العدد الثالث ، ١٩٨٣ ، ص ١٥٧ - ١٨٦ .

، أخميم في العصرين القبطي والإسلامي ، دراسة أثرية تاريخية ، الإسكندرية ١٩٨٣ .

محمد عبد العال ، أضواء جديدة على « ملاح » فاسكودي جاما ، مستخرج من مجلة الدراسات الإفريقية ، العدد الخامس، ١٩٧٦ ، ص ١٥٣ ومابعدها .

محمد عوض محمد ، السودان الشمالي ، مكانه ، قبائله ، مصر ١٩٥١ .

محمد فريد، تاريخ الدولة العلية ، ط ٢ ، القاهرة ١٨٩٦ .

محمد فؤاد كبريلي، قيام الدولة العثمانيه ، ترجمة أحمد السعيد ، القاهرة ١٩٦٧ .

محمد كامل حسين ، بين التشيع وأدب الصوفية ، في عصر الأيوبيين والمماليك ، فصلة من مجلة كلية الآداب ، الجزء الثاني ، المجلد السادس عشر ، ديسمبر ١٩٥٤ ، القاهرة ١٩٥٥ .

، طائفة الإسماعيلية، تاريخها ، نظمها، عقائدها ، القاهرة ١٩٥٩.

محمد ماهر حماده ، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة، السلسلة ٣ ، بيروت ١٣٠٦/١٩٧٨ .

محمد متولي بدر ، اللغة النوبية ، القاهرة ١٩٥٨ .

محمد محمد أمين ، تاريخ الأوقاف في مصر ، عصر سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراه ، ١٩٧٢ .

، العبد لاب وسقوط مملكة علوة ، معهد الدراسات والبحوث الافريقية ، العدد الثاني ، ١٩٧٣ ، ص ١٩١ ومابعدها .

، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ٦٤٨–٩٢٣/ ١٢٥٠–١٥١٧، دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة ١٩٨٠.

، فهرست وثائق القاهرة، حتى نهاية عصر سلاطين المماليك ٢٣٩ – ٩٢٢/٨٥٣ – ١٥١٦ (مطبوعات المعهد الفرنسى) القاهرة ١٩٨١، ص ٣٦٥–٣٨٣.

، منشور بمنح إقطاع من عصر السلطان الغورى، المجلة التاريخية المصرية، ٢٨و٢٩، ١٩٨١ – ١٩٨٢.

، وثائق وقف الملك الناصر حسن بن قلاوون على مصالح القبة، والمسجد الجامع والمدرسة ومكتب السبيل بالقاهرة، القاهرة ١٩٨٦.

، وثائق من عصر سلاطين المماليك، دراسة ونشر وتحقيق تسعة نماذج متنوعة، منشور بمنح إقطاع من عصر السلطان الغورى فى Ann. Islamo, t. XIX, Le Caire, 1987

محمود السادات، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم.

محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، ١٩٤٧.

محمود نديم فهيم، الفن الحربى المملوكى، القاهرة ١٩٨٣.

مصطفى زياده، غزوة المماليك لقبرس، مجلة كلية الآداب، الجزء الأول، ١٩٣٣، ص ٩٠ — ١١٣.

، مصر والحروب الصليبية، محاضرة ألقيت بنادى الاتحاد الإنجليزى المصرى، القاهرة ١٩٤٢.

، بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر، مجلة كلية الآداب، ٤، الجزء الأول، مايو ١٩٣٦.

، نهاية سلاطين المماليك، مجلة الجمعية المصرية ١٩٥١.

، المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى، القاهرة ١٩٤٥.

، حملة لويس التاسع فى مصر وهزيمته فى المنصورة، القاهرة ١٩٦١.

مصطفى محمد مسعد، ممالك النوبة المسيحية، اضمحلالهـا وسقوطهـا، رسالة دكتوراه، ١٩٥٥.

، البجة والعرب فى العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٥٩.

، لإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ؛ بحث فى تاريخ السودان
وحضارتها حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي، القاهرة ١٩٦٠.

المقريزى (ت ٨٤٥/١٤٤٢) ، تقى الدين، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزءين
١و٢ (٦ أقسام) ، تحقيق مصطفى زيادة ١٩٣٤، ١٩٥٨،
والجزءين ٣و٤ ، تحقيق سعيد عاشور، ١٩٧٠ — ١٩٧٣؛ وترجمة،
بعضه من Quatremère بعنوان :
Histoire des Sultans Mamelouks de l'Egypte
فى جزءين ، ط . Paris ، ١٨٣٧ — ١٨٤٥ ، ومن
Blochet ، ط . Paris ، ١٩٠٨ .

، الخطط المقريزية ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ،
فى جزءين . بولاق ١٨٥٣/١٢٧٠ ، وفى ٤ أجزاء ، ١٣٢٤ هـ ،
وترجمة بعضه من Wiet ، ط. Paris ، ١٩١١ ، ١٩١٣ ،
١٩٢٢ ، ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، فى MIFAO ، ومن :
Wusl, Griveau, Cassanova, Bouriant

، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، القاهرة ١٩٨٥

، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الاعراب، تحقيق Wust ،
ط . Gottingen ، ١٨٧٤ ، وتحقيق عبد المجيد عابدين ،
القاهرة ١٩٧١ .

، شذور العقود فى ذكر النقود ، نشر الكرملي فى النقود العربية
وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ ، ونشر وترجمة Mayer ، ط.
London ، ١٩٣٣ .

، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشر زيادة والشيال ، ١٩٤٠ ، ط ٢ ،
القاهرة ١٩٥٧ .

معهد المخطوطات العربية ، أخبار التراث العربي ، الكويت .

ميرخواند ، (ت ٩٠٣/١٤٩٨) ، محمد بن أمير خاوند شاه ، روضة الصفاء وسيرة الأنبياء والخلفاء (بالفارسية) ، نشر فى ٥ أجزاء ، ط . London ، ١٨٩١-١٨٩٤ ، و ترجمة لبعضه بالإنجليزية .

ناجلا على ، العلاقات بين البندقية ومصر فى عصر دولة المماليك رسالة ماجستير ١٩٧٩ .

ابن نظيف (معاصر للأيوبيين) ، التاريخ المنصورى ، تحقيق أبو العيد دودو ، دمشق ١٩٨٢ .

النهروالى ، قطب الدين ، الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ط . Leipzig ١٨٥٧ .

، غزوات الجراكسة والأتراك فى جنوب الجزيره ، المسمى البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، الرياض .

نبيل محمد ، الحمام الزاجل وأهميته فى عصر سلاطين المماليك ، المجلة التاريخية المصرية ١٩٧٥ .

نعوم شقير ، جغرافية وتاريخ السودان ، فى ٣ أجزاء ، بيروت ١٩٥٧ .

نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣ .

الهباهبة ، الشوبك فى التاريخ والوجدان الشعبى ، عمان ١٩٨٤ .

هريدى ، فهرست تحليلى لكتابى ابن دقماق والمقريزى عن مصر : كتاب الانتصار والخطط ، فى جزءين ، ط . المعهد الفرنسى ١٩٥٣ .

ابن واصل الحموى (ت ٦٩٧/١٢٩٨) جمال الدين ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ١ — ٣ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٦٠ ، ج ٤ — ٥ ، تحقيق حسنين ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ .

وليم ميور ، تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، ١٩٢٤ .

ياقوت ، معجم البلدان ، فی ٧ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٣/١٩٠٦ .

يحيى بن الحسن ، غاية الأمانى فى أخبار القصر اليمانى ، تحقيق عاشور، فى جزءين
دار الكتب ١٩٦٨ .

يوسف درويش غوانمه ، نيابة بيت المقدس فى العصر المملوكى، أربد، الاردن ١٩٨٤ .

يوسف فيصل ، المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان ، المجلة التاريخية
المصرية ، المجلد ١٣ ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٠٣ وما بعدها .

يونس ، خيال الظل ، المكتبة الثقافية ، عدد ١٣٨ ، أغسطس ١٩٦٥ .

(د) الكتب الافرنجية

Abdel Rahman Zaki : Military literature of the Arabs. Cahiers d'histoire égyptienne. Série VII, Fasc 3, Juin 1955, p. 149 sqq.

Abulgasi : Histoire Généologique des Tatars. Leyde, 1726.

Agha Mahdi Husain : Tughluq Dynasty. Calcutta, 1963.

Ahmad Abd ar-Râziq : La Femme au temps des Mamlûks en Egypte. Le Caire, 1973.

: La hisba et le Muhtasib au temps des Mamlûks en Egypte. Ann. Islamo, t. XII, 1977, pp. 115-178.

: Le vizirat et les vizirs d'Egypte au temps des Mamlûks. Ext. des Ann. Islamo, t. XVI, 1980, pp. 183 sqq.

Alî Ibrahîm Layla : Mamlûk Monumnts of Cairo. Quaderni dell'Instituto Italiano di Cultura per R.A.E., 1970.

Alix (A.L.F.) : Précis de l'histoire de l'Empire Ottoman, depuis; son origine jusqu'à nos jours. 3 vols. Paris, 1822-4.

Amar (Emile) : La 'valeur' historique de l'ouvrage biographique Intitulé al-Manhal as-Sâfî. Mélanges, Hartwig Derenbourg. Paris, 1909, pp. 245-554.

Amari : Diplomi arabi del R. Archivio. Fiorentino. Florence, 1863.

Annales Islamologiques (Inst. Franç. d'Arch. Or.) Le Caire.

Archives de l'Orient Latin, publié par la Société de l'Orient Latin, 2 vols. Paris, 1881 et 1884.

Archivio di Stato de Venezia : Patti; Commemoriali; Misti (Secreta), 'Albus, Blancus, Libri pactorum, Regesti Bombaci.

Arends (K) : Sbornik Letopisei III. Moscow; Leningrad, 1946.

ترجمة لكتاب : تاريخى مبارك غازانى : لرشيد الدين .

Artin Pacha : Contribution à l'Etude du Blason en Orient. London, 1902.

Ashikpâshâzâde : Le varîk al-i-Osman. Istanbul; 1332/1914. n. éd. Nihal-Atsiz. Istanbul, 1949.

Ashtor (Eliyahu) : The Karimi Merchants. J.A.R.S. Aril, 1956,
: Some unpublished sources for the Bahri Period. Jerusalem, 1961.

Ashtor-Strauss : Prix et salaires à l'époque mamlouk R.E. I, XV, 1949.
: The social Islolation of the Ahl al-Dhimma, 1950.

Ayalon : The Circassians in the Mamlûk Kingdom. J.A.O.S. LXIX, 1949, pp. 135-147.
: L'esclavage du Mamlûk : in Oriental Notes and Studies in Israel Oriental Society, 1951.
: Le régiment Bahriyya. R.E.I. 1952, p. 133 sqq.
: Studies on the Structure of the Mamluk Army. B.S. O.A.S. of the XV/2 (1953), pp. 203-228; XV/3 (1953), pp. 448-476; XVI/1 (1954), pp. 57-90.
: Gunpowder and Fire-arms in the Mamluk Kingdom. London, 1956.
: History of the Jews in Egypt and Syria under the rule of the Mamlûk. Geniza documents. Jerusalem, 1970.
: The Great Yasa of Chingiz Khan. Stvdia. Isl., XXXVI, 1972, pp. 113-158; XXXVII, 1973, pp. 107-156.

Attiya A.S. : Crusade, commerce and Culture. London, 1962.

Babinger : Suleyman der Grosse. 2 vols. Stuttgart, 1922.

Bahgat Aly Bey : Un décret de Sultan Kachqadam B.I.E. 5ème sér.; 1911, p. 30-35.

Baron de Delabre : Rhodes of the Knights. Oxford, 1956.

Barthold : Four Studies on the History of Central Asia. Trad. Minorsky. Leyde, 1956.

Bernard Lewis : Naval power and Trade in the Mediterranean. Princeton, 1951.

: Egypt and Syria in the Cambridge History of Islam. vol. I, Cambridge, 1970, p. 175 sqq.

Bertrandon de la Broquière : Le voyage d'outremer; ed. Schefer, 1892.

Aubin : Notes sur quelques documents Aq-Qoyunlus. Mélanges Massignon, t. 1956.

: Etudes safavides I. Shâh Ismâ'îl et les notables de l'Iraq persan J.E.S.H.O, II, 1959.

Björkmann : Beiträge zur Geschichte der Staatskanzlei im Islamischen Aegypten. Hamburg, 1928, IV, 272 sqq.

Blachère : Quelques réflexions sur les formes de l'Encyclopédisme en Egypte et en Syrie du VIIIème / XIVème siècle. à la fin du IX/XVème siècle. Damas, 1970.

Bloch : Le problème de l'or au Moyen Age. Ann. d'Hist. Econ. et Sociale IV, 1933.

Blochet : Catalogue des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale. Vol. 4; Paris, 1925.

Bosworth : Christian and Jewish religion dignitaries in Mamluk Egypt and Syria. J. of Middle East Studies. Vol. 3, January, 1970.

Boulager : The Mongols and the Court of Kublai Khan (Universal Histoy of the World), vol. 5, pp. 2847-2880.

: Vie de Saint Lewis. Paris, 1929.

Bouvat : L'Empire Mongol, 2ème partie, t. VII/3, de l'Histoire du Monde, Publ. sous Caivaignac. Paris, 1927.

Boyles : The death of the last 'Abbasid Caliph; a contemporary muslim account in J.S.S., VI/2 (1961), p. 145-61.

Bréhier : Vie et Mort de Byzance. Paris, 1969.

Briggs : Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine. Oxford, 1924.

Brockelmann : Histoire des Peuples et des Etats islamiques. Trad. Franç. Paris, 1949. (وله ترجمة عربية)

Browne (Ed.) : A History of Persian Literature under Tatar Dominions. Cambridge, 1920.

Browne (Laurence) : The Eclipse of Christianity in Asia. Cambridge, 1933.

Bulliet : Conversion to Islam in Medieval Period, 1949.

Butcher : The Story of the Church of Egypt. 2 vols. London, 1892.

Cahen (Claude) : Les Chroniques arabes concernant la Syrie, l'Egypte et la Mésopatamie de la conquête arabe à la conquête ottomane dans les Bibliothèques d'Istanbul. R.E.I., IV, 1936, p. 333-362.

: L'Histoire économique et sociale de l'Orient musulman médiéval. S.I., t. 3, 1955, p. 93-115.

L'Evolution de l'Iqta' du IXème au XIIIème siècle. : Contribution à une histoire comparés des sociétés médiévales. Extrait. Annales, économiques. Economies - Sociétés - Civilisations. Paris, 1953.

: Douanes et commerce dans les ports Méditerranéeans. Arabica 7, 1964.

Cahen and Serjeant : A fiscal Survey of the Medieval Yemen, Arabica, IV, 1957.

Cahun : Gengis-Khan et l'Empire Mongol (Lavisse et Rambaud: Histoire Générale), t. II. Paris, 1893, pp. 917-953.

: Introduction à l'Histoire de l'Asie Turcs et Mongols. Des Origines à 1405. Paris, 1896.

Canard (Marius) : Le traité de 1281 entre Michel Paléologue et le Sultan Qalâ'ûn; in Byzantion, X, 1935, pp. 669-680.

: Un traité entre Byzance et l'Egypte, XIIIème siècle et les relations diplomatiques de Michel VIII Paléologue avec les sultans mamlûks Baibars et Qalâ'ûn ; in Mélange Gaud-Dem., Le Caire, 1937, pp. 197-224.

: Une lettre du Sultan Malik Nâsir Hassan à Jean VI. Cautacuzène ; in Annales de l'Inst. d'Et. Or. Alger, t. III, 1937, pp. 27-52.

: Les relations entre les Mérinides et les Mamélouks, au XIVème siècle; in Ann. de l'Inst. d'Et. Or., V, Alger, 1939-41, pp. 41-48.

Casanova : Histoire et Description de la Citadelle du Caire (Mém. de la Miss. Arch. Franc. au Caire). T. VI. Paris, 1894-1897.

Ceasar Jaroslav et Vozar Jozof : Contact and Conflict between the Medieval Europe and the Orient (10th - 15th Centuries) ; in XIV International Congress of Historical Science. San Francisco, August 22-29, 1975, p. 1-16.

ترجمة من جوزيف نسيم بعنوان : نقاط التلاقى فىالصراع بين أوربا العصور الوسطى فى الشرق (القرن ١٠ ــ ١٥) ، نشير فى مجلة الفكر ، الكويت المجلد العاشر ، العدد الاول ، يونيه ١٩٧٩ .

Clerget : Le Caire. Etude de géographie urbane et d'histoire économique, vol. 2, Le Caire, 1939.

Cobhran : Excerpa Cypria. 2ed. Cambridge, 1908.

: Bibliography of Cyprus. 5éd., Cambridge, 1908.

Cerulli : Ethiopi in Palestine, 2 vols. 1943-1947.

Colin : Contribution à l'étude des relations diplomatiques entre les Musulmans d'Occident et l'Egypte au XVème siècle. Le Caire, 1935.

Combe : L'Egypte Ottomane de la Canquête par Sélim (1517) à l'arrivée de Bonaparte 1798.

: Alexandrine Musulmane: Le Caire, 1933.

: Les Sultans Mamelouks Ashraf Chaaban et Ghoury à Alexandrie. Bull. de la Soc. d'Arch. d'Alex., 1936.

: Le texte d'al-Nuairî sur l'attaque d'Alexandrie par Pierre 1er de Lusignan. Bull. of Fac. of Arts. Univ. of Alex., III, 1947.

Cook : Studies in the économic History of the Middle East. London, 1970.

Crawford : The Fung Kingdom of Sennar. Gloucester, 1951.

Creswell : The Muslim Architecture of Egypt. 2 vols. Oxford, 1952.

Curtin : The Mongols, History. Boston, 1908.

Czaplicka : The Turks of Central Asia in History and at the Present day. Oxford, 1918.

Darrag : L'acte de Waqf de Barsbay. Paris, 1955 (Thèse).

: L'Egypte sous le règne de Barbay. Damas, 1961.

: La vie d'Abu'l-Mahâsin ibn Tgri Birdî et son oeuvre. Ann. Islamo, XI, 1972, pp. 163-182.

De Gaurey Gerold : Rulers of Mecca. London, 1951.

Deguingas : Histoire générale des Huns, des Turcs, des Mongols et des autres Tartares occidentaux. 4 Tomes. Paris, 1756-8.

Delaville de Roulx : Cartulaire générale des Hospitaliers 1110-1316. Paris, 1894.

وله ترجمة انجليزية من (King .

: Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre. Paris, 1904.

De Mas-Latrie : Histoire de l'île de Chypre sous le règne des princes de la maison de Lusignan. 3 vols. Paris, 1852-61.

: Traité de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec des Arabes de l'Afrique Septentrionale au Moyen Age. Paris, 1866-1872. (trémpression. New York, 1963).

Depping : Histoire du commerce entre le Levant et l'Europe depuis les croisades jusqu'à la fondation des colonies d'Amérique t. I et II. Paris, 1830.

D'Ohsson : Histoire des Mongols depuis Tchinguiz-Khan jusqu'à Timour beg. 4 vols, 2éd., 1852.

Dölger : Der Vertrag Sultan Qalauns von Agypten mit dem Kaiser Michael VIII, Serta monacensia Franz Babinger, 1952.

Dols M.W. : The black death in the Middle East, 1976.

: Medieval Islamic Medecine. California, 1984.

Dopp : L'Egypte au commencement du 15ème siècle (D'après le Traité d'Emmanuel Pilegi de Crète) Le Caire, 1950.

: Le Caire vu par les Voyageurs Occidentaux au Moyen Age. Bull. Soc. Roy de Georg. d'Eg., XXII, 1950.

: Traité d'Emmanuel Piloti sur le passage en Terre Sainte (1420), Louvain, 1958.

Doris Abou Seif : Azbakiya and its environs from Azbak to Ismâ'îl. 1476-1879. Islamologique. Le Caire, 1985.

: Locations of non-Muslim Quarters in Medieval Cairo. Islamo, t. XXII, p. 117 sqq.

: Fath Allâh and Abû Zakariyya. Physicians under the Mamluks Cairo, 1987 Suppl. aux Ann. Islamo). Cahier no. I.

Douglas : The life of Jenghiz-Khan. Translated, from Chinese. London, 1977.

Encyclopedia Britannica (Genhiz-Khan).

Encyclopédia Italiana. (Marina; Venezia).

Encyclopedie de l'Islam; 1ed.; 2éd.

Fabri Félix (1483) : Les voyages en Egypte. 3 vols., Le Caire, 1975.

Fischel (Walter) : The origin of Banking in Medieval Islam. J.R.A.S. LIII, 1933.

: Uber die Guppe des Kârimi Kaufleute. Analecta Orientalia, XIV, 1937.

: Ibn Khaldun and Temerlane. Berkely and Los Angelos, 1952.

: The Spice Trade in Mamluk Egypt. A contribution to the économic History of Medieval Islam. vol. 1, 2, 3. Leiden, 1958.

Ferrand: Instructions nautiques et routiers arabes et portugais du XVème et XVI siècles, t. III (1921-1928).

Garcin : Un Centre Musulman de la Haute-Egypte Médievale. Qûs. I F.A.O., du Caire, t. VI, 1970.

Gaudefroy Demombynes : La Syrie à l'époque des Mamelouks ; d'après les auteurs arabes, 1923.

Gerald de Gaury : Rulers of Mecca. London, 1951.

Gibbons : Foundation of the Ottoman empire. Oxford, 1916.

Grenard : Gengis-Khan. Paris, 1935.

Goitein : New light on the Beginnings of the Karimi Merchants. J.E.S.H.O. I, 1958.

: The Unity of the Mediterranean World in the Middle Ages. S.I., XII 1960.

: Slaves and Slave Girls in the Cairo Geniza Records, Arabica, t. IX, année, 1962.

: Letters and Documents on the India Trade. Médieval Times. Isl. Cult. VI, 1963.

Grekov et Jakulovsky : La Horde d'Or.; Trad. Thueret. Paris, 1939.

Grousset : L'Epopée des Croisades. Paris, 1939.

: L'Empire des Steppes. Paris, 1939.

: L'Empire Mongol 1ère phase. Paris, 1941.

Guémard : Aventuriers mamelouks d'Egypte. s.d.

Guest et Richmond : Misr, in the Fifteenth Century. J.R.A.S., 1903, p. 791 suiv.

Guillaume de Machaut : La prise d'Alexandrie ou chronique du roi Pierre Ier de Lusignan, Publiée pour la première fois pour la Société de l'Orient Latin par de Mass Latrie. Genêve, 1872.

Guilley : Islam dans l'Afrique Occidentale. Paris, 1912.

Guirgos : Fragments relatifs aux Mongols J.A., 1858, p. 217-219.

Habashî (Hasan) : Historical studies on the manuscript of Ibn Hadjar-Inba' al-ghumur fî anbâ'al-Umr. Thesis presented to the School. Or. A. S. London, 1954-1955.

Habib and Nizâmi : The Delhi Sultante A.D. 1206-1520. New Delhi, 1970.

Harrmann (Ulrich) : Quellen Studien zur frünen Mamlukenzeit. Freiburg, Robishen, 1969.

Hasluch : Christianity and Islam under the Sultans. 2 vols. Oxford, 1929.

Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, 2 vols. Paris, 1932.

Hauser : Les débuts du Capitalisme. Paris, 1927.

Herz Bey : La Mosquée du Sultan Hassan. Le Caire, 1895.

Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen Âge. 2 vols. Trad. Furcy. Reynaud. Leipzig, 1923.

Hill : A History of Cyprus. vol. 3, 1940-1952.

Hinz : Quellenstudien zur Geschichte der Timuriden. Z.D.M.G., XC. n. 5, XV (1936).

Historiens Orientaux des Croisades. 5 tomes. Paris, 1872-1906.

Hogson (F.G.) Venice in the thirteenth and fourteenth centuries. London, 1910.

Holt : A Sudenese Historical Legend. The Fung Conquest of Saba. B.S. O.A.S. XXIII, 1960.

: The position and power of the Mamlûk Sultan. B.S.O.S., XXXVIII, Part 2, 1975.

: Qalâwun's treaty with Acre in 1283. The English Historical Review vol. XCI. n. 361, Oct. 1976, p. 802 sqq.

Howorth : History of the Mongols 5. vols. London, 1876-1927.

Inalcik K. : The Ottoman Empire. The Classical Age. 1300-1600. London, 1973.

Iorga : Notes et extraits pour servir à l'Histoire des Croisades au XVème siècle. Paris, 1899.

Jacobs : The Story of Geographical Discovery. London. S.D.

Jean David Weill : Catalogue général du Musée arabe du Caire. Les Bois à épigraphies jusqu'à l'époque Mamlouks. Le Caire, 1921.

Jean Richard : La conversion de Berke et le début de l'Islamisation de la Horde d'Or. R.E.I. 1967, p. 173 sqq.

J. Sourdel T. : Nouveaux documents sur l'histoire religieuse et société de Damas au Moyen âge. R.E.I., 1964, p. 1-25.

Joinville : Histoire de Saint Louis. Texte original de XIVème siècle; accompagné d'une Traduction en Français moderne par Natalis. Paris, 1874.

: Mémoire, ou histoire et chronique du très chrétien roi Saint Louis. Paris, 1881.

: Saint Louis. King of France. Translated by J. Hutton. 7 ed. London, 1910.

Jomier : Le Mahmal et la Caravane égyptienne des pèlerins de la Mecque, XIII - XXème siècle. Le Caire, 1953.

Kammerer : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie, aux XVIème et XVIIIème siècles, 3 Tomes Le Caire, 1929-1952.

: Les guerers du Poivre. Le Portugais dans l'Océan Indien et la Mer Rouge au XVIème. 2 vols. S.R.G. Le Caire, 1935.

Karl Menges : Rasidu'd-Dîn on China. J.A.O.S., Jan-March. 1975, p. 95 sqq.

Köprüli : Les origines de l'Empire Ottoman. Paris, 1935.

Lamb : Relations entre la Cour romaine et les Sultans mamelouks d'Egypte. R.O. Chrét., 1903, 101-116.

: Correspondances diplomatiques entre les Sultans Mamlouks d'Egypte et les puissancs chrétiennes. R.O.C., 1904.

: The Crusades (the flame of Islam) London, 1931.

: Genghis-Khan. Emperor of All Men. London, 1934.

: Tamerlan. New York, 1934.

Lambton : Early Timurid theories of State. B.E.O. TXXX, 1978, p. 1 sqq.

Lammens : Correspondances diplomatiques entre les Sultans Mamelouks d'Egypte et les puissances chrétiennes. R.O.C. Chrét., 1904.

Lane-Poole : The Coinage of Egypt. London, 1879.

: Arabian Society in the Middle Ags. London, 1883.

: Th art of th Saracens in Egypt. London, 1886.

: The story of Cairo. London, 1896.

(وله ترجمة عربية)

: History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.

: Mediaeval India under Mohammedan Rule. London, 1917.

: Turkey. London, 1922.

Lang : Cyprus. London, 1878.

Laoust : Essai sur les doctrines sociales et polotiques d'Ibn Taymiya, 1939.

: Ibn Katir Historien. Arabica 11/1, 1955.

: Le Hanbalisme sous les Mamlouks Bahrides. R.E.I. XXVIII, 1959, p. 1-62.

Lapidus : Muslim Cities in the Later Middle Ages. Cambridge, 1967; 2nd, 1984.

: The gain économy of Mamluk Egypt. J.E.S.H.O., XII, 1969.

Lauer : Correspondances diplomatiques entre les Sultans mam-

louks d'Egypte et les puissances chrétiennes Rev. de l'Or. Chrét. IX. Paris, 1964.

Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmannes. Egypte. Syrie, Paris, 1887-91.

Le Strange : Palestine under the Moslems London, 1890.

: The Lands of the Eastern Califate, Cambridge, 1905.

Letopisei po Lavrentievshoma Spislev. Ed. St. Petersbourg 1872.

Little : An Introduction to Mamluk historigraphy. Wiesbaden, 1970.

: Coptic conversion to Islam under the Bahri mamluks (1293-1354); in B.S.O.A.S. 32/2, 1976, p. 552-569.

Lobo : Relation historique d'Abyssinie. Paris, 1928.

Lodge : The Close of the Middle Ages. London, 1924.

Lopez de Meneses : Los Consulados Catalane de Alejandria y Damasco en el Pcinado de Pedro et Ceremoniosso VI, 1956.

Louis Gardet : La Cité musulmane. Vie Sociale et politique. Paris, 1954.

Longnon : Les Fançais d'outre-mer au Moyen âge. Essai sur l'expansion française dans le bassin de la Méditerranée. 2ed., 1929.

Lot (Ferdinand) : L'Art Militaire et les armées du Moyen âge en Europe et dans le Proche Orient. Paris, 1946.

Lucadei Sabelli : Storia di Abissinia. Rome, 1936-8.

Ludovico de Varthema (1510) : Les voyages... en la plus grande grande partie de l'Orient, traduit de l'Italien en Français par Balarin d Raconis; publié et annoté par Schefer. Paris, 1888.

Ludovico Karlus : Répertoire Chronologique d'Epigraphie arabe. TXVII, Le Caire, 1982.

Mac Michael : A History of the Arabs in the Sudan. 2 Vols. Cambridge, 1922; New York, 1967.

Malcolm : The History of Persia from the most Early Period to the Present Time. London, 1879.

Marcel Griaule : Les grands explorateurs. Paris, 1946.

Marino Sanuto : Diarrii (Journaux des Consulats) à l'époque des Mamlûks, Venise, 1897-1903.

Martin H. : The Mongol Army in J.R.A.S., 1943, pp. 53, sqq.

Massignon : L'influence de l'Islam au Moyen Age sur la fondation et l'essor des banques juives, B.E.O. I. 1931.

Mayer : Saracenic Heraldry, 2 vols, Oxford, 1933.

: Some problems of Mamlûk Coinage. London, 1936.

: New Material for Mamlûk Heraldry. Jerusalem, 1937.

: The Buildings of Qaytbay, 1938.

: The Status of the Jews under the Mamluks, 1938.

Mehrier : Cahira. Copenhague, 1869.

Michaud : Bibliothèque des Croisades. 3 vols. New York, 1881.

Michel : L'organisation financière de l'Egypte sous les Sultans Mamelûks; d'après Qalqachandî; in Bull. de l'Inst. d'Eg. t. VII. Session 1924-5. Le Caire, 1926.

Migeon : Manuel d'archéologie musulmane. 2 Tomes. Paris, 1907.

Mileham : Churches in Lower Nubia, 1910.

Minorsky : The Middle East in Western Politics in the 13th ;

14th and 15th Centuries. Reprinted from the J. of the Royal Central Asian Society, vol. XXVII, October, 1940.

: The Alân Capital Magas and the Mongol Campaigns. B.S.O.A.S., 1952, XIV/2, p. 221 sqq.

: The Aq-qoyunlu and Land Reforms. B.S.O.A.S., XVII, 1955.

: La Perse au XVème siècle ; in Orientalia Romenana I. Rome, 1958.

Montel : L'Empire de Mali. Paris, 1968.

Munier : Précis de l'histoire d'Egypte. Le Caire, 1932.

Nallino : Notes on the Nature of the Caliphate. Rome, 1814.

Nelly Hanna : An Urban History of Bûllâq; in the Mamluk and Ottoman Periods. Cairo, 1988.

Nève : Exposé des guerres de Tamerlan et de Shah-Rokh. Paris, 1860-1870.

Nicola Ziadeh : Urban life in Syria under the Early Mamluks, 1952.

Oman : A History of the Art of War in the Middle Ages. London, 1924.

Paul : A History of Bedja Tribes. Cambridge, 1954.

Pauty : Les palais et les maisons d'époque musulmane au Caire, 1933.

Pedre Martin : Una Embajada de Los Reyes Catolicos a Egipto. Traduccion de L. Garcia Valladolid 1947, pp. 70-80.

Pelliot : Les Mongols et la Papauté. Revue de l'Orient Chrétien 23/1922-1923; 24/1924; 28/1931-1933.

: La Haute Asie. Paris, 1931.

: Notes sur l'histoire de la Horde d'Or, 1950.

Perlmann : Notes on the Anti-Christian Propaganda in the Mamluk Empire. B.S.O.A.S. X, 1940-1942.

Pernoud : Les villes marchandes aux XIVème et XVème siècles. Paris ,1948.

Piloti : L'Egypte au commencement du XVème siècle. Le Caire, 1950.

Poliak : Les révoltes populaires en Egypte à l'époque des Mamelouks et leurs causes économiques. R.E.I., 1934, t. VIII, p. 251-273.

: Le caractère colonial de l'état mamelouk dans ses rapports avec la Horde d'Or. R.E.I., 1935, p. 331-248.

: Feudalism in Egypt; Syria; Palestine and the Lebanon (1250-1900) ; System of the Mamluks J.A.R.S. 1937, p. 97-107.

: Classification of Lands in the Islamic law; in American J. of Semitic Language, 1942.

Popper : Cairo Nilometer Studies in the Tghri Birdi' Chronicles of Egypt. California, 1951.

: Egypt and Syria under the Circassian Sultans. 1382-1468. California, 1955.

Prasad : History of Medieval India from 647 to the Mongol Conquest. Trad. Franç. Paris, 1930.

Rabi' : Political relations between the Safavids of Persia and the Mamluks of Egypt and Syria in the early sixteenth century.

(فى المجلة التاريخية المصرية ، ٢٦ ، ١٩٧١ ، ص ٣٧ ـ ٣٨)

: The financial system of Egypt. London, 1972.

: Bybars I. Encycloedia Britannica, 1974.

Raffray : L'Abyssinie. Paris, 1876.

Ravaisse : Essai sur l'histoire et sur la topographie du Caire d'après Maqrîzî. Mem. A.F. Paris, 1887.

Reinaud : Traités de commerce entre la République de Venise et les derniers Sultans Mamelouks d'Egypte. N.J. Asiatique 2ème Série. T. IV. Paris, 1829.

: Relations des voyages. Paris, 1845.

: De l'Art Militaire chez les Arabes au Moyen Age. Paris, 1848.

: Nouvelles observations sur le feu Grégeois. Ext. J.A. 1850.

et Favé : Feu Grégeois des Feux de guerre et des origines de la Poudre à canon chez les Arabes, les Persans et les Chinois Paris, 1845.

Répertoire chronologique d'épigraphe arabe I-XII. Le Caire (Sauvaget; Combe; Wiet).

Rey : Recherches géographiques et historiques sur la domination des Latins en Orient. Paris, 1877.

: Les colonies franques de Syrie aux XIIème et XIIIème siècles. Paris, 1883.

: Résumé chronologique de l'histoire des princes d'Antioche. Revue de l'Orient Latin, IV.

Richard Jean : Un partage de Seigneurie entre France et Memelouks. Les causes de Sûr; in Syria XXX (1953), p. 72-82.

Richardson : The doge of Venise, London, 1914.

Rieu : Catalogue of Persian Manuscripts in British Museum. London, 1879.

Rinck : Macrizi Historia regum Islamiticorum in Abysinia. Arabic text and Latin translation. London, 1790.

Risani : Documenti E. Firmani. Gerusalemme, 1937.

Rocca : Documenti del commercio veneziano. nes see XI-XIII, 2 vol. Torino, 1940.

Roche : Contribution à l'histoire de Songhay. Paris, 1951.

Rogers Bey : Le blason chez les princes musulmans de l'Egypte et de la Syrie. Le Caire, 1882.

Ruesch : History of the East Africa. London, 1954.

Sadeque : Babyrs the first of Egypt. Oxford, 1956.

Salibi : Liste chronologique des grands qadis d'Egypte sous les Mamelouks. R.E.I., 1957.

: The Banû Jamâ'a Dynasty of Shâfi'te Jurists. S.I., IX, Paris, 1958, p. 97 sqq.

Sarwar : History of Shah' Ismaâ'îl Safawi. Aligarh, 1939.

Sauvaget : Carvanserails Syriens du Moyen âge. II. Carvansérails Mamelouks. Reprinted from vol. VII, of Arts Islamica. 1940.

: La poste aux Chevaux dans l'Empire des Mamelouks, Paris, 1941.

: Décrets Mamelouks de Syrie, dans B.E.O.I.F. de Damas t. II (1932) p. 1-52; III (1933) p. 1-29; t. 12 (1947-8) p. 5-60.

: Noms et surnoms de Mamelouks J.A. t. CCXXVIII, 1950, pp. 31-58.

Schefer : La relation de l'Ambassade de Domenico Trevison auprès du Soudan d'Egypte en 1512. Paris 1864.

: Le voyage d'Outremer de Jean Thenaud. Paris, 1864.

Schregle : Die Sultan von Aegyptens Sarrarat ad-Durr ; in der arabischen Geschichtsschreibung und Literatur. Weisbaden, 1961.

Serjeant : The Portugeuse of the South Arabian Coast. London, 1963.

Setton : A History of the Crusades. London, 1967.

Sehabeddin Tekindag : Berkuk devrinde mamluk sultanligi. Istanbul, 1961.

Shaw : A History of the Crusades. London, 1967.

Shorter Encyclopaedia of Islam New York.

Shrine and Ross : The Heart of Asia and History of Russian Turkestan and the Central Asian Khanates from the earliest times. London, 1899.

Sobhy Yenni-Labib : Ein Brief des Mamluken Sultans Qâ'itbey an den Dogen von venedig aus dem Yahre 1473, dans Isl. 32/3, 1957, pp. 324-329.

: Geld und Kredit Studien zur Wirtschafts-Geschichte Aegyptens; in Mittelalter. J.E.S.H.O., II, 1959.

Spies : Ein in benutzter Bericht über die Mongolen, in Bagdad. in Isl., XI, 1965, p. 97-112.

Spuler : Die Goldene Horde. Leipzig, 1943.

: Die Mongolen in Iran. 2ed., 1955.

: Les Mongols dans l'histoire. Paris, 1961.

: Der mongalische Nomadism in einer lesshaften Geseli-

schfat die Golden Horde. B.E.O., 1978, XXX, p. 201 sqq.

Suryal Atiya : Egypt and Aragon. Embassies and Diplomatic Correspondence between 1300 and 1330. Leipzig, 1938.

: The Crusades in the Later Middle Ages. London, 1938.

: An unpublished Fatwa on the Status of Foreigners in Mamluk. Egypt and Syria. Leiden, 1953.

Stevenson : The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Storia Della Nubia Christiane. Rome, 1938.

Sykes : A History of Persia, 3ed. London, 1963.

Thomas G.M. : Diplomatarium Veneto—Levantierum in Monumenti. Storci, a Cura della Deputatione Veneto di Storia Patria. Venezia, 1880.

and Predelli : Diplomatarium Veneto - Levantinum, Venice, 1880-1899.

Thusane : Dejem Sultan. Paris, 1892.

Trimingham : Islam in the Sudan. London, 1949.

: Islam in Ethiopia. Oxford, 1952.

Tritton : The tribes of Syria in the fourteenth and fifteenth centuries. B.S.O.A., XII, 1948.

Umberto Rizzitano : Les Monuments islamiques d'Egypte vus par quelques voyageurs italiens. Cahier Série, IV. Dec., 1952, 275 sqq.

Van Berchem : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. I. Egypte, MIFAO, t. 19. Le Caire, 1894-1903, II Syrie,, t. 43-44. Le aire, 1922-1927.

Van Gennep : Le ducat venitien en Egypte. R.N. 1897, 373-394.

Vernadsky : The Mongol and Russia. New Haven, 1951.

Vlandimivtsov : The life of Tchingizkhan. Trad. Minorsky. London, 1930.

Van Hammer : Des Osmanischen Reiches Staatsverfossung und Staatsverwalting. Vienne, 1815.

Wiel : Sultan Nassir : Fragment de l'Histoire des Sultans Mamlouks d'Egypte s.d.

: Geschichte des Abbaside Chalifats in Egypte. vol. I Stuttgart, 1860.

: La Tourkmanie et les Tourkmènes. Paris, 1880.

Wiet : Les Secrétaires de la Chancellerie "Kuttab-el-Sirr" en Egypte sous les Mamlouks.circassiens. Paris, 1927.

: L'Egypte musulmane de la conquête arabe à la conquête ottomane. Le Caire, 1932, in Précis de l'histoire d'Egypte. vol. II, 1930.

: Les biographes du Manhal Sâfî. Le Caire, 1932.

: Une famille de Fabricants d'Astrolabes. B.I.E. " t. XXXVI, Le Caire, 1936.

: L'Egypte arabe, in Histoire de la Nation Egyptienne. IV. Paris, 1937.

: Des Princes Ottomans à la Cour d'Egypte. B.I.E. , t. XX, 1937-1938.

: Les Relations Egypto-Abyssines sous les Sultans Mamlouks. Bull. de la Société d'Archéologie Copte. IV, 1938.

: Une Inscription du Sultan Djakmak, t. XXI, 1938-1939.

: Répertoire des décrets Mamlouks de Syrie. Ext. des Mélanges Syriens t. II. Paris, 1939, p. 521-537.

: Réfugiés politique, Ottomans en Egypte. Arabica. Sept., 1954, p. 257- sqq.

: Histoire des Mamlouks Circassiens II. Le Caire, 1954.

: Les Marchands d'épices sous les Sultans Mamlouks. Le Caire, 1955.

: Un décret de sultan mamlouk Malik Ashraf Sha'ban II à la Mécque, in Mél. Massignon, t. III. Damas, 1957. p. 338-410.

Wittek : Turcs de Roum Byz, t. XI, 1936, 285-302.

: De la Défaite d'Ankara à la prise de Constantinople. Revue des Etudes, I, année 1938. Cahier I, p. 1-34.

Wolff : Geschichte der Mongoln der Tataren. Berslau, 1872.

Yusuf Fadl Hasan : The Arabs and the Sudan. Edimburgh, 1967.

Zananiri : L'Egypte et l'équilibre au Levant au Moyen Age (632-1517). Marseille, 1936.

Zetterstéen : Beiträge zur Geschichte des Mamlûken - Sultane. Leiden, 1919.

Ziada M. : The Mamlok Conquest Cyprus in the fifteenth century.

في مجلة كلية الاداب ١٩٣٢ ، ص ٩٠ ـ ١١٤ ، ١٩٣٤ ص ٣٧ ـ ٧ـ ٠
وقد ترجمها عبد الرحمن زكى ، بعنوان : المصريون في قبرس ، مجـــلة وزارة الدفاع ٠

: Foreign relations of Egypt in the 15th century. Thesis. Liverpoole, 1936.

and others : Documents of Mediaeval. Hist. Cairo, 1959.

Zimmern (H.) : Hansa Town. London, 1889.

(جـ) فهرس الاعـلام

تصويب الخطأ

الصفحة	السطر والهوامش	الخطأ	الصواب
١٨	٣	رشيفات	أرشيفات
	٩	الوثائيقية	الوثائقية
١٩	هامش (٣)	Barbay	Barsbay
	al-Ashrafi		al-Ashraf
	هامش (٤)	وثائقية	الوثائقية
	هامش (٥)	١٠٥ — ٠٢٤	١٠٥ — ١٢٤
٢٠	هامش (٢)	كمبردج	(٢)فى كمبردج
		فى لننجرا	فى لننجراد
٢١	١٠	التاسع الهجرى ٦/	التاسع الهجرى /
	١٣	لقصر	لمصر
٢٢	هامش (١)	ROR	ROC
	هامش (٥)	Cohen	Cahen
	هامش (٦)	1896, 3 vols	1896-1916
٢٥	٥	وقيذاك	وقتذاك
	هامش (١)	١٩٨٣/٩٩١	١٥٨٣/٩٩١
٢٩	هامش (٥)		
٣٠	٣	السودان	السودان الغربى
٣١	هامش (٣)	Abru	Abu

الصفحة	السطر والهوامش	الخطأ	الصواب
٣٢	هامش (٤)	اليوسفيه	اليوسفية
		وتحقيق	وتحقيق
	هامش (٥)	١٩٦٠ ،	وأخرى ١٩٧٦
٣٣	٤	لسيرة	فى سيرة
	٥	السلطانية	السلطانية الملكية
	٧	١٢٠٥	١٢٩٥
	هامش (١)	تراثنا	تراثنا ١٩٦١
	هامش (٣)		وظهر له تحقيق من عبد ضيف العبادى بغداد ١٩٨٤ (لم تستخدم).
٣٤	٥	التحفة المملوكية	التحفة الملوكية
	هامش (٢)	برقم ٣٤٢٠٩	٢٤٠٢٩
	هامش (٤)	١٩٥٤-١٩٦٦	١٩٥٤-١٩٦١
٣٥	١	١٢٣٢/٧٣٣	١٣٣٢/٧٢٣
	٥	١٣٣٤/٧٣٤	حوالى ١٣٣٦/٧٣٦
	هامش (٣)	برقم ٢٥٨٧	برقم ٢٥٧٨
	هامش (٧)	برقم ٩٩٥	برقم ٧٥٧٥
		عناه :	عنه :
٣٦	٨	الشاهير والأعلام	المشاهير والأعلام
	هامش (١)	برقم ١٩٥١	برقم ٢٩٥١
	هامش (٥)	القاهرة	القاهرة ١٨٩٨

الصفحة	السطر والهوامش	الخطأ	الصواب
٣٧	١	/١٢٤٩	/١٣٤٩
	٣	مسالك الأبصار فى أخبار ملوك	مسالك الأبصار فى ممالك
	٨	أبيك	أيبك
	هامش (١)		نشر كتاب يستكمله بعنوان : تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف ، تأليف ابن ناظر الجيش (ت ١٣٨٤/٧٨٦) ، Vesely ، ١٩٨٧ المعهد الفرنسى بالقاهرة .
	هامش (٢)	Paris	Paris؛ ١٩١٩–١٩٢٨
٣٨	٥	فى هذه	فى هذا
	١١	الأحكام والأمور	الأحكام فى الأمور
	١٢	غدرة	غادرة
	= هامش	قبر	قبو
	هامش (٣)	Is	Isl.
٣٩	هامش (٢)	برقم ٤٦٨١ أو ١٧١٩	٤٦٨٠ و٤٦٨١
٤٠	١١	عقد الانتصار	عقد الأمصار
	هامش (٤)	٥٢٢	١٥٢٢
٤١	هامش (٤)	١٩٣٤–١٩٥٨	١٩٣٤–١٩٢٩
	هامش (٥)	قانصوه	قانصوة
٤٢	هامش (٤)	أحق	الحق
٤٣	٦ و٧ ، ٨	(٣) ، (٤) ، (٥)	(٤) ، (٥) ، (٦)

الصفحة	السطر والهوامش	الخطأ	الصواب
	هامش (٣)	تاريخ	معارف عامة
		R.H. CH.Or	RH C.Or.
٤٤	هامش (٢)	١٩١٦-	١٩٣٦-.
	هامش (٢)		وظهر له تحقيق من قبل محمد محمد أمين، في جزءين، القاهرة ١٩٨٤-١٩٨٥ .
٤٦	هامش (٢)	١٣٥٣-١٣٥٠	١٣٥٣-١٣٥٤
٤٧	٤	القاهر	القاهرة
	(٦)	١٩٨١	١٨٨٤
٤٨	(٥)		كذلك كتاب : نزهة الأمم في العجائب والحكم(٢)
	هامش (١)		وتوجد الآن طبعة كاملة في خمسة أجزاء منه، القاهرة ١٩٦١-١٩٧٥
	هامش (٢)	أنظر California	
			مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم ٢٠٤٤٢ تاريخ
٤٩	١	ابن زنبل	ابن زنبل أحمد
	هامش (١)	في جزءين	في جزءين، رقم ١٧٧٦ تاريخ
	هامش (٢)	لأول	الأول
		بدار الكتب	بدار الكتب برقم ٧٢ تاريخ عام
٦٠	٨	Afansi Nikitun	A fanasi Nikitin
	هامش (٣)	Nikeitun Khozens	Nikitin Khozhenie
٥٠	هامش (٢)	٣٥٢	١٣٥٢
٥٣	٧	١٤٤٧/	١٤٥٠/
٥٧	هامش (١)	Hisariens	Historiens

الصفحة	السطر والهوامش	الخطأ	الصواب
٦٠	٨	الماتيك	المماليك
	١٩		Little
٦٣	هامش (٢)	متحة	منحه
٦٩	١٥	و يدفورانس	ر يدفورانس
٧١	١٥	بلده	بلدة
٧٧	١٠	إلى آيم	إلى أيبك
	هامش (٥)	Lame-	Lane-
٧٩	هامش (١)	المقمد	المقصد
٨٠	هامش (٤)	ص١٢٧٩-٢٧٨	٣٧٩-٣٧٨
١٣٤	هامش (١)	ابن الجزرى	الجزرى
	هامش (٤)	النجوم ١٢	النجوم ، ١
١٣٦	٤	بمظمهم	بمضهم
	١٠	القدمه	القدمة
	هامش (٢)	Qu	Qus
١٣٧	هامش (٥)	خيال الظل	خيال الظل واللعب
١٢٢	هامش (٤)	Riydb	Riyâh
١٤٤	هامش (٥)	ص ١١	ص ٥
١٥٣	١٤	سياسية	سياسة
١٥٩	١٢	وكما	كما
	هامش (١)	تاريح كزيده	تاريخي كوزيده
١٦٠	هامش (٢)	٩٤٩	١٩٤٩

الصفحة	السطر والهوامش	الخطأ	الصواب
١٦٢	هامش (٢)	تاريخ جهانكشاه	تاريخى جهانگشاى
١٦٣	هامش (٥)		تاريخى جهانگشاى
١٦٩	هامش (٣)	ابن القوطى	ابن الفوطى
١٧١	٦	دمشق (٥)	دمشق (٣)
	هامش (٤)	٤٥	٨٥٩/٢٤٥
		٧٧٣/٢٦٠	٨٧٣/٢٦٠
١٧٤	هامش (١)	المقريزه	المقريزى
١٧٧	هامش (٥)	تاويح	تاريخ
١٨٢	هامش (١)	t	t. I
١٨٥	هامش (٦)	الرياضى	الرياض
١٩١	هامش (٢)	ميرخند	ميرخواند
٢٤٩	آخر سطر	سبنو	سنبو
٢٥٤	هامش (١)	t	t I
٢٥٥	٦	أحرا	أحرة
٢٥٧	١٢	مهر عريان	وهو عريان
٢٦٩	هامش (٣)	102	1902
٢٧٠	هامش (٢)	٣ ص ٣٣	٣ص٣٣٩
٢٧٢	هامش (٢)	٢ص١٠٨	٢ص١٢٨
٢٩٨	هامش (٣)	١٣٣٢/٧٣٩	١٣٣٨/٧٣٩
		-٨٠٩/١٤٠٣-١٢٠٧	-٨٠٩/١٤٠٣-١٤٠٧
٣٠٥	٧	ابن الوازى	الرازى
	هامش (١)	ابن اليفنس	ابن النفيس
٣٣٦	١٧	من من	من

HISTOIRE POLITIQUE

de

L'Etat des Sultans Mamluks

en Egypte.

Etude analytique de l'épanouissement et du delcin.

Par

A.M. MAGUED

Docteur ès-Lettres de la Sorbonne.
Professeur d'Histoire Islamique de la Faculté des Lettres;
Expert National du Centre des Etudes papyrologiques
de l'Université de Ain-Shams
Et
Membre des Conseils Nationaux Specialisés.

1988

Published by :
THE ANGLO-EGYPTIAN BOOKSHOP
165, Mohamed Farid Street, Cairo, A.R.E.